مذكرات الرئيس

نكسون

الطبعة الأولى

١٤٠٣ . ١٩٨٣

دار حسان للطباعة والنشر

دمشق . ص. ب ٣٢١٨

مُذَكَرَاتُ الرَئِيس

نكسون

الحرب الحقيقية

نقله إلى العربية

الدكتور سهيل زكار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقَدمة

غالباً ما تثار في أيامنا هذه مسألة الترجمة إلى العربية، على أساس أن الاقدام على اختيار نصوص بعينها هو تأليف بشكل غير مباشر، فالمترجم أشبه بالمؤلف. حتى أنه مهما بلغت الترجمة من أمانة وعلمية فإن الكتاب المترجم يصبح مزدوج التأليف متأثراً بعاملين أولهما أساسي يعود إلى المؤلف والثاني فرعي يعود إلى المترجم. والإقدام على ترجمة كتاب ما يثير مسألة دوافع الاختيار هذه، التي قد تكون مادية تجارية ثقافية، أو رغبة المترجم في الحديث حول موضوع ما يجد من الجرج في بيئته ومجتمعه أن يتحدث عنه هو بشكل مباشر، فيلجأ آنذاك إلى الترجمة، ويقدم المادة للقارىء محاولاً التملص من المسؤولية بشكل مباشر على أساس أن «ناقل الكفر ليس بكافر» وهكذا يتحدث عن رغباته وأفكاره على لسان غيره.

قد يكون هذا كله صحيحاً إنما ليس بشكل مطلق، خاصة في البلدان النامية، وفيما يرتبط ببعض المواضيع الفكرية والفلسفية والسياسية والعقائدية وغير ذلك كثير. فالتأليف ليس مثل

الترجمة، الترجمة قد لا تحتاج إلا لمعرفة باللغة المنقول منها ودربة، لكن التأليف يحتاج إلى العديد من الأدوات ووقت مديد، وهذا قد لا يتوفر غالباً القسم كبير من رجال الفكر في البلدان النامية وسواها.

وفي حديث مع بعض الأساتذة الجامعيين، ونقاش حول سبل النهضة الثقافية للعرب وشروطها قال واحد من الاساتذة: نحن نحتاج الآن إلى أن تترجم ٦٠% ونحقق من التراث ٣٠% ونؤلف ١٠%، وقد يكون هذا الرأي صحيحاً من حيث المبدأ، إنما لا يمكن الأخذ بهذه النسب، والذي يمكن الأخذ به هو أننا نحتاج الآن إلى الترجمة واحياء التراث والتأليف جميعاً، ولا يجوز أن نعمل بالترجمة فقط، فنحن نريد الإطلاع على ثقافات سوانا وأفكارهم، لكننا لا نريد فقدان هويتنا، والانسلاخ من ذاتنا، والتنازل عن استقلالنا لنكون عالة على غيرنا، ثم إن الانصراف فقط إلى إحياء التراث لا يكفي فنحن نريد من التراث قاعدة للانطلاق نحو المستقبل وتعبيراً عن الاستمرارية الحضارية، لكننا لا نبتغي العيش في الماضي وإغماض أعيننا عن المستقبل وحاجاته، والتأليف الجديد ضرورة ملحة، وتجربة ينبغي رعايتها والعمل على تطويرها وتشجيعها.

ولقد التزمت بهذا المنهج بحيث وقفت وقتي كله على التحقيق لكتب من التراث والتأليف والترجمة، ولدي خطط أسعى إلى تنفيذها منفرداً حيناً ومتعاوناً حيناً آخر بشكل مباشر أو غير مباشر، وتسير هذه الخطط على محورين: واحد طويل الأمد وآخر سريع التنفيذ، فالمحور الطويل الأمد مخصص لإخراج بعض الكتب الكبيرة التي تحتاج إلى جهود متواصلة طويلة، والمحور القصير الأمد لاخراج دراسات وإن اتسمت بالعلمية، لا تحتاج إلى نفس المدة، ولا يتجاوز أحدها المجلد الواحد، والدوافع إلى هذه تلبية حاجات القارىء، وتأمين بعض جوانب التغطية المادية للمحور الأول الأساسي، فدون الوقوف عند مسألة الدخل والانفاق بالنسبة للاستاذ الجامعي يكفي أن أشير هنا إلى أنني غالباً ما أحتاج كل عام إلى ضعف المبلغ الذي أتقاضاه على شكل مرتبات من الجامعة، كيما أنفقه على تصوير بعض المخطوفات التراثية وشراء بعض الجديد من الكتب والدراسات، ذلك أن يعول الإنسان في رفده بالمواد الثقافية على المؤسسات الرسمية لدينا كمن يقرر أن الحضارات في البلدان النامية يمكن بناؤها على عواتق لجان المبايعات وإدارات الروتين القاتل.

لا شك أن رجالات الوطن العربي يولون الأمور الثقافية اهتمامهم، لكن الاهتمام بالشيء أمر، ورعايته والتفرغ له أمر آخر، فالساسة في الوطن العربي متفرغون لمسائل السياسة الداخلية والخارجية، وليس بينهم جميعاً من هو مثل هارون الرشيد أو واحد من الخلفاء والأمراء يمكنه أن يفرغ سويعات من وقته لسماع شعر الشعراء واللقاء برجالات الفكر، مع الأخذ بعين الاعتبار أن كل واحد من الساسة العرب يحكم قطعة من ولاية من ولايات هارون الرشيد، الذي كان يحكم دولة مترامية الأطراف إلى حد أنه كان يخاطب السحاب في السماء قائلاً: أمطر أينما شئت فسيأتيني خراجك...

إن علي في هذا الكتاب هو خروجي الثاني عن نطاق التخصص في التاريخ الإسلامي. للعمل في موضوعات من التاريخ الحديث والسياسة المعاصرة. وقد أقدمت على هذا نظراً لأهمية محتويات هذا الكتاب. ولمكانة مؤلفه الذي أمضى من عمره ثلث قرن يعمل من موقع صنع القرار في الولايات المتحدة.

ودور الولايات المتحدة الأمريكية بالنسبة لأحداث العالم المعاصر. وبشكل خاص بالنسبة لما يجري على الأرض العربية كبير وخطير جداً، وما زال يحضرني بعض المداولات التي جرت منذ أمد قريب في واحدة من جلسات الهيئة العامة لقسم التاريخ في جامعة دمشق. حين ألح بعض الأساتذة على ضرورة ايفاد معيد أو أكثر إلى الولايات المتحدة. لدراسة التاريخ الأمريكي. والتعرف عن كثب إلى العقبة الأمريكية، وإلى كيفية صنع القرار الأمريكي، ذلك أن مثل هذه المعرفة ستكون ذات فوائد كبيرة جداً.

إن القناعة التامة بصحة هذا الرأي كانت من الدوافع التي شجعت على اختيار هذا الكتاب، وترجمته إلى العربية، وتقديمه إلى القارىء العربي، وهذا الكتاب واحد من أخطر الكتب، وأكثرها أهمية، ولا بد لذلك أثناء قراءته من أن يكون القارىء على بينة من أن صاحبه ينطلق من أوله إلى آخره من منطلقات يراها أموراً مسلماً بصحتها، وأنها من البداهة بمكان، فهو يؤمن بالنظام الرأسمالي، والاعتماد على الفردية إيماناً مطلقاً وعميقاً جداً، وحيث أن النظام الاشتراكي مهما كان لو نه معاد ومعاكس للرأسمالية فهو [أي الرئيس نكسون] ضد الاشتراكية، وضد الآخذين بها، ثم لما كانت الشيوعية هي العدو الأساسي للرأسمالية والفردية، وحيث أن الاتحاد السوفييتي هو الدولة الشيوعية الأولى في العالم، فمواد الكتاب كلها تنصب في بوتقة واحدة، وموجهة في اتجاه واحد، ضد الاتحاد السوفييتي.

وحين نقرأ هذا الكتاب لا ننكر على صاحبه براعته ومقدرته، فهو رجل دولة شغل أدواراً كبيرة جداً، لكنه قبل كل شيء: أمريكي متعصب لنظام بلده الرأسمالي المستغل، وبتعصبه هذا يوهم القارىء بأنه يعتمد على مسلمة صحيحة وحقه، وهي في الواقع ليست بمسلمة. نراه مؤمناً بأن الولايات المتحدة تقف دائماً في الجانب الصحيح من الصراعات الدولية، وأن ما تمثله الولايات المتحدة في عالم اليوم يستحق أن يدافع، وهذا الفهم وإن حوى مشاعر وطنية، إلا أنها مشاعر شاذة، وأنانية تتطابق مع مقولة شعب الله المختار، فهو يتحدث مطولاً عن السلام، لكن السلام بالنسبة له هو سلام الرأسمالية والاستغلال، سلام على طراز عقلية الاقطاع في العصور الوسطى، علماً بأن السلام هو سلام الشعوب، وسلام الشعوب في حرياتها، وفي تملكها لطاقاتها ومصادر ثروتها، وليس السلام سلام المصالح الأمريكية؛ فهو حين يتحدث عن ضرورة الاستقرار والسلام في مناطق من العالم، مثل الوطن العربي، يفعل هذا لا من أجل المواطن العربي ومصالحه، بل على العكس، من أجل استمرار تدفق البترول العربي لتستمر الصناعة في الغرب ويزداد الرفاه الغربي،

فالسلام الأمريكي هو سلام حكام يدينون بالطاعة بشكل من الأشكال للإدارة الغربية بزعامة الولايات المتحدة، التي حباها القدر دون سواها بهذه الزعامة التي لا مندوحة عنها ولا مخرج...

ومثل هذه المفاهيم حول السلام هي مفاهيم مقلوبة، وعلى هذا الأساس يرى الرئيس نكسون في جميع الثورات أعمالاً عدوانية، وفي مساعدة الاتحاد السوفييتي لحركات التحرر في العالم تدخلاً استعمارياً، وعلى هذا الأساس نراه يتحدث عن زوال الامبراطوريات الاستعمارية، ويعتبر نشاطات الاتحاد السوفييتي أعمالاً استعمارية توسعية، وعلى قاعدة «يكاد المريب أن يقول خذوني» نراه يقذف الاتحاد السوفييتي بجميع التهم والأعمال التي اقترفها الاستعمار الأمريكي، فالسوفييت وإن ملكوا السلاح النووي لم يستخدموه قط، وأمريكا هي التي استخدمته، وتستخدم بشكل مباشر أو بالواسطة كل يوم سلاحاً فتاكاً جديداً.

والرئيس نكسون في كتابه هذا يرى في أعمال وحركات طلاب الجامعات وأساتذتها، حتى داخل أمريكا، والعالم الغربي، أعمال جنون وخروج على التعقل والسمو الأخلاقي، وهكذا فجميع الثوار بالنسبة له رجال عصابات، وعلى رأس رجال العصابات أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية، أما بيغن مثلا واسرائيل ورجال العصابات والقتل فيها، فهم الصحاب نظم ديمقراطي يدافعون عن الحرية السلام...

وعجب هذا!! أن يطرد الإنسان من أرضه ويشرد ويلاحق في كل مكان، فهذا عمل في سبيل السلام، أما أن يدافع عن نفسه ويحاول استرداد حقوقه، فهذا ضد السلام والحرية والديمقراطية، فالحرية بالنسبة لبطل ووترغيت هي حرية استغلال الشعوب، والديموقراطية هي ديموقراطية الاحتكارات.

لقد سبق لسبينوزا فيلسوف القرن السابع عشر أن قال في رسالته في اللاهوت والسياسة (ص ١٧١ من الترجمة العربية).

«إن سعادة الفرد، ونعيمه الحقيقي لا يكونان إلا في تمتعه بالخير، لا في فخره بأنه وحده الذي يتمتع به مع استعباد الآخرين، ومن يظن أنه حصل على سعادة أكبر، لأنه وحده في حالة طيبة، على حين أن الآخرين ليسوا كذلك أو لأنه يتمتع بسعادة أكبر، أو لكونه أسعد حظاً من الآخرين . مثل هذا الشخص يجهل السعادة والنعيم الحقيقي، فالفرح الذي يشعر به المرء نتيجة لاعتقاده أنه أسمى من الآخرين، إن لم يكن شعوراً طفولياً، فإنه لا ينشأ إلا من الحسد أو من القلب الحاقد، مثال ذلك أن الهناء الحقيقي وسعادة الإنسان لا يكونان إلا في الحكمة وحدها، ومعرفة ما هو حق، وليس على الاطلاق في أن يكون أحكم من الآخرين، أو في أن يكون الآخرون محرومين من الحكمة، لأن ذلك لن يزيد أبداً من حكمته الخالصة، أي من هنائه الحقيقي، فمن يفرح لذلك يفرح لشقاء الآخرين، ويكون حسوداً شريراً لا يعلم الحكمة الحقيقية، أو طمأنينة الحياة الحقة».

إن الولايات المتحدة بلد بلا عراقة حضارية، تنقصه التجربة، بلد وجد نفسه بلا مقدمات في موضع للزعامة، يتصدر دول العالم الغربي وسواها، فلم يحسن استغلال ذلك، وأخذ يعالج جميع

القضايا بمنطق الغطرسة الأعمى، أو بمنطق السلبيات التي لا ترى من جوانب القضايا إلاّ زاوية صغيرة محدودة فكل شيء بالنسبة لهذا البلد المسير من قبل أصحاب المصالح المادية، مرتبط بقضايا أرباحهم.

إن الغطرسة الأمريكية تسوغ للساسة الأمريكيين التدخل في شؤون سواهم الداخلية وسواها، فهذا يتم باسم الحرية وحقوق الإنسان، وهذه العبارات ما هي إلاّ نسخة مجددة «لرسالة الرجل الأبيض» التي حملها المستعمرون الأوربيون، واستعمروا بموجبها شعوب آسية وأفريقيا، وأبادوا تبعاً لها الشعوب المحلية للقارة الأمريكية.

ومن منطق الغطرسة الأمريكية نرى الرئيس نكسون يتحدث عن كل من اليابان وأوربا الغربية بصفة حليفين للولايات المتحدة، بالظاهر إنما تابعين يسيران في فلكها في الواقع، ولهذا نراه لا يستطيع، أو لا يرغب في التمييز بين التحرر الايديولوجي والتوسع الاستعماري والاحتكار والاستغلال، ويسمح لنفسه بالتدخل بشؤون الاتحاد السوفييتي وسواه الداخلية فيثير مثلا مسألة اليهود في الاتحاد السوفييتي، ناسياً أن هؤلاء اليهود في الأصل مواطنون سوفييت، من أصل خزري، ومتجاهلاً أن للدولة السوفييتية مثل غيرها الحرية المطلقة في فرض قوانينها الخاصة.

والمدهش هنا أنه يبيح لنفسه مثل هذا التدخل، ويدافع في نفس الوقت دونما تورع أو خجل عن حكم الأقليات العنصرية، ويقدم المسوغات لكل تصرفاتها اللاأخلاقية واللاانسانية، خاصة بالنسبة لجنوب أفريقيا وإسرائيل، فهو مع اسرائيل كلياً، وبالتالي ضد الأمة العربية وجميع أصدقائها والمتعاطفين معها.

ولا بد لنا هنا من أن نبين أن العرب هم أصحاب قضية أساسية، وصديقهم فيها معروف وكذلك عدوهم، والعرب يقدرون دور الصديق ويحمدوه، كما يرفضون كل أعمال العدو، ويسعون بكل الوسائل لدحر هذا العدو، ولهذا وغيره يسعى العرب نحو صنع الوحدة العربية القائمة على الحرية والعدالة، والتي تمكن العرب من استغلال مواردهم، والمشاركة العادلة في أحداث العالم.

من المعروف أن الرئيس نكسون هو في الأصل رجل محاماة، وكتابه الذي نقدمه للقارئ اليوم أشبه باطروحة دفاع عن متهم كبير هو الغرب بسجله الاستعماري الحافل، والنظام الرأسمالي بعدواته للشعوب، والطبقات الكادحة، وبحكم ممارسة الرئيس نكسون للعمل السياسي، وتسلمه لمنصب الرئاسة فترة طويلة، نراه في ثنايا كتابه وان التزم بصفة رجل المحاماة يخرق هذا الدور ويتجاوزه ليضع نفسه في مكان القاضي أحياناً، أو المتحكم بالقاضي والمهدد والمتوعد له، إن لم يحكم حسب رغباته.

ولا شك أن هذا السلوك معطل ومربك، ولذلك نراه من جانب يتحدث عن الأمم المتحدة، ويتهم السوفييت بأنهم لا يرون بأن الأمم المتحدة المكان المناسب لحل المشاكل الدولية، متناسياً من الذي نصب نفسه فقط لاحتكار حل مشكلة الشرق الأوسط، ويبدو من بعض الجوانب أن أطروحة الدفاع هذه كتبها الرئيس نكسون للدفاع عن نفسه أيضاً بعد فضيحة ووترغيت، فشدة

حملاته على الاتحاد السوفييتي التي ترتدي طابعاً وطنياً أمريكياً متطرفاً هي محاولة لرد اعتباره الذاتي ومكانته المفقودة...

وبهذه الوطنية المتطرفة مسعى لارضاء الغرور الأمريكي، وجهد لاشباع رغبات ذوي المصالح العليا، ولهذا نراه حين يتحدث عن أمريكا اللاتينية ويظهر المزيد من الاهتمام بها، يفعل ذلك لقربها من الولايات المتحدة ولكونها موقعاً استراتيجياً فقط، ولا يثير قضايا شعوبها ولا ما يتعرضون له، لأنه لو فعل ذلك لجاء مسعاه إدانة له وللولايات المتحدة، ولاعتبر بالتالي محامياً مخفقاً في مرافعته.

وبإيجاز إن في اطروحة الدفاع هذه، إعمالاً لا يجوز الدفاع عنه، نلاحظ الكثير الكثير منها، ولعله يكفينا هنا استعراض بعض النقاط التالية عرضاً سريعاً، ذلك أننا نعد مقدمة تقود القارئ إلى مطالع المسالك الصحيحة، دون التدخل في اجتهاداته أثناء سيره على الطريق حتى نهاية الكتاب:

. نراه لا يستطيع، أو لا يرغب، في التمييز بين التحرر العقائدي والتوسع الاستعماري، والاحتكار والاستغلال، ولهذا لم يستطع أن يستوعب أو لم يشأ أن يتقبل أن الشيوعية حركة عقائدية وثورة تستهدف الانتشار في كافة أنحاء العالم، ولهذا رأى في هذا الانتشار عملاً استعمارياً.

. يحاول في كثير من الأحيان الاستشهاد بحوادث من التاريخ، وهو حين يفعل هذا يتحامل، ويحرف، فيقع بالأخطاء المكشوفة، مثل حديثه عن أصل كلمة سلاف «صقالبة».

. يأخذ على روسيا محاولة التوسع في القارة الأمريكية في القرن الثامن عشر، ثم التاسع عشر، أيام التوسع الأوروبي هناك، وكأنما القارة الجديدة كانت منحة ربانية لسكان الغرب الأوروبي فقط...

. يقوم في أكثر من مناسبة بالدفاع عن الاستعمار البريطاني، ويعتبره رسالة حضارية، وهذا منطق عجيب، فهل الحضارة استغلال الشعوب والتحكم بها واقتلاعها من مواطنها لزرع شعوب دخيلة محلها كما حدث في فلسطين؟..

. تعرض للعدوان الثلاثي على مصر، وتوجه باللوم لعبد الناصر لأنه استمر يعادي أمريكا وإسرائيل، بدلاً من الصداقة والعرفان، واعتبر تدخل الرئيس ايزنهاور يومذاك غلطة تاريخية عظمى.

. نراه يحمل منظمة التحرير الفلسطينية مسؤولية إثارة الحرب الأهلية في لبنان /١٩٧٦/ متجاهلاً تركيبة لبنان الخاصة، والدور الذي قامت به الإدارة الأمريكية أيامه في تشجيعها للأقليات وخاصة بعض الموارنة لإقامة دولة مورانية قومية، باقناعهم أن الأنتماء المذهبي يكفي لأن يكون قاعدة لقيام حركة قومية، ومتعامياً عن دور إسرائيل في لبنان والمنطقة مع مسائل المساعدات المادية والأسلحة التي زودت بها الإدارة الأمريكية الكتائب اللبنانية، وواضح الآن للعيان أن حرب

لبنان الأخيرة استهدفت إخراج الجيش العربي السوري والقوات الفلسطينية من لبنان لإحلال قوات أمريكية وإسرائيلية محلهما، حيث يمكن تقسيم لبنان وتنفيذ خطط التوسع الإسرائيلي فيه.

. يوضح بكل صراحة أن الإدارة الأمريكية مع إسرائيل، ومع الحفاظ عليها، ويغالط فيقول بأن إسرائيل انتصرت على العرب في أربعة حروب، مع أنه تحدث في أكثر من مكان عن الجسور الجوية لإسرائيل، وعن استنفاره هو بالذات للقوى النووية وبقية الأسلحة التابعة للجيوش الأمريكية للتدخل في حرب ١٩٧٣.

. يقع مرة جديدة في التناقض فيهاجم الاستبداد في البلدان الاشتراكية من جهة، ومن جانب آخر ينادي بدكتاتورية ديموقراطية أمريكية، ويلح على زيادة سلطة وصلاحيات الرئيس الأمريكي، وينادي بالحد من صلاحيات الكونغرس، ويهاجم الصحافة الأمريكية بعنف وينتقد أعمالها وتصرفاتها، وخاصة موافقها أثناء حرب فييتنام.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن العرب بحاجة ماسة إلى تعلم دروس حرب فييتنام، ففي هذه الدروس ما يساعد على هزيمة إسرائيل وحاميتها وراعيتها الكبرى، أي الولايات المتحدة الأمريكية.

. نراه يلح على أهمية الصين وعلى دورها الذي يمكن أن تشغله، وهنا يسوغ كل المذابح التي وقعت في الصين أيام الثورة الأولى، ثم أيام الثورة الثقافية، ذلك أنه يريد تحالفاً صينياً أمريكياً يقف في وجه الاتحاد السوفييتي، والغاية تسوغ الواسطة لديه.

. يتحدث عن السلاح النووي، ومدى سلامة استخدامه لو انفردت به أمريكا، ومدى خطورته لوجوده لدى السوفييت، وعجباً لهذا فحين ملكت الولايات المتحدة السلاح النووي لوحدها استخدمته ضد الشعب الياباني، أما حينما ملكه السوفييت فقد ردعت عن استخدامه...

. يتحدث عن حاجة الغرب لبترول الخليج، ويقول بأن على حلف ناتو والولايات المتحدة حماية المصالح الغربية، متجاهلاً بذلك أن بترول الخليج هو بترول عربي ينبغي تسخيره أولاً وقبل كل شيء لخدمة مصالح العرب، كما ينبغي تصنيعه والاستفادة منه عربياً أولاً، وأنه آن الأوان لإلغاء حالة اقتصادية فرضها الغرب طويلاً، قامت على وجود بلدان منتجة للمواد الخام، وبلدان مصنعة ثم مصدرة للمصنع منه إلى البلدان المنتجة للاستهلاك، فالأرض العربية الحاوية لمختلف أنواع المعادن بات من الضروري تصنيع هذه المعادن فيها عربياً واستهلاك ما يحتاجه العرب منها، وتصدير الباقي، ذلك أنه لكل شعب من الشعوب الحق في استغلال خيراته التي حباه الله بها، فهذا هو العدل وليس من العدل أبداً أن تعيش أوربا وأمريكا مرفهة على حساب الموارد العربية، وموارد الشعوب الأخرى.

ومفيد هنا أن نشير إلى أن الرئيس نكسون تحدث مراراً وتكراراً عن منطقة الخليج، وأشار إلى شاه ايران وأطراره وهاجم الثورة في إيران، وأوحى بخطط لضربها ولايقاع الحرب بين شعوب الخليج، الصورة القائمة الآن أمام كل مشاهد.

. يتحدث الرئيس نكسون عن مصالح حيوية في البحار للولايات المتحد والغرب، يدعوها مشروعة، ويرى في النشاط السوفييتي في البحار تهديداً للسلام وعملاً عدوانياً، وهذا منطق مرفوض.

. يدافع عن منطق التسلح الغربي، وينادي بضرورة تفوق الغرب المطلق في ميادين السلاح، وأنه ينبغي الحيلولة دون تسلح الشعوب، ودون تعادل الاتحاد السوفييتي مع الغرب في السلاح، وطبعاً إن هذا المنطق هو الذي فرضته الولايات المتحدة في الشرق الأوسط حيث عملت على تفوق إسرائيل على العرب قاطبة، وحولت إسرائيل إلى ترسانة كبيرة، وقاعدة للعدوان، ونراه يدافع عن سياسة بيع الأسلحة الأمريكية، ويشجع على إرسال السلاح إلى جميع الحكومات الرجعية التي تدور في فلك السياسة الأمريكية، ورغم هذا كله نراه يتجرأ على قول الباطل فيعلن: «ليس هناك تقريباً حالة واحدة في سجل الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية، قامت بها الولايات المتحدة بتقديم أسلحة لبلد، واستخدمت من قبل ذلك البلد لأغراض عدوانية، أما الأسلحة السوفييتية فهي التي كانت تستخدم دائماً لضرب السلام».

إن سجلات تاريخ العرب الحديث والمعاصر وشهادات جميع الموظفين العرب، مع محاضر جلسات مجلس الأمن والأمم المتحدة تدحض هذا وتبين أنه ادعاء باطل وافتراء محض.

لعله يكفي عرض هذه النقاط، فأنا كما أشرت من قبل أقدم الآن لكتاب مترجم، والمقدمة أستهدف منها إنارة السبيل أمام القارئ العربي، ليحسن التعامل مع محتويات هذا الكتاب، وليدرك أيضاً أنه كلما ازدادت معرفة المرء بسبل الشر، وطرائق العدوان كلما ازداد تمسكه بالخير ودروبه، وتصديه للعدوان وأهله، ومعرفة الشر منجاة وضرورة للحياة، وقديما أوصينا بتعلم السحر دون أن نعمل به. والله ولي التوفيق وله الحمد والمنة والصلاة والسلام على نبينا وهادينا إلى الحق محمد رسول الله وعلى أله وأصحابه أجمعين.

٢٢ جمادي الآخرة ١٤٠٣هـ

دمشق: ٥ نيسان ١٩٨٣ م

سهيل زكار

الفصل الأول

قبل فوات الأوان

« يمكن تلخيص تاريخ الاخفاق في الحرب بكلمتي «فوات الأوان» فوات الأوان على استيعاب الغاية المميتة لعدو قوي، وفوات الأوان على التأكد من الخطر المميت، وفوات الأوان على الاستعداد، وفوات الأوان على توحيد كافة القوى الممكنة من أجل المقاومة، وفوات الأوان على الوقوف مع الصديق».

الجنرال دوغلاس ماك آرثر

بينما أقوم بإعداد هذا الكتاب، يكون قد مضى ثلث قرن من الزمن على بداية دخولي إلى الكونغرس، وخمس سنوات قد مرت على استقالتي من منصب رئيس الجمهورية.

فعندما استقلت من منصبي إياه تركت عملاً دون أن أنجزه، وهو يعنيني ويهمني أكثر من أي شيء انشغلت فيه في عمري، ألا وهو: إقامة «بنية سلام» جديدة من شأنها أن تحول دون وقوع حرب كبرى وأن تحافظ في الوقت ذاته على أمن العالم الغربي في ميزان هذا القرن.

ومنذ ذلك الحين أخذ مركز الولايات المتحدة، بالمقارنة مع مركز الاتحاد السوفييتي، يتردى بشكل بالغ الخطورة، كما أن الخطر على العالم الغربي قد زادت حدته لدرجة كبيرة، ولا زال بالإمكان إتمام «بنية الإسلام» تلك، ولكن بناءها سيكون أصعب الآن، وإن الوقت اللازم لذلك قد أصبح أقصر مما كان عليه من قبل.

وكنت قد بينت وبشكل مسهب، منذ استقالتي، الطرق التي تبدل بها العالم، خلال مدة الثلث قرن من خدمتي في ميدان الحياة العامة، والطرق التي لم يتبدل بها، كما أنني قد تحدثت مطولاً عن التحديات التي واجهها وسيواجهها من خلفوني في رئاسة البلاد.

فالرئيس الأميركي يتمتع بسلطة هائلة، وإن مصير الغرب يعتمد على حنكته وحسن استخدامه لهذه السلطة، وبمقدور الرئيس أن يستخدم سلطته بفاعلية بالغة الأثر، إذا ما أدرك الشعب الأمريكي ما الذي يواجهه رئيسه، ولماذا تقتضي الضرورة استخدام القوة الأمريكية، وإذا ما تجاوب معه شعبه وشاركه في الحفاظ على أمن الغرب والسلام في العالم، ولن يكون بوسعه أن يحقق ذلك بمفرده، كما أنه لن يستطيع تحقيقه البتة إذا ما سدت العقبات طريقه.

لقد كانت أميركا خلال السواد الأعظم من مدة رئاستي، تخوض غمار حرب مريرة في فيتنام، كما أننا كنا، طوال مدة رئاستي، متورطين في «حرب» مع الاتحاد السوفييتي، وإن هذا الصراع مع السوفييت سيواصل تصدره للأحداث العالمية خلال المدة المتبقية من القرن الحالي.

ويتركز هذا الكتاب، في الواقع، على ذلك الصراع، وعلى الطرق التي يجب استخدام القوة الأميركية بموجبها من أجل كسبه، وهكذا ليس باستطاعتنا أن نكسبه ما لم نفهم طبيعة القوة، وسبل استخدامها، وإن خصومنا يدركون ذلك تمام الإدراك.

لقد سبق لي وتعاملت بصورة مباشرة، وبكلل أحياناً، مع زعماء الاتحاد السوفييتي والصين وأوروبا والبلاد المتطورة والنامية في سائر قارات العالم، ولقد استخدمت كلاً من القوة الديبلوماسية في معالجة القضايا العالمية ورأيت كيف يستخدمها الآخرون، كما أنني واجهت الإرادة الفولاذية لقادة الكريملين، وترتب علي أن أقابل تصميمهم بعزيمتي الخاصة، ولقد أدركت بأنهم يعرفون ماذا يريدون، وأنهم لن يترددوا في اللجوء إلى أية وسيلة لنيله.

إن كتابي هذا صرخة من القلب موجهة ليس لقادتنا السياسيين فحسب، بل إلى القادة في مختلف ميادين الحياة لكي يعقدوا العزم قبل فوات الأوان، ويعززوا قوى أميركا بحيث يضمنوا لها البقاء.

فالاتحاد السوفييتي في يومنا هذا، يعتبر أقوى قوة مسلحة توسعية عرفها العالم، وإن تعاظم بناء قواته المسلحة يسير بخطى تقارب ضعف ما يسير عليه بناء القوات الأميركية، ولم تعد النوايا السوفييتية خفية على أحد، أجل إن قادة الكريملين لا يريدون الحرب، لكنهم يريدون العالم وإنهم يمضون حثيثاً للوصول إلى مركز يمكنهم من تحقيق غاياتهم.

في الثمانينات، ولأول مرة في تاريخها الحديث ستواجه أمريكا حقيقتين مرتين: أولاهما: إذا وقعت الحرب فإننا قد نخسرها، وثانيتهما: قد نهزم بدون حرب. وإن مواجهة الحقيقة الثانية أكثر احتمالاً للوقوع وليست أقل منها، هولاً، فالخطر الذي يواجه الغرب، خلال ميزان هذا القرن، أقل فيه خطر كارثة نووية، من الإنجراف إلى موقع نجد أنفسنا فيه أمام الخيار بين الاستسلام أو الانتحار أي إما أن نصبح حمراً أو نواجه الموت مراً، ومع هذا كله ما زال بالإمكان درء الخطر، لكن الوقت الذي يمكننا فيه تفاديه، يسير بسرعة.

وإن العقدين القادمين من الزمن، يمثلان زمن ذروة الأزمات بالنسبة لأميركا والغرب، حيث أن مصير العالم لأجيال قادمة سيتحدد خلال تلك الفترة.

إن لدى الأمم الأخرى من الخبرة الطويلة أكثر مما لدينا في مجال استخدام القوة، للمحافظة على السلام، لكن مثل تلك الأمم لم يعد لديها القوة، وهكذا فإن العالم، مضطراً، يتطلع إلى الولايات المتحدة، يتطلع إليها بهلع، طالما أن المتاريس في وجه التوسع السوفييتي تنهار في بلد تلو الآخر، بينما تبدو الولايات المتحدة ضائعة في دوامة القلق أو مشلولة بالأحتشام، أي أنها إما غير قادرة، أو غير راغبة في القيام بأي عمل حيال ذلك.

فالمطامح السوفييتية تضع الولايات المتحدة أمام تحد استراتيجي، ذي زنة عالمية، الأمر الذي يستدعي تجديد الوعي، والاستجابة الاستراتيجيين. فالأمر، والحالة هذه، يتطلب استراتيجية وطنية متماسكة قائمة على دعم الرأي العام ذي الإطلاع الكامل على مجريات الأمور، ولم يعد كسب الوقت من أجل السلام يجدي نفعاً، فقد أصبحت كل من: أنغولا وأثيوبيا وأفغانستان، واليمن الجنوبي، وموزا مبيق ولاوس، وكمبوديا، وفييتنام الجنوبية جميعا تحت السيطرة الشيوعية منذ عام ١٩٧٤، أي أن حوالي ١٠٠ مليون نسمة قد أصبحوا خلال السنوات الخمس الأخيرة يخضعون

للسيطرة الشيوعية، أما إيران فقد غاصت في بحر من الاشتباكات الدامية، وتحوّلت بين عشية وضحاها من حصن للقوة الغربية إلى مرجل يغلي بعدائه للغرب، وأصبحت كنوزها النفطية معرضه لشهوات الروس، الذين وجهوا أنظارهم إليها. وتقوم كوبا، بدورها، بشكل متزايد، بدور الوكيل لتحقيق المطامح السوفييتية الواسعة النطاق، وليست تلك سوى أمثلة على كيفية مواصلة سقوط هذه الأجزاء، إذا ما اتخذنا موقفاً مهادناً، لذلك ينبغي علينا أن نسترد مصادر قوانا السياسية الشاملة، ونسيطر على مواردنا، ونسرها ونستخدمها وفق تقاليد قوة عظمى.

لقد ولى عهد الامبراطوريات الاستعمارية القديمة وإن الإمبريالية السوفييتية الجديدة، تتطلب وجود قوة تضعها تحت المراقبة، وليس بمقدور الولايات المتحدة أن تقوم بذلك لوحدها، وإنما بدون قيادة قوية وفعالة تتولاها الولايات المتحدة فإن القيام بذلك لن يتم إطلاقاً، إنه لم يعد بوسعنا أن نركن إلى المزيد من التاريخ واكثار الكلام، فإما نتصرف كقوة عظمى أو سنتدنى لمستوى قوة صغرى، ولكن يكون ثمة بقاء لنا إذا ما انحدرنا لذلك المستوى، كما أنه لن يكون ثمة بقاء للحرية والقيم الغربية.

ولكي يكون ردنا على التحدي السوفييتي فعالاً، ينبغي أن يشتمل على إجراءات طويلة الأجل، وأخرى قصيرته، وفضلاً عن ذلك يجب أن يشتمل ردنا على مستويات مختلفة: عسكرية واقتصادية وفلسفية وسياسية، وديبلوماسية، ولا بد لنا أيضاً من أن نميز العلاقة التي تربط بين ما يحدث في آسيا وما يحدث في الشرق الأوسط، وبين الموارد الاستراتيجية وأنماط التجارة العالمية، وبين الانتاجية الاقتصادية والقدرة العسكرية، وبين الالتزام الفلسفي والإرادة الوطنية، وبين الإرادة الوطنية وفاعلية القوات العسكرية للأمة في الحيلولة دون وقوع النزاع.

إننا في حالة حرب، كما أننا متورطون في صراع جبار يتحدّد فيه مصير الاسم، فاستسلام موقع في الحرب دون تعرضه لاطلاق النار لا يجعل الاستيلاء عليه، في الواقع، أقل نصراً لطرف، مما هو عليه كهزيمة للطرف الآخر، ففي الوقت الذي يتقدم فيه الاتحاد السوفييتي باستخدام قوات تقوم بدور الوكيل عنه، تظل عمليات الاحتلال بمثابة انتصارات سوفييتية، وهزائم غربية.

ويواصل الاتحاد السوفييتي بناء قواته العسكرية ويزيد من قدراتها وذلك منذ الحرب العالمية الثانية، كما أن الضغط التوسعي السوفييتي يسير دون توقف منذئذ، ولقد دأبت موسكو، دون انقطاع على الاصطياد في المياه العكرة، التي خلفها نزع التسلح في الامبراطوريات الاستعمارية القديمة، فلقد ضربت الحصار على برلين، وحرضت الثورات في أميركا اللاتينية وآسيا وأفريقيا، وآزرت كوريا الشمالية وفيتنام الشمالية في اعتداءاتهما، كما أنها دربت وساعدت رجال العصابات (الأنصار)، ومولت الانقلابات، وأطلقت النار على اللاجئين، وسجنت المعارضين في الرأي، لقد هددت وتوعدت وحاكت المؤامرات ورشت وكذب واختلست، وقامت بأعمال الإرهاب والخداع والتعذيب والقتل، وقد ارتكبت كل تلك الأعمال جميعها كمسألة سياسية وطنية وعن عمد.

فالقاعدة الأساسية للسلوك السوفييتي، كانت قد وضعت من قبل لينين، قبل سنوات عديدة، وهي تقوم على النحو التالي: اقذف بالحراب، فإذا ما جوبهت بالفولاذ انسحب وإذا ما جوبهت بالرغاء وأصل تقدمك، والسؤال المطروح الآن هو: ترى ما الذي سيقابل به السوفييت الفولاذ أم الرغاء؟

والجواب على هذا السؤال يكمن لدى القيادة الأميركية إنما ليس لدى قيادتها السياسة فقط. ولا شك أن في نوعية نظرة الرئيس الأمريكي العالمية، ومدى فهمه واجادته لاستخدام السلطة، وتمرسه بالأساليب الدبلوماسية، وحيازته للرؤية الاستراتيجية، والحنكة والإرادة، لا شك أن جميع هذه الأمور تعتبر عناصر حيوية، بل لا بد منها من أجل تنفيذ ذلك، بيد أن الجواب على نطاق أوسع، يكمن في أيدي تلك الفئات من القيادة الأمريكية ممن تشكل موافقها حدود الممكن للسياسة الأميركية.

فأميركا، لسوء الطالع، ما زالت تعاني مما ورثته من الستينات حيث أن موجة مسعورة مناوئة للتعقل كانت قد اجتاحت جامعات البلاد آنئذ، كما أن التحرر قد ساد على السمو، ودرجت ظاهرة التهجم على كل ما يمثل النظام القائم، وهكذا فقد كان لفوضى ذلك العقد الزمني وعواقبه أثرها البالغ في اضعاف مقدرة الأمة على تحمل مسؤولياتها في العالم، ليس من الناحية العسكرية فحسب، بل في مجال قدرتها على القيادة أيضاً.

ومن غريب الصدف أنه بالرغم من أن موجة اللاعقلانية قد أفسدت الجامعات، فإن الستينات شهدت أيضاً قيام ظاهرة جديدة من «العقلانية» سادت بين صفوف الكثير من أولئك الذين أخذوا يفكرون، فقد طرحت الفكرة القائلة بأنه: فوق حد أدنى معين، كلما قلت القوة العسكرية كلما أصبح الوضع أفضل. وانبعث الأمل بأنه إذا ما حدت الولايات المتحدة من أسلحتها، فإن الآخرين ـ خاصة السوفييت ـ سيحذون حذوها، بيد أن السوفييت لم يعملوا وفق هذه النظرية، وفي الحقيقة في الوقت الذي أخذ فيه مبدأ الحد من الأسلحة يلقى رواجاً بين صفوف رجال الفكر الأميركيين، الذين أخذوا بدورهم، يحققون نفوذاً، كانت الخطط الخمسية السوفييتية تعج بزيادات النفقات العسكرية، وكانت تلك الزيادات، بما لا يدع مجالاً للشك، مقترنة بأهداف استراتيجية متماسكة، ولم ينهمك السوفييت من جانبهم في الغوص في النظريات، بل اتجهوا نحو تحقيق السيادة.

وهناك العديد ممن يمضي إلى القول، هذه الأيام، بأن المدنية الأميركية تعاني من مرض نهائي، وأننا نشهد بداية نهاية الغرب، هذا وإن بعض قادة الرأي الأميركي ينظرون إلى ذلك نظرة ملؤها اليأس. أما البعض الآخر، وخصوصاً أكثر الطبقة المثقفة سوداوية ينظرون إلى ذلك كنتيجة منطقية، ومستحقة لكوننا في الجانب غير المصيب، كالتعريف الكلاسيكي لصيد الثعلب «ما لا يقال في ملاحقة ما لا يؤكل»، فهم ينظرون إلى أميركا بمثابة المعتدي الذي يؤيد الظالم ويدعمه، وكما فعل الكاتب المسرحي يوجين أيونيسكو في أعقاب زيارة قام بها مؤخراً للولايات المتحدة، عندما وصف المثقفين الأمريكيين بقوله أنهم يميلون لأن يصبحوا «شهوانيين يتلذذون بالاضطهاد ويريدون أن يلاموا عن كل شيء خاطئ في العالم».

وعندما قال لأصدقائه من الليبراليين الأميركيين، بأن الولايات المتحدة ليست من السوء مثل الأمم الأخرى: «نظروا إليه شزراً بطرف أعينهم، إذ أنه لكي يقابل المرء بالترحاب في أمريكا عليه، قبل كل شيء ألا يقول أبداً بأن الأمريكيين ليسوا أسوأ المجرمين بحق الإنسانية».

إن الذي تعاني منه أمريكا، فعلاً ليس مرضاً نهائياً بحد ذاته، بل نوعاً من الشلل الزاحف، الذي قد يصبح نهائياً ما لم يعالج، فنحن مع حلفائنا في العالم الغربي مجتمعين نمتلك القدرة على البقاء، وعلى الأزدهار، ورد التحديات التي تواجه أمننا، والتي تتعاظم بقوة متزايدة، والمسألة تكمن هنا فيما إذا كنا سنستخدم تلك المقدرة.

فالأمم تحيا وتموت بالطريقة التي ترد فيها على تحديات معينة تواجهها، وقد تكون تلك التحديات إما داخلية، أو خارجية، كما أن الأمة قد تواجهها منفردة أو بالاشتراك مع أمم أخرى، وقد تأتي تلك التحديات بصورة تدريجية، أو بصورة مباغتة. فليس ثمة قانون حصين في الطبيعة على أن الظالم وحده سينال العقاب أو أن العادل سيسود، ففي حين أن القوة لا تحق الحق بالتأكيد فإن الحق بحد ذاته لا يحق القوة، فالوقت الذي تتوق فيه أمة من الأمم إلى اليسر، قد يكون في اللحظة التي تستطيع فيها بأسهل ما أمكنها أن تلقي السلاح، وقد تكون اللحظة التي أقصى ما ترغبه فيها تلبية متطلباتها الداخلية، هي ذاتها التي تكون بأمس الحاجة فيها، بل أحرج اللحظات التي يتوجب عليها أن تواجه فيها تهديداً خارجياً، والأمة التي تحافظ على بقائها هي الأمة التي تنهض لتلبية نداء تلك اللحظة، أي التي تكون لديها الحكمة في تمييز التهديد، والإرادة على درئه، والتي تفعل كذلك قبل فوات الأوان.

فالفكرة الساذجة القائلة بأنه بمقدورنا أن نحافظ على الحرية بارتشاح الإرادة الطيبة ليست سخيفة فحسب بل إنها تنطوي على خطر بالغ، وكلما إزداد عدد المتمسكين بها كلما أصبحت أكثر اغراء للمعتدي.

وهكذا فإن الغاية الأساسية لموضوع هذا الكتاب هي أن الغرب اليوم قد اجتاز عتبة الحقبة الزمنية لأزمة حادة، حيث أضحى بقاؤه خلال القرن الحادي والعشرين مهدداً بصورة مباشرة بخطر محيق، إننا نملك المقدرة المادية والاقتصادية، والقوة التكنولوجية لكي نسود، أي للمحافظة على حريتنا، وتفادي وقوع حرب كبرى، لكن المقدرة وحدها ليست كافية، فقد عرف السير روبرت تومبسون، الخبير البريطاني في حرب العصابات «الأنصار»، القدرة الوطنية بشكل لاذع على أنها جداء القوة البشرية مجموعة مع الموارد المتوفرة، ومضروبة بالإرادة، فالقوة البشرية والموارد في حوذتنا، ولكن ترى هل لدينا الإرادة لاستخدامها؟

ومهما يكن من أمر فإن الوضع الحالي ينذر بالسوء، ويذكرنا بالفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية التي كان وولتر لبمان قد وصفها وصفاً محسوساً بقوله:

«لم يكن أبناء الشعب الأميركي على استعداد لا على صعيد تفكيرهم، ولا على صعيد مؤسستهم العسكرية، هل يمكن تسخير الديمقراطيات وتجميعها استعداداً للتجربة القاسية؟ حقاً كانت

لديهم الإمكانات المتفوقة، ولكن ترى هل كانت لديهم الرؤية والنظام، من أجل الحفاظ عليها، والقرار من أجل المضي بها قدماً؟ ترى هل كانت لديهم الإرادة والمعرفة أيضاً، رغم أن الوسائل قد توفرت لهم؟ لقد كانت لديهم ردود فعل على الأحداث، لكنهم لم يتحكموا بها، لقد رفضوا أخذ ما رأوه، ورفضوا الاعتقاد بما سمعوه، لقد رغبوا وانتظروا يأملون ضد الأمل».

إن هناك مظهرين اثنين للإرادة الوطنية: هناك إرادة تبديها الأمة ذاتها، وإرادة يتصورها خصوم الأمة، ففي مجال درء التحدي النهائي تعتبر الإرادة الثانية بأهمية الإرادة الفعلية، وعلى الرغم من أن الرئيس الأميركي قد يصدر أمراً يقضي بتوجيه ضربة نووية فقط في أقصى حالات إرغامه على ذلك، فإن زعماء الكريملين يضعون في حسبانهم بشكل دائم أنه قد يفعل كذلك، وأنه إذا ما استدعت المصالح الحيوية الفعلية للأمة أو للغرب استخدام السلاح النووي قد يفعل ذلك، وإذا كان ينبغي منعهم بشكل فعال عن القيام باستفزاز نهائي، فعليهم أن يتصوروا بأن مثل هذه الاستفزاز يحمل في طياته المغامرة الأخيرة.

فالإرادة الوطنية تتضمن أكثر من مجرد الاستعداد لاستخدام القدرة العسكرية، نووية كانت أم تقليدية، إنها تشتمل على الاستعداد لتسخير الموارد اللازمة للحفاظ على القوة، كما أنها تشتمل على نظرة واضحة إلى حيث تكمن الأخطار، وما هي أنواع الردود اللازمة لمواجهة تلك الأخطار، وتشتمل أيضاً على إيمان أساسي، لا شائبة فيه، بأن الولايات المتحدة في الجانب المصيب من الصراع، وإن ما نمثله في العالم يستحق أن يدافع عنه.

ولكي تكون الإرادة فعالة ينبغي لها أن تشتمل بالضرورة على الاستعداد للتضحية إذا ما اقتضى الأمر . في سبيل تأجيل الأهداف التي يرغب بمجرد تفضيلها على الأهداف الجوهرية، وكذلك التضحية لدفع ثمن الدفاع، ولتحمل الأخطار، واستياء الدوائر الانتخابية داخل البلاد والأصوات المبحوحة في الخارج.

ولا بد من الإشارة إلى أن إخفاقات أميركا في السنوات الأخيرة قد جاءت من جهة واحدة، نتيجة للسأم بعدما يقرب من أربعين عاماً لتحملها أعباء زعامة العالم، كما أنها جاءت من جهة أخرى نتيجة للرضوض التي خلفتها حرب فييتنام وقضية ووترغيت، بيد أنها بشكل أساسي تعكس اخفاقات طبقة القيادة في أميركا، فكثيرون من أولئك الذين يطمحون لأن يصبحوا حماة مثلنا العليا، قد أصبحوا، بدلاً من ذلك، واضعي خطط تقهقرنا .

ولا يمكن أن يكون الجواب على ذلك باستبدال طبقة قيادية بأخرى، فإن مثل هذا الأمر لن يحدث، والأفراد قد يتبدلون كما أن حزباً سياسياً قد يخسر المعركة أمام حزب آخر، وقد تدخل إلى الطراز العقلاني فئات، وتخرج منه فئات أخرى، ولكن ما هو جوهري هو أن تلك الفئات التي تتطلع إليها الأمة من أجل القيادة، ستظل على ما هي عليه خلال هذين العقدين الحرجين من الزمن، والذي ينبغي علينا أن نفعله هو تنبيه أولئك الذين يمارسون القيادة واتعاظهم لكي يتحملوا مسؤوليات القيادة.

في عام ١٩١٩ قام لنكولن ستيفنس الخيالي الحالم بزيارة إلى الاتحاد السوفييتي، وأخذته البهجة، فكتب يقول: «لقد زرت المستقبل البراق ويا لعظمته»، وفي عصرنا هذا، قام محررون حالمون آخرون بتمجيد «العوالم الشجاعة الجديدة» لصين ماو، وفييتنام، وكوبا؛ فإن اضفاء الصفة الرومانتيكية على الثورة، والإخفاء المتعمد للخسائر البشرية، التي يسببها الاستعباد طالما أنه يتحدث بلغة اليسار الثقافية، يتسلل إلى صفوف أولئك الذين يحررون الصحف ويقومون بالتعليم، كما أنه يترك صوراً خطيرة في أذهان الملايين ممن يقرأون ويصغون.

فالثورة بحد ذاتها ليست في أصلها خيراً ولا شراً، بيد أن ما تواجهه الولايات المتحدة اليوم هو تقدم الاستعباد الذي يسير في ظل رايات الثورة: إنها ثورة تسعى لاستبدال الديمقراطية بالاستبداد باسم «الشعب»، غير أنه ليس لرأي الشعب في تلك «الديمقراطيات الشعبية معنى» فلا صوت لأبنائه ولا حرية لهم ولا خيار لهم.

لقد بنى الاتحاد السوفييتي أقوى آلة لصنع الحرب، سبق لأية قوة عدوانية أن امتلكتها، ولم يكن قيامه بذلك لمصلحة . أو باختيار . الشعب الروسي بل لتوسيع سيطرة قيادة الكريملين، ولسوء حظ الغرب فإن جزءاً من مؤسسة الثقافة الأميركية بما في ذلك العديد من ينتمون إلى مؤسسة رجال الأعمال، ينزلون إلى مستوى التحدث باللغة التي يستخدمها الكريملين ودعاته، وتماماً كما يعرف الخصم كيف يثير نهم ضحيته ويخدعها بأهمية الذاتية فإن الكريملين يعرف كيف يعزف على وتر مثالية أهدافه الروماتيكية، وعلى وتر أحلامه الواسعة في تفسير كافة المجتمعات حسب تخيله الخاص.

فبعد أن أصبحت أفريقيا الآن بوتقة لمناورة قوة عظمى، ليس باستطاعتنا أن نترك سياساتنا الأفريقية رهينة للذكريات المريرة، التي ما زالت عزيزة على قلوب أولئك الذين ناضلوا في سبيل تحقيق المساواة العرقية في أميركا. وليس في مقدورنا أن ندع أفريقيا تصبح مسرحاً يعرض الأمريكيون عليه صدماتهم النفسية، وعلينا أن نعتبرها بمثابة أرض معركة استراتيجية هامة وحيوية، خلقتها المغامرات السوفييتية، كما ليس بمقدورنا أن نتجاهل أي جزء من العالم ونعتبره بعيداً عن اهتمامنا وعن اعتنائنا به، فلقد اتضح ذلك الآن، وأصبحت صورته ظاهرة مكشوفة مع بداية الثمانينات، إثر الأحداث التي وقعت في أفغانستان.

إنما وقع في أفغانستان يشكل مهزلة تدعو للسخرية، سيما وأن الصحفيين الأمريكيين يشيرون منذ سنوات، بشكل منتقص، إلى تحاليل الاتجاهات في الأراضي القاصية على أنها «مبدأ أفغانستاني». فلقد عوملت أفغانستان . تلك الأرض المقفلة براً، والمنطقة الجبلية القاسية التي تقطنها قبائل بدائية صلابة أهلها مثل صلابة الأرض التي يسكنون عليها وخشونتها كصورة مجازية لجميع الأحداث الممقتة، والنائية والتي بهرت أعين القراء الأمريكيين.

لكن أفغانستان بالمعنى الحقيقي للحياة أكثر من ذلك بكثير، فرغم فقرها ووعورة أرضها، كانت تلك البلاد، التي يبلغ حجمها حجم ولاية تكساس، ومنذ وقت مديد ميداناً لتآمر دولة عظمى،

وللسبب ذاته درجت العادة على تسميتها «بوابة مصير آسيا». فبحدودها الغربية مع إيران، والجنوبية مع باكستان، والشرقية مع الصين، والشمالية، التي يبلغ طولها ألف ميل، مع الاتحاد السوفييتي كانت أفغانستان بصورة تقليدية إحدى النقاط التي تلاقت فيها الاندفاعات العظمى للامبراطوريات.

وفضلاً عن ذلك، فقد كانت أفغانستان طوال تاريخها ملتقى طرق للفاتحين، فقد سار الاسكندر الكبير وجنكيز خان وتيمور لنك جميعاً بقواتهم عبر هضاب أفغانستان المغبرة سعياً وراء تحقيق الإمبراطورية، وقد ذكر لي ملك أفغانستان عندما قمت بزيارته عام ١٩٥٣ بأن الاسكندر الكبير قال هناك أي في أفغانستان،: «لم يعد لدي بلاد أبعد لأفتحها»، وفي القرن التاسع عشر شغلت كل من بريطانيا العظمى وروسيا الإمبريالية ما أسماه كيبلينغ «باللعبة الكبرى»، عندما تبارزتا في سائر أنحاء آسيا الوسطى في صراع من أجل السيطرة على القارة إياها، ولقد كان البريطانيون يعلمون بأن ممر خيبر الوعر في أفغانستان يشكل البوابة التي تؤدي للدخول إلى شبه القارة الهندية، ولذا فقد خاضوا حربين ضروسين لحرمان الروس من السيطرة عليه، أما أفغانستان اليوم فقد أضحت حقل تجارب لمرحلة جديدة من الاتجاه السوفييتي التوسعي السافر الذي ينذر بالخطر.

ففي شهر نيسان من عام ١٩٧٨ وقع في أفغانستان، بدعم من السوفييت، انقلاب دام، أطاح فجأة بنظام الرئيس محمد داوود الذي لقي حتفه قتلاً على الفور، وأقام بديلاً عنه حكماً ماركسياً شديد العداء للغرب، بقيادة الرئيس محمد نور طرقي، الذي أعاد تسمية حزبه الحاكم وأطلق عليه اسم «حزب الشعب الديمقراطي» وأعاد تسمية بلاده فسماها «جمهورية أفغانستان الديمقراطية»، وجعل علمها الجديد راية حمراء، فاقعة اللون تحمل شعار الحزب ونجمة في زاويتها . غالباً ما يصعب تمييز ذلك العلم عن العلم السوفييتي . وأصبح على الفور لكل وزارة حكومية وللجيش الذي يبلغ تعداده حوالي ١٠٠٫٠٠٠ جندي «خبراء» روس، معظمهم من الطشقنديين، من آسيا الوسطى السوفييتية، ممن يتحدثون لهجة يفهمها السواد الأعظم من الأفغانيين.

إن هذه التجديد المفاجئ للضغط الروسي، الذي يبلغ قروناً من الزمن، ضد حدوده الآسيوية الواسعة الامتداد، قد أرسل موجات من الصدمة داخل البلدان الضعيفة المجاورة وذات الحدود المباشرة مع أفغانستان، وليس ذلك بسبب الطبيعة الجغرافية فحسب بل بسبب الروابط القبلية فرجال القبائل البلوخيين ينتشرون في كل من أفغانستان وباكستان وإيران، والبوشترنيين في أفغانستان والولاية الباكستانية الواقعة على الحدود الشمالية الغربية، وبعد أقل من عشرة أشهر كان قد سقط حكم الشاه، وتمكن رجال العصابات اليساريون «الطلاب» من الاستيلاء على السفارة الأميركية في طهران، في نفس اليوم الذي جر فيه سفير الولايات المتحدة في أفغانستان من سيارته وقتل.

وفي الولايات المتحدة جاء رد الفعل إزاء الاستيلاء الأولي السوفييتي على مقاليد السلطة في كابول بارداً أشبه بالتثاؤب، وقد نشرت يومها صحيفة نيويورك تايمز مقالاً افتتاحياً بخط عريض

تحت عنوان «التزام البرودة حيال كابول»، وقام أصحاب مدرسة ما شأننا في ذلك . أي أولئك الذين تتجلى ردود فعلهم إزاء أعمال القمع السوفييتية أو ما يمكن تسميته بالنزعة العسكرية السوفييتية، بالقول ما شأننا في ذلك ؟ . فقالوا ما لنا ومالأفغانستان؟

وبعد وصول الحكم الشيوعي إلى السلطة، قام رجال القبائل المسلمين المستقلين الشجعان بإعلان الجهاد، وانخرطوا في صراع حتى الموت من أجل التحكم ببلادهم وبحياتهم، فقد باع الثوار أبقارهم ومجوهرات نسائهم من أجل شراء الذخيرة، وقام المجاهدون بمحاربة الدبابات السوفييتية الصنع بدفع الصخور وجعلها تنزلق أمامها، وكانوا يندفعون في وجه نيران رشاشات الدبابات الاتوماتيكية، لينقضوا عليها ويدمروها، في حين أن سلاحهم لم يكن أكثر من الهراوات والقضبان الحديدية.

وبدأ الجيش الحكومي يعاني من عمليات الفرار، والنقص والتطهير للإنضمام إلى صفوف الثوار، فقد أفادت الأنباء أنه في أواخر عام ١٩٧٩ كان قد تقلص، بعد أن كان يضم ما ينوف على مئة ألف جندي، فأصبح عدد جنوده لا يزيد عن خمسين ألفاً وعدد القوات العاملة فعلاً يتراوح بين /١٠٫٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠/ مقاتل، وكان من المشكوك به أن يتحمل الشيوعيون هجوماً ربيعيا آخر من قبل الثوار.

وأقصي طرقي عن الحكم إثر انقلاب عسكري وقع في أيلول عام ١٩٧٩ ولقي مصرعه على أيدي الرجل الثاني بعده في الحكم، وهو حفيظ الله أمين الذي عين نفسه رئيساً للجمهورية، ولم يستطع أمين شغل الكثير، أو تحقيق تقدم في طريق القضاء على الثورة، وبتحرك دقيق التدبير وعلى نحو سافر قام السوفييت بغزو أفغانستان عشية عيد الميلاد، فقامت طائرات النقل العسكرية السوفييتية بنقل آلاف من الجنود السوفييت إلى كابول عبر جسور جوية، كما أن عشرات الآلاف الأخرى من القوات السوفييتية المتمركزة سابقاً على الحدود، تحركت بسرعة وعبرت الحدود، وأثر ذلك قتل أمين مع جميع أفراد عائلته، ووضع مكانه بارباك كارمال، وهو ربيب سوفييتي كان السوفييت قد أخفوه في إحدى دول أوروبا الشرقية، فقام بتوجيه أول رسالة للشعب الأفغاني بصفته رئيساً للجمهورية، وذلك عن محطة إذاعية في الاتحاد السوفييتي، وسارعت صحيفة أزفستيا على الفور إلى مهاجمة الرئيس أمين المزاح، ووصفته بكل وقاحة على أنه أداة بيدو وكالة الاستخبارات المركزية في حين قام بريجينيف بتهنئة كارمال وبحرارة بمناسبة «انتخابه»، ولقد سحق شعب أفغانستان الأبي بالقبضة الحديدية للاتحاد السوفييتي، وأصبحت روسيا أقرب ببلد جديد نحو تحقيق أهدافها، بعد أن أصبحت الآن قريبة من المياه الدافئة، وعلى مسافة قصيرة من أي مرفأ ما على بحر العرب وبالتحكم بنفط الخليج العربي.

وفي الباكستان، البلد المجاور لأفغانستان، قال مسؤول كبير، سبق له أن أنذر بصورة خاصة ونبه لخطورة الأطماع التوسعية السوفييتية، قال لأحد أصدقائه الأمريكيين: «أرأيت، هذا ما كنت أقول لكم بأنه سيحدث، ولقد حدث فعلاً، أنتم معشر الأميركيين تبدون وكأنكم لم تعودوا تفهموا ماهية

العالم، وستكون الخطوة التالية «فنلندة»، باكستان [نسبة إلى فلند] وبعد ذلك سيخضع الروس بلادنا، وهناك إمكانية حقيقية . وحتى احتمال كبير . للهيمنة السوفييتية على هذا الجزء من العالم بكامله، ترى ألا يهتم شعبكم في واشنطن بهذا؟

إن السيطرة السوفييتية على أفغانستان استمرار لتوسع القياصرة الأمبريالي، والضغط المتسع دون توقف منذ طرد الحكم المغولي من دوقية موسكو عام ١٤٨٠، إنها أيضاً بمثابة تذكير واضح بأن أميركا لم تعد تتمتع بنعمة تقدير واعتبار أي مكان على وجه الأرض بعيد جداً عن التأثير على أمنها الذاتي.

وإن ما جعل سقوط أفغانستان خسارة على قدر بالغ من الأهمية بالنسبة للغرب ليس مجرد مصير سكانها البالغ عددهم ١٨ مليون نسمة . ٩٠٪ منهم أميون . وليس كذلك الدخل السنوي للفرد، والذي يبلغ ١٦٠ دولار في السنة، مما يجعل أفغانستان من أفقر الدول في العالم، حتى أن موقعها الاستراتيجي لا يجعل خسارتها من الأهمية بمكان، إذا ما حدثت تلك الخسارة بالعزلة، لكنها لم تحدث بالعزلة فعلاً، لقد كانت جزءاً من مخطط كامل وذلك المخطط هو الذي يشكل التحدي، إنه نموذج البناء المتواصل الذي يتبعه السوفييت للوصول إلى مركز يتمكنون فيه من السيطرة بالقوة العسكرية، في حين يقومون باستخدام أعمال القمع والقوات العسكرية التي تعمل بالوكالة عنهم، وحتى قواتهم، الآن للسيطرة على بلد إثر بلد آخر، وعندها يصلون إلى موقع يستطيعون منه إما احتلال العالم أو «فنلندته».

فإذا ما نظرنا إلى التبدلات التي طرأت على العالم منذ الحرب العالمية الثانية، لوجدنا ثمة أسس تدعو للتشاؤم وأخرى للتفاؤل:

فأنظمة الحكم الشيوعية لم تتوصل إلى تسلم مقاليد السلطة في دول أوروبا الشيوعية فحسب، بل في الصين وكوريا الشمالية، وفيتنام، وكمبوديا ولاوس وأفغانستان، وأثيوبيا، واليمن الجنوبي، وأنغولا وموزامبيق، وكوبا، ولم يثبت حتى الآن بأن بلداً واحداً في العالم قد خضع بشكل كامل للشيوعية، ثم استطاع أن يخرج من تحت نير تلك السيطرة، وهناك الآن واحد وعشرون بلداً ممن يدورون في الفلك الشيوعي، فمن الناحية الإقليمية تحقق القوى الشيوعية تقدماً في سائر أنحاء العالم، في حين أن الغرب يتراجع نحو الوراء.

وعلى صعيد الأسلحة النووية كانت الولايات المتحدة تتمتع باحتكار مطلق لها في نهاية الحرب العالمية الثانية، وخلال أزمة الصواريخ في كوبا عام ١٩٦٢، كانت الولايات المتحدة لا تزال تتمتع بتفوق بنسبة ١٥ إلى ١، وربما أكثر من ذلك، أما في عام ١٩٧٣ عندما أصدرنا الأوامر بالتأهب النووي في جميع أنحاء العالم لإبقاء القوات السوفييتية خارج الشرق الأوسط خلال حرب يوم الغفران «يوم كيبور»، كانت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي متساويين تقريباً على صعيد كل من القدرة الاستراتيجية النووية ومسرح القدرة النووية التكتيكية، ولكن منذ عام ١٩٧٣ يقوم الاتحاد السوفييتي بإتفاق ثلاثة أضعاف ما تنفقه الولايات المتحدة على الأسلحة الاستراتيجية وحدها.

فبتقدمهم السريع في مجال تكنولوجيا الصواريخ النووية، وتطويرهم الهائل لأنظمة تسلح جديدة . في حين أن أنظمة التسلح الأميركية الجديدة قد ألغيت، أو أجلت . يقوم السوفييت، وعلى نحو سريع بإغلاق الهوة في المجالات التي تتقدم عليهم، كما أنهم يزيدون من تفوقهم في المجالات التي يتقدمون علينا فيها.

م ٢ . مذكرات

ولدى السوفييت مزايا هائلة في مجال القوات الأرضية التقليدية، ويجب أن يكون ذلك متوقعاً، إلى حد ما، بما أن جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية تشكل قوة أرضية في المقام الأول، وبما أن لديها جبهتين للدفاع عنهما، ضد أوروبا وضد الصين، هذا وتشكل جيوش روسيا الهائلة الأعداد خطراً محيقاً على جيرانها، لأنه في الوقت الذي ليس لديها سوى جبهتين للدفاع عنهما، لديها ثلاث جبهات لشن الهجوم منها، فالقوة العسكرية السوفييتية تهدد أوروبا في الغرب والصين واليابان في الشرق، وبلدان آسيا الوسطى والخليج العربي والشرق الأوسط وأفريقيا في الجنوب.

وفضلاً عن كل ذلك فإن البناء الداراماتيكي للقوة البحرية السوفييتية، قد أصبح ينذر بالسوء والخطر، ففي الوقت الذي ما زالت فيه الولايات المتحدة تتمتع بتقدم في مجال حاملات الطائرات، أصبح السوفييت الآن يملكون من السفن البحرية المهاجمة نصف ما تملكه الولايات المتحدة، وثلاثة أضعاف ما تملكه من الغواصات.

وما لم تزد الولايات المتحدة ميزانيتها العسكرية بصورة جذرية فإن الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٨٥ سيحقق تفوقاً نووياً عليها بمالا يدع أدنى مجال للشك، وتفوقاً واسع النطاق في مجال القوات الأرضية، ويوازيها على الأقل في مجال القوة البحرية، وخلاصة القول إذا لم نقم بإجراء سريع، فإن فترة منتصف الثمانينات ستشكل خطراً جسيماً على الولايات المتحدة والغرب معاً، ومن المحتم بأن الاتحاد السوفييتي سيحتل المرتبة الأولى، والولايات المتحدة الثانية.

فهذه الاتجاهات إذا ما اتخذت بحد ذاتها، يمكن أن تعتبر أسساً للتشاؤم المقيت، وإذا ما نظر إليها بمنظار الثمانينات، فإنها ستعطي للاتحاد السوفييتي المقدرة على فرض إرادته العسكرية على الأهداف التي يختارها في العالم.

لكن ثمة جانباً آخر للمسألة، لقد كان دوايت د. أيزنهاور استراتيجياً محنكاً، ولا زلت أتذكر بأنه خلال مدة رئاسته عندما كانت تدور مناقشة حول طاولة مجلس الأمن القومي ويعم الوجوم عندما كان الأعضاء يقومون بعملية مسح للعالم، اعتاد ايزنهاور أن يذكرنا بأن من أولى متطلبات القائد العسكري الناجح، هي مقدرته على إجراء تقويم واقعي لكل من نقاط القوة والضعف في قواته، لكن ما لا يقل أهمية عن ذلك، والقول أيضاً لأيزنهاور، هو مقدرة القائد أيضاً على تمييز نقاط القوة ونقاط الضعف في قوات الخصم وقابليتها للإنهيار.

فعندما تقوم بهذا التقويم نجد العديد من الثغرات الهشة، ونقاط الضعف في الجانب السوفييتي، ونقاط قوة كبرى في الجانب الغربي.

وأكثر النقاط الدراماتيكية هشاشة تكمن في الخلافات العميقة، وربما غير القابلة للتسوية بين الاتحاد السوفييتي والصين، فاقتصاد الصين ما زال ضعيفاً، كما أن مقدرتها النووية ما زالت بدائية نسبياً، بيد أن قادة الكريملين على حق في خشيتهم من وجود بليون من أقدر شعوب العالم على حدودهم الطويلة، في ظل حكومة تنظر نظرة عدائية مريرة لموسكو، فالصين، على المدى البعيد قد تشكل تهديداً توسعياً للغرب، لكنها في الوقت الحاضر تخشى الاتحاد السوفييتي، وبحاجة للغرب.

أما مركز الضعف الثاني فينبع من طبيعة النظام الشيوعي، فليس هناك من شعب رغب بمحض اختياره أن يعيش في ظل الشيوعية، وليس هناك بلداً يفضل البقاء تحت حكم الشيوعية بغير القوة والإرغام، كما أنه ليس ثمة نظام حكومة كان أكثر نجاحاً في توسيع سيطرته على البلدان الأخرى، وأقل نجاحاً في كسب موافقة شعوب تلك البلدان.

وما مأساة شعب فييتنام المسكين، والمعارضون الذين يودون مغادرة الاتحاد السوفييتي، والناس الذين يرغبون في الهروب من أوروبا الشرقية، إذا ما أمكنهم ذلك، سوى أدلة قاطعة على أنه عندما يترك الخيار للشعب، فإنه يرفض الحكم الشيوعي، والأمر الذي يدعو للسخرية، هو أن لينين الذي قال بأن اللاجئين أناس يقترعون بأقدامهم، ففي ذلك الاقتراع نجد الشعوب في كافة أجزاء العالم، والذين غالباً ما تكون حياتهم في خطر، هم من مناصري الحرية بشكل كامل ومناوئي الشيوعية.

ومركز الضعف الثالث، وهو ميزة كبيرة في صالح الغرب، تكمن في حقيقة أن الرأسمالية، هي التي تقدر على العمل من الناحية الاقتصادية، في حين لا تقدر الشيوعية، فإذا ما قمنا بعملية مسح اقتصادية في العالم لوجودنا، بأن الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان مجموعة، لديها من مجموع الانتاج الاقتصاد القومي ما يعادل أربعة أضعاف انتاج المعسكر السوفييتي بأسره.

أما الميزة التي تتمتع بها البلدان الشيوعية، فهي كونها ديكتاتورية، قادرة على تسخير مواردها حسب أهواء قادتها، وذلك خدمة لمطامح الحكام بدلاً من تلبية حاجات الشعب، ومن هنا فقد كان، ولو نسبياً، بوسع الإقتصاد غير المنتج أن يقدم الدعم للمؤسسات العسكرية الهائلة، بيد أنه إن كان هناك مجال لسباق التسلح أن يحدث، وإذا قرر الغرب أن يخوض معركة التنافس فيه، فإنه، أي الغرب، يمتلك القدرة الاقتصادية للفوز فيها وإن السوفييت لعلى يقين من هذا الأمر.

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، خفف الغرب من تسليحه، وذلك بعد أن اجتاحت أمواج من الانفراج ونفاذ القوى، فقد قمنا بتخفيف أسلحتنا، بينما أخذ ستالين يستخدم جيوشه للسيطرة على ما استطاع من الأراضي، وأخيراً، بعد أن تنبه الغرب حشد طاقاته في سبيل مواجهة التهديد السوفييتي الجديد، ونتيجة لذلك فقد عدلت موسكو من لهجتها، والتزمت جانب الحيطة والحذر في توسعها، وقد كان أجراؤها تغيير في المظهر، وليس تغييراً في الجوهر، وعندما حولت الصين من تركيزها على المغامرة الخارجية إلى التطوير الداخلي ولتعزيز دفاعها ضد ما بدالها كتهديد سوفييتي آنئذ . كان التغيير يومها أيضاً ظاهرياً، وليس جوهرياً.

لقد كان ذلك التغير الظاهري، هو الذي جعل قيامنا بالخطوات الأولى مضياً نحو الإنفراج أمراً ممكناً، ويترتب علينا أن ندرك بأن الإنفراج ليس وليمة حب، بل إنه تفاهم بين دول ذات أهداف متعارضة لكن ثمة مصالح مشتركة فيما بينها، بما في ذلك تفادي وقوع حرب نووية، وإن مثل هذا التفاهم يمكن أن يفعل فعله . أي أنه يمكن أن يمنع الاعتداء، ويحول دون وقوع الحرب . فقط إذا ما حمل المعتدي الكبير على الاعتراف بأنه لا الاعتداء ولا الحرب سيجديان نفعاً.

إن النظام الرأسمالي يقوم على أساس دافع الدمج من الناحية الاقتصادية، في حين أن النظام السوفييتي يقوم على أساس دافع الربح من الناحية العسكرية والإقليمية، فعند ما يحسب الكريملين بأن ربحه سيفوق خسارته من جراء قيامه بعمل عدواني وقمعي وإرهابي، يقدم على القيام بذلك العمل.

وطالما أن ميزان القوى يتحول لصالح السوفييت، فإن حسابات الكريملين للربح والخسارة ستتحول معه، وفي كل وقت يبدو فيه الغرب ضعيفاً ومتردداً تتدنىء إذ ذاك الكلفة الإجمالية للعدوان، ويزداد «الطلب» في سوق الكريملين، بينما نجد أن التكاليف ترتفع، ويكسد السوق في كل وقت يظهر الغرب نفسه فيه بمظهر الاستعداد للمقاومة الفعالة.

فقد وصف وودرو ويلسون، ببلاغة، الحرب العالمية الأولى على أنها حرب لجعل العالم «آمناً من أجل الديمقراطية»، ومهما انطوت تلك النية على نبل، فإن الأحداث سرعان ما جعلت منها مهزلة، فيجب أن تتركز غايتنا على خلق عالم تكون الديمقراطية فيه في أمان، والأهم من ذلك هو إيجاد عالم يكبح فيه الاعتداء، ويضمن فيه الاستقلال الوطني، وتماماً كما شهدت الأربعينات والخمسينات نهاية الاستعمار القديم، يجب أن نقوم في الثمانينات والتسعينات بردع الإمبريالية السوفييتية الجديدة، ولكي نرسم طريقنا للمستقبل ينبغي علينا أن نعرف أعداءنا، وأن نفهم أصدقاءنا، ونعرف أنفسنا، وأن نحن، وكيف وصلنا إلى هنا، وإلى أين نريد الذهاب.

ولكي نواجه التحدي الذي يهدد بقاءنا، وبقاء الحرية والسلام علينا أن نزيد، بصورة جذرية من قدرتنا العسكرية، ونعزز قدرتنا الاقتصادية ونرفع من قوة إرادتنا ونعزز سلطة رؤسائنا، ونطور استراتيجية هادفة ليس إلى تحاشي الهزيمة فحسب، بل إلى تحقيق النصر.

فلن تكون العقود القادمة من الزمن سهلة، كما أنها لن تخلو من الخطر، لكن من المحتم بأن الخطر الذي سيحل بنا إذا ما أخفقنا سيكون أكثر فداحة، وكلما طال انتظارنا ازدادت الصعوبات في وجهنا لمجاراة الأمر، وفي كل يوم يضيع من أمامنا، يزداد الخطر تفاقماً.

في عام ١٩٣٤ خاطب ونستون تشرشل مجلس العموم قائلاً: «إن الإسراع في الاستعداد للدفاع هو ليس التأكيد على وشوك وقوع الحرب، وعلى العكس من ذلك إذا كانت الحرب وشيكة الوقوع، فإن الاستعداد للدفاع يعني أن الوقت قد مضى... إنما من الصعب مقاومة الاستنتاج بأننا إذا لم نبدأ على الفور بوضع أنفسنا في موقع أمين، فإن الأمر سيخرج عن نطاق قدرتنا من أجل القيام بذلك»، ففي الثلاثينات كان لدى بريطانيا ما هو في الواقع «احتياطي استراتيجي» . أي القدرة الصناعية

الهائلة للولايات المتحدة، التي، مع إزدهار الوقت، يمكن أن تحشد بعد اندلاع الحرب لإنقاذ الدول الحليفة، وإن ذلك «الاحتياطي» قد أنقذ بريطانيا فعلاً في النهاية من عدم استعدادها الذاتي، أما الولايات المتحدة فليس لها مثل هذا الاحتياطي الذي يمكنها الاعتماد عليه.

وقبل اندلاع الحرب بفترة وجيزة فقط كان الجنرال دوغلاس ماك آرثر قد أدلى بقوله المشهور «يمكن تلخيص تاريخ الإخفاق في الحرب بكلمتين: «فوات الأوان» وكان ماك آرثر يومذاك في الفلبين، وكان قد لمح غيوم الحرب تلوح في الأفق، وخاب أمله في مساعيه التي بذلها لكسب التأييد من أجل تعزيز القوات في الفلبين، ولقد حذر من الخطر، لكن عديدون هم الذين قالوا: «ما شأننا» فليكن ما يكون.

وعندما أدلى بتصريحه لم تكن القنبلة الذرية قد ألقيت على هيروشيما محولة إلى الأبد طبيعة القدرة في الحرب مع نتائج الهجوم المباغت، فقد أتيح الوقت للولايات المتحدة كي تتعافى من ضربة ميناء بيرل هاربور البحري، وكان لديها الكفاية من الإنذار بتهديد الحرب وخطرها، وقد تتاح لدينا فرصة أقل من ثلاثين دقيقة فقط للإنذار من «بيرل هاربور نووية» وعندها لن يتوفر الوقت لنا للتعافي وإن الفرصة للحيلولة دون وقوع ذلك هي قائمة الآن، ولم يعد لدينا وقت نضيعه.



الفصل الثاني

الحرب العالمية الثالثة

إن الميزة الأولى للاتحاد السوفييتي هي أنه يتبنى دائماً موقف الاستئساد على الضعفاء والخشية من القوى، والميزة الثانية هي أنه يمضي ويغتصب كلما أتيحت له الفرصة.

دينغ ايكسياوبينغ

إن بلدان الحلف الغربي آخذة بإعداد نفسها منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ضد الإمكانية المرعبة للحرب النووية مع الاتحاد السوفييتي، وهي التي أطلق عليها الاستراتيجيون اسم العرب العالمية الثالثة . لم تات بعد وقد لا تأتي البتة، وفي الوقت ذاته فإن الحرب العالمية الثالثة الحقيقية قد دارت وهي تدور على مرأى أعيننا، وإن قلة من الناس هم الذين لاحظوا ما كان يجري.

برين كروزيير

لقد بدأت الحرب العالمية الثالثة، قبل أن تنتهي الحرب العالمية الثانية حتى أنه في الوقت الذي كانت فيه جيوش الحلفاء تقاتل القوات النازية حتى الموت، كان ستالين يركز أنظاره على أهداف ما بعد الحرب، ففي شهر نيسان من عام ١٩٤٥، بينما كان الجنود الأميركيون والروس يتعانقون على نهر الألب في ألمانيا، كان ستالين يخطط لعالم مقسم بعد الحرب، فقد قال: «ليست هذه الحرب كما كان الأمر فيما مضى»، كما قال: «من يحتل أرضاً يفرض عليها أيضاً نظامه الاجتماعي، وكل واحد يفرض نظامه الخاص إلى المدى الذي تصله جيوشه، ولا يمكن أن يكون الحال غير هذا».

وقتئذ كان الحداد الذي فرض الستار الحديدي فيما بعد، قد أبدى، بكل استخفاف أنه سيضمن سيادة «نظامه الاجتماعي»، ومن أنصع صفحات البطولة في الحرب العالمية الثانية، هي تلك التي سجلت من قبل حركة المقاومة في بولونيا، التي كانت تحتلها ألمانيا، وسجلت بصورة خاصة على أيدي رجال الجيش الوطني البولوني، فقد قام أولئك الرجال بتقديم معلومات استخبارية، وقاموا بغارات انتقامية رداً على إجراءات القمع الألمانية، وذلك بإعدام مسؤولين ألمان، حتى أنهم خاضوا معارك قاسية ضد القوات الألمانية، لقد كانوا حقاً وطنيين بولونيين، مصممين على استزداد الاستقلال البولوني والمحافظة عليه.

وفي الأول من شهر آب عام ١٩٤٤، هب المقاتلون البولونيون الأحرار، في وجه المحتلين النازيين في وارسو، في الوقت الذي كان فيه الجيش السوفييتي يقترب منها، تماماً كما فعل رجال حرب الأنصار الفرنسيين، عندما كانت القوات الأميركية والبريطانية تقترب من باريس، ولكن بدلاً من أن تقوم القوات السوفييتية بالمساعدة على تحرير المدينة، مكثت خارجها أسبوعاً بعد آخر، وهي

تراقب، في حين كان الألمان قد زجوا بخمس فرق ضد البولونيين الذين وقعوا في الفخ، وأخيراً تمكن الألمان من القضاء على المقاومة البطولية بعد ثلاث وستين يوماً، حتى أن الحكومة السوفييتية رفضت السماح للحلفاء الغربيين باستخدام مطاراتها، لنقل التموين جواً للمقاتلين البولونيين حتى إذا دام تصاعد القتال لمدة سبعة أسابيع كاملة، عندها وفي نهاية شهر أيلول زحف الجيش السوفييتي غرباً، متجاوزاً وارسو برمتها، وفي الثالث من شهر تشرين الأول استسلمت قوات المقاومة بعد أن عزلت وتخلي عنها، وقد استئصلت زبدة حركة المقاومة البولونية، وقضي عليها، وكانت مدينة وارسو، قد دمرت وأصبح الطريق أمام السيطرة السوفييتية عليها مفتوحاً، وتابع السوفييت هذا الأمر في آذار من عام ١٩٤٥، وذلك بتوجيه الدعوة إلى قائد الجيش البولوني الوطني وبضعة من القادة الآخرين لحركة المقاومة السرية لزيارة موسكو من أجل إجراء المباحثات السياسية، وعندما كشف هؤلاء أنفسهم للعملاء السوفييت تم اعتقالهم وإيداعهم السجن، لقد تم كل ذلك في الوقت الذي كانت الحرب فيه في أوروبا ما زالت مستمرة، وفي حين أن السوفييت والحلفاء الغربيين ـ والمقاومة السرية البولونية ـ كانوا كما هو مفترض يقاتلون سوية من أجل دحر النازيين.

فالحرب العالمية الثالثة إذن قائمة منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً، أي منذ الأيام الأخيرة للحرب العالمية الثانية، ففي طهران ويالطا وبوتسدام، بينما كان نمط أوروبا لما بعد الحرب في طور التشكيل، كان ستالين يناور، ليشق طريقه لتحقيق المكاسب التي كان قد تمسك بها على الفور، فقد تربصت الجيوش السوفييتية التي كانت تلاحق الألمان المتراجعين في أوروبا الشرقية وامتد الستار الحديدي عبر القارة بأسرها وهكذا حصرت شعوب: بولونيا وهنغاريا وتشيكوسلوفيا ويوغسلافيا ورومانيا وبلغاريا وألبانيا وألمانيا الشرقية، وكذلك بعض البلدان التي كانت مستقلة من قبل مثل: لاتفيا، وليتوانيا، وأستونيا، وسقطت جميعاً تحت نير الحكم الشيوعي، لقد كان ذلك الإجراء اغتصاب حسب ونفذ ببرودة أعصاب من جانب ستالين، استناداً لما جاء في تعليقه فيما بعد عندما قال: «إن السبب في عدم وجود حكومة شيوعية في باريس اليوم مرده لعدم تمكن الجيش السوفييتي، في ظروف عام ١٩٤٥، من الوصول إلى الأرض الفرنسية».

لقد بدأت الحرب العالمية الثالثة منذ سيطرة السوفييت على أوروبا الشرقية، وعن طريق الاحتلال الشيوعي للصين، والحروب في كوريا والهند الصينية، وكذلك عن طريق إقامة مخفر سوفييتي أمامي، في نصف الكرة الغربي، في كوبا، ووصولاً إلى اندفاعات السوفييت وحلفائهم داخل أفريقيا، والهلال الإسلامي، وأمريكا الوسطى، ويجب ألا يغرب عن البال بأن التوسعية قد اقترنت ببناء عسكري مذهل، أدى بالإتحاد السوفييتي للوصول إلى حافة تفوق حاسم على الغرب.

وشكلت كوريا وفييتنام معارك في تلك الحرب، كذلك الانقلابات التي أتت بأنظمة حكم، تابعة للسوفييت، تسلمت مقاليد السلطة في أماكن قاصية مثل أفغانستان، واليمن الجنوبي يضاف إلى

ذلك أيضاً الصراعات التي دارت لمنع الحزبين الشيوعيين من السيطرة في كل من إيطاليا والبرتغال، ولإحتواء تصدير كاسترو الثورة إلى أميركا اللاتينية.

من هنا كان بوسعنا أن نعتبر الحرب العالمية الثالثة هي الحرب الكونية الفعلية الأولى، فليست هناك من نقطة على وجه الكرة الأرضية هي خارج نطاق مسرحها، فالولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي قد أصبحا قوتين عالميتين، وإن ما يؤثر على التوازن بينها في أي مكان سيؤثر على التوازن في كل مكان، وغني عن القول بأن السوفييت على علم بهذا الأمر، وعلينا نحن الآخرين أن ندرك ذلك، ولذا يتوجّب علينا أن نتعلم كي نفكر على أسس عالمية.

وفوق كل ما ورد ذكره، إن الحرب العالمية الثالثة هي الحرب الفعلية الشاملة الأولى: إنها تشنّ على كافة مستويات الحياة والمجتمع، أي على مستوى القدرة العسكرية والقدرة الاقتصادية، وقدرة الإرادة، وقوة الأفكار المحتواة للأمة، وعلى حسن حسها بالهدف، لأن جميع هذه الأمور عوامل حيوية بالنسبة لنتيجة الحرب، وهناك أمور غير محسوسة أيضاً سواء أكانت روح المنافسة مشرّفة أم مشوّهة للسمعة، وسواء كان الخلق السائد أن يعمل الفرد أقل ما يستطيع عمله، أو أفضل ما يتمكن القيام به، وسواء كانت الأجيال القادمة من البناة والمبدعين، أم دمى تلفزيونية، إن هذه الحرب أيضاً أول حرب شاملة بسبب طبيعة خصومنا: ذلك أن هناك نظاماً ديكتاتورياً، يتقدم في ظل راية ايديولوجية، إلى حد أنه حتى عقول أبناء الشعب هي ملك للدولة.

وطوال ثلث القرن الماضي، عندما كنا في الغرب نفكر في الحرب العالمية الثالثة، فإن تلك العبارة كانت تذكرنا بتصورات كارثة نووية مرعبة، ولكن في حين أن الغرب يشير بصورة سببية، إلى غياب الحرب النووية على أنه سلام، نجد أن السوفييت كانوا وباستمرار يخوضون «حرباً اسمها السلام» محاولين بها الفوز بالحرب العالمية الثالثة، دون المخاطرة بمواجهة نووية، إنهم يدركون بأن الغاية من الحرب ليست التغلب على الخصم بل حمله على الاستسلام، وكما قال الاستراتيجي العسكري البروسي كلوزويتس قبل وقت طويل: إن المعتدي لا يريد الحرب أبداً، بل يفضل دخول بلادك، دون أن يلقى مقاومة.

فإذا ما قمنا بدراسة للأفعال السوفييتية لبينت لنا نمطها بشكل واضح ألا وهو: ليس هناك بالضرورة «خطة رئيسية» أو جدولاً زمنياً، قابلاً للتكهن به لاحتلال العالم، بل هناك بالمقابل تقوية مستمرة للقوات العسكرية، واستغلال متناسق لكل فرصة من أجل توسيع مجال قدرتهم الذاتية، وإضعاف قدرة الغرب، فتماماً كما تنساب المياه منحدرة عبر الهضاب، يقوم السوفييت بالضغط لمد سلطانهم أينما يتمكن من الوصول، وبأية وسائل تعتبر فعالة وفق حساباتهم، إنها فرص لا أخلاقية برمتها، فهم يقومون بحسابات دقيقة لنسب التكاليف والربح، لكنهم لا يرعون حرمة لعهد، ولا يأبهون بقيمة الحياة البشرية أو مفاهيم «البورجوازية» للعدالة.

فأصحاب النظريات التسويغية يدأبون على المحاجة بأن السوفييت يحاولون فعلاً ضمان أمنهم الذاتي، في وجه ما يتصورونه أخطار حقيقية بالغة من الخارج، وأنهم حالما يمتلكون القوة

الكافية لضمان ذلك الأمن فإن شهيتهم سترتوي، إن النصف الأول من هذه الحجة قد ينطوي على شيء من الحقيقة، لكن ما يثير القلق في نصفها الثاني، هو أن الشهية الروسية بالنسبة «للأمن» لا تعرف الشبع، فكلما اتسع نطاق ما يحوذ عليه السوفييت، كلما ازدادت متطلبات الحماية، وأنهم يعرفون «الأمن» على أنه مجرد للاتفاق أو التسوية أو الاستفتاء، أو في الواقع لسيادة للقانون، وطالما أن هناك بلداً واحداً أو شخصاً واحداً يقف معارضاً، فإنهم يعتبرون أمنهم معرضاً للخطر، والأمن، بالنسبة لهم، كالقدرة، أي أنه لا يمكن إلا أن يكون شاملاً، ولذا لا يمكن أن يتضمن إلا بالقضاء الكامل على أية معارضة كبيرة، كما أن المكاسب الروسية، في نظر السوفييت، يجب أن تتحقق على حساب خسائر الآخرين، ولا زيادة لديهم في الأمن المتبادل، وبنظر السوفييت أيضاً لكي يضمنوا الأمن، يجب أن يجعلوا أمن غيرهم غير مضمون.

وليس للقيادة السوفييتية مفهوم «للسلام» بالشكل الذي نفهمه نحن، أو للتعايش بالشكل الذي نحدده، فهم لا يؤمنون بمفهوم المساواة، فالمساوي . بعرفهم . هو منافس: يجب أن تقضي عليه قبل أن يقضي عليك.

فالغاية السوفييتية إذن تعاكس ما دعا إليه وودرو ولسون، بإيجاد عالم غير آمن للديمقراطية: أي عالم تكون فيه الدولة السوفييتية آمنة، في حين يتوجب على جميع الآخرين أن يحترموا السيطرة السوفييتية ويؤدون لها الأتاوات، وأبلغ ما وصفت به المطامح السوفييتية، عندما عرفت على أنها الرغبة في امتلاك «المقدرة على السيطرة على الاقتصاد العالمي والقضايا السياسية والاستراتيجية من موسكو مباشرة»، فالشيوعيون الصينيون يتهمون السوفييت بالسعي لفرض «هيمنتهم»، وإن هذا الوصف لتعبير صحيح ينطبق على الأهداف السوفييتية.

وعلى أية حال، نجد أن معاني الحرب العالمية الثالثة مكتوبة بشكل كامل وفصيح على وجوه شعب فييتنام الهائم الذي يجازف بخطر الموت في أعالي البحار يائساً، والرفض في نهاية الأمر عند وصوله إلى اليابسة، بدلاً من العيش في السجن الذي كان بلده في يوم من الأيام، وهناك الملايين من بلاد أخرى ممن ركبوا المخاطر ساعين جميعهم للتخلص من الشيوعية، فهجروا بيوتهم وممتلكاتهم، وحتى أسرهم، هجرة حزينة نتيجة لتقسيم بلدانهم، وتماماً كما يفر القرويون من وجه تقدم السيل البركاني، تجد أولئك الذين جردوا من ممتلكاتهم يولون أدبارهم هاربين أمام تقدم الاستعباد الذي يطلق على نفسه اسم «التحرير».

فقبل أن يستولي الحكم الشيوعي على الصين الكبرى كانت هونغ كونغ عبارة عن مدينة يقل عدد سكانها على مليون نسمة، لكنها أصبحت الآن تضم خمسة ملايين نسمة وتعزي النسبة الكبيرة من هذه الزيادة إلى فيض اللاجئين من الصين الكبرى، ممن اندفعوا رغم وضع الأسلاك الشائكة، وحرس الحدود للحيلولة دون هروب أولئك اللاجئين.

ويوجد في مكتبي الآن لوحة من تلك (ورنيش ياباني) قدمت لزوجتي عندما قامت بزيارة مخيم للاجئين في فييتنام الجنوبية، وهي بمثابة مذكر دائم لي على أنه عندما قسمت عام ١٩٥٤، كان حوالي مليون انسان قد هربوا من الشمال إلى الجنوب.

لقد سبق لي أن قضيت يوم عيد الميلاد لعام ١٩٥٦ في مخيم للاجئين في النمسا، قرب جسر آندوا، وتحدثت يومها إلى بعض أولئك الذين كانوا قد هربوا من هنغاريا بسبب الثورة القصيرة التي حدثت بها، بينما كانت الدبابات السوفييتية تقوم بسحق المقاومة في شوارع بودابست، لقد كانت قصصهم عن الهروب مثيرة للرعب، كما أن شجاعتهم كانت ضريبة عن الروح الإنسانية، ومقياساً للوحشية التي انتصرت.

وفي ألمانيا المقسمة يقف جدار برلين، كما وصفه وزير خارجية ألمانيا الغربية هانس ديتريخ جينثر بمثابة «تمثال للعبودية»، أما قبل إقامة الجدار فقد كانت برلين غير المقسمة بمثابة جزيرة من الحرية، في بحر من الاستعباد إنما يمكن الوصول إليها، أما في نظر الشيوعيين فقد كانت تمثل البغض لأنها تمثل الخيار، وقبل أن يقام الجدار في عام ١٩٦١، استفاد من ذلك الخيار ما ينوف على ثلاثة ملايين من البشر، وهربوا من الحكم الشيوعي: أي بمعدل خمسمائة إنسان في اليوم على مدى خمس عشرة سنة.

إن إغلاق الحدود، وإقامة الأسلاك الشائكة والجدران، ووضع الحرس، وتزويدهم بأوامر إطلاق النار على كل من يحاول الفرار، هي العلامات المميزة للسيطرة الشيوعية، ورمز التقدم السوفييتي.

وإن مئات الألوف من اليهود الذين ينتظرون الخروج من الاتحاد السوفييتي، قد أثاروا عطف العالم، لكنهم ليسوا وحدهم، وليست النزعة اللاسامية وحدها هي التي تحمل الحكومة السوفييتية على الحد من الهجرة اليهودية، وإذا ما سمح بالهجرة فإن الملايين من الأوكرانيين والليتوانيين وغيرهم سيغادرون البلاد أيضاً.

عندما يهرب شخص، أو شخصين من الغرب إلى الشرق تقوم القيامة على صعيد الأخبار، وتبرز القضية كعلامة لعصرنا، في حين أن هروب الآلاف من ظل الحكم الشيوعي، تظل المسألة مجرد مسألة احصائيات، ومع ذلك فإن المأساة البشرية التي تكمن خلف هذه الإحصائيات، تشكل واحدة من مآسي القرن العشرين، وإن هذه الإحصائيات بما تمثله من تهجم على الحريات الإنسانية، من أكبر الميزات الواضحة التي تتصف بها الحرب العالمية الثالثة.

❖ ❖ ❖

الموارد: الحلقة الضعيفة

بالنسبة للسوفييت، إن كل من يقف في وجه سيادتهم . أو هيمنتهم . يعتبر خصماً، وهكذا فإن الهدف النهائي للاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثالثة هو المنافس الرئيسي، أي الولايات المتحدة الأميركية، وأهدافه المتوسطة هي أوروبا الغربية واليابان، أما أهدافه الفورية فهي تلك

المناطق غير المستقرة والسهلة المنال: في أفريقيا، وآسيا، والشرق الأوسط، وأمريكا اللاتينية، تلك المناطق التي يمكن فيها، بقليل من الخطر والكلفة نسبياً، أن يحقق مزايا استراتيجية، ويتخذ لنفسه بشكل متزايد موقعاً يسيطر في على موارد العالم وشرايين الحياة.

وكان ستالين قد ركز على نقاط ضعف الغرب وحاجته إلى الموارد وذكر مثيراً إلى عام ١٩٢١ حيث قال «إذا ما سميت أوروبا وأميركا بالجبهة الأمامية، فإن البلدان، التي لا سيادة لها، والمستعمرات، بمواردها الخام، ووقودها، وموادها الغذائية وطاقاتها السكانية الهائلة، يجب ان تعتبر المؤخرة، أي احتياطي الامبريالية، ولكي نفوز بالحرب ينبغي علينا الا ننتصر في الجبهة فحسب، بل ان نخلق الثورة في مؤخرة العدو، أي احتياطية وقبل مدة ليست بطويلة، اباح الرئيس السوفييتي ليونيد أ. بريجينيف للرئيس الصومالي سياد باري، واثقاً منه آنذاك، لانه كان حليفا للاتحاد السوفييتي بقوله: إن غايتنا هي تحقيق السيطرة على خزانين زاخرين بالمواد الثمينة يعتمد عليهما الغرب، ألا وهما: خزان الطاقة في الخليج العربي وخزان المعادن في وسط أفريقيا وجنوبها.

ففي الوقت الذي تعتمد فيه الولايات المتحدة بصورة جزئية على استيراد النفط والمعادن الاستراتيجية، تعتمد أوروبا واليابان اعتماداً مطلقاً على موارد ما وراء البحار، فنصف نفطنا مستورد، أما أوروبا فخمس وثمانون بالمئة من نفطها مستورد، واليابان مئة بالمئة، أما فيما يتعلق بالمعادن فإن أوروبا تستورد ٨٠٪ واليابان ٩٥٪ فالعوارض الطفيفة للاستيراد قد يكون لها تأثير، وتخلق بعض الاضطراب في الولايات المتحدة، لكن من شأنها أن تخلق مصيبة لدى حلفائنا الصناعيين، ومن هنا كان الكثير من الحق لديهم أن يهتموا بالتحرك السوفييتي نحو «الخزانين الكبيرين اللذين يعتمد عليهما الغرب». بيد أننا نحن من جانبنا لنا مصلحة حيوية، وذلك لأمرين: أولهما لأننا نحن أيضاً نعتمد على خزانات المواد الاستراتيجية إياها، وثانيهما لأن قوة ووحدة الحلف الغربي ككل أمران جوهريان لمواجهة التحدي السوفييتي، فما يضعف حلفاءنا يضعفنا.

ويركز قادة الاتحاد السوفييتي أنظارهم على التعزيز الاقتصادي للمجتمع الحديث، كما أنهم يرمون لسحب السدادة عن آلة الصناعة الغربية، ولا ريب بأن اعتماد البلدان الصناعية الغربية على المصادر الأجنبية للمواد الخام الحيوية، إحدى نقاط ضعفها الرئيسية وهكذا فإن ذلك إلى جانب عدم الاستقرار المتأصل في عديد من الدول المنتجة، يملي الاستراتيجية السوفييتية في بعض المناطق كالشرق الأوسط وأفريقيا وأميركا اللاتينية.

فبالنسبة للغالبية من الأمريكيين نجد أن خريطة أفريقيا غير مألوفة بالنسبة لهم كما هو القطب الجنوبي، والعديد منهم، مثلاً، لا يميزون مالي عن ملاوي، كما أنه ليست لديهم أية فكرة عن موقع الصومال الجغرافي، أو أريتيريا، كما أن معرفتهم أقل من ذلك بكثير لماذا تحدد الأحداث في تلك المناطق مستقبل العالم، وعلاوة على ذلك فهم غير قادرين على تحديد مواقع المناطق المجاورة مثل: اليمن الجنوبي، وعمان، ومضيق هرمز، والبحرين، وقطر، مع أن مثل هذه الأماكن

وغيرها تعتبر حيوية بالنسبة لمصالح أمريكا والغرب، وفي الوقت ذاته فهي أهداف أساسية بالنسبة لتحرك موسكو باتجاه السيطرة الاستراتيجية، ومن هنا كان التجاهل الأمريكي، أو عدم الاكترات، يوفر للسوفييت واحدة من أكبر المزايا.

وفيما يتعلق بأفريقيا، ما زالت أشباح الماضي الاستعماري تهيمن على عقول العديدين من قادة الدول فيها في الوقت الحاضر، فلقد كانت السياسة في أفريقيا ما قبل الاستعمار تقوم على أساس قبلي، وبعد احتلال الأوروبيين لها أصبحت أمبريالية، أما اليوم فقد أصبحت جمعاً فريداً من نوعه بين الاثنين معاً.

وحدود معظم الدول الأفريقية الحالية، ليس لها سوى معنى بسيط من وجهة نظر البلد الدولة، فتلك الحدود لا ترتب لا بالخطوط الطبيعية ولا القبلية، بل إنها تظل حيث توقفت جيوش القوى الاستعمارية، أو حيث قام رساموا الخرائط في لندن أو باريس بوضعها بمحض الصدفة، فالبلدان الأفريقية تتألف، على الأغلب، من عشرين أو ثلاثين قبيلة، وتتشابك عدد من الدول الصغيرة، في حين أن قبائل عدة قد شطرت إلى شطرين بسبب إقامة حدود استعمارية موروثة، وهكذا فإن النقص الناجم في الوحدة الوطنية يجعل الديمقراطية أمراً مستحيلاً، والانماء الاقتصادي حلماً بعيد التحقيق، والتوتر الداخلي حقيقة مستمرة في الحياة، فكثير من قادة الدول الأفريقية يريدون فقط ابقاء أنفسهم على كراسي السلطة، وابعاد بلدانهم عن التجزئة.

تلك هي الأمكنة التي يدخلها السوفييت، سادة صنع الامبراطوريات، ضالعين في فن، سحق الأمم وإقامة السيطرة الديكتاتورية على الأشلاء، على نحو ما بينه ادوارد لوتاك، زميل أول في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في جامعة جورج تاون، عندما وصف السياسة الأفريقية لما بعد الاستعمار بقوله: أنها ليست «سياسة الإزدهار»، التي نعتاد عليها، بل «سياسة تجميع السلطة»، وفي هذا المضمار نجد أن لدى السوفييت، ذوي الخبرة بكسب السلطة والاحتفاظ بها، ما يقدمونه أكثر مما لدى الولايات المتحدة.

عندما يذهب قادة الدول الافريقية للتسوق يعرض لهم السوفييت جعبة اغتصاب مغرية، فمجمعات الصناعة العسكرية السوفييتية تعمر أوقاتاً إضافية، لهذا تلقى لديهم دائماً فائضاً من إمدادات الأسلحة كي يقدمونها، وأحياناً بمساومة على الأسعار، وبدون التأخيرات التي تسببها المناقشات حول «أخلاقية» تجارة السلاح غير المشروعة، كما أن دفاتر العروض والنماذج السوفييتية تشتمل على الكثير من قطع التبديل للديكتاتوريات أي خبراء «الأمن» من ألمانيا الشرقية، وقوات كوبية، وتقارير سرية دورية متواصلة من شبكة الاستخبارات الروسية و«الدعم الواسع للدعاية السوفييتية، التي لن تتوقف عن ابراز مناقبهم، حتى ولو كان لديهم نقاط ضعف كبيرة مثل «إعدام الناس عشوائياً» على حد تعبير لوتراك الدقيق، وقد تعهد السوفييت التجار العدوانيون، مؤخراً بشحن جيوش عملية بكاملها لزبائنهم أيضاً، والقطع النادر الذي يطلبونه لقاء بضائعهم هو السلطة.

فلم يرتكب السوفييت الخطأ الساذج، بالافتراض أن القادة الأفريقيين لا بد سيولون أولاً وقبل كل شيء التطوير الاقتصادي لشعوبهم عظيم عنايتهم، وبحكم خبرتهم الخاصة، يدرك السوفييت بأن الأفضلية الأولى بالنسبة للعديد من أولئك القادة، هي ابقاء أنفسهم في مراكز السلطة، وأنهم هم، أي السوفييت، وليسوا نحن الذين يقدمون أكبر «مساعدة خارجية» فعالة لهذه الغاية.

لقد أثبتوا، وبشكل ملحوظ، أنهم تجار ناجحون، فرغم كون روسيا قادم جديد إلى القارة الأفريقية، نجد أن موسكو وحلفاءها الآن يقومون بتزويد أكثر من ٧٥٪ من إمدادات الأسلحة، التي تذهب إلى أفريقيا، وأن فواتير مبيعاتهم تراجع بكل تأكيد من الأسفل إلى الأعلى.

وعندما يمضي السوفييت ليأخذون «نهشة» في مكان ما في العالم، يمضون بشهية قاطعة، فلا يدققون في تفاصيل ما سيأكلون، ولا يهمهم كثيراً إذا كان نظام الحكم الأفريقي الزبون «اشتراكياً» أو «شيوعياً»، أو حتى في الواقع رأسمالياً بطريقة إدارته لشؤونه الاقتصادية الداخلية، كل ما يهمهم فعلاً هو أن يمارس نظام الحكم سيطرة فعالة . وتفضل الديكتاتورية . على شعبه، وأن يدير سياسته الخارجية والعسكرية بطريقة تخدم المصلحة الوطنية السوفييتية، فالأساس بالنسبة لهم هو المصلحة: والمهم في الأمر هو أن يكون نظام الحكم زبوناً ممتثلاً، حتى ولو كان عقائدياً شيوعياً أيضاً، «فشيوعية الفجل» «أي حمراء المظهر وبيضاء اللب» تبدو للروس بطعم البندورة (الطماطم) الحمراء، وقد لوحظ أن السوفييت في الآونة الأخيرة يشحذون أسنانهم في القرن الأفريقي فيقدمون في البداية طبقاً تلو آخر، وفي عمليتهم بينوا بكل وضوح كيف تنقلب «صداقتهم» بسرعة عند توفر فرص جديدة.

فأثيوبيا ظلت حتى عام ١٩٧٤ من أقرب أصدقاء الغرب، وفي ظل حكم الإمبراطور هيلاسي لاسي بقيت مدة طويلة من أكثر حلفاء الولايات المتحدة ثباتاً التي تربطها بها أوثق العلاقات في أفريقيا السوداء، وفي الوقت ذاته كان الروس يراقبونها بشفاه متلمظة بينما كان حلفاؤهم في كوبا وغيرها يقومون بتغذية حركة انفصالية مسلحة في اريتييريا . وهو اقليم له موقع استراتيجي في شمال غربي أثيوبيا على محاذاة العربية السعودية تماماً عبر البحر الأحمر.

وبسبب المجاعة التي اكتسحت البلاد عام ١٩٧٤ أطيح بهيلاسي لاسي بإنقلاب عسكري، وقامت مجموعة راديكالية من ضمن الانقلابيين بفرض سيطرتها على الحكومة الثورية، وقام الحكام الجدد بقطع علاقات البلاد مع الغرب، وأقاموا علاقات مع الشرق عوضاً عنها، وبتوطيد صداقة موسكو مع أثيوبيا، فترت علاقاتها بأريتيريا، وإثر ذلك لم يخسر الاريتيريون دعم كوبا لهم فحسب، بل سرعان ما وجدوا أنفسهم يقاتلون ضد الجنود الذين تمولهم موسكو من البحر الكاريبي، أي من البلد الذي كان الاريتيريون أنفسهم قد تلقوا التدريب فيه قبل فترة وجيزة.

وقد كان لتحول علاقة السوفييت المفاجيء مع أثيوبيا تكاليفه بالنسبة للاتحاد السوفييتي، حيث أن الصومال المجاور لأثيوبيا كان، ولسنوات عدة، بشكل قاعدة روسيا الأولى من أجل بسط نفوذها في المنطقة؛ ومع أنها لم تكن قد دارت بشكل نهائي في الفلك السوفييتي، فإن الصومال

كانت قد وقعت معاهدة صداقة مع موسكو، وكانت تتلقى تسليحها من الروس وشغلت دور العميل الذي يقدم الولاء للاتحاد السوفييتي في القرن الأفريقي، وكان للصومال نزاع إقليمي مرير مع أثيوبيا، حيث أنها كانت تدعي امتلاك اقليم أوغادين في أثيوبيا، وقد أيدت موسكو ادعاءها ذاك، وبدأ عندئذ الروس بالتراجع عن ذلك التأييد، فما كان من الزعيم الصومالي، سياد باري، إلا أن أخذ يبحث عن أصدقاء في مكان آخر.

وفي صيف عام ١٩٧٧ قام سياد باري بشن هجوم على إقليم أوغادين، وتمكنت قواته في بداية الأمر من دحر القوات الأثيوبية، وعندها قام الروس بإرسال حوالي ٢٠٫٠٠٠ جندي من القوات الكوبية إلى أثيوبيا، وزجت تلك القوات ضد الصومال، وضد الأريتيريين، كما قام الروس بإقامة جسر جوي لنقل ما قيمته ٢ بليون دولار من الأسلحة، وثلاثة آلاف خبير سوفييتي إلى أثيوبيا، مما أثر على قلب الميزان هناك، وفي أوائل عام ١٩٧٨ سحب سياد باري القوات الصومالية من صحراء أوغادين، وقام بردة انتقامية ضد مساعدة السوفييت لاثيوبيا، وذلك بطرد الروس من الصومال، غير أن السوفييت جعلوا من أثيوبيا مصيدة سياسية، ومن أجل المحافظة على بقاء نظام الحكم الاثيوبي توجب الاستمرار في «تثبيت» الأسلحة السوفييتية إلى جانب الآلاف من القوات الكوبية والخبراء الروس في ذلك البلد، وهكذا فقد بادلوا بلداً عدد سكانه ثلاثة ملايين ببلد آخر عدد سكانه عشرة أضعافه، وفقدوا القاعدة البحرية الأساسية التي كانوا قد بنوها في بربره في الصومال، لكنهم قد كسبوا المرفأ الأثيوبي في مصوع حيث توشك أعمال إقامة قاعدة، أفضل من حيث موقعها الاستراتيجي، على الانتهاء.

ترى أي نوع من أنظمة الحكم يريده السوفييت؟

سؤال يصوره أمريكي على النحو التالي:

«مهارة لتسلم قيادة خيالية فعالة هي ما يفضله السوفييت في حلفائهم الأفريقيين، وفي هذا الصدد يكون الكولونيل هيل مينغستوميريام في أثيوبيا - الذي دخل إلى اجتماع لرئاسة الحكومة في عام ١٩٧٧ وأطلق النار على زملائه - هو مثال القائد الذي يبغون».

فلم يقصر مينغستو نواياه على أثيوبيا، بل قام بانتهاك حرمة الحدود السودانية، وتوجب على السودان أن تستقبل أكثر من ٣٠٠٫٠٠٠ أثيوبي ممن هربوا من «إرهاب مينغستو الأحمر»، وهكذا فقد زرعت بذرة جديدة للإضطراب في التربة الأفريقية، تغذيها موسكو، كما أن الاتحاد السوفييتي كسب قواعد كبيرة، ومرافيء، وقاعدة أنطلاق للقوات الكوبية، وقمعاً استراتيجياً، يؤدي موقعه بالوصول إلى باقي المناطق الأفريقية، وسقطت الدولة الأفريقية الوحيدة، باستثناء ليبيريا، التي لم تخضع أبداً للاستعمار الأوروبي، تحت نير الامبريالية الشيوعية، وأصبحت العربية السعودية ذات الاهتمام الكبير بطاقاتها مهددة الآن: حيث أن القرن الأفريقي بشكل مخلباً، تحيط كماشته الآن بشبه الجزيرة العربية، فجبال أثيوبيا تطل على رمال الصحراء السعودية عبر البحر الأحمر.

فالنشاطات السوفييتية في أفريقيا، تقلل من قيمة واحدة من التبدلات الاستراتيجية في السنوات الأخيرة، ألا وهي: أن الاتحاد السوفييتي كقوة عالمية، يقوم بفرض ضغط مباشر ليس على الأقاليم المتاخمة له فحسب، بل حيث تبدي الفرصة نفسها.

وتقوم موسكو باستخدام القوات الكوبية المنقولة بالطائرات السوفييتية، بالتسلل عبر الحدود الوطنية، للضرب عمقاً في قلب أفريقيا، وبعد أن زال الآن الاستعمار الأثيوبي من أفريقيا، قامت الامبريالية السوفييتية بالتحرك لتحل مكانه، وتشكل البلدان الأفريقية الجديدة إغراءاً، سيما وأنها تسيطر على المواد الحيوية الخام التي يتطلبها المجتمع الصناعي الحديث، كما أنها تعتبر سهلة المنال، بسبب عدم استقرارها، وبسبب الأولويات التي يضعها العديد من قادتها.

وفي عام ١٩٧٥ انتهى الاستعمار البرتغالي، الذي دام أربعة قرون، في أنغولا وموزامبيق، أما الآن فبدلاً من وجود روابط استعمارية مع البرتغال، فإن للبلدان إياهما: «معاهدات صداقة» مع روسيا، كما أنهما يعجان بأسلحة سوفييتية حديثة، ويهددان كل من أشار إليه بريجينيف من قبل «الخزانين المعدنيين في وسط وجنوبي أفريقيا»، فكلاهما يحدان مجتمعين كل بلد يحتوي على ذلك «الخزان»، وتماماً كما كان السوفييت يتطلعون إلى نفط العربية السعودية عندما تحركوا إلى الصومال وأثيوبيا، فهم يتطلعون إلى هذه المصادر المعدنية عندما يتحركون إلى أنغولا وموزامبيق.

إنه في أنغولا استخدم السوفييت لأول مرة القوات الكوبية بغية فرض السيطرة الروسية على أفريقيا، فلأكثر من عقد من الزمن، أثناء النضال من أجل الاستقلال، كانت موسكو تقدم المساعدة إلى الجبهة الشعبية لتحرير أنغولا (م.ب.ل.آ.)، وهي قوة (أنصار) ماركسية، وعندما غادر البرتغاليون البلاد، كانت هناك أيضاً مجموعتان أخريتان دخلتا حلبة الصراع على السلطة في البلد المستقل حديثاً وهما: (ف.ن.ل.آ.) و (بو.ن.ت.آ) واستمر القتال بينهم، وفي كشف الحساب النهائي، قامت الولايات المتحدة بقطع المساعدة عن المجموعات الموالية للغرب، في حين قام السوفييت بنقل ١٥،٠٠٠ جندي من القوات الكوبية جداً لمساعدة الجبهة الشعبية لتحرير أنغولا (م.ب.ل.آ)، وليس مدهشاً ما حدث بعد هذا، فلقد انتصرت هذه الجبهة، وأصبحت أنغولا مركزاً سوفييتياً متقدماً.

وفي أواخر عام ١٩٧٩، قام جوناس سافيمبي، زعيم (يونيتا) [يو.ن.ت.آ] بزيارة الولايات المتحدة ساعياً للحصول على دعم لمواصلة حرب العصابات ضد سادة أنغولا الجدد، وكان سافيمبي قد حصل على الثقة بسبب نضاله من أجل التحرر من الحكم البرتغالي فيما مضى، أما اليوم فإنه يناضل للتحرر من حكم الروس، واشتكى قائلاً: «هناك غياب كامل في الولايات المتحدة لمقاومة العدوان الروسي، والكوبي» في أفريقيا، كما أبدى امتعاضه عندما قال: «إن هناك نمطاً جديداً من الإمبريالية يسيطر على قارتنا»، وأردف يقول: عن الروس والكوبيين: «إن اولئك الذين كان ينتظر منهم أن يكونوا أصدقاءنا، وهم الذين قدموا المساعدة لنا فعلاً في نضالنا ضد البرتغاليين، يجلبون لنا اليوم طرازاً جديداً من الإمبريالية».

وقال فرانيس اكس، مييار، محرر ناشيونال كاثوليك ريجيستر، في معرض تعليقه، بمرارة، على نقص الدعم الأميركي لسافيمبي «إنه، أي سافيمبي، شاهد على حقيقة أن الولايات المتحدة قد فقدت على الطريق قدرتها على تمييز أصدقائنا الطبيعيين من أعدائنا الطبيعيين، وتلك مهزلة أخرى من مهازل أواخر القرن العشرين . وهي دلالة على بلبلتنا المعنوية . وهي أن «مناضلي الحرية» الوحيدين الذين لا تقدم لهم الطعام ولا الشراب هم أولئك الذين يقرون بقيمنا».

وفي موزامبيق يقوم خبراء عسكريون من ألمانيا الشرقية، منذ عام ١٩٧٨ بتدريب رجال العصابات «الأنصار» من أجل التسلل إلى زيمبابوي روديسيا، كما يدرب رجال العصابات في أنغولا من أجل استخدامهم في ناميبيا إلى الجنوب، كذلك تم حتى الآن إرسال رجال العصابات مرتين من أنغولا إلى زائير شمالاً، حيث قاموا بغزو اقليم شابا، الغني بالمعادن، في زائير، وفي غزوهم لأقليم شابا عام ١٩٧٨ قام رجال العصابات بذبح الخبراء الأوروبيين وأسرهم في مدينة المناجم الرئيسية، كولويزي، ومنذئذ قلة من الأوروبيين هم الذين يرغبون بالعودة إلى شابا، وبذلك تركوا انتاجها من النحاس والكوبالت يتدنى من ٥٠ إلى ٨٠ بالمئة تحت الحد الطبيعي، فالنحاس يعتبر جوهرياً بالنسبة لاقتصاد زائير، والكوبات، الذي أصبح نادراً جداً الآن، مادة ضرورية وأساسية للطيران النفاث، ويجدر بالذكر أن زائير تقوم بتزويد ٦٥% من حاجيات العالم الحر.

وتماماً كما هي أثيوبيا في الشمال، فإن هذه المستعمرات البرتغالية سابقاً، في الجنوب تعتبر مراكز متقدمة أساسية للامبراطورية السوفييتية، فالنفوذ السوفييتي ينتشر كالسرطان الذي يصيب أحد أعضاء الجسم، من هذه المراكز ومراكز روسيا الأخرى في أفريقيا، وهكذا فإن القوات الكوبية و«خبراء» المعسكر الشرقي في زامبيا وتانزانيا، وفي أمكنة أخرى، أصبحوا مألوفين الآن، كما اعتاد المستعمرون الغربيون أن يكونوا من قبل.

وإذا ما واصل الاتحاد السوفييتي تسلله في أفريقيا، فسيكون قد قطع شوطاً بعيداً في تحقيق استراتيجيتة الواسعة بتطويق «مدنية» العالم، وحرمان العالم الغربي الصناعي من الموارد التي لا يستطيع البقاء بدونها، وحتى أن الولايات المتحدة الغنية بمواردها، تعتمد اعتماداً كبيراً على استيراد عدد من المعادن الأساسية، التي تعتبر حيوية بالنسبة للاقتصاد الحديث، فالكروم يقدم دليلاً على الأخطار الكامنة، لاعتمادها على ذلك الاستيراد.

إن غالبية الناس، عندما يفكرون بالكروم، جل ما يخطر ببالهم هي القضبان التي تزين السيارات، أما بالنسبة للمخططين الاستراتيجيين، فالكروم يعني أشياء كالقضبان التي تحمل الكرة، وأدوات الدقة والصواريخ، فطائرة نفاثة واحدة، مثلاً، تحتاج إلى أكثر من ٣٦٠٠ باوند (رطل انكليزي) من الكروم، وكما قال أحد الخبراء «إذا لم تمتلك الكروم فلن تمتلك محركات طائرات من النوعية ذات الدرجة الأولى»، والفولاذ المضاد للصدأ لا يمكن أن يصنع بدون الكروم، وقد توصل مجلس البحث القومي مؤخراً إلى الاستنتاج بأن ضعف إمكانية الولايات المتحدة في مجال الكروم على المدى البعيد أكثر بكثير مما هو عليه الأمر في مجال البترول، وإمدادات الكروم تعاني من

انخفاض حالي، وإننا بحاجة ماسة إليه من أجل إعادة بناء قواتنا المسلحة، وإن مواردنا الداخلية من مناجم الكروم قليلة الكمية وذات مستوى منخفض من حيث نوعيتها، وينبغي علينا أن نستورد ٩٢% من حاجياتنا للكروم، وإن الموردين الأساسيين لنا في الآونة الأخيرة لهذه المادة هما: جنوب أفريقيا التي تمدنا بـ ٣٣% والاتحاد السوفييتي الذي يمدنا بـ ٢٥%.

والأكثر من ذلك، هو أن ٩٦% من احتياطي العالم المعروف بالنسبة للكروم، موجود في اتحاد جنوب أفريقيا وزيمبابوي روديسا.

إن هذا الاعتماد الحيوي يوضح لماذا وجه الروس بصورة خاصة أنظارهم للتدخل في ذلك الجزء من القارة، والذي يستحوذ الاهتمام البالغ للعديدين في الغرب، ألا وهو القسم الجنوبي من أفريقيا، وقلما يقدم الاتحاد السوفييتي على القيام بأي عمل لا غاية من ورائه، وإن غاياته هي دائماً استراتيجية، وليست أخلاقية اطلاقاً، لذلك فإن مساعيه المتواصلة من أجل تحريك المياه العكرة من قبل، وزيادة الطين بلة في جنوب أفريقيا يجب أن ينظر إليها على أنها موجهة من أجل السيطرة على تلك الموارد في ذلك الجزء من العالم، وكذلك من أجل أهمية تلك الموارد بالنسبة للغرب، وقد جاء في أحد التقديرات الرسمية، بأن جمهورية جنوبي أفريقيا وحدها تمتلك عشر ما يمتلكه العالم، من الاسبستوس، وثلاثة أربا فلزات الكرومات في العالم، وأكثر من نصف مجموعة معادن البلاتين، ونصف ذهبه، وثلث فلزاته من المنغنيز، وخمسه من اليورانيوم، وثلث ألماسه: من هنا أعتبر هذا الخزان المعدني ذا أهمية استراتيجية واقتصادية تفوق كل حساب.

وهكذا فإن نحاس وكوبالت زائير، والكروم الروديسي، وذهب وألماس ومنغنيز وبلاتين جنوب أفريقيا، هي من بين الرهانات الاقتصادية التي يقوم السوفييت بممارستها في أفريقيا الجنوبة، وعلاوة على ذلك فإنهم يسيطرون الآن على موانئ ممتازة في أنغولا وموزامبيق، تحيط برأس الرجاء الصالح، لذا إذا وقعت جنوبي أفريقيا تحت سيطرتهم، فإنهم سيسيطرون على المسالك البحرية المؤدية إلى طريق رأس الرجاء الصالح والذي يمر عبره ٧٠% من المواد الخام الاستراتيجية، و ٨٠% من النفط الذي يتدفق ليفي بحاجيات دول حلف الأطلسي الأوروبية، وتعتبر جنوبي أفريقيا أيضاً أول قوة اقتصادية في القارة الأفريقية فهي تقدم ٤٠% من الإنتاج الصناعي في أفريقيا بأسرها، و٢٥% من انتاجها الزراعي.

إن السوفييت يطمحون إلى السيطرة على أفريقيا الجنوبية، وعلى جمهورية جنوبي افريقيا بوجه خاص، لذلك تجدهم يحاولون استغلال المشاكل العنصرية القائمة فيها، بغية إثارة العداء نحو الغرب، وإذا ما استطاعوا، فإنهم لن يتوانوا عن خلق مواجهة عسكرية، واشعال حرب عرقية فيها، لا يمكن تقدير درجة مأساتها ووخامة عواقبها على كل من السود والبيض على حد سواء، وكذلك على القارة الأفريقية برمتها وعلى العالم الغربي، إن تلك الحرب قد تخلف الكثير من الأجزاء المبعثرة لروسيا كي تقوم بالتقاطها.

فالمشاكل العنصرية في جنوبي أفريقيا ذات طابع مختلف، وذلك بسبب اختلاف تاريخ ذلك البلد، بيد أن المشاكل بين المجموعات العرقية والوثنية والقبلية ليست فريدة من نوعها ووقفاً على جنوبي أفريقيا، ففي أقصى شمالي أفريقيا يحكم العرب، وفي بلدان الساحل يدور الصراع بين العرب والسود من أجل السيطرة، وفي تشاد يدور صراع بين المسلمين في الشمال وشعب الصحراء في الجنوب مما أدى لقيام حرب أهلية عمرها الآن ١٢ سنة . جميع هذه الأمور تعتبر بمثابة دليل على المشاكل التي يمكن أن تسببها الانقسامات العرقية، وفي أفريقيا، جنوب الصحارى يسيطر السود سيطرة تامة، لكن ذلك لم يحل دون أعمال عنف قبلية لا تقل شراً عن العرقية، وقد حدثت كذلك حروب داخل القبيلة الواحدة بسبب تنافس زعمائها . كثورة كاتانغا في الكونغو والحرب الأهلية في نيجيريا التي تسببت بمقتل ما قد يزيد على مليون من الايبو في اقليم بيافرا، والحرب الدامية التي نشبت بين الهوتو والتوتسي في بيوروندي الصغيرة عام ١٩٧٣، حيث قتل ١٠٠ر٠٠٠ شخص، إلى جانب نزاعات عديدة أخرى، كذلك لم يخل الأمر من العنصرية بالنسبة للأفارقة السود، ففي أفريقيا الشرقية صودرت أملاك أولئك الذين ينحدرون من أصل آسيوي، وطردوا خارج البلاد، على أسس عرقية محضة، وفي غينيا الاستوائية قام ديكتاتور، تدعمه روسيا والصين وكوبا وكوريا الشمالية، على اجبار ما يقرب من ثلث سكان ذلك البلد على الفرار إلى المنفي، كما أن الكثيرين ممن بقوا واجهوا الموت في معسكرات عمل اجبارية، أو أودعوا السجن، وبالنسبة للعديد من الأفريقيين كانت فوائد «حكم الأكثرية» ضئيلة لدرجة أنه، وفقاً لتقارير منظمة العفو الدولية، ثمانية دول أفريقية تصنف بين أسوأ خمس عشرة دولة في العالم تنتهك فيها حقوق الإنسان، فعلى ضوء الخبرة التي توفرها بقية الدول الأفريقية، نجد أن حكم الأكثرية الفوري، حتى لو كان ممكناً، لن يكون بالتأكيد أفضل شيء للأفارقة في جنوبي أفريقيا، سوداً كانوا أم بيضاً.

وفي الميدان الأوسع للصراع العالمي تعتبر جنوبي أفريقيا أرض معركة أساسية، وهي في طريقها لتصبح بنفس مستوى أهمية منطقة الشرق الأوسط ومن هنا كان ينبغي علينا ألا نسمح، نتيجة لمثاليات في غير مكانها، لسياستنا إزاء أفريقيا الجنوبية أن تصبح رهينة عواطف القادة الأفارقة، الذين لا يأبهون، ولا يهتمون بقضايا الخطر القائمة هناك بين الشرق والغرب، ونتيجة لنفس المثالية، التي في غير مكانها أيضاً، يجب علنيا ألا نتآمر من أجل القضاء على المجتمعات التي تشق طريقها نحو التقدم في كل من الميدانين الاقتصادي والاجتماعي، بل علينا أن نبين بوضوح أدلة وشواهد نجاحاتنا حيث آخرون غيرنا في القارة . بما فيهم حلفاؤها الحميمون الديكتاتوريون . قد أخفقوا بشكل واضح.

وتماماً كما حدث التحول في جنوبنا بصورة دراماتيكية، بعد سنوات من القول «أبداً»، تتحول جنوبي أفريقيا الآن، فقد ألزم رئيس الوزراء بوثا الحكومة ببرنامج «التأقلم لتفادي الثورة»، وجاء على لسان أحد أعضاء البرلمان المعتدلين، في معرض تعليقه على ذلك، قوله: «كثير من التغيرات قد حدثت هنا خلال الثمانية عشر شهراً الماضية، لدرجة أنها نافت على التغيرات التي حدثت خلال الثلاث وعشرين سنة الماضية من تاريخ البلاد».

وسواء في جمهورية جنوبي أفريقيا، أو زيمبابوي روديسيا، فإن أولئك الذين يعملون في سبيل حل تطويري بدلاً من حل ثوري لمشاكل بلدانهم، يجب أن تحظى المشاكل لديهم بمساعدة العالم الودية، وألا تعامل كالمنبوذ دولياً، فلقد قدر بأن ترتبط المصالح الاستراتيجية الحيوية للغرب بالاستقرار في هذين البلدين وفي بقية أجزاء أفريقيا، لذلك ينبغي ألا نكون تسويغيين في الدفاع عن تلك المصالح، كما ينبغي ألا نكون تسويغيين، ونقف بثبات إلى جانب أولئك الذين يوسعون نطاق الحرية ويقومون بذلك على نحو سريع.

والتهديد الحقيقي لسيطرة البيض في أفريقيا خلال ما تبقى من القرن الحالي، ليس من النظام القديم، بل إن الخطر الحقيقي من النظام الجديد . أي العبودية الجديدة، التي يحذر منها جوناس سافيمبي، والمفروضة، والمحافظ عليها، من قبل الإمبريالية السوفييتية، فهل هناك في أية منطقة لا يسيطر عليها السوفييت حكم للأكثرية، ومهما يكن لونها، فإن حكم الأقلية هو جوهر النظام السوفييتي، ومهما كان لون الدمية المحلية، فإن خيوطها تسحب من موسكو . وليس هناك وجوه سوداء في المكتب السياسي للاتحاد السوفييتي، والسوفييت ليسوا موجودين في أفريقيا كي «يحرروا»، بل إنهم موجودون فيها ليسيطروا، ويهيمنوا، ويستغلوا، وليستبدلوا السيادة البيضاء القديمة بأخرى بيضاء جديدة، فالحكم الاستعماري الأبيض، هو حكم استعماري أبيض، سواء مورس من لندن أو من موسكو.

فعلى مر التاريخ هناك العديد من الفظائع التي ارتكبت باسم المثل العليا، والانفعال دليل ضعيف للسياسة. فالتسلط العنصري لكثير من القادة الأفارقة، في حين أن ذلك مفهوم فيما يتعلق بأولوياتهم، يجب ألا يملى علينا، وإن الحرب المقدسة التي ينادون بها للقضاء، في جنوبي أفريقيا، على جميع آثار الامتياز الخاص أو الحماية الخاصة للأقليات البيضاء، قد تكون حرباً دامية حتى أبعد من مقاييس عيدي أمين، كما أنها ستهدم البنى الاقتصادية والسياسية التي يعتمد عليها كل من السود والبيض، لنيل مثل الحرية والأزدهار اللذان ينعمون بهما .

وليست الحرب العرقية ضد جنوبي أفريقيا طريقة لأنهاء العنصرية في جنوبي أفريقيا، كما أن الحرب الاقتصادية ضد أكثر بلدان القارة تقدماً اقتصادياً، لا تحل هذه المسألة، فعندما خضنا في الولايات المتحدة حرباً أهلية، بصورة جزئية حول مسألة العبودية، احتجنا إلى قرن آخر من الزمن حتى محيت آثار التمييز العنصري، التي كانت مخطرة بالقانون، وبتاريخنا الذاتي قلما نخلو من الخطيئة لحد يجعلنا نرمي الحجرة الأولى . أو حتى الثانية، وبدون الصفح عن السياسات العنصرية في جنوبي أفريقيا، يجب أن نكون أكثر فهماً للحاجة إلى تغييرها بشكل سلمي خلال مدة من الزمن، وأن نكون أكثر حساسية إلى القضايا الأخرى، إلى جانب قضية العرق، والتي تشكل خطراً على مستقبل ذلك الجزء المعذب من القارة.

❖ ❖ ❖

الأحشاء البضة

بتركيز أنظارنا على الأزمات المتتالية في أوروبا حلف الأطلسي، والشرق الأوسط، وجنوب شرقي آسيا، وأفريقيا، غابت عن بصرنا رؤية عالم القوة المتعاظم إلى الجنوب منا، في أمريكا اللاتينية، فلقد تم القبول، من الناحية السياسية العامة، منذ زمن بعيد بأننا «بلد جزيرة»، ولكن إذا ما أبقينا على إهمالنا السابق لهذه المنطقة، قد تسقط ذات يوم لنجد أن عدونا قد أصبح على اليابسة في «القارة الجزيرة» إلى الجنوب منا، فلقد أصبح للسوفييت فعلاً مراكز نفوذ متقدمة في الجزر الواقعة على محاذاة الشاطئ، ككوبا وبعض جزر الأنتيل الفقيرة الأخيرة، ومع رؤية هذا الكتاب للنمور، يمكن أن يكونوا قد أصبحت لهم مثل تلك المراكز على اليابسة في أمريكا الوسطى.

فأمريكا اللاتينية تحتل الصفحات الأولى في صحفنا عادة، عندما تقوم ثورة، أو تقع هزة أرضية، أو أعمال شغب بسبب مباراة في كرة القدم، بيد أن تلك المنطقة تستحق أن نوليها من اهتمامنا ما يعادل ما نوليه لأوروبا وآسيا وأفريقيا، وحتى في بعض الأحيان أكثر من ذلك، نظراً لقربها منا.

وتعتبر أمريكا اللاتينية هدفاً سوفيتياً اولياً لأسباب رئيسية ثلاثة: فهي تحتوي على مصادر طبيعية هائلة، ومع نهاية هذا القرن سيصبح عدد سكانها أكثر من عدد سكان الولايات المتحدة وأوروبا مجتمعتين، ولقربها من الولايات المتحدة . فهي في واقع الأمر أحشاءنا البضة، وكسبت بلدان أمريكا اللاتينية حريتها، بدرجة كبيرة نتيجة لمثالنا الذي قدمناه لها، وقد استطاعت تلك الدول أن تحافظ على تلك الحرية خلال سنواتها الأولى بسبب غطاء الحماية الذي ينشره مبدأ مونرو عليها، وبسماحنا بإقامة دولة عميلة للسوفييت في الأمريكيتين . وهي كوبا . بدونا لهم وكأننا تخلينا عن ذلك المبدأ، كما أنهم يلمسون مقاومة بسيطة من جانبنا في وجه إقامة النفوذ الكوبي في جزر البحر الكاريبي، وحتى في قلب أراضي أمريكا الوسطى الآن، وينظرون إلينا بأننا نتخلى عن أصدقائنا على أسس عدم نقاوتهم فيما يتعلق بقضية حقوق الإنسان، ويلاحظون بأن السوفييت لا يتخلون عن أصدقائهم بشأن المسائل الإيديولوجية، طالما أن هناك توافق في المصالح، ولقد كانوا يرقبون كيف أن أصدقائنا في فييتنام الجنوبية، ولاوس، وكمبوديا، وأنغولا، وموزامبيق، وأثيوبيا، وأفغانستان، وإيران، قد هزموا وأطيح بهم، وبمساعدة كوبا في بعض الحالات، ومن هنا كان من الصعب عليهم أن يتصوروا إلى أي مدى يمكنهم الاعتماد علينا في المستقبل.

وهناك العديد من يستخدمون عبارة «أمريكا اللاتينية» وكأنها كتلة غير مميزه الهويه، لكن أمريكا اللاتينية، في الواقع أوسع رقعة بكثير من أوروبا، وتشتمل على تنوع كبير من الشعوب، فكل بلد فيها، له تقاليده القديمة، وكبرياؤه في الاستقلال، والنزعة الفردية وتجمع بينهم جميعاً ديانة مشتركة، وبنهاية هذا القرن سيكون نصف عدد الروم الكاثوليك في العالم، في أمريكا اللاتينية، هذا وإن بعض بلدانها كالأرجنتين وأرغواي وكوستاريكا تحتوي على سكان غالبيتهم من أصل أوروبي مطلق، أما الدول الأخرى كالمكسيك والبيرو، وكولومبيا، والأكوادور ففيهم مجموعات كبيرة من الهنود، ويحتوي كثير من تلك البلدان على أعداد كبيرة من الناس ذوي الخلفيات الألمانية

والإيطالية، والأوروبية الأخرى إلى جانب الأسبانية، وفي البرازيل إنضم الناس الذين ينحدرون من أصل أفريقي وبرتغالي لإنتاج مدينة جديدة، وفضلاً عن ذلك، فهناك فوارق كبيرة بين هذه البلدان، من حيث درجة التطور والتقدم ومن حيث الحجم، فإنهم يتراوحون بين البرازيل العملاقة، وبين درجة صغيرة جداً، كما هي الحال بالنسبة للسلفادور.

فالبرازيل والمكسيك والأرجنتين في طريقها السريع كي تصبح دولاً صناعية، وعدد سكان البرازيل يفوق عدد سكان بريطانيا وفرنسا مجتمعتين، وهو يتجاوز المئة مليون، كما أنها في بعض المجالات أصبحت الآن عملاقاً صناعياً، عندما احتلت عام ١٩٧٨ المرتبة العاشرة في العالم من حيث مجموع الإنتاج القومي.

وتقطع المكسيك أشواطاً بعيدة المدى نحو التطور، وستمكنها عائدات احتياطي النفط الهائل الذي اكتشف مجدداً من التحرك بسرعة نحو تحقيق مستوى لعيشة أفضل لسكانها البالغ عددهم ٧٠ مليوناً، لكن هذا الغنى في الوقت ذاته يجعلها هدفاً مغرياً للتدمير.

والأرجنتين، بسكانها المتجانسين، والمتمتعين بدرجة عالية من الثقافة مندفعة بكل حرص، ومنهمكة كالبرازيل، ببناء سدود ضخمة لتأمين الكهرباء والطاقة لصناعتها المبرمجة، وهي لا تحتاج سوى الاستقرار، كي تمضي قدماً نحو الأمام وبصورة أسرع.

وفي تشيلي ركزت الفئة العسكرية الحاكمة على ما أسمته «مقامرة جريئة لتحويل البلاد إلى مخبر اقتصاد سوق حرة» فقد أغلقت الاستثمارات وقطعت الضرائب، وسن قانون إصلاح الضريبة، ويركز النقاد بشكل مطلق على القمع السياسي في تشيلي، في حين تتجاهل الحريات، والتي هي تناج الاقتصاد الحر، ففي كوبا ليست هناك حقوق سياسية، ولا حقوق اقتصادية أما في تشيلي فإن الحقوق الاقتصادية هي الممهدة للأولى، فبدلاً من الإلحاح على الكمال الفوري من تشيلي، علينا أن نشجع التقدم الذي تحرزه.

وأبدت البلدان الآندية دلائل تبشر بالخير، عن تعاظم قدرتها على العمل سوية، فثروة فنزويلا النفطية، والتنوع في كولومبيا، ونفط الإكوادور، والمعادن البيروفية يمكن أن تستخدم من أجل بعث أمل جديد في المنطقة المتخلفة.

إن أمريكا الوسطى والكاريبية مناطق حساسة بسبب موقعها الاستراتيجي، ولأنها من بين أضعف المناطق في نصف الكرة الأرضية، من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية، وتقوم الآن حكومات راديكالية في غرينادا، وسان لوسيا، وقد بذلت كوبا المساعي لحشر نفسها في جامايكا، وباناما، كما أنها تدخلت في نيكاراغوا، وقد يشكل ذلك الخطوة الأولى على الطريق التي تؤدي عبر هندوراس، والسلفادور، وغواتيمالا، إلى عتبة حقول النفط المكسيكية الواسعة في منطقة تيهوانتيبيك إسثموس، وقد تساور السوفييت وحلفاءهم، أنفسهم، للقيام في أمريكا اللاتينية بمحاولة تكرار عملية الهصر التي قاموا بها في أفغانستان، واليمن الجنوبي، وأثيوبيا، حول المناطق المنتجة للنفط في الشرق الأوسط، وكما قال كل من رولاند إيفانس وروبرت نوفاك: «إن

السلطات في أمريكا الوسطى تتساقط»، وإن السبب الرئيسي لهذه التراجعات هو رجل واحد على جزيرة واحدة، ألا وهما: كاسترو وكوبا.

فإذا ما توصلت أنظمة حكم عملية للسوفييت للسلطة في أمريكا الوسطى، فإن نصف الكرة الغربي سينشطر إلى شطرين من «خصره النحيل»، وستهدد مثل أنظمة الحكم هذه من مواقعها في أمريكا الوسطى، أكبر منتجين للنفط في أمريكا اللاتينية: فنزويلا والمكسيك، وكذلك ستهدد قناة باناما، وعليه فليس بوسعنا أن نسمح بحدوث مثل هذا الشيء.

وهكذا يتعين علينا إحياء مبدأ مونرو، وإعادة تحديده لمجابهة العدوان غير المباشر الذي لم يكن تهديداً قبل مئة وخمسين سنة، ويتعين على الولايات المتحدة، والحالة هذه، أن تبين بشكل واضح بأننا سنقاوم التدخل في أمريكا اللاتينية، ليس من قبل الحكومات الأجنبية فحسب، بل التدخل من قبل حكومات لاتينية أمريكية خاضعة لقوى أجنبية، فمن أصل مجموع عدد سكان كوبا، البالغ عشرة ملايين، هناك أكثر من ٤٠٫٠٠٠ يقومون بدور المقاتلين الوكلاء، من أجل التوسع السوفييتي، في أفريقيا، وهذا العدد يعادل إرسالنا لمليون أمريكي للقتال ما وراء البحار. أي ضعف العدد الذي كان لدينا في فييتنام تقريباً، إن كوبا الصغيرة قد أصبحت الآن، بإشراف السوفييت، قوة إمبريالية، كما جعل منها كاسترو منطقة كارثة، ولذا يجب ألا يسمح له بأن يُدخل، بدعم من السوفييت، أنظمته السياسية، والاقتصادية غير الموثوقة، إلى البدان الأخرى، في أمريكا اللاتينية، ولا بد من المراقبة الدقيقة، والخالية من أي خطأ لأي مسعى للتسلط، ويجب أن يوضع كل من السوفييت والكوبيين على علم مسبق بأن أي تدخل هنا سيلقى من جانبنا أكثر بكثير من مجرد احتجاج ديبلوماسي.

وفي الوقت ذاته، يترتب علينا أن نعمل مع بلدان أمريكا اللاتينية في سبيل بناء اقتصادها، ومساعدة شعوبها على التخلص من الفقر الذي ما زال نصيب الكثير منهم، فالأخفاق الكثيب للتحالف من أجل التقدم في تحقيق أهدافه الكبرى المعلنة، في «حرب على الفقر» في أمريكا اللاتينية، لا يمكن كسبه بالاعتماد الرئيسي على ذرائع مساعدة الحكومة، فمساعدة الحكومة محددة بالميزانيات، أما الاستثمارات الخاصة، فليست محددة إلا بالفرص، ولكي تجذب الاستثمارات التي تحتاجها، ينبغي على بلدان أمريكا اللاتينية، أن تقدم ضمانات ضد المصادرة، وتضمن وجود حوافز كافية، ومن جانبهم يترتب على الأمريكيين والمستثمرين الآخرين، أن يقدموا بهدف التطوير، لا الاستغلال، وإذا ما بدأت بلدان أمريكا اللاتينية بالتصنيع، يجب على الأسواق الغربية أن تفتح في وجه منتوجاتها، وعلى الولايات المتحدة، بحكم علاقاتها الخاصة بتلك البلدان، أن تقدم تعرفه مفضلة لمنتجات أمريكا اللاتينية.

وحتى أن التطور الاقتصادي سيجعل أمريكا اللاتينية هدفاً مغرياً للتوسع السوفييتي، ولكن بالتمكن من اثبات أن الأنظمة الاقتصادية الحرة تنتج التقدم، فإن القادة السياسيين في أمريكا اللاتينية سيشدون قبضتهم في وجه العناصر اليسارية الثورية.

وفي كل عمل تقوم به يجب ألا يغرب عن بالنا كيف سيكون صداه لدى أصدقائنا الأباة والحساسين في أمريكا اللاتينية، أكثر مما سيكون لدى أي شعب آخر في العالم، وإنه لمن الحيوية بمكان أن نعاملهم معاملة الشركاء، وليس كما يعامل المرضى، وكونهم عمالقة يتعاظمون في هذه المنطقة، يتعين علينا أن نعترف بمركزهم الجديد في العالم.

ويتعين علينا ألا نأخذهم على محمل من الجدية فحسب، بل أن نتعامل مع كل بلد منفرد، كما نفعل تماماً مع بلدان أوروبا، ويجب ألا ننسى بأنهم شعب أبي لا يمكننا حمله بقسوة على تبني قيمنا، وجعلها قيمة.

❖ ❖ ❖

الإرهاب

إذا كانت الحرب العالمية الثالثة تعرف من ناحية بوساطة مد من اللاجئين، فإنها من ناحية أخرى تعرف بوساطة تكتيك الإرهاب، فالتعريف الأول يبين التكاليف الإنسانية، والثاني يبين المفهوم السوفييتي اللانساني حتى لأفضل المقاييس الأساسية للمدينة، وهكذا فقد قاموا خلال السنوات الأخيرة بتصعيد حملتهم الإرهابية على نطاق شامل وفعال.

فكثير من أولئك الذين يضفون الصفة الروماتيكية على الثورة، يفضلون اعتبار الإرهاب أنه مجرد واحد من أمراض المجتمع، أو بمثابة ردة فعل غاضبة على ظروف اجتماعية لا تطاق، لكن الإرهاب «المعدوم الشعور» ليس في الغالب معدوم الحس كما يتراءى للبعض، ذلك أنه بالنسبة للسوفييت وحلفائهم أداة مدروسة من أدوات السياسة الوطنية، والتآخي الدولي للإرهابين، مع الاتحاد السوفييتي كرأس مدبر، هو الذي مكن الروس من شن حرب «بالتحكم عن بعد»، على حد تعبير السيناتور هنري جاكسون، في مختلف أنحاء المعمورة، والأعضاء الآخرين الذين يضمهم النادي الدولي هم: كوريا، وكوبا، واليمن الجنوبي، وألمانيا الشرقية، وليبيا، ومنظمة التحرير الفلسطينية فهم يقومون بتدريب العديد من شذاذ الآفاق . وكثير منهم يتلقون تدريبهم في جامعة باتريس لومومبا للصداقة في موسكو، والتي أحسن اختيار اسمها . على فنون الاختطاف، والاغتيال، وللتخريب وصنع المتفجرات، ثم يوفدون بعد ذلك لترويج البضاعة، وإن سادتهم حريصون دائماً على إبقاءهم مزودين بالسلاح بشكل جيد، وعلى تأمين الملاذ لهم إذا اقتضت الحاجة.

ومن أشهر خريجي جامعة باتريس لومومبا الذي استخدمتهم الاستخبارات الروسية (ك.ج.ب)، هو الإرهابي المولود في فنزويلا، والمعروف باسم «كارلوس»، أو «الجاكال»، فقد كان الحزب الشيوعي الفنزويللي هو الذي أمن الطريق لكارلوس من أجل «دراسته»، وقد استخدمها في اختطاف من أجل الفدية، أحد عشر شخصاً من المشاركين في مؤتمر وزراء النفط لدول منظمة أوبك عام ١٩٧٥، وقام

كذلك بقتل عدد من رجال الأعمال، وعملاء المخابرات والمارة البريئين، وقد اتسعت شهرة كارلوس، وذاع صيته ومع ذلك هناك العديد من أمثاله وإن كانوا أقل شهرة منه.

وقد كان للسوفييت، وليبيا، ومنظمة التحرير الفلسطينية باع كبير في الحملة التي أطاحت بالشاه، وجاءت الفوضى التي عمت إيران بعد سقوط الشاه، لتشكل وسطاً خصباً من أجل ترعرع التعصب والإرهاب مجتمعين، حيث أمكن استغلال ذلك الوسط من قبل أولئك الذي تقوم سياستهم المحسوبة على أساس التعصب والإرهاب، وهكذا فإن الطلاب الذين استولوا على السفارة الأمريكية في طهران، واحتجزوا الرهائن الأمريكيين، لا شك بأنهم قد تلقوا تدريبهم على أيدي خبراء بأمور غير التي ينص عليها القرآن، وإن مدبري ذلك الإجراء قد أعطوا للإرهاب الدولي أبعاداً جديدة في المكر والسفاهة، ولم يلق السلاح بل إنه انتقل إلى أيدي الرعاع.

وفي الوقت الذي كان يحتجز فيه الرهائن الأمريكيون، قام فريق آخر من الإرهابيين، عبر الخليج العربي، بشن هجوم مدبر على أقدس مقدسات الإسلام: حرم الجامع الكبير في مكة، وقد قام بالهجوم فريق قوامه خمسمائة شخص، تقودهم مجموعة قليلة، يبدو أنها مدربة في اليمن الجنوبي. وهي الدولة الموالية للسوفييت في شبه الجزيرة العربية، وقد تستر المهاجمون بستار التعصب الديني، إلا أن غايتهم الأساسية كانت سياسية، ألا وهي زعزعة الاستقرار في العربية السعودية، وكان الإرهابيون شديدي الحرص على إخفاء حقيقة أصلهم، لدرجة أنهم قاموا بحرق وتشويه وجوه قتلاهم، وكان قادتهم من الضالعين في تكتيك حرب العصابات «الأنصار»، الأمر الذي مكنهم من تهريب كميات كبيرة من الأغذية والأسلحة الحديثة إلى داخل المسجد، وإخفائها لمدة أسبوعين قبل أن يتم الاستيلاء عليها في نهاية الأمر من قبل ١٠,٠٠٠ جندي من الحرس الوطني بعد أن لقي المئات حتفهم أثناء القتال.

والهجوم الساندي في نيكارغوا، قد تم بمساعدة ما أسماه المعلق الصحفي البريطاني روبرت موس: «لواء شيوعي دولي صغير، يضم متطوعين من منظمة الإرهاب السرية في ألمانيا الغربية».

وفيديل كاسترو، كان معنياً بالنشاطات الإرهابية في أمريكا اللاتينية قبل مجيئه إلى السلطة في كوبا، وهو يقوم بتمويلها منذ ذلك الحين.

ويشغل الإرهاب أيضاً دوراً رئيسياً في «حروب التحرير» الشيوعية، وقد أوضح الخبير البريطاني في الحرب الثورية، السير روبرت تومبسون: أن من الضروري فهم العلاقة بين قضية العصابات وبين تنظيمها، والسبب الذي يجر الناس إلى تنظيم العصابات «الأنصار» ليس، في معظم الحالات، حب الشيوعية، بل كره الأجانب، فعديد من الناس كانوا قد انضموا إلى قوات منظمة ماوتسي تونغ، لكي يقاتلوا ضد الغزاة اليابانيين بين عامي ١٩٣٧ و ١٩٤٥، وكذلك قوات تيتو للقتال ضد النازيين في الحرب العالمية الثانية، وقوات هوشيه منه للقتال ضد الفرنسيين بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٥٤، وفي عديد من الحالات لم يكن الشيوعيون سوى مجموعة واحدة من بين عدة مجموعات تقاتل الأجانب، لكنهم كانوا من أصلبها عوداً وأشدها فعالية.

ويبين تومسبون أنه: «حالما يتحقق الفرض الأساسي، تبقى كفاءه تنظيم الأنصار هي القضية الأساسية»، ترى كيف سيتمكن الشيوعيون من تجميع السكان حالما يطرد الفرنسيون واليابانيون، أو النازيون؟ فحب الشيوعية والكراهية ضد الخصم لا يكفيان، بل إن الإرهاب ضروري للحفاظ على التنظيم، ولمساعدة القادة في الحفاظ على السلطة، وقد قام مؤخراً الصحفي الألماني البارز يوفي سيميون نيتو بتقديم صورة واضحة لكيفية استخدام عصابات الشيوعيين للإرهاب، من أجل الوصول إلى غاياتها، فقد كتب سيميون نيتو، الذي قام بمرافقة كتيبة فييتنامية جنوبية إلى قرية كان الفييتكونغ قد حاصروها عام ١٩٦٥، كتب يقول: «رأيت في القرية رئيسها وزوجته وجميع أفراد أسرته معلقين بالأشجار والأوتاد، وقد بلغ عددهم أثنى عشر، بما فيهم طفل، لقد قطعت مذاكير الذكور، وأدخلت في أفواههم، والإناث بترت أثداؤهن»، وكان الفييت كونغ، قد أمروا جميع سكان القرية بالحضور لمشاهدة إعدام تلك الأسرة، «فقد بدأوا بأصغر طفل صعوداً حتى أكبر ولد، فالزوجة وأخيراً وصلوا للرئيس ذاته... وقد قاموا بفعلتهم تلك بكل برودة، وكأنهم يقومون بعمل حربي، كما لو كانوا يستخدمون مدفعاً مضاداً للطائرات» ويضيف الصحفي قوله: بأن تلك الحادثة لم تكن حادثة فريدة «فقد أصبحت روتيناً... ولأنها أصبحت روتيناً بالنسبة لنا، فلم نقم بسردها مراراً وتكراراً، بل قمنا بنشر الحوادث غير الاعتيادية مثل حادثة ماي لي».

تلك هي الطريقة التي ملك بها الفييتناميون الشماليون والفييتكونغ قلوب وعقول السكان القرويين. أي بالقيام بأعمال الذبح بكل برودة دم، لدب الرعب في قلوب من تبقى منهم.

والمدنية الغربية ليست بدورها بعيدة المنال بالنسبة للإرهاب، إذ بوسعه أن يضربها في الصميم، فقد قام السوفييت سراً بدعم عصابة بادر ماينهوف في ألمانيا الغربية، وفي ايطاليا اختطف خلال شهر آذار عام ١٩٧٨، ألدو مورو، رئيس وزراء أسبق ومرشح بارز لرئاسة الجمهورية، بعد أن لقي حراسة الخمسة مصرعهم، بكل برودة دم أيضاً من قبل رجال الألوية الحمراء، وغاصت ايطاليا في التخبط والفوضى إثر اختفائه لمدة شهرين، قبل قتله، والعثور على جثته في المقعد الخلفي لسيارة وجدت في وسط روما، وقد وقعت أكثر من ٢١٠٠ حادثة إرهاب في ألمانيا عام ١٩٧٧، بينما ارتفع عدد الحوادث عام ١٩٧٨.

ويوضح الدكتور ري كلاين. مسؤول سابق في وكالة الاستخبارات المركزية، ويعمل حالياً في جامعة جورج تاون. بأن موجة الإرهاب الحالية التي تعم العالم، قد بدأت بعد عام ١٩٦٩ عندما نجحت الاستخبارات الروسية (ك.ج.ب) باقناع الكريملين لقبول منظمة التحرير الفلسطينية، كأداة سياسية رئيسية في الشرق الأوسط، وعندئذ بدأ السوفييت يشجعون أعمال منظمة التحرير الفلسطينية الإرهابية بتقديم المال لها والتدريب والسلاح، وكذلك بتنسيق الاتصالات معها، وما فعله السوفييت وحلفاؤها الخالوا الضمير هو ايجاد «نظام عالمي لخلق المشاكل» يتاجر بالجملة بأعمال القتل لأغراض سياسية.

والإرهاب يشكل تهديداً لكافة الحكومات، عدا تلك التي تشارك به، ومن هنا كان يتوجب على الجميع أن يوحدوا صفوفهم من أجل تطوير أساليب تكتيكية لمعالجته، فعدد حوادث الإرهاب الدولية التي وقعت خلال فترة الأشهر التسعة الأولى من عام ١٩٧٨، قد تضاعف خلال الفترة نفسها من عام ١٩٧٩. ويقول أحد التقديرات بأن ٦٠٪ من حوادث الإرهاب، التي وقعت خلال العقد الماضي من الزمن، قد وقعت في السنوات الثلاثة الأخيرة، وليس في الأمر غرابة إن تعاظمت موجة الإرهاب مباشرة بعد تحقيق تقييد حركة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وإضعاف معنوياتها إثر قيام الكونغرس بتحقيقاته المثيرة، وعليه فإن استعادة القدرة لجهاز الاستخبارات، من أجل حمايتنا، أمر أساسي، إذا أردنا معالجة مسألة الإرهاب، قبل أن تستفحل وتفلت من نطاق سيطرتنا، وعلينا، بل من الضرورة بمكان الدخول إلى صميم المسألة. أي إلى من يدعمون الإرهاب، وعلى رأسهم الاتحاد السوفييتي.



الطريق إلى الثورة

رغم أن التحرك التوسعي السوفييتي كان دائماً قاسياً، غير أنه قلما كان متهوراً، صحيح أن القادة السوفييت عدوانيون، لكنهم عدوانيون حذرون، فهم يقومون بمعظم تحركاتهم ببطء، وبمهارة فائقة، حريصون على تمويهها، بحيث لا توقظ «العملاق النائم» في الغرب من غفوته.

إنهم يحاولون الضرب حيث التوقع أقل ما يكون، وعند أقل ما يكون وبأقل الطرق توقعاً، وطريقتهم المفضلة هي إثارة الإضطراب، وأعمال الشغب في البلد المستهدف، ثم يتحركون لالتقاط الأجزاء، بعد أن يكون النظام القائم قد تلاشى.

يا لهم من ثوريين محترفين، وأحد المبادىء لعقيدتهم الاحترافية، هو البقاء خارج مجال الرؤية أثناء الإطاحة بالنظام القديم، إذ يتركون الهواة. كالأبطال الوطنيين والقوميين والمثاليين. على خط المواجهة، فالتلفزيون يعرض لنا صور الهواة مندفعين في الشوارع، ولا يبين المحترفين الذين يوجهون الطلقات من وراء الكواليس، ويتآمرون من أجل التسلط على نظام الحكم الجديد حتى في الوقت الذي يوجهون فيه أعمال اسقاط النظام القديم.

فبالشعارات المزيفة المعدة للخداع، وبكادر قليل، ولكن كفؤ من الإرهابيين، الذين لا يعرفون الشفقة، وبالقادة العابثين الراغبين بالوعد بأي شيء في المستقبل، طالما يستطيعون الآن كسب السلطة، بكل ذلك يتحرك المحترفون الثوريون في المجتمعات الخام، تحرك السكاكين الحادة في قطعة الزبدة، وبينما تنشأ أعمال الشعب نتيجة الاضطراب، تجدهم وحدهم يسيرون بصمت، وبخطى وئيدة وأنظارهم متركزة على سلاح المدرعات، وعلى ملفات البوليس السري، والمراكز الرئيسية في الحكومة الجديدة، ونقاط الضعف في القطعات العسكرية، وعلى نقابات العمال التي تدير الصناعات الحساسة، وعلى الصحف ومحطات الإذاعة، ومراكز رؤساء البوليس الشاغرة، وبعد

كسب المواقع يتم تحريك العمال واعتقال المعارضين وتصفية الخصوم السياسيين بالقتل، وعندما يصبح كل شيء جاهزاً يتم تنفيذ الانقلاب التصحيحي.

هذه هي الوسيلة الشيوعية للثورة، فقد مكنت هذه الوسيلة لينين من إقصاء رئيس الوزراء المعتدل الكسندر كيرينسكي بعد ثمانية أشهر فقط من قيام قوات كيرينسكي بالقضاء على حكم القياصرة في أول ثورة روسية، وقد لخص لينين نفسه جوهر عملها السري، عندما صرح تصريحاً خاصاً قائلاً: «سنقوم بدعم كيرنسكي، كدعم حبل المشنقة للرجل المعلق»، وقد قام السوفييت منذ عام ١٩١٧ بتعبئة منتوجهم، الذين يملكون براءة اختراعه، وتصديره معلباً إلى باقي أجزاء العالم، إن السوفييت يترفهون بأعمال الشعب والاضطراب والخوف، ويدركون بأن الشعوب في ظروف اليأس ستصل إلى سبل اليأس، ثم إن الشيوعية تطرح شعار «التحرر»، وتعد بالنظام، فهي تقول لمن هم في «الخارج» سننفعكم «في الداخل»، وإلى كلاب القاع بأنكم رواجاً بين صفوف الناس الضائعين في دوامة القلق.

والسوفييت يعلمون بأن الحرب والثورة والتخلف الاقتصادي، يمكن أن تقضي على المجتمع، وبذلك تجعل حداء الشيوعية أكثر طرباً للأذن، وعندما يحس الناس بالمصيبة يبدو الاستعباد جذاباً لهم إذا ما وعد بإحلال النظام، وهكذا فإن القلاقل والحرب والثورة هي الأحلاف الطبيعية لهم.

وبإدراكهم هذا يحاول الروس، بأية وسيلة ممكنة إثارة التوتر، وتحريك الامتعاض، وإشعال نار الحروب والثورات، فهم لا يريدون تلبية الحاجيات الإنسانية، بل يجاولون خلق المشاكل من أجل السيطرة على البلاد.

إن السوفييت حريصون على استخدام الفوضى، وأعمال الشغب ذلك أن هاتين السمتين من ألد أعداء الحرية في يومنا هذا، فأولئك الذين نفذ صبرهم بصورة غير واقعية من أجل إحراز التقدم، إنما يرتكبون خطأ جسيماً عندما يتشنجون في المجتمعات الضعيفة بمطالب غير قابلة للتفاوض، ومهما تكن نواياهم سليمة، فإن التشنج قد يفتح الباب في وجه نظام الحكم الديكتاتوري، فإذا ما عدنا بنظرنا إلى الوراء لتوجب علينا أن نسأل أنفسنا: ترى ما الذي كان سيحدث لو كان الاتحاد السوفييتي موجوداً على المسرح أيام الثورة الأميركية؟

لقد خاضت المستعمرات الأميركية حرب الاستقلال لمدة سبع سنوات، كما أن ست سنوات أخرى قد مضت قبل أن يتم تبني الدستور ومرت سنتان قبل أن تضاف وثيقة الحقوق، وحتى عندئذ استمرت التوترات وعدم المساواة مما أدى في نهاية الأمر إلى اشتعال نار حرب أهلية وحشية، وقد احتاجت بلادنا مدة طويلة من أجل تصفية مشاكلها، وكانت محمية كما هي، من العالم الخارجي باثنين من المحيطات، وإن الشعوب التي تسعى وراء الحرية اليوم، لا تتمتع بنفس المزايا الطيبة وسيكون طريقها شائكاً ومملوءاً بالصعوبات، فهي الأخرى بحاجة للوقت وللحماية كذلك.

❖ ❖ ❖

الخطر: هزيمة الإهمال

إن الروس لاعبو شطرنج، ففي الشطرنج يحقق اللاعب تقدماً بالقضاء على أكبر عدد ممكن من جنود الخصم، لكن أبطال لعبة الشطرنج يعلمون بأنه يمكن الفوز بالمباراة عندما تكون قطع قليلة متبقية على اللوحة، وأهم ما في المباراة هو محاصرة الملك (الشاه) وجعله مهدداً من جميع الجوانب، بحيث لا يستطيع التحرك.

والملك على لوحة الشطرنج الغربية، متوضع في الولايات المتحدة، حيث أننا العقبة الرئيسية التي تقف في وجه الهدف السوفييتي للسيطرة على العالم، والسوفييت يدركون بأنهم لن يقدروا البتة على التفوق الاقتصادي علينا، ويدركون أيضاً بأنهم قادرون على الأقل بأن يتفوقوا علينا عسكرياً، إذ ما بقي حرسنا نائماً يسمح لهم بتحقيق تفوق حاسم، لكنهم يلمسون ضعفاً في الإرادة من جانبنا من شأنه أن يتجاوز خط الأمان الذي توفره لنا بقية قوانا الأخرى، فالروس يعرفون جداول ضربهم وإذا ما ألقوا نظرة على معادلة السير روبرت تومبسون التي تنص على: أن الطاقة الوطنية تساوي جداء الطاقة البشرية زائد الموارد المستخدمة، مضروبة بالإرادة، ويفهمون بأنه إذا كانت قيمة الإرادة تساوي الصفر، فإن المعادلة بكاملها تساوي الصفر.

وكان المؤرخ العسكري البريطاني ب.هـ. ليديل هارت قد قال: «لقد كانت لدى لينين رؤية للحقيقة»، عندما قال: «بأن انجح استراتيجية في الحرب هي تأجيل العمليات حتى تجعل زعزعة معنويات العدو توجيه الضربة القاضية أمراً ممكناً وسهلاً»، تلك هي الاستراتيجية السوفييتية، فهم يسعون أول ما يسعون إلى إضعاف معنوياتنا، بحيث يتمكنون بعد ذلك من القضاء علينا، فهم يهدفون إلى إنهاء الحرب العالمية الثالثة بفرقعة ولكن بتذمر.

ويقوم السوفييت بذلك بطرق ثلاث: أولاً يحاولون خداعنا لإخفاء نواياهم، وجعلنا نخفف من إرادتنا، وثانياً يحاولون حملنا على الشعور بأننا مجرمون في موقع الدفاع حتى عن أفضل نجاحاتنا الدارماتيكية، بحيث تخفق إرادتنا، وثالثاً يحاولون كسر إرادتنا بالإستئساد علينا بالتهديدات والخداع.

وأتذكر الآن بوضوح ما قاله لي صديقي القديم السكرتير العام لمنظمة حلف شمال الأطلسي (ناتو)، الذي كان قد خدم مدة خمس سنوات سفيراً لايطاليا في موسكو، حيث قال لي بحرارة عام ١٩٦٧: «إنني أعرف الروس، إنهم منافقون كبار، وخداعون أذكياء، وممثلون عظماء، ولا يمكن الثقة بهم، فهم يعتبرون أن من واجبهم النفاق والخداع».

وبالنسبة للاتحاد السوفييتي، ليست الأمم المتحدة هي المكان الذي يمكن فيه تسوية الخلافات بين الدول بشكل ودي. بل المكان الذي يمكن فيه تحقيق نتائج للدعاية، والذي يدان فيه الغرب، وحيث يتظاهر السجانون كالقضاة، وهو يقوم بهذا التنكر المتقن من أجل خداع الآخرين، وجعلنا نشك في أنفسنا، فعلى مر السنين نجد حتى أن أكثر الكلمات عبثاً، إذا ما تكرر استخدامها بشكل

فيه الكفاية، سيكون له أثره فقد يبدأ البعض بالاعتقاد بأن ديمقراطية كمبوجيا تكافؤ معاصر للقتل الجماعي الهتلري، أو أن قوى «تحرير الشعوب» تحرر الشعوب فعلاً.

وقد جاء على لسان لاجيء فر من فييتنام الجنوبية عام ١٩٧٩، بعد أن كان قد مكث ليحيي الشيوعيين، قوله أنه قد تعلم الطريقة الصعبة، بأن الشيوعيون يعتبرون الكذب «سلاحاً، وسلاحاً شرعياً وأميناً، لكي يستخدم من قبل الضعيف لهزم القوي»، فإذا استطاع الروس بكذبهم جعلنا ننسى من هم، ونشك بمن نحن، فإن هذا السلاح في الحرب العالمية الثالثة يكون قد حقق أغراضه الهدامة.

ومن الأساليب التكتيكية المفضلة لدى السوفييت هو التجح، فحتى في الوقت الذي كانوا متخلفين عنا كثيراً، من حيث القوة، كان نيكيتا خروتشوف يصلصل بسيوفه النووية آملاً أن يدب الرعب في قلب الغرب من القوة السوفييتية، بيد أن قادتنا في ذلك الحين لم يأبهوا، لأنهم كانوا يعرفون أنه ليست لدى خروتشوف نية بالأقدام على الانتحار الوطني، لكن في ذات الوقت كان الرأي العام قد تأثر إلى حد كبير.

وخلال أزمة الصواريخ في كوبا نفض خروتشوف يديه، إذ أن السوفييت سرعان ما تراجعوا عندما أطلق كندي صرخة مدوية، ومنذ ذلك الحين أخذ الاتحاد السوفييتي يركز تركيزاً هائلاً على بناء قوته العسكرية، في حين أن الولايات المتحدة قد تركت تفوقها النووي يضمحل ويتراجع، وعندما يشعر قادة السوفييت في المستقبل بأنهم حققوا التفوق النووي الواضح، فإنهم سيحاولون مرة أخرى كسر إرادتنا، وهذه المرة ستكون تهديداً أساسياً بدلاً من صرخة مدوية.

إن أكبر خطر نواجهه في الحرب العالمية الثالثة هي أننا سنخسرها بإهمال.

في عام ١٩٧٥ مضت فييتنام الشمالية، دون أن تعارضها الولايات المتحدة التي سئمت الحرب، في غزوها للجنوب، وفي عام ١٩٧٨ غزت كمبوديا، وفي عام ١٩٧٥ و ١٩٧٦ لقي عمل الكوبيون ردة فعل ضعيفة من جانب الغرب عندما دخلوا أنغولا، وفي عام ١٩٧٧ ظهروا في أثيوبيا، وفي نيسان عام ١٩٧٨ بالكاد سبب الانقلاب الموالي للسوفييت في أفغانستان تمتمة من قبل أي من القادة الغربيين، ووقع انقلاب آخر في العام ذاته في اليمن الجنوبي، وعشية يوم عيد الميلاد عام ١٩٧٩ دخل الجيش الأحمر كابل للقضاء على ثورة مناوئة للشيوعية في أفغانستان، أما لاعبوا الدومينو فقد حافظوا على «نظرية الدومينو» محافظة جدية وفي صالونات الغرب الدارجة فقد قامت موجة للسخرية.

وقد أوضح الناقد الاجتماعي ايرفيينغ كريستول ذلك بقوله: «إن بلدان هذا العالم يعجبون بالفائزين، وليس بالخاسرين ولا حتى بالخاسرين «الطرفاء»، فعندما تغرق دولة ديمقراطية، وعلى وجه الخصوص الدولة الديمقراطية المبارزة في التردد، ومناجاة الذات، على نحو ما فعل هملت، بشأن المآزق الأخلاقية للقيام بالعمل فإن العالم سيفتش لنفسه عن نماذج سياسية في مكان آخر.

إننا ندرك بأن القوة، في الحقيقة قد تؤدي إلى الفساد، إننا نتعلم ذلك الآن، في عالم الدول بشكله القائم، لأن انعدام القوة يؤدي إلى إفساد أكبر وإلى القضاء على المعنويات».

وفي الحرب العالمية الثالثة، كما في بقية النشاطات الإنسانية الأخرى، يمكن للمشاكل الصغرى أن تتعاظم وتصبح مشاكل كبرى، وهكذا فإن القول القديم: «درزة خياطة في وقتها توفر تسعة في غير وقتها»، ينطبق في الديبلوماسية، كما هو عليه الأمر في بناء البيت وكسب تحرك عدواني يغري ويمهد الطريق لكسب تحرك آخر، وهكذا فإن الرد في حينه على مستوى ما، قد يغني عن الحاجة إلى تصعيد رد آخر فيما بعد.

إن العزم قوة فائضة بين البلدان، والقادة المترددون يشعرون بتحول ميزان القوة ومسار التاريخ، وهم يستزيدونه سرعة بالانضمام إليه، إن الأساس لكسب الحرب العالمية الثالثة، هو تحويل ذلك الميزان، أي العزم، لصالحنا.



الفصل الثالث

اليد المرئية

«هناك، في الوقت الحاضر، قوتان عظيمتان في العالم، تبدوان وكانهما تسيران باتجاه غاية واحدة، رغم الخلاف في نقطتي انطلاقهما، وأقصد بكلامي: الروس والأمريكيين، لقد تعاظمت كلتا القوتين في معزل عن رؤية الغير وفي حين كان يتركز انتباه الجنس البشري على الاتجاه إلى أمكنة أخرى مخبأة، احتلت القوتان إياهما أبرز مكان بين الدول، وعرف العالم بوجودهما وعظمتهما في آن واحد تقريباً.

فالأمريكي يكافح ضد العوائق الطبيعية التي تعترضه، أما خصوم الروسي فهم الناس، الأول في صراع ضد الفقر والحياة الوحشية، أما الثاني فضد المدنية بمختلف أسلحتها وفنونها، أحدهم يحقق انتصاراته بسكة المحراث، بينما يحققها الآخر بعد السيف، ويعتمد الأنكلو أمريكي على الرغبة الشخصية للوصول إلى غاياته، ويطلق العنان للجهود الحرة، والإحساس العام لدى المواطنين: ومن هنا كانت الأداة الأساسية بالنسبة للأول هي الحرية، أما بالنسبة للثاني فهي العبودية، وهكذا فإنهما ينطلقان من منطلقين مختلفين، وطريقهما ليست واحدة، ومع ذلك يبدو كل واحد منهما وكأنه حبي بالمشيئة الإلهية للتحكم بمصير نصف العالم».

اليكسي دوتوكوفيل ١٨٣٥

إن الشيوعية قد أصبحت بما هي عليه الآن من قوة، إلى حد بعيد، بمحض الصدفة التاريخية . وذلك لأن الدولة الأولى التي اتخذ فيها النظام اسم الشيوعية، هي روسيا، وروسيا السوفييتية تركيبة غريبة ومدهشة بكل من ماضيها وحاضرها، وإن التعمق في رؤية ماضيها، أمر أساسي لفهم حاضرها:

لقد سبق لي ورأيت روسيا، قبل خمسين سنة، للمرة الأولى من خلال عيني ليوتولستوي، فبناء على إلحاح الدكتور ألبرت يوبتون في كلية وتر أمضيت صيف ما بين السنتين الثالثة والرابعة من دراستي الجامعية، بقراءة كل شيء كان تولستوي قد كتبه، وقد خرجت بشعور من العطف والإحترام والإعجاب بالشعب الروسي، وبكره عميق لإمبريالية القياصرة والاستعباد.

وإبان الحرب العالمية الثانية أصبحت من أشد الموالين للروس، عندما كان الاتحاد السوفييتي يقاتل معنا جنباً إلى جنب في الحرب ضد هتلر، وبدأ موقفي بالتبدل عام ١٩٤٦، ويعود السبب في ذلك، بصورة جزئية، لأنني تأثرت جداً، وامتعضت من التحذير الذي وجهه إلى الغرب وينستون تشرشل في ذلك العام في فولتون، بولاية ميسوري، وكان خطابه عن «الستار الحديد»، لقد تراءى لي في بداية الأمر بأن تشرشل قد بالغ في خطابه، لكن شكوكي سرعان ما زالت بقيام ستالين

بإجراءاته، وعندما طلب الرئيس هاري س. ترومان المساعدة لليونان وتركيا، وبدأ بخطة مارشال، أيدت الأمرين تأييداً قوياً في الكونغرس.

وفي عام ١٩٤٨ حملتني قضية آلجرهيس لمواجهة وقائع القمع السوفييتي، وجهاً لوجه في الولايات المتحدة.

وخلال رحلاتي التي قمت بها بصفة نائب لرئيس الجمهورية، رأيت عشرات الألوف من اللاجئين الهاربين من وجه الشيوعية في جميع مناطق العالم، وكدت أواجه القتل أنا وزوجتي عام ١٩٥٨ في كراكاس، على يد مظاهرة قادها الشيوعيون هناك بفينزويللا.

وفي عام ١٩٥٩ قمت بزيارة للاتحاد السوفييتي وكانت الزيارة الأولى التي يقوم بها أول نائب رئيس جمهورية في الولايات المتحدة لذلك البلد، ولقد كانت تلك الزيارة بمثابة دورة دراسية لي، لأنني انهمكت انهماكاً كلياً قبل شهرين من بدء الزيارة بقراءة الكثير عن روسيا، مما كانت وزارة الخارجية الأميركية، ووكالة الاستخبارات المركزية، ووزارة الدفاع قد أعدته من تقارير عن الاتحاد السوفييتي، وكان من بين أولئك الذين تلقيت منهم ملخصات عن نيكيتا خروتشوف، والقادة السوفييت الآخرين، رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان، ووزير خارجيتنا جون فوستر دالاس، وكذلك سفيرين سابقين لدى الاتحاد السوفييتي، وهما: وليم بوليت وتشاركزي يوهلن، والصحفي وولتر ليبمان تيرنر كاتلج، ورئيس تحرير صحيفة نيويورك تايمز، والناشر وليم راندولف هارست.

لكن ما من كمية من المعلومات كان بإمكانها تحضيري لما كنت قد واجهته لدى وصولي إلى موسكو، فقد كان خروتشوف أقسى وأبرع بكثير مما أشارت إليه معظم المعلومات التي كانت قد قدمت لي.

وجميع القادة السوفييت الذين قابلتهم كانوا شيوعيين حتى العظم، إلا أنهم كانوا يبدون أحياناً روساً أكثر منهم شيوعيين، كانوا يلوحون باعتزاز إلى ما زعموا بأن الشيوعية قد أنجزته في الاتحاد السوفييتي، كما أنهم كانوا يظهرون اعتزازهم بأمجاد روسيا في الماضي، بينما كانوا يرافقونني داخل الكريملين، والقصر الشتوي في لينينغراد، وبعض المواقع التاريخية الممتعة الأخرى.

وبدا خروتشوف شيوعياً صاخباً، حسناً كان أم سيئاً، في الحديث الذي دار بيننا ورفعت فيه الكلفة، وكان حديثاً مرتجلاً في المعرض الوطني الأميركي في موسكو، ولكنه سرعان ما عاد ليبدو روسياً بعد ذلك، أثناء حفلة خفيفة في قاعة الاستقبال في الكريملين عندما وجه ضيوفه لإلقاء كؤوسهم في الموقد بعد أن تبادلنا كؤوس الفودكا والشمبانيا.

ولقد ترك الشعب الروسي في نفسي أثراً كثيراً، بقوته وحرارة عواطفه، وفي وسط سيبيريا، في نوفوسيبيرسك، بعيداً عن السيطرة المحكمة للحكومة المركزية في موسكو، تجمع الآلاف من الروس حولنا، وهم يهتفون «مير . يا دروجبا» . أي «السلام والصداقة»، وأوقف أطفال المدارس سيارتنا بينما كنا نتجول في جبال الأورال، وألقوا الزهور عليها هاتفين بحياة «الصداقة»، وقد قال لي مضيفي بأن كلمة «صداقة»، هي الكلمة الانكليزية الأولى التي يتعلمها الأطفال الروس في

المدارس، فالشعب أراد الصداقة لكن القادة لم يخفوا حقيقة مرة، هي أنهم أرادوا شيئاً آخر، وكما قال خروتشوف بكل برودة: «إن أطفالكم سيعيشون في ظل الشيوعية».

وبعد انتهاء زيارتنا ذهبنا إلى بولونيا، وقام باستقبالنا بالترحيب الحار أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ بولندي، وهم يهتفون «نيش زيجي أميريكا» . أي «عاشت أمريكا»، وصفق الجنود البولونيون لنا، ورفعوا لنا أصابعهم على شكل (٧) . وهي إشارة النصر . وفي موسكو هاجم خروتشوف بمرارة القرار الذي كان قد اتخذه الكونغرس بشأن الأمم «الخاضعة للسيطرة»، وكان البولونيون يبينون بكل بوضوح لماذا، وحتى أن الشكوك لا بد أن تكون قد ساورت قادة الكريملين بشأن ولاء أولئك الذين داخل الاتحاد السوفييتي ذاته.

وفي عام ١٩٧٢ كنت أول رئيس جمهورية في الولايات المتحدة، يقوم بزيارة الاتحاد السوفييتي، فقد وجدت بأن بريجينيف يختلف عن خروتشوف فقد كانت روح المرح عند بريجينيف بادية بينما كان خروتشوف اقرب إلى عامة الشعب، وكان بريجينيف يرتدي قمصاناً مختلفة على الطراز الفرنسي، في حين فضل خروتشوف القمصان البسيطة، وكان بريجينيف يجلس في المقعد الخلفي من سيارة ليموزين، في حين كان خروتشوف يجلس في المقعد الأمامي بجانب السائق، وبدا بريجينيف ودوداً، في حين كان خروتشوف عنيفاً ويتحلى بنزعة عدوانية، لكن رغم أن اللاعبين قد تغيروا، إلا أن اللعبة ظلت هي ذاتها.

إن، أهداف بريجينيف، هي أهداف خروشوف ذاتها، وهي زيادة القوة السوفييتية، واستزادة السيطرة السوفييتية اتساعاً، وتغلغل الشيوعية «داخل العالم بأسره، ولا توجد لدى بريجينيف مركبات النقص التي كانت لدى خروتشوف، ومرد ذلك إلى أن السوفييت قد تحولوا من مركز التخلف البعيد قبل ثلاث عشرة سنة، إلى مجاراة الولايات المتحدة الآن في مجال القدرة العسكرية، والمجاراة لست كافية بنظر بريجينيف، فهو يرغب في تحقيق تفوق بدون أدنى شك، ولم يكن لا بريجينيف ولا أسلافه معنيين في التفاوض من اجل تحقيق السلام كغاية بحد ذاتها، بل بدلاً من ذلك فإنهم يسعون لتحقيق السلام، الذي يستطيعون استخدامه لتوسيع السيطرة السوفييتية، بدون حرب في مختلف مناطق العالم .

وفي زيارتي هذه المرة أقمت أنا وزوجتي في شقة فخمة، كان يستخدمها قياصره روسيا الامبريالية، وقام مضيفونا السوفييت هذه المرة، خلافاً لما فعلوا عام ١٩٥٩، بالتأكيد على الأمجاد الغابرة لروسيا الامبريالية، بدلاً من التركيز على المنجزات الحالية للشيوعية. وخلال زيارتي إلى موسكو في عام ١٩٧٢، و١٩٧٤، دعيت لحضور حفلتين موسيقيتين في قاعة الكرملين المزخرفة، والتي زاد من عظمتها أداء فرقة مسرح البولشوي، حيث جلست مع القادة السوفييت في المقصورة الامبراطورية، وقد قال لي اليكسي كوسيغن، رئيس الوزراء، بأنه يفضل البولشوي على القاعدة الحديثة التي كانت قد بنيت داخل الكريملين، وكان القادة السوفييت يبدون بشكل واضح أنهم مازالوا شيوعيين ملتزمين، غير أنه بدا عليهم بأنهم أصبحوا أكثر روساً مما هم عليه كشيوعيين.

وتغيرت نظرتي عما كانت عليه للروس قبل خمسين سنة، عندما رأيتهم في عيني تولستوي، كما أن روسيا كانت قد تبدلت عما كانت عليه ايام تولستوي، بيد أن فهم التحدي السوفييتي يتطلب فهماً للتبدل الذي لم يطرأ على روسيا، وكذلك على التبدل الذي طرأ، والجواب على الألغاز السوفييتية لا يكمن في النجوم بل في القياصرة الذين دفنت اجسادهم في مدافن أقبية الكريملين، لكن أرواحهم مازالت حية في صالاته.

ومن جوانب عديدة نجد ان الثورة التي مكنت الشيوعية من التوصل إلى الاستيلاء على السلطة في روسيا لم يكن عملها تبديلاً للطرق القيصرية، بل جاء أشبه باعمال التنقية والتعزيز لتلك الطرق، فلم تكن روسيا في يوم من الأيام قوة غير توسعية، كا انها لم تكن، فيما عدا أشهر عديدة عام ١٩١٧، دولة غير استبدادية، وغير ديكتوتورية، وبكل بساطة ليس هناك في روسيا أي عرف للحرية داخلياً، والنزعة اللاعدوانية خارجياً، فالتوسع الاقليمي بالنسبة لروسيا كما الصيد بالنسبة للأسد، أو اصطياد السمك بالنسبة للدب.

واذا ما كلفنا أنفسنا عناء دراسة الماضي لوجدناه يدامرئية تدل بكل وضوح على اتجاهات التاريخ، فالماضي يبين المسارات التي تنتهجها الأمم، بجمع غريب لمصالحها، واعرافها، ومطامحها، والفرص المتاحة لها، إنه يبين كذلك الاتجاهات التي يواصل عزم الأحداث الماضية لتحريكنا في حاضرنا.

فقبل سبعة قرون من الزمن، وقع حدثان كبيران، حددا اتجاهي مدنيتين، وهذين الاتجاهين وصفهما اليكسي دوتويفيل قبل قرن ونصف من الزمن:

ففي انكلترا أرغم تمرد الأشراف الملك جون على توقيع الماغنا كارتا عام ١٢١٥، ومن تلك الوثيقة نبع مفهوم الملكية الدستورية، ثم صيغة الحريات الفردية، والحكومة الذاتية الديمقراطية، التي نقلت إلى العالم الحديث، وترعرت وازدهرت بولادة وتطور الولايات المتحدة.

وفي الوقت الذي كانت فيه انكلترا تتبع تلك الخطوة الأولى نحو الديمقراطية، كان أحفاد جنكيز خان يقومون باجتياحهم نحو الغرب، عبر السهل الأوروبي الآسيوي المترامي الأبعاد، والذي يلتف حول منتصف العالم تقريباً، ابتداء من الاجزاء الشرقية لسيبيريا وحتى شواطئ القتال الانكليزي، وأوقفت حشود المغول على مقربة من وسط أوروبا، لكنهم عاثوا في روسيا فساداً، ودمروا مدنها الكبرى وأحطوا المدينة الروسية، وأنزلوا إلى درك البرابرة، وهكذا فرض المغول سيطرتهم على روسيا لمدة تقرب من مئتين وخمسين سنة، وفرضوا على روح الروس انطباع قساوتهم، ورعونتهم، وحصلوا منهم ضرائب مرتفعة، وبهذا أبقى «النير التتري» الروس فقراء مستعبدين.

وهكذا فإن هذين الحدثين أي توقيع وثيقة الماغنا كارتا، وإذلال المغول للروس قد شكلا نقطتي البداية لسلسلتين من التطور التاريخي، وهما تختلفان اختلافاً جذرياً، فوثيقة «اعلان الحقوق» مرتبطة بنشوئها بالماغنا كارتا، أما الدولة السوفييتية البوليسية فمرتبطة بالتتر، ويلخص الفرق بين الاثنين بقول سوفييتي قديم: «يقترن الاستبعاد بالاغتيال» ها هنا ماغنا كارتانا.

وحكم المغول بإرهاب لا يعرف الشفقة، وببيروقراطية معقدة، ومهارة احتواء المنافسين المحليين، فقد فرضوا ضرائب قاصمة كجزية، وبما أسماه أحد كتاب القرن التاسع عشر: «بميكا فيلية العبد الذي ساد»، وبدأ الحكام في موسكو من أهلها بتبني أساليب المغول، وبدأوا يضمون المزيد من الأراضي تحت سيطرتهم تدريجياً، حتى وهم راكعين عبيداً أمام المغول، وفي نهاية الأمر بعد/ ٢٥٠/ سنة من رضوخهم للاستعباد والإذلال، قام ايفان الكبير عام ١٤٨٠ بطرد التتر، وأنهى حكم المغول، لكن آثار ذلك الحكم ظلت مطبوعة، وذلك كما وصفها الكاتب المشار إليه أعلاه، في القرن التاسع عشر بقوله:

«إن مستنقع دماء العبودية المغولية، يشكل مهد الموسكوفية، وليست روسيا الحديثة سوى صورة ممسوخة عن الموسوكوفية، التي نشأت وترعرت في مدرسة العبودية المغولية الدنيئة، غير أنها، أي الموسكوفية، جمعت القوة فقط بقدرتها على أن تصبح بارعة في فن الاسترقاق، حتى أنها عندما اعتقت واصلت الموسكوفية تأدية الدور التقليدي للبعد الذي أصبح سيداً» .

لقد كان كاتب هذه الكلمات هو كارل ماركس وليس سواء.

فقد تواصل الإرهاب والرعب المغولي حتى بعد أن طرد التتر، ومع وجود حدود دفاعية لا تبعد في الغالب أكثر من مئة ميل عن موسكو، كانت أمواج الفرسان التتر تقوم بعمليات اجتياح كل عام مخلفة الدمار وراءها، كانوا يقدمون من أجل أسر الصقالية [السلاف] وكلمة [سلاف] ذاتها مرتبط بها كلمة عبودية.

وفي كل عام كان الروس يستدعون في فصل الربيع كي يأخذوا أماكنهم في المعركة على الحدود للقتال في وجه القادمين لاستعبادهم، ويبقون على الحدود حتى فصل الخريف عندما تصبح المنحدرات غير سالكة، وقد تكرر هذا الأمر لمدة طويلة من الزمن، لدرجة استوجب على الإنسان أن يقضي طوال حياته هناك على هذا المنوال.

ويحاجج المؤرخ تيبور سزاميولي بوصفه لصراع الروس ضد التتر، على أنه «أقرب للمفهوم المعاصر للحرب الشاملة، من أي شيء آخر في التاريخ الأوروبي، لما قبل القرن العشرين».

فإرضاخ الفرد للدولة، والحشد الكامل لكافة الطاقات من أجل اغراض الدولة، ومواصلة فكرة الاستعداد للحرب، جميعها أمور عميقة الجذور في الماضي الروسي، ورعب حكم المغول والحاجة المريرة لقتال التتر.

وليست جذور التوسع المستمر أقل عمقاً في الماضي الروسي وقد ظل سادة الموسكوفية، لمدة من الزمن، يوسعون نفوذهم وسلطانهم على جوارهم، قبل ان يقوم ايفان الكبير بطرد التتر عام ١٤٨٠، فقد وسع مساحة البلاد أكثر من ثلاثة مرات وقام بإخضاعها لسلطة موسكو وجعلها ممتدة من البحر البلطيقي حتى جبال الأورال.

وجاء أيفان آخر، ايفان الرهيب، بعد قرن من الزمن، وتوج نفسه بمثابة أول «قيصر للروس جميعاً» وجاء نظام حكمه ليشكل بداية حكم روسيا الامبريالية.

واحتلت روسيا سيبيريا في القرن السابع عشر، وقام القوزاق وتجار الفرو بالسير في الوحشة مسافة ٢٥٠٠ ميل لمدة خمس وخمسين سنة، فوصلوا الباسفيكي عام ١٦٣٩ ، ومن المتجمد الشمالي اندفع الروس جنوباً عبر جبال آسيا الوسطى، وفي القرنين الثامن والتاسع عشر باتجاه الصين، وبلاد فارس، والهند وأفغانستان ووقع ملايين من المسلمين تحت سيطرة القياصرة، حيث أن مدن سمرقند وبخارى وطشقند وأشخا آباد قد خضعت للمرة الأولى في عمرها لمحتل أوروبي أجنبي.

ولم تكن قاراتان بكافيتين لروسيا، فقد قامت باحتلال ثالثة، ففي عام ١٧٤١ استطاع البحار فيتوس بيرنغ الدانمركي الاصيل، الذي كان يعمل في خدمة روسيا بقيادة حملة استولى خلالها على آلاسكا، واقترن اسم مضائق بيرنغ باسمه منذ ذلك الحين، وأقيمت المستوطنات الروسية في آلاسكا، التي كانت تعرف باسم أميركا الروسية، إلى أن اشترتها الولايات المتحدة من روسيا عام ١٨٦٧.

وفي عام ١٧٩٩ كانت قد شكلت في آلاسكا السلطة المحلية، وهي الشركة الروسية الأميركية، ومنحت سلطة اكتشاف أراض جديدة واحتلال لصالح روسيا، واتسعت الشركة جنوباً وبنت مستوطنة، كما أشادت حصناً على بعد سبعين ميلا من سان فرانسيسكو الحالية، وقرب ما يعرف الآن بالنهر الروسي، لكن ذلك الحصن ولحسن الحظ قد بيع لجون سوتر قبل سبع سنوات فقط من اكتشاف الذهب في أرضه، والذي تبعه اكتشاف كميات من الذهب في كاليفورنيا، وحاولت الشركة الروسية الأميركية أيضاً ان تكسب موطئ قدم في جزر الهاواي، لكنها لم تفلح.

وفي الوقت ذاته أخذت روسيا تصر على توسعها باتجاهين آخرين، فقامت بإحتلال القوقاز في القرن التاسع عشر، والتي تشكل بوابة الوصول إلى بلاد فارس، وتركيا ، والشرق الاوسط ، ثم اندفعت غرباً ، بعد ذلك، ضد أوروبا حيث واجهت أقوى أعدائها منعة وتعقيداً.

ومن حيث مساحة الأرض فإن روسيا تفوق البلدان الأوروبية مساحة بشكل كبير، لكنها قد وجدت لقرون من الزمن مهددة وفي بعض الأحيان أضعف مراراً من تلك الدول الأصغر منها، ولكن المتقدمة عليها أشواطاً بعيدة في مجال التكنولوجيا، وتعرضت روسيا لغزو من قبل بولونيا في القرن السابع عشر على أيدي نابليون، وللغزو مرتين، ومن قبل ألمانيا في القرن العشرين، وتكبد الروس في وجه كل من أولئك الأعدام هزائم مريعة، لكنهم انتظروا إلى أن تسلموا زمام المبادرة، وانتصروا في نهاية الأمر.

وتماماً كما جعل احتلال التتر الحكام الروس يتبنون سياسة شرقية، ادى بهم خطر الغرب أن يصبحوا «غربيي» الأسلوب، وقد عنى لهم ذلك الميل إلى تصنيع وتحديث القوة العسكرية الروسية.

وقد استورد الروس مهندسي العمارة الطليان، لبناء الكريملين، كما ان المهندسين الألمان ساعدوا ايفان الرهيب في الاستيلاء على مدينة قازان التترية بنسف جدرانها، وبذلك فتحوا له الطريق لاحتلال سيبيريا، لكن بطرس الكبير، الذي بقي قيصراً من عام ١٦٨٣ حتى عام ١٧٢٥، هو

الذي نظم استيراد الأساليب الحديثة من الغرب، وجعل روسيا قوة حديثة تجاري البلدان الأوروبية ذاتها، وقد أراد بطرس الكبير «أسلوباً غربياً، ولم يرد مدنية غربية» على حد تعبير المؤرخ الروسي فاسيلي كيليوسيفسكي، أي أساليب الصناعة، وصناعة الاسلحة بوجه خاص، وليس أساليب الحكومة الذاتية، فقد قال بطرس: «سنحتاج أوروبا لبضعة سنوات فقط ثم ندير لها ظهرنا».

وقد استخدم بطرس انفتاحه على الغرب لا من اجل تقدم شعبه، بل من اجل تقدم مصالح الحكام وازدياد فوائدهم، والقياصرة الذين حازوا على لقب «الكبير» ليس مكافآة على أفعالهم في البر والاحسان، وإنما بسبب الفتوحات العسكرية التي حققوها، وبذلك لم يكن بطرس استثناء لتلك القاعدة، وبعد أن نال مأربه من الغرب، تحارب مع السويد، وتركيا وبلاد فارس لمدة ثمانية وعشرين سنة متتالية، أي منذ كان في الرابعة والعشرين من عمره، حتى عام واحد قبل وفاته.

وقد أهلكه البرد حتى تمكن من الحاق الهزيمة بالسويد في حرب الشمال الكبرى، ولمتتجل عظمة منجزاته في الاراضي التي احتلها، بل بفتح الطريق ومتهيده لاحتلال الأراضي التي فتحها خلفائه من بعده، وقد اعتبره البعض بأنه أهم مصنع لروسيا قبل ستالين، وهذه هي عبقرية: تسخير الصناعة الغربية للتوسع الروسي، فبعد حكمه أصبح الجيش الروسي قادراً على أن يهاجم الغرب بنجاح.

وأتت بعده كاترين «الكبرى»، التي حكمت من ١٧٦٢ حتى ١٧٩٦، وأرضخت تتر القرم فضمنت أذ ذاك مكاناً للروس على البحر الأسود، ولقد كان واحداً من وزراء كاترين هو الذي وجه الانذار القائل: «من يتوقف عن النمو يبدأ بالتعفن»، وقد اقتسمت بولونيا ثلاث مرات مع بروسيا والنمسا، حتى لم يبق منها شيء عام ١٧٠٥، وهكذا بدأ التحرك بإتجاه أوروبا الوسطى.

وبعد ذلك اغتنمت روسيا فرصة الاضطرابات التي سببتها حروب نابليون، للسيطرة على فنلندا، وتغلغلت الجيوش الروسية في عمق أوروبا الوسطى حتى اصبحت الحدود الروسية على بعد ٢٠٠ ميل من برلين، وما أن انحسر الغبار حتى أصبحت روسيا القوة العسكرية الأولى في القارة.

وفي منتصف القرن التاسع عشر لفت التوسع الروسي نظر مراسل صحيفة نيويورك تريبيون في أوروبا، ذلك الإنسان الذي لم يتصور بأن التوسع الروسي سيتواصل باسمه ذات يوم، وقد كان ذلك المراسل: كارل ماركس وفي عام ١٨٥٣ كتب ماركس إلى صحيفة تريبيون تعليقاً أوضح فيه بأن الحدود الروسية قد تقدمت خلال الستين سنة الماضية باتجاه برلين، ودريسدن وفيينا بمقدار ٧٠٠ ميل، وباتجاه القسطنطينية ٥٠٠ ميل، وباتجاه استوكهولم ٦٣٠ ميل، وباتجاه طهران ١٠٠٠ ميل، وقد كان سيرها وئيداً. ولم يتوقف في عهد القياصرة.

إن ما يسمى اليوم (باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية) هو حصيلة سبعة قرون من الاحتلال. وذلك من قبل "الأمراء الموسكوفيين" الذين أخضعوا روسيا لحكمهم في البداية. ثم من قبل القياصرة وخلفائهم في القرن العشرين، الذين وسعوا الامبراطورية الروسية.

ويتشكل (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية) من خمس عشرة جمهورية، منها أربع عشرة جمهورية، كانت بلداناً منفصلة، لكنها احتلت من قبل الجمهورية الخامسة عشر، وهي روسيا.

فالجنرال الروسي سكوبوليف الذي احتل تركستان. واستولى لى طشقند، قد لخص النظرية الروسية في الاحتلال بقوله: "يسود في آسيا من يشدد قبضته على عنق الشعب بلا شفقة" وهذا يعني أنه لا المؤتمر القارئ، ولا التقليد الدستوري هي الطريقة التي شكلت فيها "الجمهوريات الإشتراكية" ولا ما هو "اتحاد" الآن.

ولو نظرنا الى امريكا لوجدنا أنها مؤلفة من أناس من جنسيات متعددة قدموا إليها طوعاً وبمخض إرادتهم، أما في روسيا فقد امتصت بلدان بكاملها من قبل الامبراطورية الروسية، وابقيت تحت سيطرتها بالقوة، فنحن في أمريكا لدينا الأرمن ولليتوانيون، وهم في روسيا لديهم أرمينيا ولوتوانيا.

وفيما عدا سيبيريا لم تكن تلك البلدان اوسع امبراطورية في عصرها، وهكذا اقتضت الضرورة استحواذ طرق امبريالية لبسط النفوذ فوق أرضها الشاسعة والمترامية الأبعاد، وقد توفرت تلك الطرق لورثة المغول القساة الذين بسطوا سيادتهم على الأراضي التي كانت العبودية هي الحكم السائد فيها، وحيث لم تكن الحرية معروفة و"حقوق الانسان" غير مسموع بها .

إن عرف القياصرة هو الحكم الاوتوقراطي الجائر، والدولة البالغة القوة فقط هي القادرة على احتلال بلدان عديدة، ومن ثم المحافظة على الحكم الامبريالي الروسي فيها بعد احتلالها.

والثمن الذي تطلبه الدولة لقاء الاحتلال هو استبعاد شبعها، فالاحتلال هو الغاية الأولى للدولة أما التمجيد الأعلى للحكم، فهو فرض على المحكومين لأن الناس تستخدم كمصادر تزج مع كافة المصادر الأخرى وتكرس بيد الدولة، ومن الناحية العملية أصبح المحكومون، أي أفراد الشعب، ملكاً للدولة، التي تستخدمهم لتحقيق أغراضها.

فلقد كان اول قياصرة روسيا جميعا، ايفان الرهيب، أول قيصر أيضاً جعل الارهاب سياسة للدولة، ويمكن أن يعود أصل كل من البوليس السري القيصري، والاستخبارات الروسية (ك . ج . ب) اليه مباشرة، فهو الذي استخدم رجال بوليسه الخاص، للقضاء على مناسيه من أجل السلطة، ولاسيما بين صفوف طبقة الاشراف الروس، وهكذا ضمن بشكل فعال بانهم لن يقفوا في وجه سلطته بماغنا كارتا روسية.

ومن جهة أخرى كان ايفان قد هاجم نوفو غرود، إحدى مدنه وقتل الآلاف من مواطنيه بأبشع الوسائل "بسلخهم ونصبهم على الخوازيق أحياء، وبسلقهم وبشيهم بالسيخ وقليهم في القدور وبقر بطونهم وكانت أرحم الوسائل التي قتلهم بها هي الاغراق". وقد مرت مدة جعل منها نصف روسيا تحت رحمة بوليسه السري الذي يخضع لسلطته مباشرة ، وهي طريقة فضلها ستالين من بعده، فلقد كان ستالين من المعجبين بإيفان الرهيب، لذلك عمد إلى، احياء ذكراه وتحسين سمعته في كتب التاريخ السوفييتية.

أما بطرس الكبير، الذي عرف بتحديث روسيا وإنفتاحها للغرب، فقد كان من أشد الحكام اضطهاداً داخل بلاده، وقد وصف نفسه «كملك مطلق لا يتوجب عليه الاجابة على احد في العالم فيما يتعلق بإجراءاته». وهو الذي أوجد النظام المكروه لجواز السفر الداخلي، مما جعل تنقل المواطنين داخل بلادهم بدون إذن أمراً غير قانوني.

وفي عصرنا الحاضر، أي في القرن العشرين، مثل جوزيف ستالين إرث قياصرة روسيا، غير أن السلالة التي كان يمثلها كانت حزباً، وليست أسرة، ومثله مثل قياصرة روسيا «الكبار» من قبله، حيث قام بتوسيع نطاق السيطرة الروسية على مناطق جديدة.

وهكذا فإن الدول التي نجت من هجمة الثورة الروسية، عاود ستالين فاحتلها فاستعاد في عام ١٩٤٠ دول البلطيق ـ لا تفيا ولوتوانيا وايستونيا ـ كما أنه سيطر على بيصارابيا، وبوكوفينا الشمالية من رومانيا، وفي نهاية الحرب العالمية الثالثة استولى على بولونيا وبكاملها هذه المرة، وقسم من ألمانيا كذلك ووقعت هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ورومانيا جميعاً تحت السيطرة الروسية لأول مرة.

ومثله مثل ايفان الرهيب قام ستالين بتأسيس بوليس سري خاص به، واعتمد الإرهاب كأداة أساسية لسياسة الدولة، كما أنه رحب بالتكنولوجيا الغربية من أجل تطوير وتحديث آلة الحرب، وشدد قبضة السلطة على الشعب بفرض نظام جواز السفر الداخلي أيضاً.

ولن يعرف ستالين ذات يوم «بالأكبر» أو «الرهيب» لكن الشعب السوفييتي طريقته في معرفة الاستمرارية التي تربط بين ماضي القياصرة وحاضره الشيوعية، وكما عبر عن ذلك شاب روسي لزائر أمريكي بقوله: «أنتم لديكم نجمة يسوع المسيح العليا ونحن لدينا قيصر لينين الأعلى».

روسيا تواجه الصين

كما أن الصراع الروسي مع الغرب جذوره العميقة في الماضي، كذلك له جذوره مع الصين، ويعود ذلك الصراع إلى منتصف القرن السابع عشر. عندما واجه التوسع الروسي قدرة الامبراطورية الصينية، وقد دارت أولى المعارك بين الروس والصينين عام ١٦٥٢، وسواء أكان ذلك مدعاة للاستغراب أو للتنبؤ بالمستقبل، فإن تلك المعركة قد وقعت على منبع نهر يوسوري ذاته الذي اصبح موقعاً لصدامات عنيفة على الحدود بعد ذلك بثلاثة قرون، أي في عام ١٩٦٩ بعد أن أصبحت شخصياً رئيساً للجمهورية، وإثر ذلك ربح الصينيون على طاولة المفاوضات الاختبار الأول، وفي سياق تلك المفاوضات أعطوا للروس درساً جيداً عن قيمة التفاوض من مركز القوة.

استطاع الطرفان، بعد خمس وثلاثين سنة من الحروب المتقطعة، التوصل للاتفاق على اجراء مباحثات بشأن السلام، وأرسل الروس فريقاً للتفاوض قوامه ألفي جندي وديبلوماسي وموظف إلى الحدود الشاسعة البعد، لكن الصينيين، بحكم قربهم من الحدود، وصلوا بفريق قوامه خمس عشرة الف شخص، وعندما حمي وطيس المناقشات حل الوفد الصيني الاستعصاء بالتهديد بمهاجمة الفريق الروسي، ولما وجد الروس أنفسهم أمام القوة متفوقة عليهم تراجعوا وانسحبوا من الأراضي المتنازع عليها، وتركوا الصينيين ينعمون بالسلام للمئة والخمسين سنة المقبلة.

ومع حلول منتصف القرن التاسع عشر كانت الصين قد ضعفت فاستولى الروس على منطقتين كبيرتين من الأراضي الصينية تقدر مساحتها بـ ٦٥٠ ألف ميل مربع، أي ما يعادل مساحة ولايات السواحل الشرقية والغربية في الولايات المتحدة، مجتمعة، وخولتهم معاهدة بكين لعام ١٨٦٠ الحصول على مرفأ بحري لا جدال حول أهميته، وذلك في أراضيهم الجديدة، أطلقوا عليه اسم فلاديفسوك، معناه حكم الشرق، وقام كبير مستشاري الامبراطور الصيني للشؤون الخارجية بتحذيره قائلاً: «إن روسيا بمجاورتها لحدودنا، ترمي إلى التغلغل في أراضينا كدودة الحرير، وتعتبر تهديداً لنا في الصميم»، وصرح وزير المالية الروسي في أواخر القرن موافقاً يقول: «إن ازدراد روسيا لجزء كبير من الإمبراطورية الصينية ليس سوى مسألة زمنية».

وفي بداية قيام الثورة الروسية قدر سون ياتسين . أبو الصين الحديثة . بأن إطار النفوذ الروسي في بلاده يشتمل على ٤٢٪ من أراضيها.

وبعد قيام الثورة الروسية عقد الصينيون الأمل على الحكم الشيوعي الجديد، الذي ندد بالنزعة التوسعية لدى القياصرة، ووعد بأن يتعامل مع جميع الدول على نحو جديد من الاحترام، وفي عام ١٩١٩ أصدرت الدولة السوفييتية الفتية وعد كاراخان، التي «شجبت فيه اعمال الاحتلال التي قامت بها الحكومة القيصرية، والتي جردت الصين من منشوراتها ومناطق أخرى»، ووعدت بالغاء كافة المعاهدات غير المتكافئة التي كان القياصرة قد عقدوها، كما تعهدت بأن «تعيد للشعب الصيني كل ما أخذ منه من قبل الحكومة القيصرية...»، واستبشرت الصين خيراً ولكن سرعان ما أظهر المندوبون السوفييت بأنهم ليسوا أكرم من القياصرة.

وواصلت روسيا، في عام ١٩٢١، اعتداءها على الصين بطريقة تشبه ما فعلته في غزوها لافغانستان عام ١٩٧٩ واستيلائها عليها، فقد قامت روسيا بتسويل عدد من المغوليين الذين شكلوا حزب الشعب الثوري المغولي، وشكلوا حكومة ثورية مؤقتة، «وناشدوا» موسكو وطلبوا «مساعدتها» فتحرك الجيش الاحمر، وأصبحت منغوليا، التي كانت جزءاً من الصين لقرون من الزمن، أول بلد يدور في الفلك السوفييتي، ودحض إعلان كاراخان، وفي عام ١٩٢٩ وقعت بين الاتحاد السوفييتي والصين حرب لم يعلن عنها، في منشوريا، قتل فيها ما يزيد على عشرة آلاف صيني، ونحو مسافة أبعد إلى الغرب أصبحت مقاطعة سينكيانغ في الثلاثينات «مستعمرة سوفييتية» على حد تعبير احد المراقبين.

وكانت فترة الصداقة بين الصين وروسيا في الخمسينات استثناء وليست قاعدة، فقد كانت العلاقات بينهما لمئات السنين تتميز بالمنافسة والعداء والتوسع الاقليمي الروسي.

عصر النهضة وردة الفعل

إن «اليد المرئية» في التاريخ لا تبيّن الاتجاهات التي نسير فيها فحسب، بل إنها تبين أيضاً ما الذي كان سيحدث لو أن أولئك الذين كانوا يمتلكون القوة للتغيير قد استخدموها، في النقاط الحرجة، بشكل مغاير.

وإن أكبر اخفاق في التاريخ، وأغلاه ثمناً، هو الاخفاق في الحيلولة دون تسلّم لينين للسلطة في روسيا عام ١٩١٧، ولقد كان ذلك الاخفاق بمثابة مأساة حلت بالشعب الروسي وبالعالم بأسره.

فقبل أن يطاح بالقياصرة بوقت طويل كانت قوى التغيير الليبرالية قد أحرزت مكاناً مرموقاً من حيث قوتها، وكانت روسيا قد بدأت باستيعاب أكثر من مجرد التكنولوجيا العسكرية من الغرب، ولو لم تتقاطع تلك العملية في سيرها، وتنحرف لكان من الممكن لروسيا، كاليابان، أن تصبح جزءاً حراً ومزدهراً من العالم الغربي.

ففي مطلع القرن التاسع عشر بدأت مثل الثورة الفرنسية بالتغلغل داخل روسيا، إثر الحرب التي شنها نابليون، حيث كان قد وصل بجيشه إلى موسكو لكن الجيش الروسي رده على أعقابه إلى باريس، وأخذت الأفكار الغربية تحرك الروح الروسية، جالبة معها الحضارات، وعهداً من التنوّر إلى تلك الأرض التي كانت حتى حينه أرضاً عذراء، وحدث تحرير العقل مما أدى إلى تحقيق انجازات هائلة في مجال العلم والأدب والفن والصناعة، واحتل بوشكين ودوستويفسكي وتولستوي وتشيخوف أمكنتهم بين أعظم كتاب العالم، وقد كتب أحد تلامذة تلك الحقبة الزمنية يقول: «خرج صوت روسيا الذي طالت بحّته، وفجأة أذهل العالم».

وفي مجال السياسة بدأت التغيرات البعيدة المدى تبشر بعهد جديد، وكان القيصر الاسكندر الثاني. قيصر التحرير، قد أنهى العبودية عام ١٨٦١، وخفف قيود الرقابة، واستخدم القضاء لإجراء المحاكمات، وبوشر بتشكيل حكومة ذاتية ممثلة على مستوى محلي، وخفضت تأدية الخدمة العسكرية من خمس وعشرين سنة . أي حكم مؤبد . إلى ست سنوات، وهكذا فقد زرعت بذور مجتمع جديد في روسيا، وكذلك بدأ النظام الجديد بالانتعاش والنمو، ولكن وياللمأساة، سرعان ما قلبها المحراث ودفنها تحت التراب.

وفي العادة تكون أنفاس الحرية الأولى أكثر براءة، وأقل تسميماً، وما إن بدأت الصفة الليبرالية تضع أقدامها في روسيا، حتى فعلت الثورة كذلك، فإلى جانب أولئك الذين أرادوا أن يبنوا مجتمعا جديداً كان أولئك الذين فكروا فقط بالقضاء على المجتمع القديم، وفي هذه العملية قضى الثوريون على المجتمع البرعم الذي كان في طور التفتح.

ولقي القيصر الاسكندر الثاني مصرعه قتلاً على أيدي مجموعة، أطلقت على نفسها اسم «نارودنايا فوليا» . أي إرادة الشعب. وفي عام ١٨٨٧ تآمر عدد من المعارضين على اغتيال القيصر الجديد، وقد كشف أمر أولئك، وقام أحدهم أثناء المحاكمة، وتقدم بشرف، وحاول تخليص البقية وتحمل المسؤولية عنهم، وكان شاباً في الحادية والعشرين من عمره يدعى الكسندر يوليانوف، وتركت شجاعته أثراً كبيراً في نفوس المسؤولين، واقترحوا عليه أن يسترحم القيصر، لكن الكسندر رفض، فأعدم شنقاً، فعيرت عائلة وأدينت، إلا أنها هُرِّبت من قبل أبناء المجتمع الليبرالي آنذاك، وكان لأكسندر يوليانوف أخ في السادسة عشرة من عمره، أثارته تلك الأحداث، وحسن الصنيع

المفاجيء الذي لقيته عائلته من ذلك المجتمع الموقر وكان يدعى فلاديميير . أي فلاديميير يوليانوف، وبعد بضعة شهور اتخذ اسماً آخر. هو: «لينين».

وكتب بيرترام وولف يقول: لقد فتحت «المحنة صدعا لا يمكن رأبه بين (لينين) وبين نظام الحكم الذي أودى بحياة شقيقه. وحضنته بامتنان عميق «المجتمع الليبرالي» الذي احتضن عائلة يوليانوف في وقت ضيقها. وعندما وصل لينين إلى السلطة طارت جميع المكاسب والمآثر التي حققتها القوى الليبرالية. إبان أواخر أيام القياصرة . كايجاد البرلمان، والإصلاح الزراعي. والملكية الفردية الواسعة والقواعد الأساسية: الاقتصادية والسياسية. من أجل أبناء مجتمع جديد.

فتخلى لينين البلشفي عن أفضل ما كان في روسيا، وتعلق بأسوأ ما فيها فألقى جانباً بليبيرالية روسيا وديمقراطيتها الجديدة، وثقافتها الساطعة الجديدة، ورغبتها في التعلم من العالم. وعاد الحكام الشيوعيون إلى الإرهاب الذي كان يمارسه ايفان الرهيب وإلى طغيان بطرس واضطهاده. وإلى توسع كاترين العفن، وذلك بغية بناء مجتمعهم الجديد. فقد اقتلعوا كافة جذور التغييرات الليبرالية التي كانت قد توّطدت خلال قرن من الزمن. منذ غزو نابليون، وحتى الحرب العالمية الأولى، معيدين عقارب الساعة إلى الوراء مئة عام أو أكثر، بالنسبة للشعب الروسي.

لقد قال الرسام الاسباني غويا ذات مرة: «إن حلم المنطق يخلق العفاريت» وهكذا كان الأمر بالنسبة لحلم الماركسية. فالعفاريت التي أوجدتها قامت بأفعال لم يحلم بفعلها القياصرة، والأساليب التي اتبعوها قد نقلت طبق الأصل، وتبنيت من قبل كل حزب شيوعي توصل إلى السلطة منذ ذلك الحين.

القياصرة الجدد

إن ما لقيه الشعب الروسي من العناء في ظل الحكم الشيوعي قد فاق كل تصوّر، فقد قدّرت وثيقة رسمية، نشرت عام ١٩٢٠ من قبل جيكا المدير السابق للاستخبارات الروسية الحالية [ك.ج.ب] التي يديرها الكسندر سولنر نيتسين، بأن الشيوعيين كانوا ينفذون الأعدام بحق أكثر من ألف إنسان في الشهر ما بين عامي ١٩١٨ . ١٩١٩ . قبل وصول ستالين إلى السلطة. وبعد عشرين سنة أي في عام ١٩٣٧ و١٩٣٨ كان ستالين يقوم بإعدام أربعين ألف إنسان شهرياً. أي أكثر من ١٠٠٠ إنسان يومياً على مدار عامين، ويقدر الخبير روبرت كونكويست عدد الذين أعدموا خلال الخمسين سنة الأولى من الحكم السوفييتي . في عهد لينين وستالين وخروتشوف وبريجنيف بأنه يبلغ على الأقل خمسين ضعفاً لعدد أولئك الذين أعدموا خلال النصف الأخير من القرن الماضي، قبل القياصرة.

ولا تروي هذه الأرقام إلا جانباً من القصة. فهناك العديد ممن لاقوا حتفهم في معسكرات العمل الإجبارية، التي بلغ عدد الذين أودعوا فيها ثمانية ملايين إنسان في الثلاثينات، وبين ١٢ . ١٥ مليون بعد الحرب العالمية الثانية، وإضافة إلى أولئك فخلال فترة الجوع الذي اختلق في اوكرانيا

في بداية الثلاثينات، يعتقد بأن من ثلاثة إلى خمسة ملايين إنسان قد ماتوا، وربما أكثر من ذلك، ففي حين كانت ملايين من البشر تعاني من الجوع، كان القادة الشيوعيون يقومون بشحن القمح إلى الخارج لقاء تبادلهم الصناعي مع الغرب.

ويعيد للأذهان، بتقدير شخصي، لمسؤول سابق في الحزب الشيوعي، أنه دخل إلى قرية، ورأى سكانها يطبخون روث الخيول والأعشاب للحفاظ على بقائهم حيث قطعت أغصان الأشجار لأكلها. وحيث أكل الناس جميع الهررة والكلاب والطيور وجرذان الحقول، ورأى في تلك البلدة مصنع زبدة للدولة، وقد طبعت على قطعها «صادرات اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية»، لتشحن لما وراء البحار، وفي البلدة ذاتها اكتشف المسؤول السوفييتي «مستودعاً للحبوب» للدولة وقد كدست فيه كميات كبيرة من القمح المخزون من موسم العام الماضي. رأى كل ذلك في قرية كانت العربات فيها تدور في الصباح لالتقاط جثث الموتى الملقاة على الأرض.

وفيما يلي ما كتبه أحدهم، الذي سمع ف... مولوتوف، الذي أصبح فيما بعد وزير خارجية في عهد ستالين، وهو يوضح أسباب المبادرة بنظام «الجمعيات» الذي أوجد المجاعة وها هو ذا الكاتب يذّكر:

دعا الرفيق مولوتوف جميع النشاطات. فتحدث بكل سهولة وبحدة، فالعمل يجب أن ينجز مهما بلغت الضحايا من الأرواح البشرية. هذا ما قاله لنا، وطالما أن هناك الملايين من الملاكين الصغار للأرض. فالثورة في خطر. وهناك احتمال دائم بأنهم قد يقفون. في حال قيام الحرب، إلى جانب العدو للدفاع عن ملكيتهم».

فخلال بداية الثلاثينات أعدم ٧٠. من كبار ضباط الجيش الروسي، ولم ينج أحد من إرهاب ستالين، حتى أولئك الذين كانوا يحتلون أعلى المراكز في الحزب الشيوعي، فقد قتل ٩٨ من أصل ١٣٩ عضواً من أعضاء اللجنة المركزية عام ١٩٣٢، وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية أرسل الملايين من أسرى الحرب إلى معسكرات العمل الإجبارية مباشرة، لأنهم رأوا الغرب، ولم يكن ستالين، طالب التاريخ الروسي، يأخذ أية فرص غير ضرورية.

كان ستالين يعرف بأن أكبر عدويين له هما العدوان اللذان كان القياصرة قد حاربوها. الجيوش الغربية. والأفكار الغربية. وكان مصمماً على أبعاد العدو الثاني بقدر تصميمه على هزم العدو الأول. وتشير التقديرات بشكل متحفظ إلى أنه قام بقتل عشرين مليون روسي، وأن القتل لم يبدأ في عهده ولم يتوقف عنده.

وعلاوة على الدمار الذي ألحقه القادة الشيوعيون بالشعب الروسي. فقد عانى ذلك الشعب من غزوين ألمانيين في القرن العشرين. وفي الحرب الأولى فقد الروس نصف رجالهم من حملة السلاح. ٦٥٠,٠٠٠ ر ١ قتلوا، و٣٫٨٥٠٫٠٠٠ جرحوا و٤١٠٫٠٠٠ ٢ أسروا، وفي الحرب العالمية الثانية خسروا نصف رجالهم أيضاً، لكن خمسة ملايين قتلوا هذه المرة و١١٫٥ مليوناً جرحوا. وقد بلغ مجموع عدد ما تكبده الروس من الأموات خلال الحرب العالمية الثانية/ ٢٠/ مليوناً.

وكانت المجابهة على الجبهة الشرقية خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية كارثة: وهولاً كبيراً. وكتب ونستون تشرشل عن الحرب الأولى يقول:

«من حيث مستواها، ومن حيث مذابحها، ومن حيث جهود المقاتلين وهولها العسكري كانت المعارك على الجبهة الشرقية قد تجاوزت باتساعها وكثافتها حدود أية مصيبة عرفتها الإنسانية.... هنا كانت أوروبا الوسطى تمزق نفسها إرباً إرباً. ويقتلها الأسى لكي تنهض من جديد دون أن يحس بها أحد».

وفي كل من الحرب والسلام كانت المذابح التي لا ترحم ملازمة للروس. وجزءاً من خبرتهم في الحياة. فالمقدرة على تحمل المذابح والمقدرة على تحمل المعاناة يمكن أن يجعلا الأمة طموحة ومنيعة الجانب، وقد قام المركيز دوكوستين بزيارة روسيا في الثلاثينات من القرن التاسع، ودون الملاحظة التالية: «يا له من طموح غير منظم وبلا حدود، فالطموح الذي تغرس جذوره فقط في روح شعب مضطهد، وينشأ ويترعرع في بؤس الأمة بكاملها، هو الذي يجيش في نفوس الروس.. فلكي يطهر نفسه من تضحيته غير الطاهرة بكافة الحريات الشخصية والعامة، يحلم العبد الراكع بالسيطرة على العالم»، ومضى في تعليقه يقول: «من المؤكد بأن الشعب الروسي سيحتاج للمقدرة على فعل كل شيء، سوى المقدرة على احتلال العالم، وإنني أرجع دائماً لهذا التعبير، لأنه الوحيد الذي من شأنه أن يفسر التضحيات الفائضة، التي يفرضها المجتمع هنا على الفرد».

وقد كتب زبيغنيو برزيزنسكي في كتابه «الايديولوجية والقوة في السياسة السوفييتية» يقول: «إن التأكيدات بأن القادة السوفييت يتخلون عن ماركسيتهم وشيوعيتهم، والتي كان لها في الحزب صدى متواصل، وجهل مستمر. يمكن أن تنفى ويختفي أثرها بشكل أسرع، إذا كان للصورة العادية لدوغماتية ماركسية مجددة أن تفسح المجال إلى استيعاب العلاقة الوثيقة والمعقدة التي تربط بين البيئة الإجتماعية السوفييتية، والإيديولوجية السوفييتية، والسبب في ذلك، بكل دقة، مرده إلى أن الايديولوجية هي جمع بين كل من الافتراضات الواعية والأغراض، وجزء من الخلفية التاريخية والاجتماعية والشخصية للقادة السوفييت، وهي المهمة والسائدة».

فليست «الشيوعية» النظرية، ولا «الماركسية» الفلسفية ما يهدد المطعم بجذور التوسعية القيصرية والاضطهاد القيصري.

وكارل ماركس قد فارق الحياة عام ١٨٨٣، أي قبل أن تصبح «الماركسية» الديانة الرسمية للدولة الروسية بأربعة وثلاثين عاماً، ولم يشهد مؤلفاً «البيان الشيوعي» تعاليمهما، «مترجمة» إلى عقلانية سوفييتية للاحتلال: ولم تكن ثمة فكرة لدى ماركس وأنجلز بأن العلم الأحمر سيرفرف فوق الكريملين، أو أن جيوش الإمبراطورية الروسية ستزحف إلى المعارك في ظله.

إن مبادىء ماركس بالنسبة لأنظمة الحكم الشيوعية الحالية. هي بمثابة ما كانت عليه المسيحية بالنسبة للحكام الدينيين لإمبراطورية روما المقدسة: فهي تلائمهم كراية، ولكن لا علاقة لها البتة كدليل. وماركس لن يعترف «بالماركسية» الحالية لو جاء وشاهدها. في حين أن كل

من بطرس الأكبر وإيفان الرهيب سيجدان نفسيهما في مكانهما الطبيعي. إن الشيوعية الحالية قد ولدت في حضن لينين وستالين في الكريملين. وليس في تلك الغرفة الوحيدة على السطح التي كان يسكنها كارل ماركس. في لندن. ومن ذلك الحصن انطلقت واتسع انتشارها في العالم. فالأحزاب الشيوعية المسيطرة في البلدان الأخرى والمحكم الشد عليها قد استجابت لستالين الحي. وليس لشبح ماركس: أي أنها قامت بخدمة مصالح الإمبريالية السوفييتية في القرن العشرين، وليس تعاليم الفيلسوف الألماني الذي عاش في القرن التاسع عشر.

وإذا كان الأرث الروحي لشيوعية عصرنا مستمد من القياصرة أقل مما هو مستمد من ماركس، فإن الوجه الآخر للقضية. هو أن الإمبراطورية الروسية الجديدة تختلف عن الإمبراطورية القديمة. من حيث شدة الاندفاع التبشيري، والتأجج الإيديولوجي للماركسية. كما أعيد تفسيرها من قبل لينين وورثته، وهذا ما يهيء منطقاً للاستعباد وراية يجمع في ظلها البائسون والمعدمون.

إن التأجج الإيديولوجي. والإطار اللذين يتجه القادة السوفييتية بهما للوصول إلى العالم يشكلان منطقا تاريخياً. وهو الديالكتيك، أي انتداباً من أجل التغير، وبالنسبة لذلك المنطق فإن «الاستقرار» أو «تطبيع العلاقات» في تناقض، انه يجتمع مع نظام الحكم السياسي الديكتاتوري من أجل احراز «طليعة تقدم» للانتداب الاشتراكي، ولنجاح الاشتراكية، ولكي يتماشى مع أمن الحزب الشيوعي السوفييتي، والدولة السوفييتية، يجب أن يتقدم ويخضع لسيطرة الكريملين، فكل ذلك يؤدي إلى الاهتمام بإجراء التغيير في العالم.

لقد خلقت الشيوعية تحالفاً جديداً بين الإمبريالية الروسية والحركات الثورية في سائر أنحاء العالم، فهي تخفي وتموه الإستعباد بلغة المثالية الراديكالية، وبذلك تستميل أصحاب المثل، وراية الثورة تضفي على الاستبداد مظهراً شكلياً من الشرعية، والاستبداد يقدم «للحركات الثورية» الأموال ويمدها بالسلاح والعضوية في ناد عالمي ومجموعة من الأساليب الحديثة للاحتلال والسيطرة.

فبعد عام ١٩١٧ أصبحت الأساليب التي استخدمها القياصرة عن طريق البوليس السري، في الصف الخلفي، بالمقارنة مع كيان ثوري تجاوزت سلطته وقوته أساليب القياصرة، وقطعت بوناً شاسعاً، وذلك الكيان هو الاستخبارات الروسية «ك.ح.ب» التي شكل في أعقاب قيام الثورة الشيوعية، وحدثت عملية تزاوج بين العرف الروسي العسكري والأساليب الشيوعية في القمع، وتمخض هذا التزاوج عن ولادة خطر جديد على الدول صاحبة السيادة ـ أي أحزاب شيوعية خاضعة لسيطرة موسكو، لا تعرف التردّد.

وتضاعف الخوف الروسي التقليدي من الغزو، عندما أصبح العالم بأسره، أوتوماتيكيا، عدواً ايديولوجياً لموسكو، وفي نهاية الأمر اتخذت العادات الروسية على التوسع والاحتلال امتيازاً في الحياة، عندما أعلنت موسكو بأن من واجب موسكو المقدس في ظل الماركسية تحرير العالم

«الرأسمالي» المفجوع، ومن هنا يمكننا القول بأن الإمبريالية القيصرية قد صهرت مع الثورة الشيوعية، مما أدى إلى ظهور قوة مزعجة على المسرح العالمي، وهي «الثوريون الامبرياليون».

كان لينين قد حكم الاتحاد السوفييتي لمدة ستة سنوات قبل وفاته في كانون الثاني عام ١٩٢٤، وحكمه ستالين لمدة تزيد على ربع قرن قبل وفاته في آذار عام ١٩٥٣، وهكذا فإن لينين هو الذي فتح الطريق، بينما أقام ستالين الحكم الحديدي، وقام ستالين بارتكاب مجازر بحق الملاكين الصغار، وشكل الجمعيات الزراعية التعاونية، وشكل البوليس السري كما قام بعمليات التطهير في الثلاثينات، ونشر الرعب الأرخبيلي.

وخفف القادة الذين خلفوا ستالين من الأعمال الوحشية السابقة، وأدخلوا بعض الحريات الفردية التي لا تعتبر حريات في الغرب ولا يعترف بها. لكنها بالمقارنة مع ما سبقها تعتبر خطوة نحو الأمام. وبدوا أكثر تشذيباً، وأكثر تعقيداً، وفي بعض الحالات أكثر ميلاً للقوة في العالم، لكن تركيب القوة ظل على ما كان عليه، وكذلك بقيت الديكتاتورية المطلقة دون أن تتبدّل، والدولة الاستبدادية تبقى على ما هي عليه لأن هذا هو جوهر القيصرية الجديدة، وهو ما تقوم عليه سلطة الدولة السوفييتية، كذلك يبقى الاتجاه متواصلاً نحو التوسّع، فالقادة السوفييت يمتلكون من القوة العسكرية ما تجاوز ما كان يحلم به القياصرة، كما أنهم بسطوا سلطتهم خارج المدى الذي كان القياصرة يطمحون بالوصول إليه.

روسيا تواجه أميركا

في مطلع القرن العشرين. سد الباب في وجه التوسع السوفييتي الخارجي بصورة رئيسة من قبل خمس من القوى المحيطة به، وكانت الأبواب محروسة من قبل: المانيا، والنمسا، وهنغاريا في أوروبا، ومن قبل الإمبراطورية العثمانية في الجنوب، واليابان في الشرق الأقصى وفي قلب آسيا، في إيران وأفغانستان والهند والتيبت وغيرها حيث لعب البريطانيون ما أسماه كيبلينغ «اللعبة الكبرى» مع روسيا. وعملوا على تقوية القوى المحلية، بحيث تستطيع الوقوف في وجه الروس، وإذا اقتضت الضرورة يهب البريطانيون بأنفسهم للقيام بالمهمة، وقد استطاعت هذه القوى أن تحصر العملاق الروسي المضطرب، فقد حصرته ضمن حدوده وجعلته قوة قارية، بدلاً من كونه قوة عالمية تبسط سلطتها ونفوذها حتى أطراف القارة الأوراسية فقط، بإغلاقها للحدود الشمالية والشرقية. ومنع وصول أحد عن طريقها.

وقد تمخضت الحربان العالميتان الأولى والثانية عن القضاء على النظام العالمي الذي أوجده الأوروبيون وتمخضتا عن الاتيان بالشيوعية إلى مركز السلطة في كل من روسيا والصين، وقضتا على القوى الخمس التي كانت تبقي روسيا مقيدة. وجرتا الولايات المتحدة إلى خضم السياسية العالمية، قبل أن تكون مستعدة لذلك.

وبالنسبة للولايات المتحدة فإن القرن العشرين، يعني انتهاء البراءة، أما بالنسبة لأوربا فقد كان يعني نهاية الإمبراطورية، وبالنسبة لشعوب روسيا والصين وعشرات من الدول الأخرى فقد كان يعني أهوال حكم الشيوعية، وأما بالنسبة للقادة السوفييت فيعني انتهاء الكبح الذي كانت تشكله قوى عظمى أبقت التوسع الروسي تحت مراقبتها.

وعندما هزمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، اضمحلت امبراطوريتها، وانقسمت النمسا . هنغاريا، وزالت عن الخريطة، كما أن الإمبراطورية العثمانية تفككت، وضعف مركز بريطانيا وفرنسا رغم أنهما انتصرتا اسمياً.

بيد أن ما بدأته الحرب العالمية الأولى أتمته الحرب العالمية الثانية، وقد قال لي الجنرال ديغول عام ١٩٦٩: «جميع الدول الأوروبية قد خسرت في الحرب العالمية الثانية واثنتان هزمتا»، فالمانيا قسِّمت، واليابان نزع منها السلاح، وبريطانيا ضعفت لدرجة أن إمبراطوريتها بدأت بالانحلال على الفور، وهكذا ففي غضون ثلاثين سنة من الزمن أصبحت القوى التي كانت تقف في وجه روسيا، إما عليلة، أو اختفت عن المسرح العالمي.

ولم يبد الأميركيون اكتراثاً، وذلك بسبب تمسكنا بماضينا الإنعزالي، والمثالية الساذجة التي تجلى بها موقفنا من القضايا العالمية، مضينا إلى الحرب العالمية الثانية. وكأنها مباراة رياضية لا هدف لنا فيها سوى تحقيق النصر، أما ونستون تشرشل وستالي، بعكسنا، فقد كانا يعيان التبدلات الهائلة التي تأخذ مجراها، وركزا نظرهما على العمل العسكري المباشر أقل مما فعلاه بالنسبة للمعركة فعلى الجانب الغربي غلب تشرشل على أمره، لكن ستالين تمكن من اجتياح أوروبا الشرقية اجتياحاً كاسحاً، بعد أن كان قد أعد جيوشه للقيام بعمليات الاحتلال في اعقاب هزيمة ألمانيا النازية، وترتب علينا على الفور أن ندفع ثمن عدم اكتراثنا، وهكذا فإن اخفاق الولايات المتحدة في الوقوف في وجه التوسع السوفييتي إبان الحرب، أدى إلى قيام وضع وجدنا أنفسنا فيه مجبرين على الزحف للقيام بذلك بعد الحرب، بعد أن كان الكثير من المناطق قد ضاع.

وفي اليونان وتركيا، حيث كانت قوة الإمبراطورية العثمانية ومن بعدها بريطانيا العظمى قد وضعت روسيا تحت المراقبة من قبل، نشأ فراغ قوة في عام ١٩٤٧ كانت روسيا تواقة لشغله، وتعين علينا إذ ذاك أن نستجيب لمبدأ ترومان، في أوروبا حيث كانت ألمانيا والنمسا . هنغاريا، والقوى الأوروبية الأخرى تقف لروسيا بالمرصاد، بدأت الاضطرابات، وأتينا، والحالة هذه، بمشروع مارشال، ومعاهدة حلف شمال الأطلسي (ناتو)، لكي نحل محل القوى التي كانت تقف في وجه روسيا هناك، وفي الشرق الأقصى تمكنا من أن نحل محل اليابان بإيقافنا للغزو الكوري عام ١٩٥٠، بالاتفاق مع الأمم المتحدة.

وبالإضافة إلى ما أشرنا إلى ذكره، وإثر التراجع الذي لحق بإمبراطورية بريطانيا وفرنسا في سائر أرجاء العالم، وبالقوى الأوروبية الأخرى ترتب علينا تحمل الكثير من إلتزاماتها في الشرق الأوسط، وفي جنوبي وجنوب شرقي آسيا وأفريقيا والخليج العربي وفي الوقت ذاته واصلنا القيام

بدورنا في حماية أميركا اللاتينية، وأصبحنا أداة ضبط التوازن في العالم، للمحافظة على توازن القوى فيه، وتحملنا مسؤوليات كانت تتحملها خمس إمبراطوريات عظمى من قبلنا، وذلك في مجال التصدي لروسيا والحفاظ على النظام في العالم.

ولم يكن ذلك العبء الذي لا سابقة له بسهل، حتى ولو كانت الولايات المتحدة على أتم الاستعداد لتحمّل مسؤولياتها، وكما هو معروف فإن الأمريكيين لم يألفوا الكثير من المكر والحنكة في التعامل مع شعوب العالم. كما أنهم لم يكونوا معتادين على السلطة والقوة على نطاق عالمي، فقد كانت نهاية البراءة طويلة ومربكة، كما كانت عملية صعبة علينا في بعض الأحيان.

وبالنسبة لروحها الصبورة القوية، وبالنسبة للعقبات القاسية التي ترتب على الولايات المتحدة أن تذلّلها، من أجل التغلب على القارة وصعوباتها، فقد تعاظمت، أي الولايات المتحدة، في المجال الدولي، في بيئة محمية، ولكون أمريكا أول ديمقراطية حديثة في العالم، نشأت على الإيمان، وكما جاء على لسان أحد المراقبين قوله: «لم يكن على الولايات المتحدة أن تشكل منارة للطريقة الديمقراطية الداخلية المتفوقة فحسب، بل كان عليها أن تكون مثالاً للنموذج الديمقراطي المتفوق أخلاقياً في السلوك الدولي، والولايات المتحدة ترفض طوعياً سياسة القوة وتعتبرها غير مناسبة لإدارة سياستها الخارجية».

ولكونها محصنة ضد الحروب بحد يشكله المحيط. ويبلغ طوله ثلاثة آلاف ميل، ويحميها كذلك من التآمر في أوروبا. استطاعت أميركا أن تتحاشى «التحالفات المربكة»، التي كانت واشنطن قد حذرت منها. وفي حين أن البلدان الأوروبية كانت تتنافس فيما بينها لبسط نفوذها، وإقامة دول خاضعة لسلطانها في مناطق واسعة في آسيا وأفريقيا. كانت أميركا ـ باستثناءات قليلة ـ كما حدث عندما أخذت الفيليبين كمخلفات حرب من اسبانيا ـ تركز جهودها على وصل شواطئها الأطلسية بشواطئها الباسيفيكية (على المحيط الهادي) وتطوير اليابسة فيما بينهما.

وكانت النتيجة قوة قارية، مع نظرة قارية، حتى أنها كانت ضيقة ومحدودة المدى. فبالمقارنة الكبيرة نجد أن بريطانيا «جزيرة النفوذ» الصغيرة مقابل شواطئ أوروبا كانت في الماضي قد بسطت سلطتها على أكثر من خمس أرض العالم بكامله، وعلى ربع سكانه. وبالنسبة للبريطانيين ومنافسيهم في العرق الاستعماري. كانت الإمبراطورية تشكل مصدر القوة، وكانت أيضاً نتيجة للقوة، وسببا للقوة. ومركزا لممارستها. وكانت تلك الدول قد طورت تماثلاً طبيعياً مع طرق استخدام القوة.

وهكذا فقد تعلمت اجيال من رجال الدولة البريطانية التفكير، بصورة طبيعية، اوتوماتيكية على أسس عالمية، فالذي كان يحدث حول نصف العالم كان مادة للأخبار في بريطانيا. لأن ذلك كان مهم فيها. وبالنسبة للعقل البريطاني لم تكن الإمبراطورية «استغلالاً». بل كانت قدراً ، وكانت بريطانيا تترأس أوروبا التي وصفها المؤرخ هاجو هولبورن: «بمركز اتساع اقتصاد العالم إلى جانب كونها قلب ودماغ المدنية الغربية التي يعتقد بأنه من المقدّر لها أن تحول كافة المدنيات الأخرى

إلى مقلدة لها». ففكتوريا حكمت وبريطانيا حكمت. وعندما كان الجنود يموتون في الميادين التي تعجّ بالغبار في أمكنة قاصية. كان البريطانيون ينظرون إلى ذلك على أنه ليس ثمن التقدم فحسب. بل ثمن السلام أيضاً، وقد سعى أولئك الذين كانوا يديرون الإمبراطورية إلى كبح جماح المنافسين القدماء، وراقبوا الحروب القبلية، وغالباً ما كانوا يحرزون نجاحات ملموسة في هذا الصدد.

وكانت بريطانيا تحوّل وزنها من مكان إلى آخر، بغية الحفاظ على استقرار توازن القوى في أوروبا، وبذلك كانت تحافظ على السلام.

أما الأميركيون، بالمقارنة فكانوا يعتبرون التدخل في الشؤون والحروب الأوروبية بمثابة انحراف. وهو عبء يجب أن يتحملوه فقط إذا اقتضت الضرورة ذلك، ثم يعودون إلى عزلتهم في النصف الغربي من الكرة الأرضية، وهي حالتهم الطبيعية.

وكتب تشارلز ي. بوهلن وهو الديبلوماسي المحترف القديم يقول: «عندما التحقت بعملي في السلك الخارجي في الأول من آذار عام ١٩٢٩، كانت الولايات المتحدة تتمتع بمركز آمن ومضمون وسهل مثل أية دولة عظمى على وجه الأرض، فقد كان جيراننا في الشمال والجنوب لا يشكلون أي خطر محتمل يهددنا، وكنا محميين بمحيطين واسعين، وكان ذلك في تلك الأيام التي لم يكن باستطاعة أية دولة خارجية أن تطالنا، فإلى الجنوب منا كانت أميركا اللاتينية التي كانت علاقتنا بها علاقة صداقة بشكل عام، وعلاقة وقائية على أسس قارية، لكن ما هو أهم من ذلك، هو أن مساحات واسعة جداً من العالم كانت خاضعة لديمقراطيتين، كانتا حليفتين للولايات المتحدة إبان الحرب العالمية الأولى ألا وهما: انكلترا وفرنسا... وفي نهاية العشرينات كنا محميين حماية كاملة وتصرفنا كما يجب أن نفعل».

في ذلك الوقت كانت الميزانية العسكرية للدولة أقل من بليون دولار، وكانت ميزانية وزارة الخارجية ١٤ مليون دولار فقط.

وفي الثلاثينات كانت الانعزالية الأميركية واسعة النطاق، لدرجة أن مجلس النواب عام ١٩٣٨ قد أنجح تعديل لودلو بواحد وعشرين صوتاً، والذي كان يتطلب استفتاء وطنياً قبل إعلان الحرب، وبيّن استفتاء روبر في أيلول عام ١٩٣٩ بأن ٢٥ % فقط يؤيدون أي شكل للتدخل في الحرب في أوروبا، وفي تشرين الأول عام ١٩٤٠ بينما كان يقوم الرئيس فرانكلين روزفلت بحملته الانتخابية. من أجل إعادة انتخابه رئيساً للجمهورية للدورة الثالثة. لقي الترحيب والتشجيع. لإعلانه الذي قال فيه: «لقد قلت من قبل وما زلت أكرر قولي. وأعيده بأن أبناءكم لن يرسلوا إلى أية حرب خرجية».

وإبان الحرب العالمية الثانية لخصّت سذاجة أمريكا حول طبيعة العالم بعد الحرب من قبل وزير خارجيتها كورديل هول في بيانه أمام الكونغرس. الذي أعلن فيه أنه بإيجاد الأمم المتحدة «لن تعد ثمة حاجة لأجواء النفوذ والتحالفات وميزان القوى، أو أي من الأحلاف المنفصلة التي بها كانت الدول. في الماضي الكئيب، تسعى لحماية نفسها بها وضمان أمنها، وترويج مصالحها».

وكانت الحرب العالمية الثانية قد غيرت الوضع الدولي تغييرا جدرياً. دون أن تبدل مواقف السواد الأعظم من الأمريكيين تبديلاً جدرياً. وقد تركت أمريكا وحدها بعد الحرب تتصدر موقع القيادة، لكن الأمريكيين لم يكونوا قد اعتادوا كثيراً على تذوق طعم القيادة التي كانت صعبة. وكانت عبئاً يتطلب تقديم التضحيات.

وتتطلب قيادة العالم شيئاً غريبا من جوانب شتى على العقل الأميركي. إنها تتطلب وضع حدود للمثالية. ومسايرة الواقع. وفي بعض الأحيان مقابلة الازدواجية بالازدواجية، وحتى الوحشية بالوحشية. فبعد قرن ونصف من الزمن من حمل العالم على طول الذراع والانحدار إلى مستوى التلوث بالاتصال بمؤامراته ومستعبديه. فإنها تتطلب السير إلى الملعب وأداء لعبة ديبلوماسية القوة. كرياضة تماس . بغض النظر عمن يكون الفريق الخصم، والأمر يتطلب القيام بذلك. حتى ولو كانت القواعد المفروضة على اللعبة قواعد ليست من اختيارنا نحن.

إن رفع المعنويات. دائماً أسهل. من خلف الخطوط. مما هو عليه الأمر على أرض المعركة. وإن هناك العديد ممن لديهم طريقة تنسب حسن حظهم إلى فضيلتهم العليا، ومع تعاظم مسؤولية أمريكا من أجل حماية اثنين من المحيطات. فبوسعها أن تنظر باستخفاف إلى النزاعات التي تدور في أوروبا، في حين تهتم بوهم أن آمنها الذاتي مستمدّ بشكل من الأشكال من نظامها الديمقراطي. وفي حقيقة الأمر كانت الولايات المتحدة في ريعان صباها أحد المنتفعين الرئيسيين من البحرية البريطانية. فطالما أن بريطانيا تسيطر على البحار تبقى «القارة الجزيرة» آمنة.

ومهما يكن من أمر. فإن دروس قيادة العالم دروس قاسية. وفيما مضى كان بمقدورنا أن ننظر باستغراب فضولي للطرق الغريبة في روسيا البعيدة، أما الآن فأصبح يتوجب علينا أن نجاري القوة المجموعة للاتحاد السوفييتي، وكان بوسعنا فيما مضى أن نعتز بتقاليدنا الديمقراطية، وتتغنّى بها، في أمان بعزلتنا الكبيرة، أما الآن فأصبح من المفروض علينا أن ندافع عن تلك التقاليد، وليس من أجل خيرنا وصالحنا فحسب، بل من أجل صالح أولئك الآخرين الذين يشاركوننا هذه التقاليد، وكان دوتوكويفيل قد عرف ذلك التحدي في علومه الأولى فمن بين الدولتين اللتين كلتاهما «متميزتان وتنعمان بالإرادة السماوية لتحديد مصائر نصف العالم»، ترى من التي ستسود؟.

إن الجواب على هذا السؤال متروك إلينا كي نقدمه، بل يفترض فينا أن نقدم الجواب.

الفصل الرابع

وداج النفط

«لم يكن هناك ذراع بحري ولن يكون أكثر إثارة لاهتمام الجيولوجي، وعالم الآثار. والمؤرخ والجغرافي والتاجر ودارس الاستراتيجية على حد سواء من تلك المياه البرية (داخل اليابسة) المعروفة بالخليج العربي».

السير آرنولد ويلسون

«إن المنطقة الواقعة جنوبي باتوم وباكو بالاتجاه العام نحو الخليج العربي تشكل البؤرة التي تتركز عليها مطامح الاتحاد السوفييتي».

فياشيسلاف م. مولوتوف

وزير الخارجية السوفييتية

تبيّن أحداث الخليج العربي بصورة دراماتيكية. كيف أن أمكنة، كانت حتى فترة تبدو بعيدة وغريبة، يمكن أن تخلق لنا وبشكل مفاجيء أزمات فائقة الألحاح، وكيف يمكن أن نستيقظ لنجد أن منطقة كانت ذات يوم تنعم. إلى حد كبير، بخيال رومانتيكي. أصبحت الآن تمسك مصير العالم بذراعيها أو برمالها. بتعبير أدق.

فقصة الخليج العربي تعود آلاف السنين إلى الوراء، وذلك إلى بداية تحركات المدنية الغربية فغالباً ما كبحها التعقيد، وكانت العلاقات المريرة بين حضاراته ودياناته المتنوعة. قد عُزلت في القرون التي مرت عليه، لتشكل حاضرة الحالي، وتتركز الأهمية الاستراتيجية للخليج حالياً على عاملين اثنين: موقعه ونفطه.

فكلتا القوتان : الاقتصادية والعسكرية تعتمدان الآن على النفط ، وهذه الحقيقة الأساسية جعلت من الخليج العربي هدفاً للعاصفة العالمية ، في العقود الأخيرة من القرن العشرين. وإذا ما كسب الاتحاد السوفييتي القدرة على إغلاق صنابير نفط الشرق الأوسط. فيستمتع بالقدرة على إرغام الجزء الأكبر من العالم الغربي المصنع على الركوع أمامه، ولكي يحقق ذلك فليس من الضروري أن يقوم الاتحاد السوفييتي بالاستيلاء على بلدان الخليج العربي بنفس الطريقة التي استولى فيها على أفغانستان، ويمكن للسوفييت أن يؤمنوا خدمة لأغراضهم عن طريق الضغوط الخارجية، أو الاضطرابات الداخلية التي من شأنها أن تحرم الغرب من مصادر تلك البلدان.

والسوفييت يدركون ذلك منذ أمد بعيد فأندريه سخاروف الفيزيائي السوفياتي المعارض يروي حديثاً أدلى به، في الكريملين، مسؤول سوفييتي كبير عام ١٩٥٥، وأوضح أن هدف السياسة السوفييتية في الشرق الأوسط على المدى البعيد يتجلى في «استغلال القومية العربية، من أجل خلق الصعوبات في وجه الدول الأوروبية للحصول على النفط، وبذلك يحقق النفوذ عليها»، وقد حدث ذلك قبل حظر النفط عام ١٩٧٣ بثمانية عشر عام.

فقد يكون من الممكن في القرن الحادي والعشرين تطوير الطاقة الشمسية والحرارية العامة، وبعض المصادر الأخرى للطاقة لدرجة يمكن معها تلبية الجزء الأعظم من حاجيات العالم للطاقة، أما بالنسبة للوقت الحاضر، فإننا نعيش في عصر النفط، وهذا ما يعطي أهمية استراتيجية فوق عادية لمنطقة الخليج العربي خلال العقود القادمة، وهذا يعني بأنها واحدة من أكثر مناطق العالم اضطراباً، وأكثرها حيوية وتهديداً بالخطر في آن واحد معاً.

إن الطاقة في العصر الصناعي تعتبر دم الحياة للنظام الاقتصادي، وإن القوة الاقتصادية أساس القوة العسكرية، فقد كانت بريطانيا أول قوة صناعية، وأصبحت في القرن التاسع عشر أبرز وأول قوة سياسية سياسية وعسكرية، وتقدمت بريطانيا في البداية على العالم بسبب كونها جزيرة قائمة على الفحم الحجري، ولأن الفحم الحجري كان يشكل الطاقة للثورة الصناعية.

وما أن أفسح الفحم الحجري المجال، وفتح الطريق أمام النفط، حتى انزاحت بريطانيا، أول قوة متفرقة بمجال الفحم الحجري، الذي كان الطاقة الأولى، من طريق الولايات المتحدة التي كانت الدولة الأولى والمتفوقة في مجال النفط، ومكان أول بئر للنفط في العالم قد حفر في تيتوسفيل في بنسلفانيا عام ١٨٥٩، وكانت شركة ستاندرد أويل تراست، التي يملكها جون د. روكفلر «أوبيك» عصرها، وكانت الولايات المتحدة أكبر مصدر للنفط في العالم.

وجاء النفط ليغذي السيارات بالوقود، وبما أنه أصبح ممكناً للطائرات والسفن والدبابات والسيارات، وهي أدوات الحرب في القرن العشرين، الوصول إلى إمدادات النفط، أصبح النفط حاجة عسكرية ضرورية.

فقد صرح رجل الدولة الفرنسي، في الحرب العالمية الأولى، جورج كليمنصو، بأن «النفط ضروري ضرورة الدم»، وحذر المارشال فوش بقوله: «علينا أن نمتلك النفط وإلا فسنخسر الحرب»، وزعم اللورد كورزون فيما بعد قائلاً: «عام الحلفاء إلى النصر على موجة من النفط»، ففي الأسابيع القليلة الأولى من الحرب كسب المارشال جوفر معركة مارن بدفع تعزيزات فرنسية إلى الجبهة بسيارات تكسي تعمل على البنزين أتى بها من شوارع باريس.

وفي الحرب العالمية الثانية، بينما كان الجنرال جورج س. باتون يضرب بقواته عبر فرنسا، سار اختصاصيو تكساس لمد أنابيب النفط في إثر دباباته وقاموا بمدّ خطوط الأنابيب بمعدل خمسين ميلا في اليوم. ذلك أن أحدى الميزات الاستراتيجية الرئيسية التي كانت تتمتع بها قوات الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، هي أنها كانت تسيطر على ٨٦% من نفط العالم.

النفط بعد الحرب العالمية الثانية

ما إن كادت مدافع الحرب العالمية الثانية تصمت حتى قام ستالين بأول اندفاع له باتجاه الخليج العربي، ورفض السوفييت. بكل وقاحة، تحريك قواتهم من المناطق التي احتلوها بعد الحرب في الجزء الشمالي من إيران، وأحدثوا جمهورية أذربيجان، ومنحوها «حكماً ذاتياً»، كما

شكلوا الجمهورية الشعبية الكردية تحت سيطرتهم. وطالبوا بإيجاد «شركة مشتركة» لاستثمار احتياطي النفط في شمالي ايران، على أن يكون لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ٥١٪ من الأسهم.

وكتب هنري ترومان. الذي كان رئيساً للجمهورية آنذاك، فيما بعد يقول:

«واصل الاتحاد السوفياتي أعمال الاحتلال حتى رأيت أنا شخصياً وجوب إحاطة ستالين علماً، بأنني قد أصدرت الأوامر لقادتنا العسكريين كي يستعدوا لتحريك قواتنا الأرضية والبحرية والجوية، وفعل ستالين ما كنت أعرف بأنه سيفعله، لقد سحب قواته».

وجاء التهديد السوفييتي التالي للخليج العربي «مركز أطماع الاتحاد السوفيتي» إلى شرقي البحر المتوسط: في اليونان، وتركيا، حيث كانت بريطانيا تقطع التزاماتها الخارجية.

واستجاب الرئيس ترومان مرة أخرى عندما طالب أثناء جلسة مشتركة للكونغرس بتقديم المساعدة للبلدين المذكورين، وعندئذ وجد مبدأ ترومان، الذي طالب بقوة أميركية للوقوف في وجه القوة السوفييتية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وفي منتصف عام ١٩٤٨ كانت قد تشكلت «القوة الخاصة السادسة» . التي كانت سابقاً تدير الاسطول السادس الأميركي . أسطول البحرية في المتوسط . وبدأت الطائرات الأمريكية على الفور باستخدام قواعد في ليبيا وتركيا والعربية السعودية وهكذا تشكل وجود عسكري أمريكي في الشرق الأوسط.

وفي تلك السنوات البائسة والحاسمة التي أعقبت الحرب أصبح النفط، على حد قول أحد المراقبين: «حلقة الوصل بين مبدأ ترومان للشرق الأوسط، وخطة مارشال لأوروبا»، وكان النفط مهماً جداً لأوروبا من أجل إعادة بناء صناعتها، وكان النفط الذي تحتاجه يأتي من الشرق الأوسط، وفي عام ١٩٤٨ أرسل وزير الدفاع الأمريكي جيمس ف. فورستال مذكرة إلى الرئيس ترومان أعلن فيها «ستكون فرصة نجاح برنامج الاعمار والترميم الأوروبي بدون نفط الشرق الأوسط ضئيلة جداً».

وهكذا فإن تحوّل أوروبا من الاعتماد على فحمها الحجري إلى النفط المستورد، كمصدر أساسي للطاقة، قد غيّر البنية «السياسية العامة» للعالم تغييراً جذرياً، ولقد كان الشرق الأوسط منذ زمن بعيد يشكل ملتقى للطرق المؤدية إلى آسيا وأفريقيا وأوروبا، وأصبح نفطه الآن دم الحياة الذي يسري في عروق الصناعة الحديثة، وإن منطقة الخليج العربي هي القلب الذي يضخ ذلك الدم، وإن البحر الذي يحيط بها هو الوداج الذي يمر عبره الدم إياه.

فاليابان تعتمد على ما أسماه المعلق الصحفي جيمس روستون: «جسر من ناقلات النفط حيث توجد واحدة منها على بعد كل مئة ميل من الخليج العربي، وعلى مدار العام» ويقوم الخليج بتزويد اليابان بأكثر من ٧٠٪ من حاجياتها من النفط، كما يزود أوروبا بأكثر من نصف حاجياتها.

وقد تزايد اعتماد الولايات المتحدة على النفط كمصدر للطاقة، وتزايد اعتمادها على استيراده، فالنفط حالياً يزود ٥٠٪ من طاقتنا، وبينما كنا نستورد ثلث حاجياتنا من النفط عام ١٩٧٣

أصبحنا نستورد نصفها اليوم، وفضلاً عن ذلك. فقد كانت كندا أول الدول التي تزودنا بالنفط في عام ١٩٧٣، أما بعد خمس سنوات من ذلك فقد أصبحت منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبيك) تزودنا بأكثر من ٨٠٪ من استيرادنا، وأصبحت الولايات المتحدة، التي كانت في يوم من الأيام المصدر الرئيسي للنفط في العالم، أكبر الشارين للنفط من أوبيك حيث أنها تشتري أكثر من خمس نفطها.

وأصبحت الآن، أكثر من أي وقت مضى، مسألة من يسيطر على ما في الخليج العربي والشرق الأوسط تشكل مفتاحاً بيد من يسيطر على ما في العالم.

ولقد عرف البريطانيون بحدوث هذا الشيء قبل وقت طويل، فحاولوا في بداية الخمسينات اقناع الولايات المتحدة بأن مسائل الخليج: «مسائل استراتيجية. وسياسية أساسية، وليست مجرد مسائل إقتصادية»، وقد كان موقف البريطانيين ووضعهم أضعف من موقف ووضع الولايات المتحدة، لذا توجب عليهم أن تكون رؤيتهم لهذا المسائل أكثر وضوحاً من رؤية الأميركيين. وهنا لا بد من الإشارة إلى أنهم، أي البريطانيين، كانوا أوسع خبرة لا سيما في منطقة الخليج، ومن هنا كانوا أقدر على امتلاك رؤية أوضح.

وعلى الرغم من أن السواد الأعظم من العالم لم يدرك أهمية المشيخات حتى بعد حظر النفط عام ١٩٧٣ . فإن الحكام البريطانيين كانوا يوجهون اهتمامهم نحو أدق التفاصيل المتعلقة بشؤون تلك المشيخات منذ مئة وخمسين عام.

وفي بداية الأمر، كان البريطانيون، قد تحركوا نحو الخليج في مطلع الثمانينات من القرن التاسع عشر، لمنع الأطراف هناك من تمزيق أوصال تجارتهم. ومنذ ذلك الحين حتى مطلع السبعينات من هذا القرن. تمكنت القوة العسكرية البريطانية من الحفاظ على النظام، وأمنت الحماية كما قامت بتسوية النزاعات بين مختلف المشيخات الواقعة على شواطيء الخليج.

وأصبحت السيادة العليا في منطقة الخليج وحول شبه الجزيرة العربية لبريطانيا، وفي عدن وعُمان وقطر والبحرين والكويت والامارات العربية المتحدة، وهي مجموعة من المشيخات كانت معروفة بساحل القراصنة، أصبح البريطانيون يشكلون صلة العمل بين الشيوخ وبقية أنحاء العالم. ولقد قام البريطانيون بمهمتهم بحصافة ودقة تامة وخشونة. ففي عام ١٩٣٤ عندما قاموا بحملة لانقاذ مرفأهم في عدن. لم يتورع البريطانيون عن استخدام المديح والرشوة واستعراض للقوة بدقة في الحساب حتى توصلوا لتوقيع أكثر من ١٤٠٠ «معاهدة سلام» مع حكام ما يعرف اليوم باليمن الجنوبي. وتحت مظلة الحماية البريطانية بدأت الشركات الضخمة المتعددة الجنسيات في التنقيب عن النفط في تلك المنطقة.

ولم تكتف بريطانيا بالسيطرة على الخليج فحسب، بل بالسيطرة على الطرق المؤدية اليه من جميع مناطق المحيط الهندي . من سنغافورة، والملايو، وبورما، والهند، وسيلان، وعدن. والسويس، وكينيا . وجنوبي أفريقيا، واستراليا، ومن ديغيو غارسيا والجزر الأخرى في المحيط الهندي . التي

كانت جميعها ممتلكات بريطانية من حين لآخر. فكل من الخليج العربي والمحيط الهندي اللذين يؤديان إليها كانا «بحيرتين بريطانيتين».

وحافظت بريطانيا على وجودها في الخليج حتى عام ١٩٧١. بيد أن انسحاباتها المرحلية وتخليها عن مسؤوليتها «شرقي السويس» بعد الحرب العالمية الثانية. قد خلق سلسلة من فراغات القوة. ملأها قوميون مناوئون يغذيهم السوفييت.

ايران: دليل المتاعب

إن الدليل الآخر للاضطرابات التي وقعت في إيران مؤخراً. قد حدث عام ١٩٥١. عندما أدخل محمد مصدق على التشريع الإيراني اجراء يقضي بتأميم شركة النفط الأنكلو ـ ايرانية. وأصبح نفسه رئيساً للوزراء. وعمت ايران أعمال الشغب في ظل مصدق المعروف بشدة عدائه للغرب. وتوقف انتاج النفط تقريباً، كما اضمحلت وتعرقلت خطط التنمية الاقتصادية، وتوقف الإصلاح الزراعي الذي كان الشاه قد بدأ به من قبل. وانتشر الاستياء ونشط حزب تودا الايراني. وبدا وكان ايران قد أوشكت أن تدور في الفلك السوفييتي.

وفي عام ١٩٥٣ حاول مصدق أن يطيح بنظام الشاه. غير أن وكالة الاستخبارات المركزية (سي.آي.ايه) وبعض وكالات الاستخبارات الحليفة الأخرى قامت بتقديم مساعدة خفية للجنرال فضل الله زاهدي في مسعاه الذي تكلل بالنجاح والتغلب على مصدق، فأقصى الأخير واستعاد الشاه عرشه بأمان، وتولى بنفسه شخصياً السيطرة على شؤون ايران، وبعد وقت طويل من ذلك التاريخ ـ خلال مدة رئاستي ـ أصبح آرديشير. ابن الجنرال زاهدي سفيراً لايران لدى الولايات المتحدة.

وعندما عادت ايران من جديد إلى المعسكر الموالي للغرب. أصبح بالإمكان توحيد بلدان «السلسلة الشمالية». أي تركيا والعراق، وايران والباكستان ضمن حلف عسكري مع بريطانيا. عرف بمعاهدة بغداد ـ حلف بغداد ـ ومنظمة المعاهدة المركزية (سينتو) فيما بعد. الأمر الذي سد الطريق بشكل فعال أمام اندفاع روسيا المباشر إلى الخليج.

أزمة السويس

أتت طلقة الانذار الثانية من مصر حيث قام الرئيس جمال عبد الناصر، وهو قومي يساري متحمس، بإثارة موجة غضب عالمية إثر تأميمه لقناة السويس عام ١٩٥٦، وجاء استيلاؤه على القناة ليشكل خطراً يتجاوز كثيراً حدود تضرر المصالح الاقتصادية لأصحاب أسهم القناة، فقد كانت القناة تدار وتشغّل بالأمانة لصالح جميع الدول، وكان الأوروبيون يعتمدون عليها في كل من مجالي تجارتهم التي تحفظ لهم حياتهم، ولنقل ٧٠% من نفطهم عبرها، وخفت ثقتهم كثيراً بضمانة سير عملها في أيدي ناصر الملتهبة، وقامت إسرائيل على الفور بشن هجوم عبر الحدود المصرية، وتحركت كل من بريطانيا وفرنسا على الفور أيضاً في الجو والبحر والبر بقواتهما لاستعادة سلطتهما على القناة، ومن وجهة النظر الأمريكية فإن توقيت تلك الدول كان على أسوأه،

فقد تمت عملية انزال القوات البريطانية والفرنسية في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تدين الاتحاد السوفييتي من أجل أعماله الوحشية القمعية التي ارتكبها في حق الثورة المجرية وعشية انتخابات رئيس الجمهورية، التي كان ايزنهاور قد طرح فيها شعار «السلام والازدهار». ومع تحرك القوى المعادية للاستعمار مجتمعة، ومع تهديد الاتحاد السوفييتي بالتدخل قامت الولايات المتحدة، بدلاً من الوقوف إلى جانب حلفائها بممارسة ضغط شديد عليها، وحملتها على الانسحاب.

وكانت النتيجة أكثر من مجرد خسارة القناة بكثير، فالهزيمة المزرية في السويس، كان لها أثرها البالغ على رغبة بريطانيا وفرنسا في أن تشغلا دوراً رئيسياً ليس في الشرق الأوسط فحسب، بل في مناطق أخرى من العالم كذلك. وبدلاً من أن يؤدي إجراء أمريكا إلى كسب صداقة ناصر، فقد أدى إلى امتعاضه وزاد من نزعته العدائية إزاء إسرائيل، ودول عربية أخرى، والولايات المتحدة ذاتها.

وبعد مضي عدة سنوات اعترف إيزنهاور. بأن قيام الولايات المتحدة بكبح جماح بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عندما كانوا يحاولون حماية مصالحهم في السويس كان بمثابة خطأ مأساوي.

وقام العمال الراديكاليون، تهيجهم أزمة السويس، باشعال النار في عدد من آبار وأنابيب النفط في الكويت، بيد أن عنف قوات الأمن الكويتية وسرعتها في العمل قد حال دون وقوع المزيد من أعمال التخريب الجدية والخطيرة: فقد اكتشفت ١٠٠ قنبلة موقوتة كانت قد وضعت لنسف أنابيب النفط في المشيخات، وكان بعض الراديكاليين الذين قاموا بتلك الأعمال من الفلسطينيين، ومن هنا يمكن القول بأن أزمة ايران وأزمة السويس، وأعمال العنف في الكويت قد بينّت للعالم بأن السياسة والنفط في الشرق الأوسط إذا ما مزجا يؤديان إلى الانفجار.

وجعلت الاكتشافات الجديدة للنفط في أواخر الخمسينات أمر التزود به مرة أخرى ممكناً ومضموناً، وقد ازدادت كميات النفط المكتشف بشكل كبير لدرجة أن «ايكسون» قد حددت السعر الذي كانت على استعداد لدفعه للدول المنتجة للنفط بمعدل ١٤ سنتاً للبرميل الواحد، وهو مبلغ قد يبدو ضئيلاً، لكنه كان ذا قيمة في ذلك الحين، وجن جنون البلدان المنتجة للنفط، إذ ذاك، فتجمعت خمس منها وشكلت منظمة البلدان المصدرة للنفط (اوبيك) ولم تحظ تلك المنظمة يومها بالاهتمام الكبير، لكنها بدأت تستحوذ على اهتمام العالم منذ ذلك الوقت.

ولم تستطع أوبيك في سنواتها الأولى أن تؤثر سوى تأثيراً طفيفاً على الأسعار، وخلال حرب الأيام الستة. بين العرب وإسرائيل قامت الدول العربية الأعضاء في منظمة اوبيك بفرض أول حظر للنفط لها ضد الغرب. لكن ذلك الحظر سرعان ما تلاشى. عندما قامت الدول المنتجة من غير الدول العربية تتزعمها ايران وفنزويلا بملء الفجوة، فضلاً عن أن تلك الدول التي فرضت الحظر قد وجدت نفسها متضررة أكثر من أي انسان آخر.

وكانت التغييرات آخذة بالحدوث. وسرعان ما تحول الميزان. ففي عام ١٩٦٧ تجاوز انتاج ايران والعراق والكويت والعربية السعودية . وهي الآن أول أربع دول منتجة للنفط . انتاج الولايات

المتحدة من النفط للمرة الأولى. وفي عام ١٩٧٠ وصل انتاج الولايات المتحدة من النفط ذروته عندما بلغ ١١٫٣ مليون برميلاً، ثم بدأ بعد ذلك بالتدني، وكانت كل من أوروبا واليابان تزيدان من استيرادهما، كما أن استهلاك الولايات المتحدة قد تزايد، وتحولت سوق المشترين إلى سوق بيع. وأصبح الباعة أكثر براعة.

واستولى على السلطة في ليبيا عام ١٩٦٩ شاب في السابعة والعشرين من عمره من النوع الملتهب بالحماسة يدعى معمر القذافي، وبدأ يفرض الضغوط على شركات النفط الصغيرة هناك، وتمكن من جعل أحد المنتجين يتجاوز الصفوف ويرفع سعر النفط بمعدل ٣٠ سنت للبرميل، ووقف المنتجون الليبيون الآخرون في صف واحد على الفور، كما حذت الدول الأخرى الأعضاء في منظمة اوبيك حذو القذافي، ورفعت أسعار نفطها، وبدأت «قفزات» الاسعار بين ليبيا ودول الخليج.

ولقد بقيت أسعار النفط ثابتة تقريباً منذ الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٧٠، حيث ارتفعت خلال خمس وعشرين سنة من ١٫٤٥ دولار إلى ١٫٨٠ دولار للبرميل الواحد، وبحلول عام ١٩٧١ كان المنتجون الرئيسيون يدفعون ٣٠ ر٣ دولار للبرميل الواحد من النفط الليبي ذي النوعية العالية جداً. وبدأت بلدان أوبيك تتعلم استخدام عضلاتها، وطاب لها النغم.

حظر النفط العربي عام ١٩٧٣

لقد تلقن الغرب في خريف عام ١٩٧٣ درساً قاسياً ومؤلما لا ينسى، في الحقائق الجديدة لعصر النفط. وقامت البلدان العربية المنتجة للنفط، أثر تجدد الحرب العربية الاسرائيلية بإعلان حظر نفطها ضد البلدان المستهلكة، بما فيها الولايات المتحدة. وكان عملها بمثابة مقاطعة اختيارية، وعندما شعرت اوبيك بقوتها أعلنت عن مضاعفة سعر نفطها وأصبح سعر البرميل الذي كان يباع بـ ٣ دولار للبرميل الواحد في شهر أيلول، ٥٫١٢ دولار في شهر تشرين الأول، و١١٫٦٥ دولار في شهر كانون أول، وبذلك يكون قد تضاعف سعر النفط أربع مرات. وهو النفط ذاته الذي كان يباع بسعر ١٫٨٠ دولار للبرميل الواحد قبل ثلاثة أعوام فقط، وبين عشية وضحاها انقلبت البنية الاقتصادية للعالم رأساً على عقب.

واتضح من ذلك بأن اقتصاد أوروبا الغربية واليابان يمكن أن يدمّر بانقطاع النفط كما لو تعرض لهجوم نووي، وبدا واضحاً جلياً بأن البلدان المستهلكة للنفط قد أصبحت تعتمد على أوبيك . وإن حكومات بلدان أوبيك قد حققت موقفاً قيادياً فيما يتعلق بقرارات النفط . لدرجة أن الغرب على المدى القصير، على الأقل، صار يقف لا حول له ولا طول أمام أية مطالب قد تختارها البلدان المعنية، إضافة لذلك فقد تحولت السيطرة على نفط الشرق الأوسط من أيدي الشركات المتعددة الجنسيات، إلى أيدي الدول المضيفة، وأصبح فن الحكم والكبح من جانب الزعماء العرب فجأة بمثابة أساس للبقاء الغربي.

فلم يعد بوسع شركات النفط والحكومات الغربية أن تملي شروطها على بلدان أوبيك، وجلّ ما استطاعت البلدان الغربية أن تفعله هو محاولة اقناع البلدان المنتجة بأن مصالحها على المدى البعيد مرتبطة بمصالح الغرب، وأنه إذا ما حطمت اجراءاتها اقتصاد البلدان الغربية، أو حطمت الدولار أو أضعفته لدرجة لم يعد معها باستطاعته حماية مصالح تلك البلدان ومصالحه الذاتية، فإن إجراءاتها ستكون بمثابة قضاء على نفسها.

وقد رأى بعض زعماء بلدان أوبيك منطقاً في تلك الحجة، وتمكنوا من كبح جماح زملائهم من اتخاذ مثل تلك الإجراءات الجذرية، واكتشف الغرب نقطة ضعفه (مقتله) ذلك أن النفط الرخيص الثمن فيما يتعلق بتكاليف انتاجه، والسهل الاستخدام، قد حل محل المصادر الأخرى للطاقة على نطاق واسع، لدرجة أن الأنظمة الاقتصادية الصناعية أصبحت تعتمد عليه، ولم تعد الآن مصادر النفط مضمونة وآمنة.

وإثر أزمة حظر النفط المفاجئة عام ١٩٧٣، ولما خيّم الظلام على مصانع أوروبا، واستطالت صفوف المنتظرين على محطات الوقود في أمريكا، وعندما حلقت الأسعار في سائر أرجاء العالم، نظر السواد الأعظم من الناس إلى الأزمة على أنها مسألة اقتصادية في المقام الأول، ورغم أن التأثير الاقتصادي كان بالغاً، لكنه لم يكن يشكل بأية حال المسألة بكل جوانبها، وإن المسائل السياسية والإستراتيجية التي كان البريطانيون قد أشاروا إليها قبل عشرين عاماً، قد أعلنت الآن عن نفسها وبشكل صارخ.

وتزايدت قوة بلدان الخليج العربي، كما ازدادت غنى، لكنها في الوقت ذاته أصبحت أكثر هشاشة وأضعف مركزاً، أي كلام آخر أصبحت أكثبر عرضة للنيل منها بسهولة، وأعلن عن انسحاب بريطانيا من «شرقي السويس» في عام ١٩٦٨ لكن الانسحاب تم، بشكل كامل، عام ١٩٧١، وعندما أعلنت بريطانيا بأنها لم تعد قادرة على أداء دور الداعم لكل من تركيا واليونان، قام ترومان بملء الفراغ، وبذلك تُرِك شرقي المتوسط للقوة الأمريكية، كي تمنع السوفييت من دخول تلك المنطقة، مما هدد بخلق فراغ آخر يجعل الروس على أتم استعداد لملئه متى سنحت الفرصة لهم. وفي الحقيقة نجد أنه في غضون شهرين من إعلان بريطانيا في كانون الثاني عام ١٩٦٨ عن نيتها في الانسحاب، بدأ الروس بإدخال قوة بحرية إلى تلك المنطقة: فقد أصبح للسوفييت، بشكل دائم. أسطول بحري صغير في المحيط الهندي منذ شهر آذار عام ١٩٦٨.

ولسوء الطالع حدث ذلك عندما كانت الصرخات تتعالى ضد الحرب في فييتنام. وخلقت مسائل جدية حول ما إذا كان الرأي العام الأميركي يؤيد التزاماً امريكياً كبيراً آخر في منطقة خطر بعيدة كالخليج العربي.

وبدلاً من أن تبدّل الوجود البريطاني بوجود أمريكي مباشر، عمدت الولايات المتحدة إلى الاعتماد على قوى محلية، وهي ايران، والعربية السعودية بالدرجة الأولى. لتوفر أمناً للخليج،

وذلك عندما قمنا بتقديم المساعدات والعون العسكري. وقد سارت «سياسة العمودين» بشكل معقول إلى أن انهار أحدهما، وهو ايران. عام ١٩٧٩.

وإلى جانب التهديد الذي يشكله تواجدهم البحري، فقد أخذ السوفييت يقتربون بشكل جريء نحو الخليج بتحركهم على جهتين عريضتين، هادفين إلى ذبح الغرب بقطع وداجه النفطي.

هذا وقد جاء تحركهم الأول بشكل كماشة عبر أفريقيا من خلال القرن الأفريقي، حتى قلب شبه الجزيرة العربية، وكانت بداية التحرك في أنغولا حيث قاموا باستخدام أكثر من /١٥٠٠٠/ جندي كوبي بغية إقامة نظام الحكم حسب اختيارهم، وواصلوا تحركهم في أثيوبيا، حيث أنزل قرابة /٢٠،٠٠٠/ جندي كوبي، وكان التحرك هذه المرة عبر البحر الأحمر الضيق والقريب من العربية السعودية، وفي عام ١٩٧٨ اجتاح تحرك فكي الكماشة بعضاً من شبه الجزيرة العربية ذاتها، ففي اليمن الجنوبي، التي كانت مستعمرة بريطانية من قبل. واسمها عدن، تمكنت مجموعة من مناصري السوفييت من القضاء على معارضيها، ثم قامت بشن حرب على اليمن الشمالي التي تشكل المصدر الأول لليد العاملة بالنسبة للعربية السعودية، وواحداً من أهم المراكز الحساسة التي تركّز السعودية عليها اهتمامها بالنسبة لأمنها الوطني.

وفي أواخر عام ١٩٧٩ قامت مجموعة من الإرهابيين، بعض أعضائها كانوا قد تلقوا تدريبهم في اليمن الجنوبي. وزودوا بالسلاح، بتوجيه ضربة في قلب العربية السعودية ذاتها عندما استولت على أقدس مقدسات الإسلام، وهو المسجد الحرام في مكة بمحاولة لتفويض نظام الحكم في السعودية على ما يبدو.

وعندما لم يلق السوفييت أية معارضة في وجه تحركهم العاصف عبر أفريقيا، وعلى شواطئ شبه الجزيرة العربية، انطلقوا بتحركهم الثاني على شكل كماشة أيضاً (حركة سرطانية) من الشمال، ففي عام ١٩٧٨ قامت مجموعة موالية لموسكو بالاستيلاء على السلطة في افغانستان، وقبلت بكل سرور عروض موسكو من أجل المساعدة. وبعدئذ، وبين أرجل السرطان، أقصي شاه ايران عن عرشه، وفي الأيام الأخيرة من عام ١٩٧٩، بعد أن كان الشاه قد طار وبعد أن كانت باكستان تغلي وسط برميل من البارود، مبتعدة عن الولايات المتحدة. قام السوفييت، وبكل وقاحة بتحريك الجيش الأحمر ذاته إلى داخل أفغانستان، وبذلك جعلوا الطائرات والمدرعات الروسية في مواقع أصبحت فيها بلدان الخليج العربي ضمن المدى المجدي وتحت رحمتها.

وكان هنري كيسنجر قد علق في أواخر عام ١٩٧٨ بقوله: «ليس باستطاعة المرء أن ينظر إلى ما حدث في أفغانستان، وعدن وأثيوبيا، وأنغولا، ويرسم خطاً بين هذه البلدان المتنوعة دون أن يصل إلى استنتاجات جغرافية وسياسية معينة». فإذا ما رسم خط بين البلدان المذكورة، سيمر مباشرة خلال السعودية. وايران. والإمارات العربية ومضيق هرمز. وهي النقطة الاستراتيجية الهامة التي يمر منها ٤٠٪ من نفط العالم الحر. ٢٠ مليون برميل في اليوم، أي بمعدل ثمانمائة ألف برميل في الساعة، وهكذا يقترب السوفييت من أهدافهم، كالأسد الذي يطارد فريسته ليقتلها، وفي عام

١٩٧٩ أعلنت شركة ليودز في لندن، بأنه يترتب على أصحاب السفن الذين يرسلون سفنهم الناقلة للنفط عبر المضائق أن يدفعوا تأميناً خاصاً بمنطقة الحرب.

وجاء سقوط الشاه بمثابة انذار مهول وحدث مخيف بالنسبة لبقية الملوك في منطقة الخليج، وكذلك لبلدان الغرب الصناعي. فبعد انسحاب البريطانيين عام ١٩٧١ حلت ايران محلهم كقوة عسكرية، ضمنت استقرار الخليج، حيث قامت القوات الايرانية عشية انسحاب البريطانيين باحتلال جزر أبو موسى والطنب الاستراتيجية، والتي تشرف على مضيق هرمز، وفي عام ١٩٧٣ أرسل الشاه جنوداً من قواته إلى منطقة ظفار في سلنطة عُمان. حيث كانت عصابات ماركسية مزوّدة بدعم من اليمن الجنوبي قد قامت بتهديد نظام حكم سلطان عُمان، وبناء على أمر من الشاه شرع في بناء قاعدة بحرية في شاه باهار في بلوخستان الايرانية. من أجل حماية مداخل مضيق هرمز.

وإضافة لرفضه المشاركة في فرض حظر النفط خلال عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣، واصل الشاه اعترافه بإسرائيل وتزويد اسطولنا في البحر المتوسط بالنفط، ومنع العراق من القيام بأي دور هام في حرب يوم الغفران. وذلك بتحريك قواته إلى الحدود الايرانية العراقية، وبتقديمه تغطية للقوات الكردية المتمردة، لذا فقد شل حركة الجيش العراقي. وكانت بلده، إبان تلك الحرب، البلد الوحيد في المنطقة الذي منع الطائرات السوفيتية من التحليق في أجوائه، كما أنه دفع بالنفط لحاملة قوات أمريكية في المحيط الهندي ليجعلها جاهزة للعمل، وعندما طلبنا من حلفائنا إرسال أسلحة إلى فييتنام قبل أن تمنع اتفاقيات باريس ذلك، حرم الشاه نفسه من طائرات أف . ٥ لكي يقدمها لنا.

فالشاه كان يشكل الزند الذي حمى السعوديين الأغنياء، إنما المعرضين للخطر، وقام بتسوية النزاعات الإقليمية مع البحرين والعراق وشجع على قيام الترتيبات من أجل الأمن الإقليمي مع دول الخليج الأخرى، وعندما عرقل أول انقلاب شيوعي في أفغانستان مساعيه. كان جاداً في ابعاد ذلك البلد عن اعتماده على السوفييت من أجل المساعدات العسكرية والاقتصادية.

وانتهت الآن تلك الجهود بكاملها بعد أن طار حكم الشاه، وأصبح الاتجاه السياسي النهائي لذلك البلد، الذي تملكه النزاع . وحتى استمرار وجوده كبلد موحد . أصبح غير معروف، وكما قال كورماير، مسؤول سابق في وكالة الاستخبارات المركزية (سي.أي.ايه)، في أوائل عام ١٩٧٩:

«...إن تفكك الجيش الايراني أصبح حقيقة واقعة سببت تغييرا هائلاً في ميزان القوى في المنطقة بأسرها، فقد ظل جيش ايران لسنوات عديدة يقوم بدور وضع المطامح العراقية ضد إسرائيل والكويت تحت المراقبة، وقام بحماية سلطان عُمان ضد عصابات ظفار الذين تزودهم اليمن الجنوبية بالسلاح، وأكد ضمان السادات في مصر، والأمراء السعوديين. وقد حدث الآن فراغ مغرٍ حيث، كان جيش الشاه واقفاً بالمرصاد».

وعندما غادر البريطانيون المنطقة عام ١٩٧١، كانت ايران وحدها التي قامت بتدريب الكوادر البشرية، وحشدت الموارد وامتلكت الإرادة لتسلم دور بريطانيا في المحافظة على الاستقرار في

تلك المنطقة، فبسقوط الشاه، وتمزيق الجيش الايراني والتحقيقات الكبيرة في الميزانية العسكرية الايرانية، وانغماس ايران في اشتباكات دامية، أصبحت جميع القوى التي كان الشاه يضعها تحت المراقبة حرة. وتتقدم مطلوقة العنان دون أن يقف في وجهها أحد، وأتى نظام الحكم الجديد في إيران ليجعل من جيرانه أعداء بإثارة المسلمين الشيعة ضد المسلمين السنة. وتجديد النزاعات الإقليمية التي كان الشاه قد قام بتسويتها.

وهكذا فقد تخلى خلفاء الشاه عن العمل في قاعدة شاه باهار البحرية. وألغوا معظم مشاريعه لشراء الأسلحة البالغة قيمتها بلايين الدولارات. وأقسم رجال العصابات في ظفار. وقواعدهم في اليمن الجنوبي، بأن يطيحوا بنظام حكم السلطان في عُمان. وقام الروس بغزوهم لأفغانستان، وما كانوا ليجرؤوا على القيام بذلك لو كان الشاه بعده على عرشه متحالفاً مع الولايات المتحدة، ومسيطراً على الجيش الايراني القوي، وأخذت الباكستان الآن تحس بحرارة أنفاس الدب الروسي على حدودها. وعليها أن تتوقع بأن يحاول الروس قريباً قمعها بتشجيع وتوجيه المتمردين البلوخيين والبوشتون، مما قد يؤدي إلى تجزئة ما تبقى من ذلك البلد، فالمنطقة بكاملها إذن أشبه ببرميل بارود، والسؤال الذي يدور في خلد كل انسان الآن هو: ترى من الذي سيحل محل ايران؟ إن للعربية السعودية التي تمتلك ما يقرب من ربع نفط العالم المكتشف مصلحة خاصة في هذا السؤال.

ويعتبر العراق الراديكالي حالياً. أقوى قوة عسكرية في منطقة الخليج، فقوته العسكرية تعتبر كاسحة على الصعيد الإقليمي، فهو يمتلك أربعة فرق مدرعة وفرقتين ميكانيكيتين بثلاثة آلاف دبابة سوفييتية وفرنسية، وعربات مصفحة بالإضافة إلى أربعة فرق مشاة، وهكذا وبدون دعم سوفييتي يمكن للعراقيين أن يتحركوا بقوة إلى أي مكان يقررون التحرك إليه سواء كان في الكويت، أو العربية السعودية أو إيران.

فقد حدث واستخدمت القوات العراقية مرتين: الأولى إلى الكويت عام ١٩٦١، عندما قامت بريطانيا والدول العربية الأخرى بإجبار العراقيين على سحب جيوشهم عن الحدود الكويتية، والثانية عام ١٩٧٣ عندما أخذ العراقيون بعض الأراضي الكويتية، ومنذ ذلك الحين كانت العراق قد سوّت خلافاتها على الحدود مع الكويت، لكن احتمال حدوث المشاكل في المستقبل يظل قائماً.

إن الغالبية العظمى من خزانات النفط الخام في الخليج العربي تقع على بعد بضعة مئات الأميال عن الحدود العراقية. في المناطق القريبة من ايران والكويت، والعربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة، والفائدة التي يحققها العراق لقاء أي تحرك ناجح إلى أي، أو إلى جميع تلك المناطق سيكون تحويلاً هائلاً للموجودات.

ويقوم العراق اليوم بصفقة عراقية مقررة تهدف إلى السيطرة السياسية في منطقة الخليج، وعلى الرغم من أن نظام الحكم اليساري فيه كان مناوئاً لأمريكا فهو لا يريد رؤية الهيمنة السوفييتية على الخليج قائمة، ولذا فقد يرغب في تعديل موقفه السابق نحو اتخاذ موقف أكثر

اعتدالاً، ومن هنا يمكننا القول بأننا على صواب حين نسعى نحو تحسين العلاقات مع العراق، أما من جانبهم فسيظل الروس راغبين في كسب السيطرة على العراق، مع أن العراقيين قد حرصوا، واتخذوا الحيطة من أجل وقف تزايد نشاط الحزب الشيوعي العراقي، ففي عام ١٩٧٧ و١٩٧٨ قضي على المحاولات الشيوعية لتشكيل خلايا لذلك الحزب في صفوف الجيش، وأعدم الذين قاموا بتلك المحاولات، ومع أن مصير هذه المحاولات قد باء بالإحباط، فإن تاريخ العراق الذي سيطرت عليه الأحزاب خلال العشرين سنة الماضية، وتعرض للعديد من الانقلابات من قبل مجموعات متنوعة، فإنه من المتوقع أن يواصل السوفييت محاولاتهم من أجل استزادة نفوذهم بأية وسيلة أو بجميع الوسائل، مستفيدين في الوقت ذاته من مساعي العراق لجر بقية العالم العربي نحو اتخاذ موقف من الغرب أكثر راديكالية.

الانخلاد الكبرى

نظراً لغناهم الفاحش، وأراضيهم الفسيحة الأرجاء، والقليلة السكان، ونظراً لجيشهم الصغير فقد وصف السعوديون وصفاً دقيقاً من قبل المعلق الصحفي جون ب. روش على أنهم: «مصيدة للانقلاب». وقد لخص وضعهم من قبل مسؤول أميركي حيث جاء على لسانه قوله: «افترضي انك امرأة ثرية تعيشين لوحدك في بلدة صغيرة محاطة بالمداخل. كل واحد يدري أن تحت وسادتك مجوهرات بالملايين. وليس من شرطة تحميك. فلا بد أن يأتي «الشريف» من حين لآخر ويعطيك قبلة كبيرة. ويولي أدباره. أفهل يشعرك هذا بالأمان؟».

فمن الناحية الجغرافية هناك أربعة طرق إلى السعودية.

(١) . من «دول المواجهة» في النزاع العربي الإسرائيلي، وهي: مصر والأردن وسورية وإسرائيل.

(٢) . من جهة الخليج العربي. أي ايران والعراق أو إحدى المشيخات الصغيرة في الخليج..

(٣) . من القرن الأفريقي عبر البحر الأحمر.

(٤) . من عُمان أو من اليمن الشمالي أو الجنوبي، في طرفي شبه الجزيرة العربية، إن وقوع الأحداث في أي طرف من هذه الأطراف فيه من الأسباب الوجيهة ما يكفي لبعث مخاوف السعوديين.

وما يتعلق بالسعوديين، هو أن أية تسوية للنزاع العربي الإسرائيلي لا تحل المشكلة الفلسطينية، ستزيد من النزعة العسكرية لدى الفلسطينيين، ففي عام ١٩٧٦ مثلاً قامت منظمة التحرير الفلسطينية بإثارة الاضطرابات في لبنان، وأشعلت فيه نيران الحرب الأهلية، وخلال مدة وجودي على كرسي رئاسة الجمهورية حاول الفلسطينيون مرتين خلال ثلاثة أشهر اغتيال الملك حسين، ملك الأردن، كما أشغلوا نار الحرب الأهلية في ذلك البلد أيضاً ونجحوا تقريباً في إسقاط الحكومة فيه.

إن الإرهاب هو سلعة منظمة التحرير الفلسطينية في التجارة، وإنه لمن اليسير للإرهاب أن ينال من العربية السعودية، وأرضاً خصبة لممارسة نشاطه، حيث أن ثلثي عمال حقول النفط فيها من الفلسطينين، وفضلاً عن ذلك فإن من شأن كل ما يقوي مركز العرب الراديكاليين غير مرضية مثلاً . أن يضعف بالتالي مركز القيادة السعودية المعتدلة.

فمن جهة الخليج يبدي السعوديون اهتماماً فائقاً، وهم يخشون القوة العسكرية للعراق المجاور، ولا شك بأن الإطاحة بالنظام الإمبراطوري في ايران تحمل أصحاب العروش في المنطقة، بما فيهم السعوديون، على عدم الشعور بالطمأنينة، كما أن الاضطرابات الداخلية في مشيخات الخليج تخلق لهم القلق الزائد، وعدم الاستقرار، فالكويت التي يبلغ عدد سكانها مليون نسمة، على سبيل المثال، نجد أن أقل من نصف السكان هم من الكويتين وربع مليون من الفلسطينيين، والربع الباقي من جنسيات أجنبية متفرقة، وفي الإمارات العربية ربع السكان فقط هم سكان البلد الأصليين، وهكذا فإن التيارات بين المشيخات السبعة التي شكلت دولة الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٧١، قد تؤدي إلى قيام نزاعات يمكن استغلالها في المستقبل.

وإذا ما نظر السعوديون، عبر البحر الأحمر، إلى القرن الأفريقي يجدون نظام الحكم الأثيوبي الذي يدعمه السوفييت يشن الحرب على جبهتين الأولى لاستعادة السيطرة على الثورة القائمة في اقليم أريتيريا، بمرافئه على البحر الأحمر، والثانية ضد الصومال بشأن اقليم أوغادين ويعود للسعوديين جزء من فضل إبعاد مصر والسودان عن الاتحاد السوفييتي وقطع علاقاتها السابقة معه كما أنهم قاموا بتقديم العون للصومال للغرض ذاته، ولقد امتعض السعوديون كثيراً من عدم رغبة الولايات المتحدة في تقديم السلاح للصومال وللأريتيريين. حيث أن عدد سكان أثيوبيا يبلغ ثلاثين مليون نسمة أي أربعة أضعاف عدد سكان السعودية، والمرافئ الأريتيرية تسيطر على الطرف الجنوبي للبحر الأحمر، حيث تمتد ثلاثة أرباع شواطئ العربية السعودية.

وفي طرفي شبه الجزيرة العربية، حيث تقع عمان واليمنين، أصبح الاضطراب قاعدة أكثر ما هو استثناء، فاليمن الجنوبي تظل أداة سوفييتية أكثر فعالية في العالم العربي، وهي الآن بلد مضيف للخبراء الكوبيين والسوفييت، وخبراء الدولة الأمنيين من الألمان الشرقيين، الذين يقومون جميعاً على مساعدة بضعة آلاف من أعضاء الحزب الشيوعي في السيطرة على شعب ذلك البلد البالغ عدد سكانه مليوني نسمة، كما يساعدون في اليمن الجنوبي على شن الحروب ضد جارتيه: اليمن الشمالية وعُمان.

فدولة اليمن الشمالي لا نفط فيها وصناعتها ضئيلة، لكنها من حيث عدد سكانها البالغين ٦ ملايين نسمة تعتبر بضخامة السعودية، وفي حين أنها ما زالت موالية للغرب. فقد قامت اليمن الشمالية بشراء الأسلحة من الاتحاد السوفييتي، مؤخرا. فإذا ما أصبحت تحت السيطرة الشيوعية عن طريق قمعها أو احتلالها، أو توحيدها مع اليمن الجنوبية. سيواجه السعوديون خطراً كبيراً، لأن هناك مليون إنسان من اليمن الشمالية يعملون في العربية السعودية.

ولليمن الجنوبي . التي تعتبر من الناحية العملية كوبا شبه الجزيرة العربية . مخططات ناشطة حيال جارتها الشرقية عُمان، تلك التي كانت في يوم من الأيام تحكم إمبراطورية واسعة بنفسها. وعندما أقامت الولايات المتحدة، للمرة الأولى، علاقات تجارية مع عُمان في العشرينات من القرن التاسع عشر، كانت بحريتها أضخم من بحريتنا، وقد كانت إمبراطوريتها في أحدى المرات تشتمل على جزيرة زنجبار، التي تبعد عنها أكثر من ٢٠٠٠ ميل ولا زالت عمان تسيطر، من وجهة نظر جغرافية سياسية، على واحد من أهم أجزاء الملكية الحقيقية، وأغلاها قيمة في العالم ألا وهو: طرف شبه جزيرة رأس مسندم التي تشكل الضفة الغربية لمضيق هرمز، الذي يتحكم تحكماً كبيراً بمدخل الخليج العربي.

ويعكف منذ سنين كل من السوفييت واليمنيون الجنوبيون على مساعدة ودعم التمرد في منطقة ظفار، ولم يتمكن العمانيون من التغلب على المتمردين فيها إلا بعد أن أرسل لهم شاه ايران قواته لمساعدتهم. فقد ضمنت الطرق الرئيسية وأغلقت الحدود تماماً مع اليمن الجنوبي. وفي أواخر عام ١٩٧٦ قضي على التمرد وأصبحت عمان آمنة فيما يتعلق بالوقت الحاضر. وعندما سقط حكم الشاه في أوائل عام ١٩٧٩، لم تكد جماهير الناس تهدأ في شوارع طهران، حتى قام ناطق باسم «ثوار ظفار» العاملين من اليمن الجنوبي بالإعلان بأن الثوار سيستأنفون نشاطهم من جديد.

وأصبح السوفييت الآن ينذرون بالخطر، بعد أن قاموا مؤخرا بتزويد الجيش الكوبي بآخر ما توصلوا إليه من سلاح الدروع، وإن اللواء السوفييتي الذي اكتشف في كوبا في عام ١٩٧٩، قد يقوم بتدريب الكوبيين على فن حرب المدرعات الذي يتطلب التنسيق على مستوى لواء، وفي الوقت ذاته أفادت تقارير الاستخبارات، بأن السوفييت يقومون بتكديس الدبابات في اليمن الجنوبي والمصفحات والأسلحة والمعدات الأخرى، التي قد تدعو الحاجة إليها لشن هجوم مدرع عبر الصحراء، وكما جاء في وصف الإستراتيجي أدوار لوتواك:

«إن الدمى على لوحة الشطرنج، وقد تكشف العملية في أي وقت، فباحياء حركة ظفار التي تشكل التمويه السياسي لثورة داخلية، وبتصعيد حكومة اليمن الجنوبي المعروفة بنزعتها العدوانية الهجوم العسكري مضفية عليه صفة حرب عربية داخلية، يمكن للكوبيين أن يقوموا بتهديد مدرع لن يكون بمقدور الجيش العماني الصغير مقاومته، وعندها سيصبح كل نفط الجزيرة العربية تحت رحمة التهديد المباشر لنظام حكم، مدعوم من قبل كوبا، ومدار من قبل السوفييت، والذي يكفي قيامه إلى حث الراديكاليين على التحرك لتسلم السلطة في المشيخات الصغيرة الغنية بنفطها، كما أنه سيأتي بالسوفييت أيضاً إلى مضيق هرمز».

التهديد السوفييتي

إن الثروة والضعف تعمان بلدان الخليج العربي، وهكذا فإن غناها وضعفها يجتمعان معاً ليشكلا منها أهدافاً تغري الاتحاد السوفييتي بشكل مضاعف.

وعندما رأى السوفييت يسحقون أفغانستان مع نهاية السبعينات علق الرئيس المصري أنور السادات قائلاً: «لقد بدأت المعركة حول مستودعات النفط»، فقد مضت موسكو إلى بعد ٣٠٠ ميل عن مضيق هرمز وهي النقطة الحيوية في وداج النفط الغربي، وأصبح بوسع طائرات الميغ السوفييتية الوصول إلى المضيق المذكور من قواعد في جنوب غربي أفغانستان، وهذا ما كان بعيداً عن متناولها فيما مضى.

ومن تركيا حتى الباكستان أصبحت بلدان «الحد الشمالي»، والتي كانت في السابق تضع روسيا تحت المراقبة، إما كبرميل بارود، أو أنها ضعفت إلى حد بالغ الخطورة، وكان السير روبرت تومبسون قد قال: بأن لروسيا ثلاث جبهات: الجبهة الأوربية أو ما يسمى بالجبهة الغربية، والجبهة الشرقية في وجه اليابان والصين، والجبهة الجنوبية في وجه الدول الواقعة بين تركيا وأفغانستان وقد انتهت الجبهة الجنوبية الآن، أي الجبهة الثالثة، وتواصل روسيا تحركها جنوباً نحو المنطقة التي تشكل «مركز مطامح الاتحاد السوفييتي» على حد قول مولوتوف عنها.

لقد كان النفط الوارد من الشرق الأوسط، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، إلى أوروبا الغربية واليابان أمراً حيوياً وحاسماً ومنذ عام ١٩٧٠ عندما بلغ الانتاج الداخلي ذروته. تزايدت أهميته أيضاً بالنسبة للولايات المتحدة، بينما يقوم الاتحاد السوفييتي بتصدير ٣ ملايين برميل نفط يومياً، وقد جاء نصف دخله للقطع الأجنبي عام ١٩٧٨ من عائدات النفط، وتظهر التكهنات إنتاج النفط السوفييتي قد يبلغ ذروته قريباً، ومن ثم يبدأ التدني في الثمانينات، وقد يصبح السوفييت أنفسهم شبكة لاستيراد النفط خلال الفترة، وهذا مقدر له أن يؤثر على حساباتهم للتكاليف والربح، والنظر في التحرك إلى ثروات الخليج العربي.

وقبل استيلائهم على أفغانستان كانت أقرب قاعدة للسوفييت إلى مضيق هرمز في ماري، المعروفة سابقاً بمرو، في تركمانيا السوفييتية، وعندما كان الروس قد تحركوا لأول مرة إلى واحة مرو عام ١٨٨٤ حدثت مناقشة حادة في بريطانيا العظمى حول النوايا الروسية، والتهديد الذي تشكله للإمبراطورية البريطانية، فأولئك الذين أبدوا اللامبالاة كانوا كأتباع مدرسة «ما لنا نحن»، عندنا في السنوات الأخيرة، فاتهموا المتصلبين بأنهم «مرويين»، وحاجج السفير السوفياتي في لندن بقوله: «من الصعب على قوة متحضرة أن توقف اتساع أراضيها عندما يكون جيرانها المباشرون قبائل غير متحضرة».

لقد أوقف الروس على طول نهر آمو داريا [جيحون] في أواخر القرن التاسع عشر. وشكل ذلك النهر الحد بين روسيا وأفغانستان إلى أن قامت القوات الروسية بعبورة في أواخر عام ١٩٧٩، وليست هناك حواجز طبيعية تفصل أفغانستان عن بحر العرب ومضيق هرمز، وهناك فقط أرض قاحلة وهي منطقة عدم استقرار تنذر بالخطر.

ومنطقة عدم الاستقرار تلك تسمى بلوخستان، حيث يعيش خمسة ملايين من رجال القبائل البلوخيين، في جنوبي أفغانستان والباكستان الغربية، وجنوبي ايران، وخلال السنوات الأخيرة قام

البلوخيون في باكستان بتكرار تمردهم ضد الحكومة المركزية في باكستان. وفي أواخر عام ١٩٧٩ نشأ نزاع علني مع حكومة طهران في بلوخستان الايرانية، وبما أن السواد الأعظم من البلوخيين هم من الإسلام السنة، فإن ديكتاتورية الخميني الشيعي الدينية قد ولدت الأسى في نفوسهم، وحتى قبل أن يقوم السوفييت بغزوهم العلني لأفغانستان، أفادت بعض التقارير بأنهم كانوا يستخدمون معسكرات في البلاد لتدريب اللاعقائديين، ويزودون المتمردين البلوخيين من الباكستان بالسلاح، وتتمتع بلوخستان بساحل استراتيجي على بحر العرب بطول ٧٥٠ ميل، ويكاد يصل إلى مضيق هرمز. ولدا فإن قيام جمهورية بلوخستان الشعبية، يهيء للسوفييت اصبعاً حمراء للاندفاع إلى المحيط الهندي، وسيكون ذلك بمثابة خطوة حاسمة لحركة السوفييت السرطانية الشمالية نحو المضائق.

ويعتمد الاقتصاد الصناعي بأسره في الغرب الآن على النفط، وإن آلة الحرب الغربية بكاملها تدار بواسطة النفط، ومن هنا يمكن القول بأن السيطرة على عصب حياة الغرب وهو النفط تعتبر سيطرة على حساب الغرب، ولم يسبق أن كانت منطقة الخليج العربي من قبل بما هي عليه اليوم من الأهمية بالنسبة لمستقبل العالم، كما أنه لم يسبق لتلك المنطقة أن تعرضت فيما مضى، وكانت سهلة المنال من قبل قوة تسعى لفرض إرادتها على العالم، كما هي عليه الحال في هذه الأيام.

وأخذت بلدان الخليج العربي، الواحدة تلو الأخرى، وبلدان الهلال الإسلامي تسقط أمام قوى ثورية كلها معادية للغرب، بشكل أو بآخر، وإن لم تكن ذات فعالية بولائها للسوفييت، إن التقلبات المتطرفة التي تنتاب السياسة في الشرق الأوسط قد جعلت منه منطقة أكثر إغراء للمغامرات، وأضعف مركزاً في وجه محاولات السيطرة عليها، وإذا ما نجح السوفييت في تحقيق سيطرة فعالة على الخليج العربي ستصبح أوروبا واليابان تحت رحمتهم، وليست الرحمة من مناقبهم المعروفة ولا من شيمهم.

حاجات للمستقبل

لقد كان الشرق الأوسط والخليج العربي لقرون من الزمن مسرحاً لتصادم القوى حيث تضاربت المصالح الكبرى، وحيث قامت النزاعات المحلية، وسينطبق ذلك على الثمانينات، فتضارب المصالح بشأن الحصول على النفط من المنطقة بأسعار معقولة سيفوق كافة النزاعات السابقة.

وأصبح واردنا من النفط من الشرق الأوسط في موقف ضعف أمام ثلاثة تهديدات رئيسية، وهي النزاع العربي الإسرائيلي الذي ينطوي على إمكانيات كبيرة للتفجر، وروح المغامرة لدى السوفييت، والقوى الثورية المحلية كتلك التي أطاحت بالشاه.

وقد ظل الأمريكيون منذ سنين عديدة ينظرون إلى النزاعات في منطقة الشرق الأوسط من خلال منظار النزاع العربي الإسرائيلي فقط، بيد أن المنطقة كانت تغص بالنزاعات منذ قرون من الزمن سيما وأنها تشكل ملتقى الطرق في العالم، وكانت عالماً قائماً بحد ذاتها، وقد تكشفت

نزاعاتها الآن وحمي وطيسها على شكل طرق قديمة وصدام جديد، أحياناً بشكل متفجر. بما أن المكابح الخارجية التي كانت تحتوي الخصومات المحلية قد أزيحت، والحقيقة هي أن أهم ما يستورده الغرب يأتي من منطقة هي أكثر مناطق العالم تقلباً.

فهناك قلاقل أو خطر القلاقل في كل بلد في الشرق الأوسط، حيث ليس فيه أية حدود آمنة، وليس فيه أي بلد خالٍ من المتاعب بشأن أمنه الداخلي، فالنزاعات تقوم بين الشيعة والسنة، وبين الإيرانيين والعرب، وهناك تصادم بين الجنسيات والطوائف والقبائل والطبقات، إلى جانب تجميع ثورة الإسلام السلفية ضد النزعة العصرية الحديثة، وجميع هذه الأمور تؤدي في الغالب إلى انتشار العنف والقوة، وفي أواخر عام ١٩٧٩ قام السفير الإسرائيلي السابق لدى الولايات المتحدة، حاييم هيرتزوك بتلخيص جانب من سجل عدم الاستقرار حيث كتب يقول:

«أزيح خلال الثمانية عشر شهراً الماضية أربعة رؤساء عرب: أحدهم قتل في اليمن، وأحدهم أعدم قتلاً في اليمن الجنوبي، وأحدهم أزيح بانقلاب في موريتانيا، وآخرهم أزيح مؤخراً بانقلاب في العراق، وثلاثة عشر من الرؤساء الحاليين في الدول العربية، أي أكثر من ٥٠٪ منهم، قد خلفوا أسلافهم المباشرين الذين أبعدوا عن مناصبهم بالقوة، وفي أغلب الحالات، عن هذه الحياة، وقد حدثت خلال الخمس عشرة سنة الماضية اثنتا عشر حرب مريرة فيما بين العرب بعضهم البعض، وكانت حروباً دامية».

ويتمتع السوفييت بدرجة عالية من المهارة في مجال استغلال الاضطراب، لكن المتاعب في الشرق الأوسط كانت ستقوم حتى ولو بدونهم، والصراع العربي الإسرائيلي مصدر لنزاع مرير، لكن النزاع كان أيضاً سيقوم حتى في غياب الخلاف العربي الإسرائيلي.

وحتى «الثورة الإسلامية» فإنها تقاوم التصنيف البسيط، فما المسلمون غير العرب بين ٨٠٠ مليون مسلم في العالم أكثر من المسلمين العرب، ويشكل المسلمون أكثرية وأقلية لا بأس بها في سبعين بلد، وأكثر بلدان العالم سكاناً من المسلمين هي أندونيسيا، وهناك في الهند ونيجيريا، والاتحاد السوفييتي وحتى في الصين مسلمون أكثر من معظم بلدان الشرق الأوسط.

لقد كان التحديث ـ الذي غالباً ما يعني التأثير بالغرب، أو انتهاج نمط الحياة الغربية ـ محنة شديدة لهذه المجتمعات التقليدية، وقد أصبحت الولايات المتحدة بمثابة ملاذ ملائم لأولئك الضائعين بين تعاليم الماضي الصارمة ومغريات أو متصلبات العالم الحديث، فالمحافظة على مثل الإسلام التقليدي، وتلبية الحاجيات المفروضة في القرنين العشرين والحادي والعشرين تتحدى أكثر الإصلاحات حكمة، لكن لا بد من القيام بذلك.

وفيما يتعلق بالنزاع العربي الإسرائيلي، إن إحدى الأولويات التي يجب أن تنطلق منها السياسة الأميركية، هي التزامنا الأخلاقي الشديد نحو المحافظة على دولة إسرائيل، وقد أثبتت إسرائيل في أربعة حروب خاضتها خلال الثلاثين سنة الماضية بأنها قادرة على أكثر من الوقوف لوحدها في وجه جيرانها، والآن وبعد أن حيّدت مصر وأزيح خطرها، أصبحت قدرتها أكثر حقيقة، ولكن إذا كان

الاتحاد السوفييتي سيقوم بتدخل شامل كما سبق له وهدد بالقيام به عام ١٩٧٣، فإن إسرائيل ستنزل تحت الانبوب، حتى ولو كانت ستمتلك، أو أنها فعلاً تمتلك السلاح النووي، فإن مقدرتها النووية المتواضعة لن تقف حاجزاً عنيفاً في وجه القدرة النووية السوفييتية، لذا فإن الأساس لبقاء إسرائيل هو تصميمنا على مسك الحلقة في وجه السوفييت.

وقد كان جسرنا الجوي الذي أقمناه إلى إسرائيل، واستنفار قواتنا الذي أمرت به شخصياً إبان حرب ١٩٧٣، مع علمي بأن هذه الإجراءات قد تؤدي إلى حظر النفط العربي، بمثابة إعلان لأي مدى ستمضي الولايات المتحدة للحفاظ على التزامنا بالمحافظة على بقاء إسرائيل، وللحيلولة دون تدخل السوفييت في المنطقة.

غير أن ذلك القرار كان دعوة قريبة آنئذ، وسيكون أقرب في المستقبل، طالما أن السوفييت يحققون تفوقاً نووياً واضحاً، ويجب علينا أن نعطل القنبلة الفلسطينية الموقوتة بنزع فتيلها قبل أن نواجه أزمة يوم غفران أخرى.

وقد يكون من السابق لأوانه، ومن الحماقة بمكان أن نفترض بأن هناك وصفة سحرية، أي تثبيتاً سريعاً، لحل مشكلة النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، ومهما يكن من أمر هناك مبادئ أساسية يجب أن تشكل الأساس لأية سياسة ممكنة تتبع لتحقيق تلك الغاية، ففي المقام الأول إن أية مجموعة تدّعي بأنها تمثل الفلسطينيين، أو تمثلهم فعلاً يجب أن تعترف بحق إسرائيل في الوجود بسلام، ويجب أن ترفض استخدام الإرهاب أو العمل المسلح ضد إسرائيل، أو المواطنين الإسرائيليين، وفي المقام الثاني يجب على إسرائيل أن توافق على أحكام قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ فيما يتعلق بالانسحاب من أراض احتلتها وإن لإسرائيل، على أية حال، الحق في أن تكون لها حدود آمنة، ولا تستطيع الموافقة، ويجب ألا ينتظر منها أن توافق على إقامة دولة عدائية مسلحة في الضفة الغربية، بين ظهرانيها، وفي المقام الثالث يجب أن تنزع الأراضي المحتلة التي تعيدها، من السلاح وأخيراً يمكن للأردن أن يشغل دوراً بناء في حل القضية الفلسطينية.

وهكذا إذا ما وضعنا هذه المعطيات في حسباننا، لا بد لنا من الاعتراف بأن القضية الفلسطينية تشكل صرخة داوية لجمع شمل وتأليب القوى الراديكالية في المنطقة، والتي يمكن أن تستغل بشكل متواصل من قبل الاتحاد السوفييتي، وعليه فقد كان من مصلحة إسرائيل، ومصلحة كل حكومة معتدلة في الشرق الأوسط، أن تبذل قصارى جهدها من أجل حلها، وما لم يحرز تقدم سريع، فإن الرئيس المصري أنور السادات، أكثر الأصوات فعالية من حيث الاعتدال في الشرق الأوسط، سيجد نفسه في موقف غير قابل للدفاع عنه، ولقد علمتنا أزمة السويس عام ١٩٥٦ كيف يمكن لرئيس مصري راديكالي أن يكون بمثابة أداة لخلق المتاعب وعدم الاستقرار، وإلى جانب الحاجة لابقاء السوفييت خارج منطقة الشرق الأوسط، فإن أهم شيء بالنسبة لإسرائيل، والحكومات العربية المعتدلة هو أن تسعى لنزع فتيل القضية الفلسطينية ما استطاعت لذلك سبيلا، حتى لا يزاح السادات والقادة العرب المعتدلين الآخرين عن مراكز السلطة.

والمشكلة في هذه المنطقة، على المدى البعيد، هي الاتحاد السوفييتي فقد يحتاج السوفييت للوصول إلى نفط الشرق الأوسط أنفسهم خلال الثمانينات، وهم بكل تأكيد يريدون القوة للتأثير على تدفق ذلك النفط إلى أوروبا واليابان، فبقاذفاتهم النووية وصواريخ أس أس ٢٠، وبأسرابهم البحرية في المحيط الهندي، والبحر المتوسط، وباستخدامهم السريع لقوات الجسور الجوية في القوقاز، واستخدم المرافئ في اليمن الجنوبي والقرن الأفريقي، وقواعدهم الجوية الجديدة في أفغانستان، سيكون بوسع السوفييت أن يعرضوا قدرتهم العسكرية في تلك المنطقة، أي الشرق الأوسط، بطرق لا تستطيع الولايات المتحدة استخدامها، وبسرعة لا تقدر الولايات المتحدة على مجاراتها، وقد تحتاج على الأقل لعقد كامل من الزمن لكي نقدر على فعل ذلك، لذا فإن هذا الاختلال في التوازن، يلقي ظلاً طويلاً على السياسة في المنطقة إياها.

ويعتمد قوام المركز الاستراتيجي للتحالف الغربي باسره على الحصول على النفط الخام من الخليج العربي، وهذا يتطلب منا أن نقوم بنجاح لقطع الطريق على التحرك السوفييتي، نحو بسط سيطرته ونفوذه على هذه المنطقة.

وبما أن النفط ضرورة، وليست حاجة كمالية للغرب، فإن على الولايات المتحدة وحلفائها في أوروبا واليابان أن يجعلوا تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية لحكومات المنطقة، أفضلية، ويولوا هذا الأمر أولوية في اهتماماتهم، وذلك لصد أي عدوان عليها داخلياً كان أم خارجياً، وينبغي علينا أن نكون على استعداد وراغبين إتخاذ أية إجراءات . بما في ذلك الوجود العسكري القوي، حتى العمل العسكري . من شأنها أن تحمي مصالحنا، وينبغي علينا أن نكون على استعداد لتأييد أقوالنا بالأفعال، وإعلان «مبدأ» العظمة، بأن الولايات المتحدة ستقاوم أي تهديد للمنطقة بالرد العسكري، لن يعدو أكثر من كونه مدفعاً فارغاً، ما لم يكن لدينا قوات في موقعها لكي تجعل تعهدنا محطاً للثقة به، فإذا ما أوضحنا بأننا على استعداد للمضي إلى ذلك المدى، وإذا ما أظهرنا بأننا قادرون على ذلك، لن نرغم على فعل ذلك.

وإنه لمن الضرورة بمكان أن يكون للولايات المتحدة وسائل أساسية، وقاعدة متوضعة بحيث تساعدنا على عرض قوتنا بشكل مقنع في المنطقة، وأن نرد بشكل سريع على أية تهديدات مفاجئة، وأننا أيضاً بحاجة لضمان وصولنا إلى قواعد في أوروبا الغربية، بحيث يمكن أن تسهل عمليات الجسور الجوية، والجسور البحرية بين الولايات المتحدة والخليج العربي وحينئذ عندما نقوم بعرض قوتنا . يتعين علينا أن نفعل ذلك بشكل حازم، فاعلان الطوارئ بإرسال حاملة طائرات إلى الخليج، لنعيدها لمجرد تحاشي الإثارة، وإرسال الطائرات المقاتلة اف . ١٥ إلى العربية السعودية كعرض للقوة فقط، وتسجيل موقف بإرسالها غير مسلحة، فإن مثل هذه الاستعراضات أسوأ من عقيمة، فبدعوتها للاستخفاف تشجّع على العدوان.

وفوق كل شيء يجب أن نؤكد بشكل واضح لا غموض فيه لزعماء العربية السعودية، وعمان والكويت والدول الرئيسية الأخرى في المنطقة، بأنه في حال تهديدها من قبل القوات الثورية،

سواء كان التهديد من الداخل أو من الخارج، فإن الولايات المتحدة ستقف إلى جانبهم بكل حزم، وهكذا لن يعانون من المصير الذي لقيه الشاه.

وليس من الضروري أن نكون على استعداد فحسب، بل أن ينظر إلينا على أننا مستعدون، ولا يتوجب علينا أن تكون لدينا الإرادة لاستخدام القوة إذا اقتضت الضرورة فحسب بل علينا أن نبدي تلك الإرادة ونظهرها، وعلينا أيضاً أن تكون لدينا القوات التي يمكننا أن نستخدمها، فقد نركب المخاطر في الدفاع عن مصالحنا في الخليج العربي لكننا سنعرّض أنفسنا لركب مخاطر أكثر جسامة إذا ما أخفقنا في الدفاع عن تلك المصالح.



الفصل الخامس

تناذر فييتنام

«إن القنبلة الهيدروجينية أكبر عبئاً مما هي عليه كمساعدة لسياسة «الاحتواء»، فبقدر ما تخفف من احتمال وقوع الحرب الشاملة تزيد من إمكانية وقوع «الحرب المحدودة» التي تتواصل بالعدوان غير المباشر والواسع الانتشار».

ب. هـ. ليدل هارت

«عندما تنتهي حرب فييتنام بكاملها، فإنها بلا ريب ستثبت بإنها إحدى الحروب الحاسمة في هذا القرن، فقد وصلت، من حيث تأثيرها، إلى مدى أبعد مما وصلت إليه أية حرب من نوعها، وإن تأثيراتها الحقيقية ستأتي فيما بعد».

«إنني أعتبر الحرب في الهند الصينية أكبر خطيئة عسكرية وسياسية واقتصادية وأخلاقية في تاريخنا الوطني».

السيناتور ماك غوفرن

لا بد من كتابة الفصول الأخيرة عن الحرب في فييتنام، لقد كانت تلك الحرب بمثابة محنة قاسية للأمريكيين، ومحنة مؤلمة إلى حد الوحشية للفييتناميين، وفرصة يمكن استغلالها بالنسبة للسوفييت، وإضافة لذلك فقد كانت تلك الحرب إحدى المعارك الحاسمة في الحرب العالمية الثالثة.

لقد كتب العديد من الكتب عن حرب فييتنام، وإن عاصمة السينما هوليود تجد فيها مادة رائجة، وفي سياق ذلك تحيك تفسيراتها الخاصة، فكل نظرة مختلفة تعكس بوجه من الوجوه المقاييس الخاصة للمؤلف، أو قلة خبرته في الحرب وشؤونها.

وبصفتي قائداً أعلى خلال السنوات الخمس الأخيرة من الحرب، فقد كانت لدي وجهة نظر فريدة من نوعها، وأعتقد بأنني أفهم لماذا أخفقنا في فييتنام، كنت أدرك وقتئذ ما هي الغايات التي نحارب من أجلها، وانني أعرف الآن مقدار الثمن الذي دفعناه بسبب اخفاقنا وأهم ما في الأمر أنني أظن بأنني أعرف أنه بوسعنا أن نتعلم من الأخطاء التي ارتكبناها، وأن نتحاشى الوقوع فيها مرة أخرى.

إن «الحرب الثورية» . حرب العصابات . كانت دائماً من الأدوات المفضلة لدى السوفييت في الحرب العالمية الثالثة.

ففي الوقت الذي كانت فيه الامبراطوريات الاستعمارية آخذة بالتعرّي والاضمحلال، كان من البساطة اختيار الدعوات «للتحرير»، وكانت البلدان الجديدة وغير المستقرة لا تزال تشكل أرضاً

خصبة لبذور الحرب الثورية، والأكثر من ذلك هو أن هذا النوع من الحرب يمكن مواصلته بدون حاجة لزج القوات السوفييتية في أرض المعركة، وبدون النظر للعواقب عسكرية كانت أم ديبلوماسية، وجاء في معرض تعليق ليدل هارت عام ١٩٥٤ على القنبلة الهيدروجينية قوله: «إنها تزيد من إمكانية وقوع الحرب المحدودة التي يمكن مواصلتها بالعدوان المحلي المباشر، والواسع الانتشار»، أما السير روبرت تومبسون فقد كتب يقول «لقد كان لاختراع السلاح الذري ونشوء القومية، تأثيراً كبيراً على السياسة الخارجية السوفييتية منذ الحرب العالمية الثانية.» ويردف قائلاً: «إن أفضل ميزة للحرب الثورية كأداة للسياسة في العصر النووي هي أنها تجنّب المجابهة المباشرة، ولذا كانت الحرب الثورية بالنسبة للقوى الشيوعية حرباً تنطوي على مخاطر ضئيلة»، وهو أمر ذو اعتبار حيوي في العصر النووي، والميزة الكبرى الأخرى للحرب الثورية هي أنها استفادت من النزعة القومية لدى العالم الثالث، وهي قوة اجتاحت العالم بسرعة بعد الحرب العالمية الثانية، وما زالت مستمرة بقوتها، وجاءت رسالة الشيوعية «المعادية للإمبريالية» كجبهة ذكية للأحزاب الديكتاتورية، وكثير من أصحاب النزعات القومية الأقوياء، برزوا عن طريق الاستجابة الوطنية الشرعية ضد الاستعمار الأوروبي، وكانت بلدان شرقي آسيا أول حقل تجارب لهذا السلاح السوفييتي الجديد.

كانت الحرب العالمية الثانية قد خلفت فراغاً في القوة في شرقي آسيا، ومن بين البلدان غير الشيوعية كانت الولايات المتحدة البلد الوحيد القادر على ملء ذلك الفراغ، فهزيمة اليابان وتجريدها من السلاح وتعزيز ماوتسي تونغ لسلطته في الصين وتوفّر الأسلحة السوفييتية والصينية لأية قوة «أنصار» شيوعية كانت أم قومية، من شأنها أن تشق أعمالاً عدوانية ضد الحكومات غير الشيوعية داخلياً أو خارجياً، شكلت جملة عوامل مجتمعة فخلفت وضعاً بالغ الخطورة في المنطقة، فالمساعدة الأميركية وحتى التدخل يمكن أن يحول دول احتلال السوفييت لشرقي آسيا.

وجاء الاختبار الأول في شمال شرقي آسيا، في كوريا حيث قامت قوات من الأمم المتحدة بالمرابطة على الحدود في وجه الشيوعيين في كوريا الشمالية، والذين يمدهم الاتحاد السوفييتي بالسلاح، كما قامت الصين في المراحل الأخيرة من الحرب بدعمهم بقوات شيوعية صينية. أما قوات الأمم المتحدة فكانت بصورة رئيسية من الأمريكيين.

أما في جنوبي شرقي آسيا، فقد أثارت عمليات الاحتلال اليابانية في الحرب العالمية الثانية، التي أبعد فيها الآسيويون الأوروبيين، ردحاً جديداً للعمل من أجل نيل الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية، وعندما حاول الأوروبيون استرداد مستعمراتهم وجدوا أن سكانها لم يعودوا يتساهلون مع أو يتقبلون الحكم الاستعماري، ونتيجة لذلك تم جلاؤهم إما طوعاً أو طردوا طرداً.

فقد حصلت اندونيسيا على استقلالها من هولندا عام ١٩٤٩، كما بدأ البريطانيون بالانسحاب من «شرقي السويس» بعد أن أنهكت قواهم الحرب العالمية الثانية، غير أنهم بسبب الثقة التي

يتمتعون بها تمكنوا من أن يشغلوا دوراً بارزاً في مساعدة ماليزيا على تطوير برنامج فعال من أجل القضاء على قوات الأنصار الشيوعية، ومما يؤسف له هو أنه لا الفرنسيين ولا الأمريكيين الذين حلوا محل البريطانيين، تعلموا ما فيه الكفاية من الخبرة البريطانية.

وفي الفلبين وتايلاند تمكن أهليها من التصدي لحرب العصابات دون الحاجة إلى مشاركة القوات الأمريكية أو الفرنسية، ولكنهم حصلوا على مساعدات وفيرة وسخية، اقتصادية وعسكرية، من الأمريكيين.

وكانت الهند الصينية ـ فييتنام وكمبوديا ولاوس ـ خاضعة للنفوذ الفرنسي، وبما أن الفرنسيين لم يقدموا ضمانات كافية للاستقلال، قام العديد من الفييتناميين، ممن لم يكونوا ليفعلوا ذلك لو أن الفرنسيين أثبتوا لهم العكس، بالانضمام إلى القوات الشيوعية لهوشي منه القائد اليساري الذي كسب لنفسه مركزاً عالياً وحظي بالثقة بسبب نضاله الوطني ضد الفرنسيين.

وتكبد الفرنسيون بين عام ١٩٤٦ و ١٩٥٤ خسائر بشرية تقدر بـ ١٥٠,٠٠٠ قتيل في محاولتهم التمسك بالهند الصينية، وفي شهر آذار من عام ١٩٥٤ حوصر عشرة آلاف جندي فرنسي في قلعة ديان بيان فو ووقعوا في فخ، وعلى الرغم من أن أولئك الجنود لم يكونوا يشكلون سوى ٥% من القوات الفرنسية في فييتنام، إلا أن مصيرهم قد أنهى مصير فرنسا في فييتنام، لقد حارب أولئك الجنود ببسالة لمدة خمس وخمسين يوماً، إلى أن استسلموا في نهاية الأمر، ولقد قدر بأن التزاماً محدوداً من قبل القوة الجوية الأمريكية التقليدية كان يكفي لتغيير وجه المعركة، وقد نظر الرئيس ايزنهاور في تلك المسألة، لكنه أصر على أن الولايات المتحدة لن تقوم بالعمل منفردة، كما أن ونستون تشرشل قد رفض أن تلتزم القوات البريطانية بأي عمل حيال ذلك معلقاً بقوله: إذا لم يقاتل البريطانيون من أجل البقاء في الهند فإنه لا يرى أي سبب يستوجب قيامهم بالقتال من أجل مساعدة الفرنسيين على البقاء في الهند الصينية، ولو أن مثل تلك الضربة قد حدثت جدلاً، لظل احتمال وقوع الخسارة للفرنسية في الهند الصينية في النهاية قائماً، وذلك بسبب رفضهم العنيد لتقديم ضمانات كافية لمنع الفييتناميين استقلالهم النهائي.

وقدِّر الفييتنام أن تستقل بعد الحرب العالمية الثانية، وبقي السؤال الحقيقي المطروح هو من سيسيطر عليها؟ وأفضل الطرق التي كان ينبغي على فرنسا أن تتبعها هي أن تعد بمنح فييتنام استقلالها، ثم مساعدة الفييتناميين غير الشيوعيين للتغلب على الشيوعيين الفييتناميين، حتى بدون تقديم وعد بمنح فييتنام استقلالها، كان من الأفضل بكثير لفرنسا وللغرب قاطبة لو أن فرنسا فقد فازت في الحرب ضد قوات هوشيه منه، عندئذ لو أتى الاستقلال ـ طالما أن الحصول عليه أمر محتوم ـ لكانت فييتنام قد انطلقت كبلد حر وغير شيوعي، وبما أنها أخذت مسؤولية كسب الحرب بنفسها على عاتقها، فقد خسرتها فرنسا في كل من فييتنام وباريس، فبعد واقعة ديان بيان فو لم تعد لدى الفرنسيين أية رغبة أو إرادة في المضي، ورحبت الحكومة الفرنسية بفرصة الانسحاب من الهند الصينية.

وقسمت فييتنام عام ١٩٥٤ مع قيام حكومة شيوعية في فييتنام الشمالية برئاسة هوشي منه، وحكومة غير شيوعية في فييتنام الجنوبية عاصمتها سايغون، وأوجدت بين الشطرين منطقة محايدة منزوعة من السلاح، وسرعان ما قامت حكومة هوشي منه بدفع أعداد من المتسللين والعملاء إلى داخل فييتنام الجنوبية، حيث عملوا مع قوة عصابات على تشكيل شبكات للقيام بأعمال القمع والارهاب الرامية لتقويض دعائم حكومة سايغون.

وأصبح رئيس حكومة فييتنام الجنوبية المؤقت نغو دين ديان أول رئيس جمهورية فيها عام ١٩٥٥، وأثبت أنه قائد قوي وفعال لا سيما باحتوائه لقوات الأنصار الشيوعية، التي كانت تلقى الدعم مباشرة من فييتنام الشمالية لخرق اتفاقية التقسيم المعقودة عام ١٩٥٤.

بدأ التسلل من فييتنام الشمالية على نطاق واسع عام ١٩٥٩، ومع حلول عام ١٩٦١ كان الشيوعيون قد حققوا مكتسبات هائلة، ووصل السير روبرت تومبسون إلى فييتنام ذلك العام ليرأس بعثة خبرة ومشورة بريطانية وكان تومبسون أمين سر الدفاع في اتحاد الملايو عندما هزم المد الشيوعي هناك، فقد كان هو ورجال وكالة الاستخبارات المركزية (سي.آي.ايه) قد أدركوا أهمية الحقائق السياسية المحلية لحرب الأنصار فبقضائهم على التمرد في الملايو خلال اثنتي عشرة سنة بدءاً من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٠ كان البريطانيون قد تعلموا بأن أفضل طريقة لمواجهة العدوان ذي المستوى الأدنى، هو الدفاع على مستوى، أدنى، وقد استخدمت بريطانيا ٣٠٫٠٠٠ جندي فقط في الملايو، غير أنهم استخدموا حوالي ٦٠٫٠٠٠ شرطي، و٢٥٠٫٠٠٠ من رجال الحرس المحليين.

وبأخذه بالنصيحة الممتازة التي كانت تقدم له، تمكن دييم من صد زخم الحرب، وإعادة الشيوعيين إلى اتخاذ مواقع دفاعية، وتماماً بينما كانت الحرب قد كسبت في الملايو، بدأت النتائج في فييتنام باتجاه كسبها أيضاً في بداية الستينات، لكن ثمة أحداث حاسمة قد وقعت وغيرت الأمل بتحقيق النصر إلى هزيمة حقيقية.

كان الحدث الأول قد وقع بعيداً عن فييتنام، في كوبا، عام ١٩٦١ حيث حدث غزو خليج الخنازير، وقد خذا ذلك الاخفاق المريع بالرئيس ج.ف. كندي أن يصدر أمراً فورياً بعد الهزيمة المميتة واختير الجنرال ماكسويل تايلور لتنفيذه، وقد استنتج بأن وكالة الاستخبارات المركزية (سي.آي.ايه) لم تكن معدّة للقيام بعمليات شبه عسكرية على نطاق واسع، وقرر أن الجهد الأمريكي في فييتنام هو خير ما يناسب هذه العملية لذا أوصى بأن تتولى البنتاغون هذا الأمر، وقد أثبت قراره بأنه ينطوي على عواقب كبيرة، فالتعقيد السياسي والحس «في مكانه» للظروف المحلية الذي كانت تتمتع به «السي.آي.ايه» قد خرج من النافذة، بما أن الناس الذين نظروا إلى العالم من خلال العدسات التكنولوجية، قد تحملوا المسؤولية العملياتية للحرب.

وحدثت نقطة الانعطاف الثانية في العام الذي تلاه. أي عام ١٩٦٢ في لاوس، وكان الرئيس كندي قد أعلن، وكان ما أعلنه صحيحاً، في مؤتمر صحفي عقده بعد تنصيبه رئيساً للجمهورية بشهرين

حيث قال يومها: «إن محاولة الشيوعيين للاستيلاء على السلطة في لاوس ستؤثر بشكل واضح على أمن الولايات المتحدة»، ثم أردف يقول: «لن نحرِّض ولن نقع في فخ، ولن نجر إلى هذا الوضع، أو إلى أي وضع آخر، لكنني أدرك بأن كل أمريكي يرغب بأن تتشرف بلده بالوفاء بالتزاماتها».

ففي مؤتمر جنيف الذي عقد في تموز عام ١٩٦٢ كانت خمس عشرة دولة فقد وقعت على اتفاقية تعهدت بموجبها جميع الدول التي لها قوات عسكرية في لاوس، أن تقوم بسحب قواتها، ووافقت جميعها على وقف تقديم أية مساعدات عسكرية، وقد التزمت جميع البلدان المذكورة بتلك الاتفاقية عدا بلد واحد، وهو فييتنام الشمالية، ولم تقم بأية إجراءات جدية في سبيل سحب قواتها البالغ عددها /٧٠٠٠/ جندي من لاوس . وغادر ٤٠ رجلاً منهم فقط ولذلك وجدت الولايات المتحدة نفسها في النهاية مجبرة على مواصلة تقديم المساعدات سراً إلى لاوس، للحيلولة دون سيطرة فييتنام على ذلك البلد.

وهكذا فإن عناد فييتنام الشمالية وتشبثها في ابقاء قواتها في لاوس، والتي كان قد زاد عددها حتى بلغ ٧٠٫٠٠٠ رجل مع حلول عام ١٩٧٢ قد خلق لفييتنام الجنوبية وضعاً في غاية الصعوبة، وعمد الشيوعيون إلى استخدام المرتفعات النادرة السكان في الجهة الشرقية من لاوس، وكذلك كمبوديا، كطريق لتقديم الإمدادات لقواتهم في فييتنام الجنوبية، وكانت تلك المناطق بالنسبة لهم بمثابة معتصم ذي امتياز يشنون منه ضرباتهم، ويمكنهم من تركيز قوات متفوقة ضد هدف محلي واحد، ثم يلوذون بالفرار عائدين عبر الحدود قبل إجراء التعزيزات، وإضافة إلى ذلك فقد ساعد «خط هوشي منه» داخل لاوس الشيوعيين على القيام بالتحرك حول المنطقة المنزوعة السلاح، بين فييتنام الشمالية والجنوبية، وتوجيه ضرباتهم إلى الأماكن التي أقل ما يكون فيها المدافعون استعداداً.

ولو أنه كان يتوجب على فييتنام أن تجابه الغزو والتسلل من فييتنام الشمالية فقط عبر المنطقة المنزوعة السلاح، والبالغ عرضها ٤٠ ميلاً لكانت قادرة على القيام بذلك، دون الحاجة إلى مساعدة القوات الأمريكية لها، ففي الحرب الكورية كان يتوجب على العدو أن يهاجم عبر الحدود مباشرة، وقلما كان باستطاعة كوريا الشمالية استخدام المحيط على أي من جانبي كوريا الجنوبية «كمعتصم ذي امتياز» تتمكن من شن الهجوم منه، بيد أن هانوي كانت قادرة على استخدام معتصمات في لاوس وكمبوديا، كمراكز انطلاق لهجماتها على فييتنام الجنوبية، وفضلاً عن توفر إمكانية تكتيك الكر والفر. أي أضرب ثم أهرب . فقد أطالت تلك المراكز الحدود، وأصبح يتوجب على الجنوبيين الدفاع عن ٤٠ . ٦٤٠ ميلاً من الأرض المليئة بالثغرات، وضمن تلك الحدود التي بلغ طولها ٦٤٠ ميلاً، كانت هناك حواجز طبيعية، وعليه فقد تمتع الفيتناميون الشماليون بحرية اختيار النقاط التي يهاجمونها، وكانوا ينتظرون دائماً حتى يحققوا ميزة محلية للسيطرة، وذلك وفق استراتيجية حرب الأنصار، وكان لاخفاقنا في منع فييتنام الشمالية من إقامة خط هوشي منه على طول الحدود الشرقية للاوس عام ١٩٦٢ أثراً كبيراً على نتائج الأحداث التي وقعت إبان الحرب.

أما الحدث الرئيسي الثالث الذي حدد مسار الحرب فكان اغتيال دييم، لقد كان دييم قائداً قوياً، وكان رصيده الوطني بقوة رصيد هوشي منه، وترتب عليه أن يواجه مهمة صعبة في سبك بلد في الوقت الذي كان يخوض الحرب فيه، وبطريقة قادة ما بعد العهد الاستعماري أدار دفة نظام حكمه الذي جمع في استيحائه له بين النمط البرلماني الأوروبي، والأنماط التقليدية الآسيوية، ومقتضيات الضرورة، ولقد نجح ذلك النظام في فييتنام، لكنه أغاظ رجال المتابعة والإشراف الأمريكيين، الذين يتحرون شؤون العالم بقفازات بيضاء، ويزدرون التعايش مع أي انسان سوى الذين بلا موقع، ولسوء الطالع ارتدت الهيئات الصحافية الأمريكية القفاز الأبيض بالنسبة لديهم في فييتنام، ورغم أن الشمال لم يكن مفتوحاً أمام تحرياتها، فقد كان الجنوب كذلك، وكان لدى دييم احساسات داخلية مسبقة بما سيتمخض عنه هذا الفارق المصيري، عندما قال للسير روبرت تومبسون عام ١٩٦٢: «إن الصحافة الأمريكية وحدها يمكن أن تخسر هذه الحرب».

ولقد كانت فييتنام الجنوبية، والحق يقال، حرة إلى حد بعيد، لكن حريتها، بالمقاييس الأمريكية، لم تكن كاملة، فالصحافة المسؤولة تسعى في تحريرها للحفاظ على جعل الأحداث في وضع متناسب، فهي لا تحقق سوى الدراما بمبالغتها، وتبقى الدراما هدفها، وليست الحقيقة، فقد كانت أخطاء نظام حكم دييم كأية جوانب أخرى للحرب، قد ضخمت بخشونة برمتها خارج ميزان التناسب.

لقد قال أحدهم: «إن نظرة الكاميرا محدودة أكثر بكثير من نظرة المصوِّر وإنها، أي الكاميرا، تحاجج دائماً من الخصوصيات إلى العموميات»، وفي ١١ حزيران عام ١٩٦٣ قدمت الكاميرا مشهداً ضيق الحدود لمشاهدي التلفزيون في الولايات المتحدة، ففي ذلك اليوم وفي احتفال ديني أعد بدقة للتصوير، قام ناسك يؤذي بإلقاء البنزين على نفسه وأضرم النار فيها، فكانت تلك الصورة التي احسن اختيارها قد ألهبت أذهان الأمريكيين، وأثارت فيها كلمة واحدة فقط، وهي: القهر، ولم يكشف تركيز الكاميرا على إجراء ذلك الناسك بتصفية نفسه النقاب عن الحقيقة الأكبر في فييتنام، وإنما أخفاها وأكثر من ذلك هو أن الظروف داخل فييتنام الشمالية قد أخفيت عن ناظر مشاهد التلفزيون، لأنه لم يكن يسمح بالصحفيين غير الأصدقاء بالدخول إليها.

وفي الاتحاد السوفييتي قام مؤخراً تتري من القرم باضرام النار بنفسه احتجاجاً على عيش ابناء شعبه في المنفى لمدة خمس وثلاثين عاماً، خارج وطن أجدادهم، ولم تتناقل شبكات الإذاعة هذا الخبر، كما أنه لم يتصدر صفحات صحفنا، وقرأت عنه نبأ بدون صورة، كانت قد أعلنته في زاوية جانبية صحيفة التايمز، التي تصدر في لوس انجلس، على صفحتها الحادية والعشرين.

إن أنظمة الحكم الشيوعية تدثر اخطاءها، بينما نبوب أخطاءنا في اعلانات، وخلال حرب فييتنام انطلى الأمر على العديد من الأمريكيين من ذوي النوايا الحسنة، وأخذوا بأخطائنا التي أحسن الإعلان عنها.

ولقد كانت بعض المعابد البوذية في فييتنام الجنوبية، من الناحية العملية، بمثابة مراكز قيادية للمعارضة السياسية، وكان بعض الفئات البوذية سياسية أكثر مما كانت دينية، وإن حقيقة كون دييم كاثوليكياً ملتزماً قد جعلته مرشحاً مثالياً لكي يصوّر كمضطهد يمارس القمع ضد البوذيين، ولقد شغل أولئك دوراً تمثيلياً على المسرح السياسي بمهارة فائقة، وكان حدث «احتراق البوذي» خير دليل على ذلك. ولا غموض حوله، وقامت الصحافة بتصوير البوذيين وإظهارهم كشعب مقدس مضطهد، مما حذا بالعالم لتركيز اللوم على هدفهم وهو دييم، وللصحافة طريقتها في التركيز على جانب واحد من وضع معقد كقصة «آل التعريف»، وفي فييتنام عام ١٩٦٣ كانت قصة «الأل» هي «القهر».

وبالنسبة للرئيس كندي فقد تزايد استياء من كونه متحالفاً مع ما صوِّر كحكومة وحشية مضطهدة، وبدون أن يضع في اعتباره، النتائج البعيدة المدى، بدأت الولايات المتحدة توسع الهوة بينها وبين دييم.

وفي الأول من تشرين الثاني عام ١٩٦٣ اطيح بدييم بانقلاب لقي حتفه على اثره، وقد تكون التهم التي وجهت إلى الولايات المتحدة حول اشتراكها المباشر في تلك العملية عارية عن الصحة، وغير عادلة، وعلى أية حال، فإن أكثر التفسيرات انصافاً للدور الذي شغلته إدارة الرئيس كندي في تلك القضية، هي أنها طلت المزلاج بالشحم لتسهيل سقوط دييم، ولم تقم بأي إجراء من شأنه أن يحول دون قتله، وكان ذلك بمثابة حدث خسيس وشائن لطّخ صفحة السياسة الخارجية الأمريكية، فتبع سقوط دييم عدم استقرار سياسي، وعاشت فييتنام بالفوضى، وعمتها الاضطرابات، كما كانت للحادث أصداؤه الانعكاسية في سائر انحاء آسيا أيضاً، وبعد وقوع الحادث بعدة أشهر قال لي الرئيس أيوب خان: «إن قتل دييم يعني أشياء ثلاثة بالنسبة للعديد من القادة الآسيويين: من الخطر أن يكون المرء صديقاً للولايات المتحدة، ولا بأس أن يكون حيادياً، وقد يكون أحياناً من المجدي، له أن يكون عدوها».

فالضغط الشديد والمؤامرات التي تعرضت لها إدارة دييم خلال الأشهر التي سبقت الانقلاب، قد شلها، وسمح للشيوعيين بكسب زمام المبادرة في الحرب، وما أن أقصي دييم حتى أصبحت أبواب القصر الجمهوري باباً دواراً، ومهما تكن الأخطاء التي ارتكبها فقد كان دييم يمثل «الشرعية»، وبعد أفول رمز الشرعية أصبحت السلطة جاهزة للاغتصاب، وتبع الانقلاب لعامين متتاليين حتى تولى السلطة نيغويين فان تيو ونيغويين كاوكي عام ١٩٦٥، واغتنمت قوات الأنصار الوضع الفوضوي المضطرب، وحققت المزيد من القوة خلال تلك المرحلة الفاصلة.

وكان الرئيس كندي قد أرسل /١٦٠٠٠/ جندي من القوات الأمريكية للقيام بدور «خبراء» قتال لتدريب وحدات الجيش النظامي في فييتنام الجنوبية، بيد أن الوضع بعد مقتل دييم تفاقم وأخذ يزداد تدهوراً، وفي عام ١٩٦٤ أرسلت هانوي بقواتها لكي تكون في مركز تقوم منه بالاستيلاء على السلطة حال سقوط الحكومة في فييتنام الجنوبية، وبحلول عام ١٩٦٥ كانت فييتنام الجنوبية قد

أصبحت على شفير الهاوية، ولذلك وللحيلولة دون احتلالها من قبل الشمال، بدأ الرئيس جونسون في شهر شباط بقصف فييتنام الشمالية، وكان أول انزال لقوات أمريكية مقاتلة مستقلة قد تم في دانانغ في الأول من آذار في ذلك العام، ومع تعمق تورطنا، الذي وصل إلى حد زج /٥٥٠٫٠٠٠/ جندي في الوقت الذي ترك جونسون كرسي الرئاسة، أصبحت الأخطاء المصيرية في الموقف الأمريكي واضحة.

ففي الحرب العالمية الثانية انتصرنا بصورة أساسية بتفوقنا الانتاجي على الجانب الآخر، فقد كنا قد بنينا من الأسلحة أكثرها وأفضلها، وتمكنا من قصف العدو بالعديد منها لدرجة أنه أرغم على الانسحاب، وكانت قدرة نيراننا المتفوقة وقدراتنا على الامداد والتموين التي لا توازي، والعمليات العسكرية الواسعة النطاق التي جعلتها موهبتنا في التنظيم ممكنة، هي الأسس لنجاحنا، وفي هذا الصدد يجدر بالذكر أننا كنا في الحرب العالمية الثانية نخوض حرباً تقليدية ضد عدو تقليدي، كما أننا كنا نخوض حرباً شاملة، ولذا فمثلنا مثل عدونا لم نشعر بوخز الضمير عن المجازر التي نسببها، حتى قبل قصف هيروشيما قدر عدد الذين قتلوا نتيجة قصف قوات الحلفاء لدريسدن بحوالي /٣٤٠٠٠/ انسان، ومحي عن الوجود أكثر من /٨٠٫٠٠٠/ إنسان خلال قصف حارق لطوكيو لمدة يومين بعد شهر من ذلك.

أما الوضع في فييتنام فمختلف، كما كانت الحال بالنسبة لكوريا، لأن الحرب كانت حرباً محدوده وقد كانت الولايات المتحدة قد غاصت فيها بشكل مندفع جداً في الستينات، ثم تصرفت على نحو غير حاسم، إذ أننا حاولنا شن حرب تقليدية ضد عدو يخوض حرباً غير تقليدية، وحاولنا زج جيش فييتنام الجنوبية على المستوى الذي تزج به قوة تقليدية على نطاق واسع، في حين أن التهديد الرئيسي الذي كان يواجهه لم يكن يعدو عن كونه قوات أنصار، تتطلب نوعا من الوحدات الأصغر حجماً، ورداً من قبل قوات محلية، سيما وأن هذه الطريقة قد أثبتت نجاعتها في الملايو.

كان صناع السياسة العسكرية الأمريكية قد قللوا من قيمة الجوانب السياسية والنفسية (السيكولوجية) لحرب العصابات. (حرب الأنصار) محاولين، بدلاً من ذلك تحقيق الفوز بزخ كميات هائلة من الرجال والعتاد ضد هدفهم، وتمدّ تأثير ذلك بتزايد الضغط الأمريكي بصورة تدريجية بدلاً من جعله فجأة، وبذا فقد أتاح الفرصة للعدو في أن يتأقلم مع الجو، وكان ايزنهاور الذي امتنع عن توجيه النقد العلني لطريقة إدارة الحرب، كان يحمل على هذه الاسلوب التدريجي بعيداً عن الأضواء، وقد قال لي ذات مرة: «إذ كان العدو يحتل هضبة بكتيبة واحدة، أعطني كتيبتين فأستولي عليها، إنما بخسائر فادحة، لكن أعطني فرقة فاستولي عليها بدون قتال».

وخلال تلك الفترة في فييتنام لم نكن من المهارة بمكان لخوض حرب الأنصار، وإنما كنا مهرة في خوض الحرب التقليدي، كنا نبالغ في تولينا لأمور حليفنا لدرجة الإستخفاف به، وشديدي القلق حيال عدونا، وبعبارة موجزة: «إن أمركة الحرب هي التي أضعفت معنويات الفييتناميين، في حين أضعف استمرارها المعنويات الأمريكية».

فالديمقراطيات ليست معدة بشكل جيد لخوض حروب طويلة الأمد، والأنظمة الديمقراطية تقاتل بشكل أفضل بعد تغليف معنوياتها بهجوم العدو بزيادة انتاجها الحربي، أما السلطة الديكتاتورية فقادرة على اجبار سكانها على القتال لأجل غير مسمى، والسلطة الديمقراطية تستطيع القتال طالما أنها تتمتع بتأييد الرأي العام، والرأي العام لا يواصل تأييده لمواصلة الحرب إلا بتقديم دلائل ملموسة على تحقيق تقدم في ميادينها، ومما لا ريب فيه هو أن هذا الشيء لا يصح عندما تخوض السلطة الحرب على مسافة أبعد من نصف العالم من أرضها، وفي هذا الصدد كان الاستراتيجي الصيني سون تسو قد كتب قبل خمسة وعشرين عاماً، يقول: «ما من حرب طال أودها عادت على بلدها بالفائدة.. إن الأمر الأساسي في الحرب هو النصر، وليس العمليات المطوّلة»، والنصر هو الشيء الذي لم يكن الشعب الأمريكي سيحصل عليه.

ونحن معشر الأمريكيين شعب يسير على مبدأ ما حك جلدك مثل ظفرك، فخلال تلك الفترة، أي ابان حرب فييتنام، لم تتمكن من كسب تلك الحرب عن الفييتناميين: أي بالتحليل النهائي كان يتعين على الفيتناميين الجنوبين أن يكسبوها بأنفسهم، وكانت الولايات المتحدة قد شقت طريقها، ودخلت إلى فييتنام حيث حاولنا أن ندبر تلك الحرب بطريقتنا الخاصة بدلاً من أن نعترف بأن مهمتنا كانت يجب أن تتركز على تقديم المساعدة للفييتناميين الجنوبيين، كي يقوموا ببناء قواتهم بحيث يستطيعون الفوز في الحرب.

وفي حديث دار بيني وبين أحد الزعماء الآسيويين قبل أن أصبح رئيساً للجمهورية، صوّر لي ذلك الزعيم ضعف السياسة الأمريكية التي اتبعت حيال فييتنام الجنوبية بقوله: «عندما تحاول مساعدة بلد آخر في الدفاع عن حريته يجب أن تقوم سياسة الولايات المتحدة على أساس مساعدة أهل ذلك البلد على خوض الحرب، وليس على خوضها من أجلهم»، وذلك هو الخطأ الذي ارتكبناه بأم عينه في فييتنام، وكما قال نائب رئيس جمهورية فييتنام الجنوبية فيما بعد: «لقد استوليتم على حربنا».

وكان من الواضح عندما تسلمت منصب الرئاسة عام ١٩٦٩ أن الاستراتيجية الأمريكية المتبعة في فييتنام بحاجة لمراجعة جذرية، وكانت ادارتي ملتزمة بصياغة ورسم استراتيجية ترمي لإنهاء التورّط الأمريكي في الحرب، وتمكين فييتنام الجنوبية من كسبها.

وهكذا فقد كانت أهدافنا تتركز حول:

. عكس «أمركة» الحرب التي وقعت بين عام ١٩٦٥ و١٩٦٨، والتركيز بدلاً من ذلك على «فتنمتها».

ـ اعطاء المزيد من الأفضلية لتهدئة الوضع وتوطيد السلام بحيث تصبح فييتنام الجنوبية، أفضل قدرة على توسيع رقعة سيطرتها على المناطق الريفية.

. تقليل خطر الغزو بتدمير معاقل العدو، وخطوط امداده في كمبوديا ولاوس.

. سحب النصف مليون جندي أمريكي من فييتنام بطريقة لا تسبّب تدهور الوضع في الجنوب.

. التفاوض على وقف اطلاق النار، وتوقيع معاهدة السلام.

. ابداء رغبتنا وتصميمنا على الوقوف إلى جانب حليفتنا، إذا ما خرقت هانوي اتفاقية السلام، والتأكيد لفييتنام الجنوبية على أنها ستستمر في تلقي مساعدتنا العسكرية طالما تفعل هانوي ذلك من قبل حلفائها الاتحاد السوفييتي والصين بدرجة أقل.

وفي طريقي إلى فييتنام للقيام بزيارتي الأولى لها كرئيس للجمهورية، كنت قد عقدت مؤتمراً صحفياً في غوام في ٢٥ تموز عام ١٩٦٩، أعلنت فيه ما أصبح يعرف بمبدأ نيكسون، وكان صلب مبدأ نيكسون يقوم على مقدمة، أن البلدان المهددة بخطر الاعتداء الشيوعي، يجب أن تتحمل المسؤولية الأولى في الدفاع عن نفسها، ولا يعني ذلك بأنه ليس ثمة دور لقوات الولايات المتحدة العسكرية، بل ما يعنيه هو أن الدول المهددة يجب أن تكون راغبة في تحمل العبء الرئيسي بتقديم الكوادر البشرية، وقمنا بوضع مبدأ نيسكون موضع التنفيذ في فييتنام بتركيزنا على النتيجة وكان معنى ذلك على حد ما أوضحه وزير الدفاع الأمريكي ميلفن ليرد مساعدة الشعب الفييتنامي على تطوير «إدارة أقوى، واقتصاد أقوى، وقوات عسكرية أفضل قوة، وجهاز شرطة أقوى لاستتباب الأمن الداخلي».

وكان أهم جانب في الفتنمة هو تطوير جيش فييتنام الجنوبية إلى قوة مقاتلة، مستقلة قوية، قادرة على الوقوف لوحدها في وجه الشيوعيين بقوتيهما كعصابات وكوحدات رئيسية من القوات النظامية التي كانت تشن حرباً تقليدية من الشمال.

في الأول من تشرين الأول عام ١٩٦٩ قمت بإرسال السير روبرت تومبسون إلى فييتنام كمستشاري الشخصي، وزودته بتعليمات كي يقدم لي تقويماً حقيقياً ومستقلاً عن الوضع هناك، فأفادني بأنه استطاع التجول بأمان في عدد من القرى التي كانت تخضع لقوات الفييت كونغ منذ عدة سنوات، كما أن انطباعاً جيداً قد تولد لديه عن التقدم الذي أحرزناه لدرجة تراءت الأمور معها بأننا في «موقع النجاح»، للوصول إلى سلام عادل إذا كنا نرغب في مواصلة مساعينا التي نبذلها.

وبعد التشديد وزيادة التأكيد على الفتنة، وتهدئة الأوضاع كان أول أمر أصدرناه للقيام بعمل عسكري هو ضرب تحصينات العدو ومعاقلة، وخطوط امداده في لاوس وكمبوديا.

كمبوديا

في أعقاب اتفاقية لاوس، التي عقدت عام ١٩٦٢، والتي سمحت من الناحية العملية لفييتنام الشمالية بمواصلة استخدام معاقل في لاوس وكمبوديا، أخذ الأمير سيهاتوك يناور من أجل استمالة الفييتناميين الشماليين الذين بدوا إليه، وكأنهم يمثلون الجانب الذي يتمتع بأوفر حظ من أجل كسب الموقف، فقام في عام ١٩٦٥ بقطع علاقاته مع الولايات المتحدة، وقبل بإقامة مناطق قواعد فييتنامية شمالية في شرقي كمبوديا، حيث كان يقوم منها أكثر من ١٠٠٫٠٠٠ من قوات فييتنام الشمالية وقوات الفييت كونغ بشن هجماتهم ضد القوات الفييتنامية الجنوبية، والقوات الأمريكية لمدة أربع سنوات قبل وصولي إلى سدة الرئاسة.

وبحلول شهر كانون الثاني لعام ١٩٦٨، كان اهتمام سيهانوك حول عدد الفيتناميين الشماليين في كمبوديا قد تعمق، وازداد قلة حيث أدلى بتصريح للمبعوث الجمهوري تشارلز باولز قائلاً: «لا نرغب بوجود أي فيتناميين في كمبوديا، وسيسرنا جداً إذا قمتم بحل مشكلتنا... أنني أريدكم أن ترغموا الفييت كونغ على مغادرة كمبوديا».

ورداً على هجوم كبير شنه الفييتناميون الشماليون ضد قواتنا في فييتنام الجنوبية، أصدرت الأوامر في شهر آذار عام ١٩٦٩ بقصف مناطق القواعد التي يحتلها العدو في كمبوديا، ولم نعلن عن القصف للملأ حرصاً منا على أننا إذا ما فعلنا ذلك سيرغم سيهانوك على معارضته، ومهما يكن من أمر فإن سيهانوك لم يعارض حتى بعد أن تسربت أنباء تلك الأوامر إلى صحيفة نيويورك تايمز في شهر نيسان، وعلى العكس من ذلك فقد أعلن هو ذاته في شهر أيار، أي بعد شهرين من البدء بأعمال القصف، قائلاً: «إن كمبوديا تحتج فقط على تدمير الممتلكات، وقتل الكمبوديين، فإذا ما قتل جاموس، أو كمبودي واحد، سأكون على علم، وسأحتج وقتئذ».

وفي شهر حزيران عام ١٩٦٩، أعلن سيهانوك في مؤتمر صحفي بأن المنطقة الشمالية الشرقية من كمبوديا قد أصبحت «عملياً أرضياً فييتنامية شمالية»، وفي الشهر التالي وجه لي الدعوة لزيارة كمبوديا كعلامة على تحسّن العلاقات بين بلدينا، لكن اتجاه سيهانوك نحو الولايات المتحدة لم يكف لارضاء الرأي العام الكمبودي فقد أبدى الكمبوديين معارضة قوية ضد انتهاك فييتنام الشمالية لحرمة سيادتهم، في سلسلة من الأحداث التي جرت بسرعة في شهر آذار عام ١٩٧٠، وأدت المظاهرات ضد احتلال فييتنام الشمالية للأراضي الكمبودية إلى نهب سفارتي فييتنام الشمالية والفييت كونغ في فنوم بين، وفي غضون أيام قلائل وجه للفيتناميين الشماليين انذاراً بإخلاء البلاد خلال ثمانية وأربعين ساعة، ولما ضاق البرلمان الكمبودي ذرعاً بإجراء سيهانوك المتوازن، صوّت بالإجماع على ازاحته من مركز قيادة السلطة.

لقد كان ذلك التحرك ينطوي على الشجاعة، لكنه كان تحركاً خطيراً، فلم يحزم القييتناميين الشماليون حقائبهم ويغادروا كمبوديا، بل تحركوا، بدلاً من ذلك، نحو فنوم بين، وقد أصدر نظام الحكم الشيوعي في كمبوديا عام ١٩٧٨ تقريراً رسمياً تضمن تقديراً لعدد القوات الفييتنامية والقوات الشيوعية بـ /٢٥٠٫٠٠٠/ في شمال شرقي كمبوديا، وذلك عندما أمرت بالتحرك إلى ذلك البلد، وفاق ذلك العدد ما قدرناه نحن بكثير.

بدأت القوات الفييتنامية الشيوعية هجومها في أوائل شهر نيسان موسعة مناطق قواعدها إلى حد هددت معه في نهاية ذلك الشهر بتحويل الجزء الشرقي من كمبوديا بكامله إلى منطقة قواعد يستطيعون منها توجيه ضرباتهم إلى كل من فنوم بين، وفييتنام الجنوبية حسب أهوائهم، وهكذا فقد كان قبولنا بهذا الأمر يعني توقيع شهادة وفاة، من جانبنا، ليس للكمبوديين فقد وانما للفييتناميين الجنوبيين أيضاً، وإن سقوط كمبوديا تحت السيطرة الشيوعية من شأنه أن يجعل

فييتنام الجنوبية في وضع عسكري لا يمكنها الصمود فيه والدفاع عنه فضلاً عن أنه سيهدد حياة الآلاف من رجال الجيش الأمريكي.

تحلينا بضبط النفس طوال شهر نيسان، فيما اندفعت القوات الشيوعية الفييتنامية بعنف داخل كمبوديا، وكانت المساعدة العسكرية التي قدمناها إلى كمبوديا بجملتها عبارة عن /٣٠٠٠/ بندقية سلمت لها سراً، ولم يظهر الشيوعيون أي ضبط للنفس من جانبهم، وجعلوا غايتهم واضحة كعين الشمس وهي السيطرة على كمبوديا.

وفي نهاية الأمر، أعلنت قرارنا في ٣٠ نيسان بالتصدي للهجوم الشيوعي بمهاجمة مناطق القواعد التي تحتلها فييتنام الشمالية في كمبوديا على مقربة من حدود فييتنام الجنوبية، وكان هدفنا الأساسي هو منع الفييتناميين الشماليين من غزو البلاد، بحيث تستمر الفتنة وتتواصل خطط انسحاب القوات الأمريكية من فييتنام الجنوبية، والهدف الثاني هو تخفيف الضغط العسكري الذي تمارسه القوات الفييتنامية الشمالية على كمبوديا، التي كادت توشك أن تقع تحت سيطرة تلك القوات، لقد كان الفييتناميون الشماليون يحتلون أجزاء من شرقي كمبوديا منذ خمس سنوات، ثم عادوا إليها بعد مغادرتنا ذلك البلد، بينما حددنا بقاءنا بالمقابل لمدة شهرين فقط، ولم تتقدم إلا بعمق واحد وعشرين ميلاً، وهكذا كان الأمر يبدو واضحاً لكل مراقب محايد من كان المعتدي، والاعتقاد، كالذي ما زال يساور الكثيرين، بأن الولايات المتحدة والفييتناميين الجنوبيين قد «غزوا» كمبوديا . بمعنى ارتكاب عمل عدواني . من الغبن بمكان بحيث يوازي توجيه التهمة لأيزنهاور بارتكاب عمل عدواني ضد فرنسا، عندما أمر بعملية انزال النورماندي، وكما كتب المعلق الصحفي في صحيفة نيويورك تايمز، وليم سافاير عام ١٩٧٩، حيث قال:

«لم تقم الولايات المتحدة بغزو كمبوديا عام ١٩٧٠، بل على عكس ذلك إننا نعرف بأن الفييتناميين هم الذين غزوها، فيما قمنا نحن بضرب مواقعهم محققين بعض النجاحات، ولم نرتكب أعمالاً وحشية بقصفنا لكمبوديا، بل على العكس أيضاً إننا ندرك الآن بأننا كنا نقصف المعتدين الذين، بعد أن تركناها نحن الآن، أصبحوا يسيطرون على ذلك البلد».

وجاء مؤخراً في رسالة نشرتها صحيفة نيويورك تايمز، وكان قد بعث بها إليها رجل قتل ولده الوحيد في فييتنام:

«لو أن آباء أولئك الشبان كانوا يعلمون بأن هذا البلد سيدعم معقلاً على مسافة ٥٠ ميل من سايغون، لكنا قد نصحناهم ضد التدخل وإن عدم قيامنا بذلك بمثابة عبء تتحمله ويلازمنا مدى الدهر، ولقد جاءت نسبة قتلانا الكبيرة في البر بين عام ١٩٦٥ و١٩٧٠ من قبل عدوٍ وقح كان قد تمركز وتدرب وتسلح في «منقار الببغاء» في كمبوديا.

والخيانة يمكن أن تكون أي شيء سوى قصف الولايات المتحدة لذلك المعقل ذاته، إن الخيانة تكمن في حقيقة أنه لأكثر من أربعة أعوام قد جعلت الولايات المتحدة مقاتليها، معرضيين

للهجوم، فيشوهون ويموتون دون أن تهتم بهم، مع أن الهجوم عليهم كان من موقع هو نفسه كان معرضاً لأعمال الهجوم والانتقام براً وجواً».

وأدت العمليات المشتركة التي قام بها الجيش الأمريكي، والجيش الفييتنامي الجنوبي إلى إزالة الكثير من مستودعات الأسلحة والمعدات الفييتنامية الشمالية عن بكرة أبيها . ١٥ مليون طلقة من الذخيرة (امداد سنة كاملة) و ١٤ مليون ليبرة من الأرز (تموين أربعة أشهر) و /٢٣٠٠٠/ قطعة سلاح (أي عتاد كامل لأربعة وسبعين كتيبة فييتنامية شمالية) وربما أكثر من ذلك.

وهكذا يعود الفضل لتلك العمليات، ولعملية لام سون في العام الذي تلاه في لاوس، والتي قامت بها القوات الفييتنامية الجنوبية، حيث جعلت هانوي غير قادرة على تخزين الامدادات الكافية لشن هجوم شامل على فييتنام الجنوبية إلا بعد عامين، أي في عام ١٩٧٢، ومن هنا فقد توفر الوقت الثمين الذي ساعد على اكمال مهمة الفتنة، حتى أنه عندما وقع هجوم ١٩٧٢، كان أضعف وأسهل للاحتواء من جهة المعاقل في كمبوديا، وفي ذلك شهادة وبينة على فاعلية الإجراءات التي قمنا باتخاذها.

فمن الناحية العسكرية كانت عملية كمبوديا بمثابة نجاح باهر، وعلى أية حال كنا في ذلك الوقت نتعرض بلا شفقة للهجوم داخل بلدنا بسبب جهودنا المبذولة لمساعدة فييتنام الجنوبية، وكمبوديا للحفاظ على بقائهما، وقد نظر الكثيرون إلى العمليات المشتركة على أنها توسيع أمريكي لرقعة الحرب، متجاهلين الغزو الفييتنامي الشمالي الذي كان قد سبق تلك العمليات، وأرغمنا على الرد عليه، والآن وبعد أن أصبحت كمبوديا خاضعة لسلطة جيشين شيوعيين منفصلين، وبعد أن طرد سكانها من مدنهم بمسيرات الموت، وتشردوا كمسألة سياسية، فإن أصحاب الأصوات التي تعالت قبل عشر سنوات يقولون: إن الخطيئة خطيئتنا، وإن اللوم يجب أن يلقى على عاتق الولايات المتحدة، ولعل الذنب هو الذي حدا بأولئك الناس ليتجاهلوا الحقيقة وينحون باللائمة على أعمال القتل الجماعية التي ارتكبها الشيوعيون الكمبوديون، والفييتناميون الشماليون، مقابل تحركات عسكرية محدودة قامت بها الحكومة الأمريكية قبل عقد من الزمن.

وفي الحقيقة لو لم تقم الولايات المتحدة بمهاجمة معاقل الفييتناميين الشماليين لكان الشيوعيون قد سيطروا على كمبوديا منذ عام ١٩٧٠ بدلاً من السيطرة عليها بعد خمسة أعوام من ذلك التاريخ. عندما رفض الكونغرس تقديم المساعدة العسكرية لحكومة لون نول المناوئة للشيوعية، وفي هذا الصدد يقول هنري كيسينجر: «إن هول أعمال القتل الجماعية التي ارتكبت من قبل الخمير الحمر في كمبوديا عام ١٩٧٥ (قبل أن يعاني الشعب من وحشية فييتنام الشيوعية) تثير بكل وضوح القلق في أعماق منتقدي الحرب، الذين نادوا منذ أمد طويل بأن تتخلى عن الهند الصينية، وتتركها وشأنها للقدر، بيد أن أولئك الذين أدت ضغوطهم القاسية إلى وقف المساعدات الأمريكية لكمبوديا، والذين أوقفوا كل الأعمال العسكرية الأمريكية من أجل مقاومة الخمير

الحمر، والذين نجحوا في نهاية الأمر بوقف كل المساعدات إلى بلد كان لا يزال في طور المقاومة عام ١٩٧٥، لن يستطيعون التهرب من مسؤولياتهم في إعادة كتابة التاريخ».

فليست الإجراءات العسكرية الأمريكية التي اتخذت للدفاع ضد المعتدين المستبدين هي التي جعلت أولئك المعتدين يصبحون مستبدين، وإن كان لتلك الحرب أية علاقة بوحشية الخمير الحمر. فإنما في الحرب التي شنها وواصلها الفييتناميون الشماليون.

غزو ١٩٧٢

كانت العمليات التي قام بها الأمريكيون والفييتناميون الجنوبيون في كمبوديا ولاوس خلال عامي ١٩٧٠ و١٩٧١ قد حالت بنجاح دون قيام الفييتناميين الشماليين والفييت كونغ، بهجمات واسعة النطاق داخل فييتنام الجنوبية، خلال العامين المذكورين، ومكنت الولايات المتحدة من مواصلة سحب قواتها حسب الجدول المرسوم.

وبحلول ربيع عام ١٩٧٢ كانت هانوي قد اعترفت بأنها غير قادرة على احتلال فييتنام الجنوبية باستخدام تكتيك حرب العصابات، حتى ولو بمساعدة الوحدات النظامية التقليدية، كما أنها لن تستطيع كسب تأييد الشعب الفييتنامي الجنوبي، ولم تعد لدى هانوي أية ورقة رابحة تدّعي بموجبها بأن الحرب في الجنوب حرب أهلية بين حكومة سايغون والفييت كونغ، وهكذا أسقطت هانوي قناع «الحرب الأهلية» عن وجهها، وقامت بشن غزو شامل تقليدي واسع النطاق على الجنوب، حيث قامت أربع عشرة فرقة، بالإضافة إلى ست وعشرين وحدة مستقلة بغزو الجنوب، وهذا ما أبقى فرقة واحدة وأربع وحدات مستقلة فقط في لاوس ولم تبق أية قوات أرضية نظامية في فييتنام الشمالية على الإطلاق.

وقد علق السير روبرت تومبسون على ذلك العزو قائلاً: «لقد كان دلالة العصر، إذ جاء ذاك الغزو على غرار الغزو الشيوعي لكوريا، الذي كان من شأنه قبل عشرين عام أن يؤدي إلى اتخاذ إجراء غربي موحد فوري، أو قبل عشر سنوات من قيام كندي بحملته، يوم وضع التصميم الأمريكي موضع شك، وإن كسب المعركة في ولاية ويسكونسس وفاز على السيناتور جورج ماك غوفرن».

وساعد لغم الولايات المتحدة لمرفأ هايغونغ واستخدامنا لقواتنا الجوية لقصف أهداف في فيتنام الشمالية، على كسب الوقت، إلا أن القتال على الأرض قد قامت به القوات الفييتنامية الجنوبية بشكل مطلق، وتكبدت فييتنام الشمالية خسائر فادحة قدرت بـ /١٣٠٫٠٠٠/ انسان بين قتيل وعاجر، وكان الغزو مخفقاً.

وعندما أصدرت الأوامر بلغم مرفأ هايفونغ، وتكثيف القصف في فييتنام الشمالية في ٨ أيار عام ١٩٧٢، سرت تكهنات كثيرة بأن ذلك قد يؤدي إلى قيام السوفييت بإلغاء اجتماع القمة الذي كان مقرراً عقده في حزيران، لكن ذلك لم يحدث، وقام بريجيينيف وزملاؤه بتقديم الدعم لحليفهم بالكلام، واعترضوا على اجراءاتنا بصخب أمام الرأي العام، ومضوا لحضور القمة، لأنهم كانوا يريدون، بل كانوا بحاجة لإقامة علاقات أفضل معنا، سيما على ضوء مبادرتنا الصينية، وإضافة

لذلك كله فقد أظهرت إجراءاتنا في فييتنام بأننا لا نمتلك القوة فحسب، بل الإرادة على استخدامها عندما تتهدد مصالحنا، وإن تلك الحقيقة تجعلنا أهلاً لأن يتحدث إلينا، لقد كنا قادرين على المضي إلى مؤتمر القمة من مركز قوة، فلو أننا أخفقنا في اتخاذ تلك الإجراءات، وذهبنا نتيجة لذلك إلى موسكو، ولو كان الروس قد جعلوا دباباتهم تطوف شوارع هيو وسايغون، لكنا قد أصبحنا، والحالة تلك، في مركز لا يحتمل من الضعف، ولكان القادة السوفييت قد اقترضوا بأننا إذا ما هزمنا في فييتنام قد نهزم في موسكو أيضاً.

وقام الصينيون بدورهم بإدانة أجرائنا أمام الملأ، إذ لم يكن، من وجهة نظر ايديولوجية، أمامهم خيار ثانٍ، أما من وجهة نظر الحفاظ على بقائهم، فقد كانوا بأمس الحاجة لإقامة علاقة مع أمريكا، ليست قوية فقط، وإنما حازمة ويمكن الاعتماد عليها.

وخلاصة القول إن الإجراء الذي قمنا به عام ١٩٧٢ قوى علاقتنا الجديدة مع السوفييت والصينين بدلا من أن بضعفها، فقد رأى كلاهما بأن لدينا القوة، والإرادة على استخدامها، وكذلك المهارة في استخدامها بشكل فعال، وإن ذلك جاء ليعني بأننا نستحق أن يُتحدث إلينا. وكذلك بإمكاننا أن نكون صديقاً يعتمد عليه، وعدواً خطيراً، وبالمقابل لم يكن ذلك ليعني بأنه بإمكانهما التخلي علناً عن حلفائهما الشيوعيين في هانوي، وعلى أية حال فقد فتر دعمهما لهانوي بشكل ملحوظ، مما حدا بقيادة هانوي لزيادة حوافز تعلقهم بتوقيع اتفاق سلام.

فنتيجة لهزيمتهم الحاسمة في هجوم ١٩٧٢، وتزايد تخوّفهم وشكوكهم بصدق حلفائهم السوفييت والصينيين، بدأ الفييتناميون الشماليون أخيراً بالتفاوض بصورة جدية، لكنهم كانوا على طاولة المفاوضات من العناد بما كانوا فيه في أرض المعركة، كانوا يريدون النصر أكثر مما كانوا يريدون السلام، وبغض النظر عن الهزيمة الساحقة لمرشح «السلام بأي ثمن» في الولايات المتحدة في انتخابات تشرين الثاني، فقد واصلوا عرقلة شروطنا، ولو كانت بأدنى حدودها.

وفي ١٤ كانون الأول اتخذت القرار بتجديد وزيادة قصف الأهداف العسكرية في فييتنام الشمالية، وبدأت أعمال القصف في ١٨ كانون الأول، وكانت خطوة ضرورية حيث ثبت بأن القرار كان صحيحاً، وعلى الرغم من صعوبة الخيار، فإن وقائع الحرب، وليست رغبات من قلت معرفتهم، هي التي استدعتني لاتخاذ ذلك الإجراء، وكسرت عملية القصف طريق الاستعصاء في المفاوضات فعاد الفييتناميون الشماليون إلى طاولة المفاوضات، وفي ٢٣ كانون الثاني لعام ١٩٧٣، ثم التوصل لاتفاقية السلام، التي كان انتظار حدوثها قد طال أمده.

وبعد الهزيمة المنكرة التي ألحقتها بهم في البر القوات الفييتنامية الجنوبية خلال هجوم الربيع، وبعد القضاء على قدراتهم العسكرية في أعمال القصف التي قمنا بها في شهر كانون الأول، أدرك الفييتناميون الشماليون أنهم عسكريا أمام خصوم يصعب الانتصار عليهم، إن لم يكن ضربا من المستحيل، وبينما أخذ اقتصاد فييتنام الجنوبية يزدهر أكثر بكثير من الشمال، أخذت ايديولوجية هانوي الشيوعية تضعف من حيث استغوائها واستمالتها للناس، فبرنامج تيو الذي

طرح تحت شعار «الأرض لمن يحرثها»، على سبيل المثال، خفض الملكية من ٦٠ إلى ٧٪ عام ١٩٧٣ وكان ذلك البرنامج بمثابة تطور ثوري قطع الطريق وسدها أمام حجة الشيوعيين القائلة بأن الحكومة قد تحالفت مع الأغنياء واضطهدت الشعب، وادرك الفييتناميون الشماليون أيضاً بأن للسوفييت والصينيين مصلحة في علاقتهم الجديدة معنا، وقد لا يرغبون بالمخاطرة بتلك العلاقة بتقديم امدادات السلاح إلى حد أبعد مما تسمح به اتفاقية باريس الموقعة في كانون الثاني عام ١٩٧٣.

من النصر إلى الهزيمة

لقد كسبنا الحرب عسكريا وسياسيا في فييتنام، إلا أن الهزيمة قد اختطفت من بين فكي النصر، لأننا خسرنا الحرب سياسياً في الولايات المتحدة، لقد كان من الممكن تعزيز السلام الذي تم تحقيقه في النهاية في عام ١٩٧٣ وأن تكون فييتنام الجنوبية بلداً حراً الآن، لكن الولايات المتحدة، يتشنج قصر النظر والغيظ قد أضاعت ما كسبته لقاء ثمن باهظ جداً.

وبعد خيبة الأمل والتضليل الذي عم في منتصف الستينات رفض العديد من الأمريكيين الاعتقاد بإمكانية كسبنا لقضية فييتنام، وبعد سنوات من خوض الحرب بطريقة خاطئة، وخسارتنا فيها اعتقد الكثيرون منهم أيضاً بأنه لم يكن بإمكاننا أن نخوضها بالطريقة الصحيحة ونكسبها، وبتحريض من قبل الأوساط الإعلامية وغالباً من قبل «المعارضين» مؤنّبي الضمير الذين تحملوا مسؤولية أخطاء السياسة، فقد سمم الرأي العام الأمريكي، وفي منتصف الستينات قال لنا الذي هم «النخبة والأكثر لمعاناً» بأننا نستطيع الفوز في فييتنام بليلة واحدة وبوسعنا كسب الحرب على أساس خط تجميع وتشغيل، وكأن البلدان بكاملها تعمل كمصنع فورد، وأولئك الذي قالوا لنا ذلك وقتئذ، يقولون لنا الآن لم يكن بوسعنا أن نكسب الحرب بأية طريقة، وعلينا أن ننسحب بأقرب فرصة ممكنة، تاركين فييتنام الجنوبية وشأنها للقدر، وافترضوا أوتوماتيكيا بأنه ليس ثمة من يستطيع تحقيق ذلك، فبعجزهم حتى في الهزيمة، وبجدالهم الملطخ بالذنب سمموا الرأي العام الأمريكي، الذي كان بطبيعته مضللاً، وخيبوا جميع المساعي العسكرية والسياسية التي بذلناها في فييتنام من أجل كسب الحرب، والآن وبعد أن صدموا بحمام الدم الذي تتخبط فيه كمبوديا، وبالحالة المأساوية للشعب المسكين يتخبطون مسعورين محاولين ايجاد من يلقون اللوم عليه، وجل ما ينبغي عليهم فعله من أجل ذلك هو أن ينظروا إلى المرآة.

ونظرة إلى الماضي تبين لنا بشكل ملحوظ، أن الرأي العام قد واصل تأييده لمساعينا في فييتنام، لدرجة أنه فعل ذلك ما استطاع سبيلا، وقد قال المعلق الصحفي في مجلة نيوزويك، كينيث كرونورد عن حرب فييتنام بأنها كانت أول حرب في تاريخنا، وقعت فيها أوساطنا الإعلامية موقف صديق إلى جانب أعدائنا، أكثر مما هو لجانب حلفائنا، فالانتصارات التي حققها الأمريكيون والفييتناميون الجنوبيون، كسحق هجوم تيت عام ١٩٦٨ صوّرت كهزائم، وأديت الولايات

المتحدة، التي كان هدفها الوحيد مساعدة فييتنام الجنوبية في الدفاع عن نفسها، كعدو، فيما هلل للفييتناميين الشماليين الذين يدعمهم السوفييت، وكأنهم دعاة تحرير.

وقد استخدمت الفظاعات التي ارتكبت في ماي لي بحق ٢٠٠ من الفييتناميين بشكل تسويغي، كما أن الكابتن وليم كالي قد حوكم، وحكم م أجل الدور الذي شغله فيها، غير أن أعمال القتل الوحشية التي ذهب ضحيتها عشرات الألوف من المدنيين على أيدي الفييتناميين الشماليين قد تجوهلت عمداً، وخلال شهر شباط من عام ١٩٦٨ قامت قوة من قوات الفييت كونغ وفييتنام الشمالية باحتلال هيو، وأعدم واختطف /٥٨٠٠/ انسان مدني وبعد استرداد المدينة، وجد ٢٨٠٠ انسان على الأقل في قبور جماعية، وتبين أن الكثيرين منهم كانوا قد دفنوا أحياء.

والتهمة السافرة والعارية برمتها عن الصحة، والتي كانت هانوي قد وجهتها إلى الولايات المتحدة زاعمة بأن الولايات المتحدة تعتمد سياسة قصف السدود في الشمال مسببة غرق الآلاف من الناس، قد حظيت بتغطية كبيرة، وكنتيجة لتلك التغطية الكبيرة للتهمة، فقد اتسع نطاق القبول بها كحقيقة، في حين أن الحقيقة . بأنه لا وجود لمثل هذه السياسة، ولم يغرق انسان واحد . قلما استرعت انتباه أحد.

وتعالت الأصوات التي وجهت الانتقاد للفييتناميين الجنوبيين وأدانتهم في معاملتهم لأسرى الحرب، وعندما قامت الممثلة جين فوندا والنائب العام (المدّعي العام) السابق رامزي كلارك بزيارة هانوي، لقيت زيارتهما تغطية كبيرة، ولا سيما الموقف الإيجابي للأوساط الإعلامية الأمريكية، ونقل إعلانهما الذي أثنيا فيه على المعاملة التي يلقاها أسرى الحرب الأمريكيون الذين كانوا في حقيقة الأمر يتعرضون لأشد وأقسى أنواع التعذيب وحشية من قبل محتجزيهم الفييتناميين الشماليين.

لذا لم تكن التغطية غير الأمينة، والمزدوجة المستوى للحرب الفييتنامية، أجمل ساعات الأوساط الإعلامية الأمريكية، لقد قامت وبقوة بتشويه مدارك الرأي العام، وقد انعكس ذلك إلى داخل الكونغرس ذاته.

وفي ٢ كانون الثاني عام ١٩٧٣ صوتت الكتلة النيابية الديمقراطية بنسبة ١٥٤ . ٧٥ على وقف جميع الإعانات للعمليات العسكرية في الهند الصينية، حالما تجري الترتيبات من أجل الانسحاب الآمن للقوات الأمريكية وإعادة أسرانا المحتجزين، كأسرى حرب، وبعد يومين اتخذ قرار مماثل من قبل الكتلة الديمقراطية في مجلس الشيوخ بنسبة ٣٦ . ١٢، ويجدر بالملاحظة أن هذا الشيء قد حدث قبل أن تبدأ قضية ووترغيت بإضعاف مركزي كرئيس للجمهورية، وقبل الانسحاب الكامل للقوات الأمريكية بثلاثة أشهر، أي سحب آخر جندي من القوات الأمريكية التي كان عددها قد بلغ ٥٥٠٫٠٠٠ جندي في فييتنام عندما تسلمت منصبي الرئياسي عام ١٩٦٩.

ويطيب لي هنا أن أورد ما قاله تومبسون:

«الحقيقة أن الرئيس نيكسون، بعد أن كسب مركز مساومة مسيطر، عندما توقف القصف في ٢٩ كانون الأول عام ١٩٧٢، لم يتمكن من الضغط بالميزة التي حققها بسبب معارضة القصف ذاته، وحقيقة أن مركزه القوي من أجل المساومة قد عرضه لضغط متزايد في الكونغرس وفي الولايات المتحدة من أجل قبول وقف إطلاق النار بأية شروط سطحية، من شأنها أن تنهي التورط الأمريكي المباشر وعلى الفور.

لذلك فقد كان الرئيس نيكسون مجبراً على قبول الشروط، لأنها تطابقت، ولو على الورق على الأقل، مع الشروط التي كانت قد وضعت مستقبلاً، على أنها تمثل «السلام المشرف»، ومع ذلك، لو كانت تلك الشروط قد حفظت بدقة أو أبقيت ملزمة لكانت قد وجدت نهاية للحرب، وتم الوصول إلى «السلام المشرق».

ولو كان لاتفاقية السلام أن يكتب لها الحظ كي تكون فعالة لكان من الضرورة بمكان منع هانوي من خرقها، وقد ذكرت في رسالة خاصة كنت قد بعثت بها إلى تيو: «إذا أخفقت هانوي في التقيد بشروط هذه الاتفاقية، فإنني أنوي اتخاذ إجراء انتقامي فوري وصارم»، وفي مؤتمر صحفي عقدته في ١٥ آذار بشأن التسلل الفييتنامي الشمالي إلى فييتنام الجنوبية قلت: «انني أقول فقط مستنداً على الاستشهاد بإجراءاتي التي اتخذتها خلال الأعوام الأربعة الماضية، بأنه يتوجب على الفييتناميين الشماليين الا يقللوا من قيمة التعبير عن اهتمامنا، إذا ما صدر بشأن خرق الاتفاق».

وخلال شهر نيسان وأيار وحزيران من عام ١٩٧٣، عندما ضعفت سلطتي بسبب أزمة ووترغيت، هددت بالعمل الانتقامي لكنني لم أقم به، عندئذ أصدر الكونغرس مذكرة حدد فيها الخامس عشر من شهر آب كموعد لانهاء أعمال القصف الأمريكي في كمبوديا، وطالب فيها بموافقة الكونغرس المسبقة على تمويل أي عمل عسكري تقوم به الولايات المتحدة في أي جزء من الهند الصينية وكان تنفيذ هذه المذكرة يرمي إلى تجريد رئيس الجمهورية من وسائل تعزيز اتفاقية السلام في فييتنام، بالقيام بالرد الانتقامي ضد خرق هانوي لتلك الاتفاقية.

ولما أزال الكونغرس امكانية العمل العسكري ضد أعمال خرق اتفاقية السلام، أدركت أنه لم يبق لديّ سوى الكلمات لأهدد بها، وأدرك الشيوعيون هذا الأمر كذلك، فمع توقف وسائل القصف، وصدور قرار سلطات الحرب في تشرين الثاني ١٩٧٢، حيث حرمني الكونغرس وحرم خلفي الرئيس فورد من السبل التي تطبق بموجبها الاتفاقية في الوقت الذي كان الفييتناميون الشماليون يقومون بخرقها بشكل علني ومفضوح، ومما يجدر بالملاحظة، والحق يقال، هو أن فييتنام الجنوبية ظلت على مدار عامين، بعد توقيع اتفاقية السلام في كانون الثاني عام ١٩٧٣، تجابه فييتنام الشمالية التي كانت تتلقى الإمدادات على أحسن وجه، ولقد فعل الجنوبيون ذلك بدون دعم القوات الأمريكية لهم سواء في الجو أو في البر، وبإمدادات كانت تتضاءل وتتقلص.

وخلال عام ١٩٧٤ بكامله، لم يتوقف الروس عن صب كميات هائلة من الذخيرة والأسلحة والإمدادات العسكرية في فييتنام الشمالية، وكان الشمال يقوم بصبها في الجنوب، ففي عام ١٩٧٤

تم تقدير عدد قوات هانوي الموجودة في فييتنام الجنوبية بـ ١٨٥٫٠٠٠ انسان و ٥٠٠ . ٧٠٠ دبابة، و ٢٤ كتيبة من قوات المدفعية المضادة للطيران، وبزوال خطر التهديد التي تشكله القوات الجوية الأمريكية، قام الفييتناميون الشماليون بشق الطرق، وحفر الخنادق لتحريك جيوشهم وإمداداتهم وبينما كان الاتحاد السوفييتي يقوم بتسليح هانوي التي كانت تعد العدة لشن هجومها الأخير كان مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة يشدد على تخفيض فيض المساعدات لفييتنام الجنوبية، وكانت تلك المساعدات قد انخفضت بمعدل النصف عام ١٩٧٤، ثم نزلت إلى الثلث عام ١٩٧٥، وقام السفير الأمريكي لدى فييتنام الجنوبية غراهم مارتن بتحذير لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، بأن مثل هذا التخفيض للمساعدات العسكرية من شأنه أن «يشكل بصورة جدية أغراء للشماليين، كي يراهنوا على القيام بهجوم عسكري شامل»، ولقد كان تحذيره تنبؤ مأساوي.

وكانت الخطة الأصلية للفييتناميين الشماليين قد أعدت على أساس قيامهم بهجومهم الأخير عام ١٩٧٦، لكنهم أسرعوا في تقديم جدولهم الزمني عن موعده المقرر، وسقطت مقاطعة فيوك لونغ في أيدي الشيوعيون باديء ذي بدء، حيث كان أول اقليم تخسره فييتنام الجنوبية بشكل كامل منذ عام ١٩٥٤ وجاء رد فعل الولايات المتحدة حيال ذلك خفيفاً نسبياً، ثم قررت هانوي شن هجمات أوسع نطاقاً في عام ١٩٧٥، استعداداً للهجوم النهائي في عام ١٩٧٦، وسقطت بأن مي ثاوت في ١١ آذار، وفي ذلك اليوم بالذات كان مجلس النواب الأمريكي قد رفض تقديم صفقة مساعدة عسكرية متممة بقيمة /٣٠٠/ مليون دولار، كان الرئيس فورد قد اقترحها، مما كان له، بالإضافة إلى تخفيض المساعدة من قبل، الأثر الكبير على معنويات الفييتناميين الجنوبيين، كذلك حرمانهم من الوسائل التي يدافعون بها عن أنفسهم، وقلت امداداتهم العسكرية، والتي كانوا يعتمدون على الولايات المتحدة للحصول عليها، لدرجة يرثى لها، الأمر الذي أفسح المجال أمام الشماليين للتبجح، وزجهم بما تبقى من قواتهم كلها في المعركة، فحاول تيو إعادة تجميع قواته التي خفت امداداتها عن الحد الطبيعي في خطوط دفاعية، وتحولت المناورة المنفذة بشكل سريع إلى هزيمة، إلى أن انتهى الأمر في نهاية شهر نيسان، وأصبحت سايغون مدينة هوشيه منه.

كانت هانوي قد منيت بهزيمة منكرة عندما قامت بشن هجوم تقليدي على الجنوب في عام ١٩٧٢، يوم أوقف الفييتناميون الشماليون في البر من قبل الفييتناميين الجنوبيين، في حين كانت أعمال القصف التي وجهتها لهم قواتنا الجوية، والألغام التي زرعتها لهم بحريتنا قد عرقلت مساعيهم المبذولة لإعادة امداد قواتهم في الجنوب، وكان بالإمكان أن تنزل ضربات القاذفات الضخمة ب ٥٢ خسائر فادحة في صفوف تجمعات القوات التي استخدمتها هانوي في هجومها النهائي، بيد أنه لم يكن على هانوي أن تحسب حساباً لقواتنا الجوية والبحرية، والفضل يعود للمساعدة العسكرية السوفييتية الكبيرة التي وفرت للشماليين مزايا التفوق في مجال الدبابات والمدفعية على قوات الفييتناميين الجنوبية الأرضية، وبعد انتصار فييتنام الشمالية علق الجنرال دونغ، قائد هانوي الميداني، الذي أوكلت اليه مهمة قيادة الهجوم النهائي قائلاً: «إن تخفيض

المساعدات الأمريكية قد جعل من المستحيل على القوات المدعية تنفيذ خططها القتالية، وبناء قواتها، لذلك أرغم تيو عندئذ على أن يخوض حرب الرجل الفقير، لقد اضمحلت قدرة نيران العدو بمعدل ٦٠٪ بسبب نقص القنابل والذخيرة، كما أن قدرته على الحركة قد ضعفت بمعدل النصف بسبب افتقاره للطائرات والعربات والوقود».

وهكذا فإن جزءاً من اللوم فيما يتعلق بهزيمتنا في فييتنام يلقى على السوفييت لأنهم قدموا السلاح إلى هانوي، وفي ذلك خرق لاتفاقية السلام، مما وفر للشماليين ميزة كبيرة على الجنوبيين، خلال الهجوم النهائي في ربيع عام ١٩٧٥، ويمكن القاء جزء من اللوم على الرئيس تيو وجنرالاته، نظراً للأخطاء التكتيكية والاستراتيجية التي ارتكبوها، ومن غير الانصاف أبداً القاء اللوم على مقاتلي فييتنام الجنوبية، الذين قاتلت غالبيتهم ببسالة وبذكاء ضد أعداء يتفوقون عليهم تفوقاً كاسحاً، والجزء الرئيسي من اللوم يجب أن يلقى على كاهل أعضاء الكونغرس المسؤولين عن حرمانهم للرئيس، حرماني أنا أولاً، وحرمان الرئيس فورد من بعدي، من سلطة تطبيق اتفاقيات السلام ورفضهم تقديم المساعدات العسكرية التي كان الفييتناميون بحاجة إليها من أجل مواجهة هجوم فييتنام الشمالية بأسلحة متكافئة مع أسلحتها.

لقد كان الكونغرس إلى حد ما أسير الأحداث، حيث أن قادة الولايات المتحدة في السنوات الحاسمة إبان بداية ومنتصف الستينات كانوا قد أخفقوا في إيجاد استراتيجية من شأنها أن تؤدي إلى النصر، وبدلاً من ذلك قاموا أولاً بتفويض نظام حكم قوي، ثم بدأوا يدفعون بكل بساطة بالمزيد من القوات الأمريكية، والعتاد إلى فييتنام الجنوبية وبمسعى فعال لدعم وتوطيد أنظمة الحكم الأضعف التي أعقبته، لقد ضللوا الرأي العام بإصرارهم على أننا كنا نكسب الحرب، وبذلك فقد مهدوا الطريق إلى الهزيمة والديماغوجية فيما بعد، فلا ينتظر من الشعب الأمريكي أن يواصل تأييده، إلى وقت غير محدد، لحرب قيل له بأن نصرنا فيها قاب قوسين أو أدنى، في حين أنها استدعت المزيد من بذل الجهود ومضاعفتها، دون أية دلائل واضحة تشير إلى سيرها نحو الأحسن.

فباتباع الاستراتيجية التي بادرت بها عام ١٩٦٩، كان بإمكاننا نحن والفييتناميين الجنوبيين أن ننتصر عسكرياً في الحرب منذ توقيع اتفاقيات باريس في ٢٧ كانون الثاني عام ١٩٧٣، لقد كانت القوات الأمريكية التي كان عددها ٥٥٠٫٠٠٠، عند وصولي إلى كرسي الرئاسة، في فييتنام الجنوبية، إلى جانب القوات الفييتنامية قادرة على الدفاع عن نفسها، لو أننا قمنا بتقديم الأسلحة ضمن الحدود التي تنص عليها وتسمح بها اتفاقيات باريس.

أما بالنسبة للرأي العام فقد كان قد ضلّل بإجراءات الحكومة غير الحكيمة، حيث كانت المعلومات تصله مشوهة بسبب معالجة الأوساط الإعلامية للأحداث معالجة سطحية، مما أدى إلى إضعاف المعنويات داخل الولايات المتحدة تماماً في الوقت الذي كانت فيه فييتنام تمنى بهزيمة ساحقة على أرض المعركة. لقد حققنا نصراً بعد صراع طويل وقاسي، لكننا قمنا بعد ذلك

بالقائه بعيداً من أيدينا، ووضع الشيوعيون قبضتهم على ما أسماه المحلل الاستراتيجي بريان كروزيير بالنقطة المركزية للحرب الثورية «التي يتم كسبها أو خسارتها على الجبهة الداخلية»، وكانت مقدرة فييتنام الشمالية على القيام بالحرب قد تحطمت بفضل أعمال القصف في كانون الأول عام ١٩٧٢، وكانت لدينا الوسائل الكفيلة لتحقيق وتطبيق السلام والعادل والمشرّف، لكننا حرمنا من تلك الوسائل عندما منع الكونغرس قيام العمليات العسكرية في الهند الصينية أو حولها وخفّض بصورة جذرية المساعدة التي كانت تحتاج إليها فييتنام الجنوبية من أجل الدفاع عن نفسها، وخلاصة التحليل هو أن اللوم يجب أن يلقى بالدرجة الرئيسية على أولئك الذين شجعوا على أو ساهموا باتخاذ القرارات المصيرية، التي أودت بنا إلى دخول الحرب خلال الستينات، والذين قضوا بإجراءاتهم فيما بعد على مساعينا لخروجنا من تلك الحرب بطريقة مقبولة خلال السبعينات.

فبعدم قيامها بالعمل في اللحظة الحرجة، قضت الولايات المتحدة على حليف، وتخلت عنه تاركة إيّاه وقدره، وهكذا كان التأثير على الملايين من الكمبوديين، واللاوسيين والفييتناميين الجنوبيين، الذين كانوا يعتمدون علينا، ودفعوا الآن ثمن أعمال الشيوعيين الانتقامية، من السوء بما فيه الكفاية، لكن الثمن فيما يتعلق بإثارة الشكوك بين صفوف حلفائنا حول «الثقة» بأمريكا، وفيما يتعلق بالتشجيع الذي نقدمه لأعدائنا الأقوياء على قيامهم بالأعمال العدوانية ضد أصدقائنا في أجزاء أخرى من العالم سيكون منهكاً وبالغ الخطر على السياسة الأمريكية لعشرات السنين القادمة.

وكانت الأصداء التي نقلتها للعالم قد لخصت باقتضاب من قبل وزير اندونيسي كان قد حصل على شهادة الدكتوراه من إحدى الجامعات الأمريكية عندما صرّح للمحلل الدولي بيير رينفريت تماماً بعد سقوط فييتنام قائلاً: «انكم معشر الأمريكيين قد فقدتم أحشاءكم، فلقد ضاعت الفرصة من أيديكم في فييتنام، ورميتم خارج الحلبة، فلن يكون بمقدور حل مشكلتكم بالنسبة للطاقة، وسنجعلكم تدفعون وتدفعون من أجل النفط، وستدفعون، أجل لقد فقد تم أحشاءكم وكانت فييتنام بالنسبة لكم كما كانت واترلو بالنسبة لنابليون»، وبالنسبة للسوفييت فقد أصبح الانفراج في أفغانستان وأثيوبيا وأنغولا طريقاً، ذات اتجاه واحد.

وخلاصة القول تقرّرت نتائج المعركة العنيفة في نهاية الصراع، الذي استمر لمدة خمسة وعشرين عاماً لصالح الشيوعيين لأنه عندما جد الجد وقف الاتحاد السوفييتي إلى جانب حلفائه، فيما أخفقت الولايات المتحدة أن تفعل ذلك وكما أعلنت عام ١٩٧٢ بأن «كل القوة المتوفرة في الولايات المتحدة لا تعني شيئاً، ما لم يكن هناك نوع من التأكيد، ونوع من الثقة، ونوع من الأمانة بأن الولايات المتحدة ستكون محطاً للثقة، ويمكن الاعتماد عليها».

وإحدى التكاليف المخفية لتخلينا عن فييتنام الجنوبية، قد يكون انتشار الأسلحة النووية لدى البلدان الصغيرة التي تواجه قوات معادية قوية، والتي اعتادت أن تثق بضمانة الولايات المتحدة،

ولم تعد تفعل ولعل أولئك الذين احتجوا ضد قضية فييتنام تحاشياً للحرب النووية، قد ساهموا بجعل مثل هذه الحرب أوشك وقوعاً.

لقد كانت عواقب الهزيمة الأمريكية في الهند الصينية مأساوية وعميقة، صحيح أن الولايات المتحدة قد خرجت من الحرب، لكن أعمال القتل لم تتوقف وقد تزايدت في كمبوديا، واتخذت صفة الجماعية عندما شن نظام حكم بول بوت أشنع حرب وحشية وأكثر حمامات الدم فظاعة في التاريخ الحديث.

وجاء تقدير عدد الموتى مذهلاً للعقل، ويفوق كل تصوّر، فضلاً عن الأعمال الوحشية التي ارتكبت بحق جماهير الشعب، حيث أفاد اللاجئون بأن «خطيئة كسرقة قرن موز قد تكلف الإنسان الإعدام الفوري»، وأفادت تقارير أخرى بأن الخمير الحمر قد أفردوا مدة يومين، مرة واحدة أو مرتين في العام، «كفترة زواج»، وخلال تلك المدة فقط كان يسمح للرجال والنساء أن يتحدثوا لبعضهم، «فيما عدا الحديث عن تطوير البلاد»، ويقول أحد اللاجئين: «بالنسبة لأولئك الذين خرقوا هذا النظام عرفت بأمر حوالي عشرين شاباً وشابة نفذ فيهم الاعدام لمجرد العثور عليهم يتغازلون» وأصبح التذمر من أجل الطعام أيضاً جريمة رأسمالية كبرى في العالم الجريء الجديد، الذي يقوم الخمير الحمر ببنائه، ذلك العالم الذي كانوا يتبجحون به عندما يقولون: «ستكون شيوعيتنا أفضل مما هي عليه في روسيا، أو الصين، حيث لا تزال هناك فيها طبقات...» وقد جاء على لسان أحد اللاجئين في سياق المزاح ذكره لحادثة شخص أعدم، لأنه كان «مفرطاً في طبعه المرح»، وفي بعض المجادلات أعلن بأن مسك الأيدي جريمة رأسمالية كبرى.

وفي عام ١٩٧٩ حلت بكمبوديا موجات جديدة من المآسي حيث كانت الأعمال التكتيكية التي قام بها بول بوت قد حولت الأرض حجيماً لاهباً، وسياسة المجاعة التي اتبعتها فييتنام الشمالية، قد جعلت الشعب الكمبودي يعيش وسط يم من الرعب، ووقف العالم مذعوراً أمام قيام العصابات الشيوعية بتمزيق ما تبقى من البلاد إرباً إرباً، ويقدر البعض بأن نصف سكان كمبوديا قد زالوا من الوجود.

وفي فييتنام الجنوبية كان الشيوعيون أكثر مهارة بطرقهم التي استخدموها، لكنهم تحركوا دون توقف للقضاء على النظام القديم، واستبداله بنظامهم الخاص، وإن الآلاف من الشعب الفقير الهائم على وجهه في البحر تذكرنا بشكل فاضح برهب الحياة في ظل النظام الجديد، سيما وأن أكثر التقديرات تشير إلى أن ربع عدد اللاجئين، وربما أكثر قد ماتوا غرقاً قبل وصولهم إلى الشاطئ.

ففي حزيران عام ١٩٧٩، أعلن سفيرنا في الأمم المتحدة آندرويونغ، بينما كان يتحدث في بون بألمانيا الغربية أنه «لا معنى لمحاولة إدانة أي كان والقاء اللوم عليه» بالنسبة للفظائع والأعمال الشنيعة التي ارتكبتها الحكومات الجديدة في جنوب شرقي آسيا، واستطرد يقول مبيناً بأن تلك الفظائع قد تعزي «بشكل أوتوماتيكي» للتدخل الأمريكي في فييتنام، وفي ذلك سفسقة حاقدة،

والأسوأ من ذلك هي أنها سفسفة ذاتية الخدمة، فإن العديد ممن يرغبون في أن يغمضوا أعينهم عن الرعب الذي يسود جنوب شرقي آسيا اليوم يرغبون أيضاً في إغماض عيني أي انسان آخر عن تهديدهم للجهود الأمريكية التي بذلت هناك، وعن التأثيرات المريعة التي تنجم عن ذلك التهديم، لكن ذلك كالدم على أيدي الليدي ماكبيث (السيدة ماكبيث بطلة إحدى مسرحيات شكسبير التراجيدية) سيبقى لطخة دائمة.

لقد أدى اخفاق الولايات المتحدة في الوفاء بالتزاماتها نحو فييتنام الجنوبية إلى مآسٍ وطنية، بما أن بلدان الهند الصنية قد غارت في محرقة حديثة، بيد أن التأثيرات على طبقة القيادة في الولايات المتحدة قد يجعل خسارة الحرب في فييتنام مأساة دولية أكبر حجماً، ويعتقد البعض بأن «دروس» فييتنام هي من الخطر بمكان على الولايات المتحدة الأمريكية أن تكون لديها القوة، لأننا قد نستعملها بشكل خاطئ، وعلينا أن تنجب الوقوع في مشاكل أخرى كمشكلة فييتنام في المستقبل، وذلك بعدم تورّطنا بالتدخل عندما تهدد البلدان الصغيرة، حتى ولو كانت بلداناً صديقة أو حليفة، بخطر العدوان الشيوعي، والولايات المتحدة على «الجانب الخاطئ» من التاريخ بمعارضتها للقوى الثورية الشيوعية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، ومن المستحيل كسب الحرب ضد العصابات التي تدعمها الشيوعية، فعلينا أن نهتم بأنفسنا ونترك مسؤولية قيادة العالم الحر للآخرين.

فتلك الدروس دروس خاطئة وإذا ما عملت بها طبقة القيادة عندنا سيتدهور الغرب على الطريق، وسيكون مصيره الدمار وتخلط هذه الدروس بين سوء استخدام القوة، وبين استخدامها بذكاء.

منذ اخفاقنا في فييتنام والأمريكيون يشعرون بالعار، بغير حق، حول استخدام القوة، وذلك مالا يشاركنا السوفييت وأتباعهم الموالين لهم إياه، لقد التزمنا بالوقوف جانباً، وسمحنا للسوفييت يمضون بدون معارضة إلى أنغولا وأثيوبيا وأفغانستان والخليج العربي، ولم يغوصوا في مستنقع، ولسوء حظنا فهم ممارسون ذوو خبرة في فن الحرب، وقاموا باستخدام قوتهم بمهارة، وما لم تنفض الولايات المتحدة غبار الدرس الخاطئ في فييتنام، وتنساه، وتضع «تناذر فييتنام» وراء الظهر فإننا سنراهن بخسارة على أمن حلفائنا وأمننا نحن بالذات، هذا هو الدرس الحقيقي لقضية فييتنام، أي أنه لا يعني وجوب تخلينا عن القوة بل إن لم تتعلم استخدامها بشكل فعال للدفاع عن مصالحنا فإن صفحات التاريخ ستدار ضدنا وضد كل ما نؤمن به.

ولم يكن تكديس المزيد من الأسلحة النووية في ترسانتنا لينقذ فييتنام، كما أن المزيد من القوة التقليدية الأمريكية لم يكن لينقذ فييتنام، لأن فييتنام لم تضع بسبب نقص في القوة، وإنما بسبب العجز في توفير المهارة والتصميم على استخدام القوة، وقد أدت الاخفاقات التي تركزت في أكثر من مجال إلى زعزعة ثقة الرأي العام، وقادت إلى ضعف إرادتنا الوطنية، ففي نهاية الأمر

ضعف مركز رئاسة الجمهورية بسبب القيود التي وضعها الكونغرس على رئيس الجمهورية فيما يتعلق بصلاحياته المتعلقة بإدارة الحرب، وكذلك بالآثار الموهنة التي خلقتها قضية ووترغيت.

فقد سبق للفييتناميين الجنوبيين أن أعلنوا في عام ١٩٧٢ عن قراراتهم الفعالة على ايقاف الغزو في البر، إذ ما سلحّوا بشكل وافٍ، وقدم لهم الدعم الجوي، فالحروب الثورية لا يمكن خوضها وكسبها بواسطة جيوش أجنبية، ولكن إذا ما سلح أولئك المهددون في بلد من قبل العصابات تسليحاً كافياً، ودربوا، وزودوا بالإمدادات فبوسعهم مواجهة هجوم العصابات والحاق الهزيمة بها، شريطة أن يكون قتالهم من أجل نيل استقلالهم وحريتهم، فبموجب مبدأ نكسون كان يتوجب علينا أن نساعد أولئك الذين كانوا يقاتلون دفاعاً عن استقلالهم، طالما أن الاتحاد السوفييتي كان يفعل ذلك، لأولئك الذين كانوا يحاولون القضاء على ذلك الاستقلال.

ولم تثبت حرب فيتنام بأن الحرب ضد العصابات لا يمكن كسبها، أو أن القوات «الثورية» لا يمكن قهرها، إن الأمر على عكس ذلك تماماً: لقد ربحنا من جانبنا حرب العصابات وكانت فييتنام تحقق كسباً للحرب التقليدية إلى أن قامت الولايات المتحدة بسحب البساط من تحت أقدام حليفتها بقطع المساعدات عنها بصورة جذرية، ووقف امدادهم في حين قام السوفييت بصب كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة إلى ترسانات حليفتهم، وعندما حدث ذلك سقطت فييتنام في النهاية أمام النوع ذاته من الهجوم التقليدي الواسع النطاق، الذي كنا قد صددناه في كوريا.

وكما بيّن وليم كولبي بقوله: «إن الشيوعيين قد بدأوا بالحرب ضد دييم في أواخر الخمسينات، بتناظر يدعو للسخرية، كحرب شعبية وقام الأمريكيون والفييتناميون في البداية بالرد عليها كحرب عسكرية تقليدية، وفي النهاية كانت حكومة تيو تخوض حرباً شعبية ناجحة، لكنها خسرت أمام الهجوم العسكري، ولم تطأ أرض القصر الجمهوري في سايغون قدم رجل من رجال العصابات بل احتل من قبل دبابة فييتنامية شمالية مزودة بمدفع ضخم».

فالحرب الثورية ستظل فن السوفييت، لكنهم الآن والسبب في ذلك جزئياً نتيجة لحرب فييتنام. تجرأوا على استخدام وسائل أكبر وأكثر مباشرة أيضاً.

لقد بدأ السوفييت في فييتنام بتقديم المواد للعصابات الشيوعية، ثم تدرجوا فيما بعد حتى وصلوا إلى تقديم الأسلحة بكميات كبيرة للغزو الفييتنامي الشمالي التقليدي إلى الجنوب، وقاموا بعدئذ، عام ١٩٧٥، بعد أن نجحوا في جنوب شرقي آسيا بتصعيد عدوانهم بنقل قوات كوبية موالية كوكيل عنهم، عبر المحيط الأطلسي، لتنفيذ احتلال أنغولا، وارتقوا عشية عيد الميلاد عام ١٩٧٩ بتصعيد عدوانهم إلى مستوى جديد وذلك بإرسالهم للجيش الأحمر ذاته إلى أفغانستان «بوابة مصير آسيا»، من أجل القضاء على تمرد ضد الحكومة الشيوعية التي كانت قد فرضت فرضاً بإنقلاب عسكري قبل أقل من عامين، والخطوة المنطقية السوفييتية القادمة هي استخدام الجيش الأحمر ضد صديق أو حليف للغرب.

ويبدو بأن هانوي مصممة، كما كانت عليه أبداً، على تحقيق مطامحها التي أعلنتها منذ زمن طويل، والرامية ليس لاحتلال فييتنام الجنوبية فقط، وإنما الهند الصينية بكاملها، ففي كمبوديا يقوم الفييتناميون بالتشديد على ما يمكن أن يكون الهجوم الأخير ضد الكمبوديين الذين يعارضونهم، وقاموا في لاوس بالقاء الغازات السامة على رجال القبائل المعارضين لنظام حكمهم والمعتصمين في الجبال، وبدأت تايلند تشعر بحرارة الأطماع السوفييتية، وإن الكوادر الحربية في فييتنام الشمالية تفوق عدد قواتها المسلحة البالغ عددها /٢١٦٠٠٠/ بنسبة ٥ إلى ١، وجدير بالإشارة في هذا الصدد إلى أن حجم القوات الفييتنامية الشمالية المسلحة يقارب حجم قوات الهند . ثاني أكبر بلد في العالم من حيث عدد سكانها، وإن هذا البلد المتوسط الحجم يحتل المرتبة الخامسة في العالم من حيث ضخامة قواته المسلحة التي يبلغ حجمها نصف حجم القوات الأمريكية، فإذا ما أتموا احتلالهم للهند الصينية، وقرروا التحرك إلى ما تبقى من جنوب شرقي آسيا ستدعو الحاجة إلى جهود هائلة لايقافهم.

ولو أن الولايات المتحدة كانت قد ثابرت على المضي في الطريق، واتخذت الإجراءات اللازمة لضمان التقيد باتفاقية السلام التي عقدت في ٢٣ كانون الثاني عام ١٩٧٣، لما وجد السوفييت إغراء في التدخل ومتابعة أعمالهم العدوانية في أجزاء أخرى من العالم، ولكان أصدقاؤنا وحلفاؤنا أقل شكوكاً حول صدق الإرادة الأمريكية، وكذلك حول فاعلية القوة الأمريكية، والنقطة الأهم في الموضوع بل الأكثر أهمية هي أن بوسع الشعب الأمريكي أن ينظر إلى الوراء لعشرة أعوام من التضحية بالرجال والأموال دفعها في فييتنام بفخر واعزاز، بدلاً من أن يدفعها بالاعتذار والخيبة مما أدى بالكثيرين للقول، حتى حيث تكون المصالح الأمريكية الحيوية معنية، «لا تفعلوا شيئاً . لا نريد فييتنامات أخرى».



الفصل السادس

العملاق المستيقظ

ترى الصين؟ هناك يرقد عملاق، دعوه يغط في ثباته لأنه إذا ما استيقظ سيحرك العالم.

نابليون

اطلب الصدق من الحقائق

دينغ اكسيابونغ

إن الصين قيد الاستيقاظ من نومها الآن، وقد تحرك العالم عما قريب.

كانت الصين منذ الأزل قد دوخت خيال الإنسان الغربي بغرابتها وغموضها، وسحر جمالها، حتى أن المتنبيء توكويفيل الذي تكهن قبل مئة وخمسين عاماً بأن الولايات المتحدة وروسيا ستبرزان كقوتين عظيمتين تتنافسان على العالم، لم يستطع التنبؤ بأن الذي سيتمكن بشكل أساسي من تقرير مصير ميزان القوة في العالم خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، والذي يمكن أن يصبح أقوى بلد على وجه الكرة الأرضية خلال القرن الحادي والعشرين، سيكون الصين.

فالصين بلد لا حدود لإمكانياته تقريباً، وإنه قد بدأ الآن يتحقق من هذه الإمكانيات، والقرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والعشرين قائمة جميعاً جنباً إلى جنب في الصين، ففلاحوها ما زالوا يحدودبون فوق حقول الأرز كما كانوا يفعلون منذ قرون من الزمن، يزرعون البتيلات واحدة واحدة باليد، وهم يمشون حفاة الأقدام على الطرق المغبرة حاملين رزم القضبان الخشبية على اكتافهم، وسلال غلتهم مدلاة من القضبان، وإن الكثيرين منهم يعيشون في أكواخ موحلة، وفي المدن الرئيسية تتقاسم السيارات والشاحنات والشوارع مع العربات الصدئة، التي تجرها الخيول، ومع مقطورات الجرارات الزراعية، ومقطورات الدراجات، وكذلك مع جماهير من المارة، وأسراب من الدراجات، ومع ضخامة عدد سكانها، ما زالت الصين تتمع بقوة عسكرية محدودة، وزراعة بدائية، واقتصاد إلى حد كبير ما قبل صناعي، بيد أنها تمتلك مصادر طبيعية هائلة، وشعب يعد واحداً من أقدر شعوب العالم، والذي يبلغ عدده ربع عدد سكان العالم الأحياء اليوم، وقد تنطلق خلال القرن الحادي والعشرين، لتصبح أقوى قوة على وجه البسيطة وأكثرها تقدماً اقتصادياً، اللهم إذا أتمت بنجاح تحولها إلى العالم الحديث، وإذا واصلت ابتعادها عن النظريات الاقتصادية الشيوعية العقائدية.

وأياً يكن الطريق الذي تتبعه الصين، من الطرق الممكنة لها، فقد تحدد في نهاية الأمر ما إذا كان الغرب سيحافظ على بقائه.

وحتى يتوصل الإنسان لمعرفة الصين يستغرق زمناً أطول من عمره، وجل ما يمكن له أن يأمل به هو بعض جوانب الخبرة الصينية، وكلما تعمّق في سبر أغوار تلك الخبرة، كلما اتضح له بأن

أسرارها لا متناهية، وقد كتب تيلهارد شارون ذات مرة يقول: «لو كتبت عن الصين قبل أن تصل إليها بوقت طويل لا بد لك أن تكسر قلمك في النهاية».

وعلى أية حال إذا لم نستطع أبداً أن نعرف كل شيء عن الصين، قد نستطيع أن نتعلم شيئاً عنها . لا سيما ما يمكن أن نتوقعه بشكل منطقي على طريقة السلوك الصيني، وقادة الصين الحاليين رجال دولة أصحاب حس مرهف بالعالم، ويفكرون على أسس عالمية، إنهم شيوعيون أيضاً، وإنهم صينيون في نفس الوقت، لكنهم أصبحوا، منذ موت ماوتسي تونغ يبدون أقل شيوعيين، وأكثر صينيين، وأقل أسرى للايديولوجية، وأكثر ذرائعية، وأقل ثورية، وأكثر تعلقاً بالتقاليد.

لقد قمت بزيارة الصين ثلاث مرات: في عام ١٩٧٢ و١٩٧٦ و١٩٧٩. ففي أثناء الزيارة الأولى عام ١٩٧٢ كان ماوتسي وشوئن لاي، وأثناء الزيارة الثانية عام ١٩٧٦ كان شوئن لاي قد فارق الحياة، وماوتسي تونغ وهوا جويفنغ على رأس السلطة، وأثناء الزيارة الأخيرة عام ١٩٧٩ كان ماو أيضاً قد فارق الحياة وكان هوا ودينغ اكسيا بونغ يتقاسمان السلطة.

وكما تبدل الزعماء في الصين، كذلك تبدلت السياسة . ولم يعرف بعد فيما إذا كان هذا التبدل ذا صفة مؤقتة أو دائمة، حتى أنه يمكن القول بأن الكلمة الرئيسية بالنسبة لمراقبي وضع الصين هي «التغيير»: فالصين سائرة في طريق التغيير، وإن التغييرات في الصين، إذا ما استمرت، قد تغير العالم تغييراً عميقاً.

وكما هي الحال بالنسبة لروسيا، إذ لا يمكننا أن نأمل بفهم صين اليوم، إلا إذا ما عرفنا شيئاً عن ماضيها، سيما وأن للتغيرات التي تحدث اليوم جذور في الماضي، وإنها في بعض جوانبها عودة إلى العرف والتقاليد، وأكثر من معظم البلدان، تمتاز الصين بأنها من نتاج ماضيها، وتاريخها تاريخ فريد من نوعه، فثمة أمم أخرى تأتي وتروح، وإمبراطوريات أخرى ترتفع وتسقط، لكن الصين ظلت تتحمل، وهي باقية إلى الأبد.

وتمتد حضارة الصين أربعة آلاف سنة إلى الوراء، أي أنها أقدم حضارة مستمرة في العالم، فبينما نشأت الإمبراطورية الأفريقية والرومانية وسقطتا، استمرت حضارة الصين، وبينما كانت أوروبا منغمسة في دياجير ظلمة العصور الوسطى، كانت المعرفة والعلوم والفلسفة الصينية تترعرع وتتنامى دون انقطاع، والصين هي المنطقة الواسعة الوحيدة في العالم التي لم تخضع في عمرها للحكم الغربي، بينما نجد حتى أن اليابان التي لم تفقد استقلالها أبداً قد خضعت للجنرال ماك آرثر في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، ولقد تعرضت الصين لغزوات متكررة، لكنها كانت تمتص الغزاة كل مرة، وتتغلب عليهم في النهاية، وقد خلق هذا الأمر على مر القرون ضرباً من الرواقية لقد قال لي هوا جويفنغ عام ١٩٧٦: «دع الروس يدخلون فقد يقطعون طريقاً طويلة، لكنهم لن يخرجوا أبداً».

ويتميز ماضي الصين بأكثر من الامتداد وطول العمر والقدرة على المقاومة والثقافة، فمن الناحية التاريخية كان الصينيون ينظرون إلى الصين على أنها «المملكة الوسطى» أي بمثابة مركز

للعالم، والإمبراطورية السماوية «كلها تحت السماء»، فهناك أمم كانت موجودة، لكنها كانت بربرية، ولا آثار لها، أما الصينيون فقد كانوا على علم بالحضارات الأخرى لكنها كانت قاصية لكي ينظر إليها كتهديدات، وحضارات بديلة، فبالنسبة للصينيين لم تكن حضارتهم حضارة بل كانت «الحضارة»، وفي عام ١٧٩٣ رفض الإمبراطور كيان لونغ بعثة تجارية بريطانية، عندما كتب للملك جورج الثالث يقول: «إن الإمبراطورية التي تحكم البحار الأربعة لا تقيم وزناً للأشياء النادرة والثمينة، فلم نقم وزناً بعمرنا للأدوات الدقيقة الصنع، ولسنا بأقل حاجة لمصنوعات بلادكم»، وظلت الخرائط الصينية حتى القرن التاسع عشر تبين الصين الفسيحة في وسط العالم مع وجود جزائر صغيرة مبعثرة ـ تحمل أسماء مثل فرنسا وانكلترا وأميركا ـ حولها في البحر.

وقد دامت الإمبراطورية الصينية أكثر من ألفي عام منذ تأسيسها عام ٢٢١ قبل الميلاد حتى الإطاحة بها في مطلع القرن العشرين، وقد مرت أيام كانت فيها أكبر إمبراطورية في العالم، ومع كل ذلك لم تمتد خارج الصين باستثناء بعض نقاط الحدود، ولم يكن للإمبراطورية مراكز متقدمة فيما وراء البحار، فالأغريق والرومان وآخرون من بناة الإمبراطوريات في الغرب كانوا ينطلقون في البحث عن عوالم يحتلونها، بينما كان أباطره الصين يحكمون «العالم»، وكانت غايتهم الأساسية إبقاء البرابرة خارجاً، وفي عهدنا الحاضر أقام الروس جدار برلين لإبقاء المواطنين داخله، بينما حافظ الصينيون على السور الكبير لمدة تنوف على ألفي عام بغية ابقاء الغزاة خارجه، ولا يتوفر هطول المطر خارج السور بما يكفي للزراعة، أما داخله فالمطر متوفر لتلبية متطلبات الزراعة، وفي الشمال كانت تطوفه على الدوام قبائل بدوية، حيث كانت قد طوّرت المهارات في ركوب الخيل والقيام بالاغارات والأعمال الحربية، أما في الجنوب فقد أنشئت مدن وحضارات غنية، وفيما عدا المئة وخمسين سنة الأخيرة من تاريخ الصين كان الخطر الذي واجهته الحضارة الصينية يأتي من الشمال، من قبائل بربرية رحّل كانت تقوم من حين لآخر باجتياح الجنوب لاحتلاله، وكسب الغنائم، فإذا ما نظر الصينيون اليوم إلى «البرابرة» الذين عادوا إلى تهديدهم من الشمال، فإن المشهد يهيج في نفوسهم الذكريات الوطنية العميقة الجذور بحيث يجعلهم في تحفّز دائم.

وبالنسبة للصين فإن القرنين التاسع عشر والعشرين يمثلان فترة زمنية من الصدامات الهدامة مع العالم الخارجي، والتغيير الهدام داخل الصين ذاتها.

ومن وجهة نظر الصين فإن احتكاكها بالغرب إلى جانب الكثير من احتكاكاتها الأخيرة به، كانت مذلة، وتنطوي على الخطر، وحملتها فقط على تشديد عدائها ضد «الشياطين الأجانب»، وتقوية حسها بالتفوق الثقافي، ولقد أمها بعض الغربيين من أجل استعمارها، وأمها آخرون لتحويلها، لكن أغلبهم أتو ليستغلوها، ولم تكن أكبر المضايقات والضغوط النفسية اقتصادية أو سياسية وإنما اهانة كرامة الشعب الصيني، فقد سألت خلال أول زيارة لي لهونغ كونغ رجل أعمال صيني ناجح جداً، وموال للبريطانيين كيف سيصوت شعب هونغ كونغ إذا ما ترك له الخيار بين الاستقلال والبقاء كمستعمرة بريطانية، فأجابني برغم حقيقة أن الشعب الصيني الذي يعيش في هونغ كونغ

هو أفضل من حيث وضعه الاقتصادي من أولئك الذين يعيشون في ظل أنظمة حكم مستقلة في أماكن أخرى غير شيوعية في آسيا، فإن ٩٥٪ قد يصوتون لصالح الاستقلال، وسألته عن السبب فقال بأن البريطانيين بكل تأكيد كانوا أكثر المستعمرين الأوربيين تقدمية، ومحطاً للإحترام، لكن ثمة قول شائع كان يتردد بين صفوف أبناء الشعب الصيني في سائر أنحاء آسيا، وهو أن البريطانيين عندما كانوا ينشئون مستعمرة كانوا يعمدون إلى بناء ثلاثة مؤسسات حسب الترتيب الآتي: أولاً بناء كنيسة وخطاً عنصرياً، ثم نادٍ يحظر على الشرقيين الانتساب اليه، وفي عام ١٩٧٢ بينما كان يرافقني إلى المطار رئيس الحزب الشيوعي المتصلب في شانغهاي، دلني مشيراً بكل فخر إلى ملعب ظاهر للأطفال وقال لي بكل هدوء بأن ذلك الملعب قد كان فيما مضى ملعباً للجولف، وإن الإشارة التي كتبت على مدخله كانت تقول: «دخول الكلاب أو الصينين محظور»، وكان ذلك كل ما قاله، ولم تكن ثمة حاجة تقال، وخلال رحلتي الأخيرة عام ١٩٧٩ كرر لي مضيفي في ثالث أكبر مدينة صينية التنويه عن المشافي والمدارس والمباني الأخرى، التي كانت في يوم من الأيام «جزءاً» من «الامتياز» البريطاني، أو الألماني أو الفرنسي أو الهولندي، أو الدول الأوروبية الأخرى، الذي كان يسمح للصينين بالدخول اليه فقط عندما يدعون من قبل الأوربيين فبالنسبة للصينين، بكبريائهم الشامخة، تعتبر صغائر الأمور هذه، أخطاء لا تغتفر، ولا يمكن الصفح عنها.

إن قراء الرواية الأمريكية يربطون الصين «بتجارة الأفيون» وربما يتصورون بأن المخدرات التي أدمن عليها مؤخراً الكثير من الشباب الأمريكيين قد أدخلت من هناك بشكل ماكر، وعندما يسمع بأن حربين قد دارت بين بريطانيا والصين وهما معروفتان «بحروب الأفيون» في منتصف القرن التاسع عشر قد يفترض الأمريكي اليوم بأن بريطانيا كانت على حق في مساعيها، وأنها فعلت ذلك للقضاء على تجارة الأفيون، والحقيقة هي أن الأفيون قد فرض على الصين عنوة من قبل التجار البريطانيين، ورغم المعارضة الصينية الشديدة، وكان الصينيون منعوا استيراده واستخدامه، وقد مضت بريطانيا إلى الحرب ضد الصين بصورة جزئية، من أجل إرغام الصينيين على قبول استمرار بيع الأفيون، وكانت حروب الأفيون أيضاً بمثابة مقدمات لإجبار الصين على الانفتاح على التجارة الخارجية، والاستغلال، ولوضع الأيدي على امتيازات تجارية خاصة، وامتيازات أخرى من الصين، ففي حرب الأفيون الأولى استولت بريطانيا على هونغ كونغ، وضمنت توقيع «معاهدة ذات خمسة بنود»، كما كسبت حقوق إقليمية إضافية لمواطنيها في الصين، وفي حرب الأفيون الثانية تمكنت بريطانيا وفرنسا مجتمعتين من اجبار الصين على المزيد من الانفتاح على التجارة الخارجية، كما حققتا المزيد من الامتيازات الخاصة للمواطنين الغربيين وتبع هذه الإهانات مزيداً من السيطرة الإقليمية، وتأسيس «مناطق نفوذ» أجنبية في الصين بانضمام روسيا واليابان إلى الدول الغربية في زحفها.

وانقسم الصينيون بمرارة فيما بينهم حول كيفية الرد على تغلغل الغربيين، وفيما إذا كانوا سيعودون إلى العزلة الصينية أم يصلون إلى التكنولوجيا الغربية، بأمل كسب القوة الكافية لصد

الأجانب، لكن حتى أن أولئك الذين طالبوا بتبني التكنولوجيا الغربية، رأوا بأن الطرق الغربية ذات تأثير مفسد لا يمكن استقباله، وقلما أضعف حقيقة قدوم الغربيين بقوة نيران أشد سعيراً، مكنتهم من فرض ارادتهم على الصين، من النزعة الصينية نحوهم، والنظر إليهم كبرابرة وشياطين، وقد جاء في شجب لأعمال البريطانيين عام ١٨٤١: «نعلم بأنكم أيها البرابرة الانكليز قد حملتم معكم وطورتم عادات وطباع الذئاب، واستوليتم على الأمور بالقوة، وفيما عدا سفنكم القاسية ونيران بنادقكم الوحشية وصواريخكم القوية، ما هي قداراتكم الأخرى؟».

وتفجر الحقد على الأجنبي بصورة دراماتيكية في نهاية القرن بعصيان الملاكمين، «فالملاكمون» كانوا رجال مجموعة أطلقوا على أنفسهم أسم «قبضات الانسجام المحق»، وأعلنوا عن سخطهم المرير على تدخّل الغربيين بالعادات الصينية التقليدية، ولقد نظروا إلى الأجانب كمدنسين انتهكوا حرمة الأماكن المقدسة وأعتقد الكثيرون منهم بأن المباني الشاهقة قد شيدت من قبل «شياطين أجانب»، حيث إذا ارتطمت فيها الأروح الخيرة التي تطير على ارتفاع منخفض بقضي عليها، وكانوا على يقين بأن المياه الصدئة التي كانت تنساب عن السكك الحديدية، وخطوط البرق، عندما تمطر السماء، ليست سوى دماء الأرواح الخيرة، التي كانت تموت عليها، وهكذا تجمع في نفوسهم الشعور الديني الوقاد، وكره الأجانب، ولم تكتف عصابات الملاكمين بالقيام بأعمال الحرق والسلب، بل قامت بقتل الصينين الذين غيروا ديانتهم واعتنقوا المسيحية، وفي عام ١٩٠٠ تحركوا إلى بكين، وقتلوا الوزراء اليابان والألمان وحاصروا البعثات الأجنبية، وتحركت القوى الغربية بقوة ساحقة فقضت على التمرد وحصلت على مزيد من التنازلات وكذلك على تعويضات من الصينين كعقاب لهم.

وفي عام ١٩١١ كانت الصين قد نضجت من أجل الثورة، لأنها كانت بحاجة للثورة، سيما وقد حلّ بها الويل لمدة طويلة، بعد أن عاثت فيها فساداً الحكومات التي لم تتمكن من السيطرة على الأعمال الوحشية التي كان يرتكبها سادة الحرب المحليين ولا مقاومة تعسّف الأجانب واستغلالهم لها، وبعد سنوات من الكفاح تمكنت القوى الثورية من الانتصار في النهاية بقيادة الدكتور سون يات سين، وهو طبيب وكان قد تلقى دراسته الأولى في هاواي، وأطيح بالإمبراطورية التي كان حكمها قد دام أكثر من ألفي عام، لكن النصر الذي حققته الثورة قد سار إلى فترة جديدة من الغوغائية، وعاشت الصين طوال القرن العشرين في خضم من الاضطراب، فقد كان لثوار عام ١٩١١ أنفسهم أهداف متضاربة ومتباعدة، ومزقت الحكومة الجديدة من قبل المتنافسين، ولم تكن قادرة على بسط سلطتها في مختلف أنحاء الصين، وبعد وفاة سون يات سين عام ١٩٢٥، تحاربت الفئة التي كان يتزعمها شيانغ كاي شيك مع الفئة التي كان يتزعمها ماوتسي تونغ، ودارت معارك فيما بينها إلى أن تمكن ماوتسي تونغ من تحقيق السيطرة النهائية على البلاد في عام ١٩٤٩، وفي الوقت ذاته خاضت الصين حرب أنصار مع اليابان، وعانت وذاقت الأمرين في ظل الغزو الياباني، ومنذ عام ١٩٤٩ أيضاً حاربت الصين الولايات المتحدة في كوريا، وحاربت الهند، وتورّطت في أعمال حربية،

بشأن الحدود، مع الاتحاد السوفييتي، وقبل فترة قريبة جداً قاتلت الدولة التي كانت ربيبتها سابقاً وهي فيتنام، وأهم من ذلك كله هو أن الصين خلال الجزء الأعظم من القرن كانت الصين تحارب الصين، وأعقب الحرب الأهلية الطويلة الأمد اضطرب إثر آخر، حيث قام ماو بتطهير فئة بعد أخرى، وقام بالزحف المقدس وأعلن الثورة الثقافية «بتنقية» الحزب بالقضاء على المجموعة تلو الأخرى، ولاقى الملايين من الصينين حتفهم أثناء عملية التنقية.

لقد ترك اغتصاب القوى الغربية للصين في القرن التاسع عشر أثراً لا يحمى، وكذلك فعلت الصراعات في القرن العشرين.

إن الحرب الأهلية، كالمشاجرات العائلية، من أشد أنواع القتال مرارة، ومع ذلك فمثلها أيضاً مثل المشاجرات العائلية لأنها تتمخض عن اجتماع مؤكد للضدين، فالصينيون على طرفي الصراع الطويل قد ظلوا صينيين، وبالاعتزاز ذاته بالصين، والمشاعر ذاتها بالقومية الصينية، وكذلك باقتسام الإرث ذاته، وكان كل من شيانغ وماو قد خدما في ظل حكم سون يات، حيث أن زوجة شيانغ شقيقة زوجة سون، وقد بقيت في الصين الكبرى، وتظل انسانة تتمتع بقدر كبير من الوقار في الصين، ففي العشرينات كان شيانغ قائداً، وزهاو مديراً سياسياً للأكاديمية العسكرية في وامبوى، ولقد تبين لي من خلال حديثي إلى القادة الصينيين بأنهم يتمتعون بأحاسيس ممزوجة بالفضولية إزاء شيانغ، فهم يكرهونه كشيوعيين، لكنهم كصينيين يكنون له احتراماً كبيراً لدرجة الأعجاب به، وفي أول مقابلة لي مع ماو عام ١٩٧٢ قال لي وهو يشير بيده على طولها: «إن صديقنا القديم الجنرال شيانغ كاي شيك لا يوافق على هذا»، وأضاف يقول: «انه يسمينا لصوصاً شيوعيين» وسألت ماذا يسمى شيانغ كاي شيك، فضحك ماو، وأجاب زهاو: «بشكل عام» إننا نسميهم طغمة شيانغ كاي شيك، وفي المؤتمرات الصحفية أحياناً نسميه لصاً، وهو بدوره يسمينا لصوصاً، وعلى أية حال نحن نتعدى عليه، وهو يتعدى علينا، وأضاف ماو قائلاً: «في الحقيقة إن تاريخ صداقتنا معه أطول من تاريخ صداقتكم معه».

وإن القيادة هي التي جعلت القادة الصينيين يتصفون بالخشونة وينساقون بدوافع غالباً ما أودت بهم إلى هاوية التعصب، ولا غرو في ذلك، فإذا وضعنا الحكم على القيم جانباً، نجد أن عظمة المهمة التي اختطوها لأنفسهم، كانت تتطلب الخشونة والاندفاع؛ فقد كان ماو أحياناً يشبّه نفسه بالإمبراطور قن قن شيهوا نغدي الذي كان قد وحد دويلات الصين المشتته ضمن إمبراطورية واحدة في العام ٢٢١ قبل الميلاد، وحتى بمقاييس تاريخ الصين، التي كما أوضحها العالم و. أدمون كلوب: «لا تستسلم لأحد بإراقة الدماء» فإن مذبحة قن البشعة تبقى مجرد اسطورة تروى للعبرة وهي تحكي بأنه ذات مرة عندما استسلم لهم جيش قوامه ٤٠٠٫٠٠٠ رجل، قتل جميع هؤلاء في مذبحة، ولكي يضبط المثقفين في أيامه أمر قن شيهوا نغدي بإعدام ٤٦٠ عالماً وبدفنهم في قبر جماعي، وكان ماو نفسه قد استبعد خطر الحرب النووية عندما علق قائلاً: في الوقت الذي كان عدد سكان الصين أقل مما هو عليه الآن، حتى ولو قتل ٣٠٠ مليون صيني فإنه كان سيبقى ثلاثمائة مليون آخر.

وعندما قابلت ماو للمرة الأولى عام ١٩٧٢ كان متعب الصحة، ومهدود الحيل، بتقدم السن، غير أن ذهنه كان لا يزال حاداً، ولم يكن ثمة شك بأنه كان يتحكم بمركز قيادي كامل في الصين، فقد تحدث يومذاك على أسس فلسفية واسعة في الفلسفة والتاريخ، وعن اتساع رقعة الأحداث، ولكن تحدث بمنتهى التواضع عن إمكانياته المحدودة، وفي إحدى المرات عندما قلت له بأن كتاباته قد «حركت أمة وغيرت العالم» أجابني مقللاً من قيمة نفسه: «لم أتمكن من تغييره بل تمكنت فقط من تغيير بضعة أماكن جوار بكين». وكان أندريه مالو على معرفة واسعة بماو، وقد ألمح إلي قبل أن أقوم بزيارته قائلاً: «بأن القادة العظام كتشرشل وغاندي وديغول قد خلقوا نتيجة نوع من الأحداث التاريخية المؤلمة التي لم تعد تقع في العالم، وبهذا الصدد فإنه، أي ماو، يشعر بأن أحداً لن يخلفه، ولقد سألته ذات مرة فيما إذا كان لا يظن نفسه وريثاً لآخر أباطره الصين الكبار في القرن السادس عشر أجابني ماو: «إنني وريثهم طبعاً، فأنت يا سيادة الرئيس تعمل ضمن إطار منطقي، لكن ماو لا يفعل ذلك، إن فيه شيئاً من سمات الساحر الراقي، وهو إنسان تسكنه الرؤية وتمتلكه»، وإن الرؤية التي امتلكت ماو قد هزت الصين وقلبتها.

ولقد ساد التنافس خلال العقود الزمنية التي تتالت بعد انتصار ماو في الصين الكبرى على ثلاثة تيارات من التفكير بين صفوف القيادة الصينية. وكان التيار الأول يتمثل بليون شاؤكي، وهو التيار الكلاسيكي العقائدي الماركسي ـ اللينيني ـ الستاليني، الذي كان يتطلع إلى موسكو من أجل القيادة والاحتذاء بها والحصول على المساعدة منها، وقد كان هذا التيار قيد الارتقاء خلال السنوات الأولى، وتمثل التيار الآخر بنائب رئيس مجلس الوزراء الحالي دينغ اكسيابونغ، وكان تياراً يتصف بالدرجة الأولى بالذرائعية والاهتمام بالتطور الاقتصادي، والرغبة في تعديل الايديولوجية، والتعامل مع الغرب، وهو التيار الذي يرتقي الآن، أما التيار الثالث فهو التيار الذي تمثل بماو نفسه والذي تعمقت جذوره في المسيرة الكبرى، وتكرس لتحقيق مثال الكفاح المستمر: أي إن الثورة كانت نهايته بحد ذاتها، وحيثما كانت أية فئة، بما في ذلك بيروقراطية الحزب الشيوعي، تتمادى وتستكين للراحة، كان يحين الوقت لقلب البلاد رأساً على عقب، وما الحكومات الشعبية والقفزة الكبرى نحو الأمام، والثورة الثقافية سوى خير أمثلة على تصميم ماو للمحافظة على روح الكفاح والتنقية على طريق التطهير والاضطرابات والتصفيات، فقد لقي الملايين من البشر حتفهم نتيجة تياره من أجل ابقاء «الثورة» ثورة.

الانقسام
الصيني ـ السوفييتي

لقد تحقق الانتصار الشيوعي في الصين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بأربعة أعوام فقط، وذلك بمساعدة الاتحاد السوفييتي، وكان نظام الحكم في بداية الأمر قد تحالف بشكل وثيق مع الاتحاد السوفييتي، لكن التحفظات سرعان ما برزت إلى حيز الوجود، وتبين السوفييت بأنهم حلفاء لا يمكن الوثوق بهم، ولكون الحكومة الصينية كانت متعلقة بنزعتها الصينية لم تعد ترغب بالإعتراف بسيادة موسكو المطلقة وتزعمها للعالم الشيوعي.

وقد يكون التقارب الصيني ـ الأمريكي الذي حدث عام ١٩٧٢ أكبر حدث سياسي عالمي دراماتيكي منذ الحرب العالمية الثانية، بيد أن أهم حدث سياسي عالمي وقع هو الانقسام الصيني ـ السوفييتي، الذي كان قد سبق ذلك التقارب، وهكذا فإن ذلك الانقسام قد جعل التقارب ممكناً وتجدر الإشارة هنا إلى أن الانقسام بالإضافة إلى مواصلة النزعة العدوانية السوفييتية. هو الذي جعل التقارب أمراً لا غنى عنه من كلتا وجهتي النظر الأمريكية والصينية.

ولعل الانقسام كان أمراً لا مناص منه، إذا ما أخذنا بالاعتبار خلفيتي البلدين، وتاريخ الصراع بينهما. واختلاف مصالحهما، إلا أن حتميته لم تكن ظاهرة للسواد الأعظم من الأمريكيين، بما فيهم أنا شخصياً، وذلك خلال العقد الأول من الحكم الشيوعي للصين، وقد كانت الصورة التي تعم العالم خلال تلك الفترة هي النزعة العدوانية للمعسكر الصيني ـ السوفييتي، والتي كانت قوة تهديدية قد ظهرت حديثاً على المسرح العالمي، وكان الصينيون يومئذ أكثر عداء للغرب في نظرتهم مما كان السوفييت، وكانت كل من بكين وموسكو قد دعمتا غزو كوريا الشمالية لكويا الجنوبية عام ١٩٥٠، فالسوفييت قاموا بتقديم السلاح لها فقط، في حين أن الصينيين قد شاركوا مشاركة فعلية في الأعمال القتالية، وقتل الآلاف منهم حيث كان أحد أبناء ماو ذاته قد لقي مصرعه في ساحة القتال، وبدأت المنافسة تتطور بين العملاقين الشيوعيين، واتركزت على الصراع نحو تحقيق الزعامة على العالم الشيوعي، وأخذ كل منهما بكيل التهم للآخر بالإنحراف عن الاستقامة الشيوعية «الحقيقية»، وفي نهاية الأمر كانت إحدى القوى الأساسية التي فرقت بينهما على وجه التحديد قوة ظن الكثيرون منا بأنها ستجمع بينهما، ألا وهي الشيوعية، فليس باستطاعة الاثنين معاً أن يحتلا المرتبة الأولى، كما أن أحداً منهما لم يكن يرغب في أن يحتل المرتبة الثانية حيث أن البنية التسلسلية الصلبة للشيوعية في العالم تتسع لسلطة سيادة واحدة فقط في العالم الشيوعي وقد اعتادت روسيا أن تكون سيدة العالم الشيوعي، كما أن الصين قد اعتادت أن تكون سيدة عالمها الخاص.

ومما زاد في حدة الخلاف بين البلدين هو انعدام الثقة المتأصل الجذور وانعدام المحبة بين الشعبين ذاتهما، فالصينيون تاريخياً يزدرون الروس ويستخفون بهم، كاستخفافهم بالهنود، أما القادة السوفييت فقد دأبوا، دون انقطاع، على تشويه سمعة الصينيين وتحقيرهم، كما قام القادة السوفييت منذ عهد خروتشوف بتحذير نظرائهم الأمريكيين بصورة خاصة من استهانة الصينيين بحياة البشر، وهذا ما ينطبق على السجل الروسي، الأمر الذي يثير قلقهم أيضاً، وأثناء اجتماع القمة الأمريكي ـ السوفييتي، كان بريجينيف قد كرر تحذيراته لي من الخطر الصيني، ووصف القادة الصينيين بوحوش وبرابرة في معاملتهم لشعبهم، وشدد على عبارة علينا «نحن الأوروبيين» أن تتوحد لكي نحتوي الخطر الكبير الذي تشكله الصين، ويوضح الصينيون، من جانبهم، في محادثاتهم الخاصة، بأنهم يعتبرون الروس فظيّن وبرابرة لا يعرفون الشفقة، وعليه فإن هذه العواطف لدى الجانبين لا تشكل أساساً يمكن أن تقوم عليه الصداقة الدائمة..

وقد أخبرني هواجويفنغ عن محادثة دارت بين ماو ورئيس الوزراء السوفييتي كوسيغين عام ١٩٦٥، قال فيها ماو لكوسيغين بأن النقاش بين الصين والاتحاد السوفييتي سيطول عشرة آلاف عام، واحتج كوسيغين، وما أن انتهت محادثاتهما حتى انبرى ليوجه سؤالاً إلى ماو حول ما إذا كانت مدة العشرة آلاف عام مدة مبالغ في تقديرها، فأجاب ماو بقوله حقاً أن كوسيغين كان مقنعاً، وبسبب ذلك فإنه، أي ماو، يحذف ألف عام، لكن النقاش سيستمر على الأقل لمدة تسعة آلاف سنة.

كان الانقسام الصيني ـ السوفييتي قد نشأ في أواخر الخمسينات، وبداية الستينات أي في غضون عقد من الزمن بعد تولي ماو السلطة، وقد وصل الانقسام أبعد حد له في عام ١٩٦١، ومن بين العوامل التي ساهمت في حدوثه استياء الصينيين من عدم تلقيهم للمزيد من المساعدات السوفييتية منم أجل تطوير قدرتهم النووية، وكذلك الانسحاب المفاجيء للفنيين السوفييت من الصين عام ١٩٦٠، عندما تركوا العديد من المشاريع الانمائية، دون انجازها، وفي أعقاب هذا الانقطاع ازدادت ضراوة الحرب الإيديولوجية بين العملاقين الشيوعيين، كما اشتدت حدة التنافس بينه على المسرح الدولي، وكانت الصين يومذاك أكثر تصلباً من روسيا في مواجهتها للغرب، كما كان تعلقها أشد عنفاً في دعمها «لحروب التحرر الوطني»، وكونها كانت في بداية تسلمها للسيطرة الشيوعية آنذاك، فقد سعت الصين لتوسيع رقعة السلطة الشيوعية ـ على النمط الصيني ـ حيثما استطاعت لذلك سبيلاً، وقد اتبعت، بفعلها ذلك، مبدأ ماو، الذي كان يتجلى بالآتي: «على كل شيوعي أن يستوعب حقيقة مفادها: أن القدرة السياسية تنطلق وتنمو من سبطانة البندقية».

وفي تلك النقطة كان الانقسام الصيني ـ السوفييتي قد جعل المعسكر الصيني السوفييتي أقل تهديداً للعالم، لكنه لم يجعل الصين أقل تهديداً، فقد حدث ذلك فيما بعد مع بداية تغير الصين.

الولايات المتحدة والصين

عندما حطت طائرة السلاح الجوي الأمريكي رقم واحد ـ أو روح الـ «٧٦» ـ كما كنا نطلق عليها يومئذ في مطار بكين في الحادي والعشرين من شهر شباط عام ١٩٧٢، كنت على أدراك تام بأن العالم لن يكون على ما كان عليه من قبل أبداً، وكيف سيتغير كان أمراً يعتمد إلى درجة كبيرة على طبيعة المحادثات التي ستدور بيننا في الاسبوع الذي كان سيلي، ومهما يكن من أمر فإن التغير العميق كان حتمياً ولا محالة واقع، لقد كانت الرحلة ذاتها والقرارات المحسوبة من قبل الجانبين للمضي فيها قد جعلت الحركة تدب في عملية التغير.

وكان على رأس الوفد المنتظر زهاو انيلاي بمعطفه الثقيل، ذلك الرجل الذي كان قد تعرض لتهجم عميق قبل عدة سنوات في مؤتمر جنيف الذي انعقد عام ١٩٥٤، يوم مد يده ليصافح جون فوستر دالاس في اجتماع عام، ورفض دالاس مصافحته، لقد كانت تلك الحادثة واحدة من صغائر المراسم التي تبدو مسوغة، وحتى ضرورية، في ذلك الحين، لكنها يمكن أن تشكل جرحاً تطول مدة التئامه سنوات بعد ذلك، وتتمخض عن عواقب ديبلوماسية بالغة القيمة، وكنت قد عقدت العزم بأن

يكون أول عمل أقوم به فور وصولي إلى الصين هو محو ذلك الأثر، وما أن أطليت على سلم الطائرة حتى بدأ زهاو بالتصفيق، ورددت عليه بالمثل، وما أن وصلت الدرجة الأرضين حتى مددت يدي لزهاو فعندها أخذها كانت أكثر من مصافحة، وعلمنا نحن الاثنين بأنها كانت تمثل نقطة انعطاف في التاريخ.

وكنت قبل حوالي خمس سنوات أي عام ١٩٦٧ قد كتبت في مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر أسمها الشؤون الخارجية، مقالاً قلت فيه: «إذا ما نظرنا لبعد نجد بمنتهى البساطة أنه ليس بوسعنا أن نترك الصين إلى الأبد خارج الأسرة الدولية، كي تقوم هناك بتغذية نزعاتها التعصبية وتنمي احقادها لتهديد جيرانها، وليس هناك مكان على هذا الكوكب الصغير لها، بيليون من سكانها الذين يعتبرون من أقدر شعوب العالم، كي تعيش فيه بعزلتها»، لكنني في الوقت ذاته حاججت قائلاً بأننا على المدى القريب نحتاج إلى «سياسة ضبط شديدة، دون أية مكافأة بالمقابل، وضغط مضاد خلاق معد لاقناع بكين بأن مصالحها لا يمكن أن تُخدم إلا بقبول القواعد الأساسية للمدنية الدولية»، وبذلك فقد يمكن جر الصين مرة أخرى إلى المجتمع العالمي، إنما كدولة عظمى تسير نحو التقدم وليس مركزاً لثورة العالم»، وكتبت في جملة ما كتبته «إن الوقت الذي يمكن أن يبدأ فيه الحوار مع الصين الكبرى هو عندما يقتنع زعماء بكين بتحويل طاقاتهم إلى داخل بلدهم، بدلاً من خارجها»، وكان من أول أعمالي التي قمت بها كرئيس للجمهورية، هو أن أصدر التوجيه لاستقصاء الإمكانيات على نحو خاص بشأن تحقيق التقارب مع الصين، وقد بدا ذلك بمثابة نوع من الرقص البسيط الذي يؤدي بمناسبة إقامة الطقوس، لكن الخطى سرعان ما اكتسبت الزخم في عام ١٩٧١ حين أعلنت في الخامس عشر من شهر تموز فجأة بأنني سأقوم بزيارة الصين في مطلع عام ١٩٧٢.

لقد كان ذلك الانفتاح على الصين بمثابة تحول هائل بالنسبة للولايات المتحدة، فضلاً عما هو بالنسبة لي شخصياً، فقد كنا قمنا بدعم حكومة تايوان لمدة تنوف على العشرين سنة، ولقد كان أولئك الحلفاء أهلاً للثقة، وفي عالم حيث تصرفت حكومات كثيرة على نحو من اللامسؤولية، كانوا يشغلون بشكل دائم دوراً دولياً بناء، ويديرون شؤونهم بدرجة عالية من المسؤولية، كما كانوا أحد شركائنا التجاريين الرئيسيين، وعلاوة على ذلك كله، كانوا أصدقاءنا، وكان زعماء تايوان بما فيهم شيانغ نفسه أصدقائي الشخصيين، ففي مفاوضاتنا مع الصين رفضنا أن نخل بالالتزام بمعاهدتنا مع تايوان، كما أننا أعلنا بكل وضوح في البيان المشترك عن موقفنا الثابت من وجوب تسوية مسألة تايوان بصورة سلمية، لكننا كنا نعلم بأن التحول الكامل للسياسة الأمريكية كان مؤلماً جداً لتايوان، وكان ذلك بدوره مؤلماً لنا.

وجاء الانفتاح على الولايات المتحدة أيضاً ليمثل تحولاً كبيراً بالنسبة للصين، فقد كانت الولايات المتحدة بالنسبة لها ولسنوات عديدة العدو الأول، وكانت تشكل الهدف الأساسي الذي تركزت عليه الدعاية الصينية اللاذعة، وقد قام الصينيون بهذا التحول لأنه يخدم مصالحهم، ولأنهم في ذلك الوقت كانوا بحاجة للولايات المتحدة، كحاجتها هي تماماً للصين.

وكان كلانا قد أخذ يتجه نحو هذا الانفتاح مع التزام جانب الحيطة والحذر، وبقلق وحتى بارتعاش، ولم يكن أحد منا يعرف ما الذي يتوقعه على وجه الدقة، لأن كلاً منا كان مشدوداً بسنوات العداء الطويلة، ففي ظل حكم شيانغ الوطني كانت الصين حليفتنا في الحرب العالمية الثانية، لكن العداء كان قد استفحل بين ماو وشيانغ، وعليه فقد أصبحت الصين عدونا اللدود بعد استيلاء الشيوعيين على الحكم في الصين عام ١٩٤٩، وفي الحرب الكورية قاتلت القوات الأمريكية القوات الصينية، كما أن الصين قامت بإمداد عدوتنا فييتنام الشمالية، ومساعدتها خلال الحرب الفييتنامية.

وكانت المواقف الأمريكية حيال الصين تتأرجح لأجيال من الزمن بين الارتباط الرومانتيكي والهلع، وأصبح من المعتاد والشائع بالنسبة للأمريكيين أن يشيروا إلى الصينيين «بالخطر الأصفر»، وقد كان كل من تيودور روزفلت والبيرت بيفيريدج قد استخدما هذه العبارة في جيلنا، كما أن بعض الأمريكيين أمثال هيربرت هوفر ودوغلاس ماك آرثر وآخرين معروفين جيداً قد أطلقوا هذه العبارة على الصينيين في أحاديثهم معي، وممن فعل ذلك ليونيد بريجنيف ذاته، وكان هوفر قد قضى عدة سنوات كمهندس مناجم في الصين، وقال لي في منتصف الستينات عن الصينيين بأنهم «عطشى للدماء» ليس إزاء الأجانب فقط، وإنما إزاء شعبهم بالذات، وبالنسبة للكثيرين فإن سكان الصين كانوا بعددهم الهائل يشكلون تهديداً كبيراً، وهكذا فقد سنت قوانين الهجرة المتعلقة بالطرد بغية ابعادهم وجعلهم خارج البلاد.

وقد عكس ذلك من ناحية حقيقة ان الصين كانت بعيدة وغامضة «ومختلفة»، وحتى أنه داخل مدننا كانت «المدن الصينية» عبارة عن مناطق دخيلة محاصرة، ومن ناحية ثانية عكس ذلك أيضاً المعاملة العنصرية الفوقية، ومن ناحية ثالثة عكس الواقع القائل أنه حتى في الوقت الذي أخذت المدنية الصينية بالترعرع، فإن الحياة بالنسبة لغالبية الشعب الصيني كانت تنصف بالشظف والقساوة، وظلت لقرون عديدة من الزمن على هذا النحو لدرجة أن الحياة في الصين، حيث عدد السكان كان كبيراً، وحيث كان الجوع والفيضان غالباً ما يقضي على أولئك الذين نجوا من شر سادة الحروب، بدت في نظر الغربيين بخسة الثمن.

ومع ذلك عندما يتاح للأمريكيين والصينيين أن يعرفوا بعضهم بعضاً يمكن لهم بسهولة أن يتعايشوا سوية بصورة فوق عادية، فإن سجل الولايات المتحدة فيما يتعلق بعلاقتها بالصين خلال فترة ما قبل عهد ماو، يبين بأنها كانت أفضل من علاقتها مع معظم القوى الغربية، وبالرغم من أن الولايات المتحدة لم تستغل الميزات التي حصلت عليها البلدان الأوربية في الصين، فإن الولايات المتحدة لم تقم بأية تنازلات من جانبها، لقد كانت البعثات الأمريكية في الصين تقابل بالامتعاض أحياناً، لكن كثيراً من تلك البعثات قد قدمت خدمات انسانية جلية، وكان العديد من الصينيين قد تلقوا تعليمهم في الولايات المتحدة، وعلى أية حال فإن النظرات العدائية التي قامت بين الولايات المتحدة والصين خلال الفترة ما بين ١٩٤٩ ـ ١٩٧٢، كانت نتيجة للسياسة، وليست

للشخصية، لقد نشأت تلك النظرات نتيجة لتضارب المصالح الوطنية، وليس نتيجة لتضارب الحضارات الوطنية، ولذلك أصبح مع تبدل السياسات وتحوّل المصالح بالإمكان ابدال العداء بالاحترام وبالعودة، وحتى بالصداقة.

لقد حدث ذلك إلى درجة كبيرة بسبب تعاملي الخاص مع الزعماء الصينيين، فقد بدأنا محادثاتنا دون اخفاء للخلافات الفلسفية، وبدون جهد لتغطيتها أو تجاوزها، لكننا كنا نتعامل بصورة ودية واحترام متبادل، وبالسعي سوية لكشف مصالحنا المشتركة، ومصالحنا المفترقة، فتمكنا ممن تطوير درجة عالية من الثقة، والتقارب الشخصي الملموس، فعندما عدت إلى الصين في عامي ١٩٧٦ و١٩٧٩ بصفة مواطن عادي، وبزيارة خاصة مع أنني حللت ضيفاً على الحكومة الصينية . وجدت نفسي متطلعاً إلى الأمام نحو تجديد المعارف القديمة بين صفوف الزعماء الصينيين، وكذلك تحقيق معارف جديدة، وكان مضيفي الصينيين من جانبهم على أحسن ما يطلب من حسن الضيافة والإقراء، وأبدوا حرارة في ترحيبهم بي، ومن أجل إقامة علاقة متينة تعتبر هذه الأمور في غاية الأهمية، فالدول العظمى تتصرف على أساس المصلحة، لا على أساس العواطف، لكن العلاقات الشخصية الطيبة يمكن أن تشغل دوراً كبيراً في مجال حل الخلافات، والتغلب عليها، وكذلك جعل الروابط أمتن وأقوى مركزاً.

ولقد اتجهت الصين نحو الولايات المتحدة لأنها وجدت نفسها محاطة بقوى معادية هائلة، فإلى الشمال منها. وهي الجهة التي كانت الغزوات «البربرية» تقدم منها، وذلك أمر تاريخي . يقع الاتحاد السوفييتي الذي لم يعد يربطه بها موقف رفاقي، وهو يقوم بزج قوات كبيرة على طول حدوده معها، الأمر الذي أصبح يشكل خطراً كبيراً عليها، وإلى الجنوب منها هناك الهند، وقد كانت الصين قد وقعت في صدام مع الهند على الحدود عام ١٩٦٢، كما أنها قد رأت خلال فترة قريبة جداً كيف استطاعت الهند، بمساعدة الاتحاد السوفييتي، أن تتغلب على حليفة الصين، وهي الباكستان، وبكل سهولة، وبرغم كل استخفاف الصين بالهند، إلا أن اتجاه الهند نحو إضافة المقدرة النووية إلى ترسانتها، التي يزودها بها الاتحاد السوفييتي، أصبح الأمر يستدعي توقف الصين عند هذه النقطة، كيما توليها أهمية خاصة.

وإلى الشمال الشرقي رأت الصين واليابان، وقد أصبحت الآن ثالث أكبر قوة اقتصادية في العالم، ورغم أنها لا تمتلك السلاح النووي، إلا أنها تمتلك القاعدة الصناعية من أجل تطويره، إذا رغبت في اختيار ذلك في يوم من الأيام، ولا زالت في ذاكرة الصين القريبة بأن اليابان قد غزتها واحتلتها، وعلى الرغم من أن الصينيين لا يخشون اليابان في الوقت الحاضر، إلا أنهم ينظرون بمنتهى التقدير لطاقتها الكامنة، أما فيما يتعلق بالولايات المتحدة فالصينيون يدركون بأنه ليست لنا خطط اقليمية نحوهم، وهذا مالا يستطيعون نكرانه بالنسبة للسوفييت، ومع أن نظامنا يعارض نظامهم فإن مصالحنا تتعارض مع مصالح الاتحاد السوفييتي، وهو الجار الذي يشكل أكبر تهديد، وأكبر خطر مباشر على الصين ذاتها. ومن هنا كان الحق مع الصينيين في أن يقيموا علاقات أفضل معنا.

والذي كان ينبغي علينا أن نبينه للصينيين، هو أن نثبت بأنه يمكن الاعتماد علينا: أي أن لدينا نظرة واضحة تمام الوضوح لمصالحنا، وكذلك الإرادة الكافية للدفاع عن تلك المصالح لكي نكون صديقاً يمكن الوثوق به، والاعتماد عليه، وأكثر من ذلك كان لا بد من اقناع الصينيين بأن لدى الولايات المتحدة، كمجتمع، القوة والمتانة لكي تكون محطاً للثقة على المدى البعيد.

فالعلاقة الجديدة مع الولايات المتحدة، بالنسبة للصين، قد جاءت لتمثل «قفزة كبيرة نحو الأمام»، إلى عالم سياسة قوة عظمى مستقلة، كما أنها عنت اتخاذ مواقع تقف مباشرة في وجه بذور الإيديولوجية الشيوعية الثورية، وبالنسبة لنظام حكم عقائدي كنظام حكم ماو، جاء ذلك بمثابة تحول هائل، فالإيديولوجية الصينية الثورية تطلبت من الصين معارضة المعاهدة الدفاعية بين الولايات المتحدة واليابان، وكذلك معارضة الوجود الأمريكي في آسيا، ومع ذلك فإن مصالح الصين أملت عكس ذلك، وقد اعترف زعماء الصين بهذا الأمر. فيما بينهم سراً، إن لم يكن علناً. وعندما يستدعي الأمر الاختيار، فإن كفة المصالح هي التي ترجح، وحتى بالنسبة لمسألة تايوان الحساسة، وفي الوقت الذي لم تتراجع فيه الصين عن مواقفها، إلا أنه توجب عليها القبول بحقيقة أننا لن نستجيب لطلب تخلينا عن التزامنا إزاء تايوان.

وخلال حديثي مع هوا عام ١٩٧٦ كنت قد شددت على القول بأن هناك أوقاتاً يتعين فيها على الدولة العظمى أن تختار بين الإيديولوجية وبين البقاء، وهذا ما فعلته الصين تماماً في استجابتها لمبادراتنا واقامتها للعلاقة الجديدة.

وقد مضى الآن أقل من عقد من الزمن على الانفتاح على الصين الذي بدأ عام ١٩٧٢، وقد تغيرت علاقاتنا. وكذلك تحول موقف الصين من العالم، لقد كان ماو يتمتع بالسلطة لإيجاد التحول والاتجاه نحو الولايات المتحدة، وكان لدى حلفائه الحكمة للاستفادة من ذلك التحول، ولتغيير سياسة ماو بحيث يمكن تحقيق الاستفادة من الفرص التي خلقتها.

مستقبل الصين

كان رئيس الوزراء سنغافورة لي كوان يو قد قال لي عام ١٩٦٧ بأن: «ماو يقوم بالرسم على قطعة موزاييك، فعندما يموت ماو ستهطل الأمطار وستجرف في طريقها وتغسل ما رسمه».

والآن وبعد أن أصبح ماو في ذمة الله، والأمطار قادمة فما ستغسله مما رسمه لم يتضح بعد، فعندما قمت بزيارة بكين عام ١٩٧٩ كانت صور ماو البطولية لا تزال تسيطر على واجهات المدينة، إلا أن اليافطات الرسمية الكبيرة التي كانت تحمل شعاراته الثورية كانت تنزل بهدوء.

ومن المؤكد بأن أفكار ماو الثورية كانت قد تركت آثاراً كبيرة، وانطباعاً عميقاً، فالحزب الشيوعي يظل القوة المنظمة في الصين، وما زال رئيس الوزراء هوا يستهل معظم تعليقاته بعبارة: «كما قال الرئيس ماو.......» وماو يظل إلهاً، لكن الصين قيد التبدل، وكلما ازداد تبدلها كلما ازداد انبثاق موزابيك الصين القديم ذاته.

لقد كان ماو يتمتع بحس قوي للتاريخ، وكذلك بحس قوي لخلوده شخصياً، فعندما تقابلنا للمرة الأولى عام ١٩٧٢، كان واضحاً بأنه استطاع أن يرى اقتراب نهاية حياته، وقد أراد أن يتأكد بأن الاتجاهات التي رسمها للصين كي تسير عليها ستدوم، كما أنه أراد أيضاً أن تكون الصين آمنة بما يسمح لتلك الاتجاهات بالدوام، وهكذا فقد اتخذ الخطوة الثورية بالوصول إلى الولايات المتحدة، وبذلك بدل بصورة أساسية ميزان القوى في العالم؛ ومن إحدى مهازل التاريخ هي أن ذلك التحرك الجريء، منذ موت ماو، قد أسرع في أمن الصين، وكذلك سارع في ابتعادها عن خط السياسة الداخلية الذي كان ماو قد رسمه.

لقد قام ماو بثورة، وقد حقق كسب السلطة بنجاح، وعززها في أكبر بلد على وجه الكرة الأرضية من حيث عدد سكانه، وقد استخدم تلك السلطة لإحلال سلسلة من الاضطرابات الاجتماعية التي أودت بحياة الملايين من الناس، كما أنها حولت واحدة من أقدم حضارات العالم، لكن الصين لم تتحول برمتها، والأمور الذي لا بد أن يترك انطباعاً كبيراً في نفس أي زائر لها اليوم، هو في الحقيقة، الدرجة التي ما زالت عليها الصين هنا، فقد قام ماو فعلاً «بتحويل بضعة أماكن في جوار بكين»، وحول أشياء كثيرة أخرى، لكن ملايين من الفلاحين ما زالوا يحرثون الأرض بالطريقة التي اعتادوا عليها على مر القرون، كما أن العقل المثقف الصيني ما زال هو ذاته حاذقاً وأداة مجربة وماهرة كما كان عبر القرون أبداً، وكما أن الصين كانت قد امتصت البرابرة الذين غزوها إلى أن أصبحوا صينيين، فهناك حق في الاعتقاد بأن الثورة الشيوعية ستمتص وتذوب في جسد الصين، ولقد بدأت تلك العملية في الحقيقة، والسؤال الذي يطرح هو إلى أي مدى، وبأية سرعة ستحدث، وما هي العقبات التي ستعترض طريقها.

ومن بين المسائل الكبرى خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، والجزء الأكبر من القرن الحادي والعشرين ستكون مسألة كم من الوقت سيطول الانقسام الصيني ـ السوفييتي، وكم ستطول العلاقة الجديدة بين الولايات المتحدة والصين، وإلى أي مدى سيمضي الصينيون في طريقهم الواقعية، لكي يطوروا طاقتهم الاقتصادية الكبيرة، وأي نوع ستكون نظرة الزعماء الصينيين للعالم، وأي دور عالمي سيشغلونه، ويرتبط بذلك أيضاً مدى استمرارهم في السير على هذا المنوال، مع وجود تايوان مستقلة؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة في الحقيقة تعتمد على واشنطن، بقدر اعتمادها على بكين.

ويعلم الصينيون بأنه ليست لنا خطط إقليمية ضدهم، كما أنهم يحترمون ويقدرون مساعدتنا التكنولوجية والمالية، وإنهم متأكدون في الوقت ذاته من أننا نشكل القوة الوحيدة القادرة على مراقبة خطط الاتحاد السوفييتي، والبعض يمضون إلى القول بأن الاستقلال الاقتصادي كاف لجمعنا سوية، لكن ذلك ليس صحيحاً، فالزعماء الصينيين يريدون قبل كل شيء البقاء للصين، وذلك بالنسبة لهم إنما يعني المحافظة على مواجهة فعالة في وجه التهديد السوفييتي، فإذا ما أتيح لهم أن يصبحوا في وضع أقوى من الناحية الاقتصادية سيساعدهم ذلك على تطوير قدرتهم

العسكرية بأنفسهم، من أجل الدفاع عن مصالحهم، لكن ذلك هدفاً بعيد المدى، ولن تتوفر لهم المقدرة خلال العشرين سنة القادمة، ولذلك سيتطلعون بشكل أوثق إلى الولايات المتحدة، ليروا ما إذا كانت لدينا القوة والقيادة مع الإرادة لاستخدامها، ليس في مجال الدفاع عن أنفسنا فحسب بل والدفاع عن أصدقائنا أيضاً، وحلفائنا في حال وقوعهم أهدافاً للاعتداء السوفييتي.

وإذا ما فقد الصينيون الثقة بالولايات المتحدة في هذا الصدد فليس ثمة مساعدة تجارية أو مالية مهما بلغت قيمتها من شأنها الابقاء على العلاقة الصينية الأمريكية سارية المفعول، وإذ ذاك ستلجأ الصين إلى نمطها التاريخي في احتواء أعدائها، والأمل في امتصاصهم.

فمن الناحية الاقتصادية تسير الصين بإندفاع بغية اللحاق بالركب، وإن مهمتها في هذا المضمار تذهل الخيال، والخبرة الغربية بالنسبة لها هناك مايوازيها: هناك بليون من البشر الذين تعيش غالبيتهم، كما كان يعيش أسلافها تقريباً قبل قرون من الزمن، حيث ما زالت وسائط النقل والاتصال لديهم بدائية ومتدنية بتركيبها، وهناك قوة عظمى معادية تتربص بهم على حدودهم الشمالية وعميل . بتسليح قوي . لتلك القوة العظمى على حدودهم الجنوبية، وهم شعب ترك دون أن يوثق به يعيش عزلته وتمزقه عشرات السنين من الاضطراب الثوري الماوي.

ومع ذلك، وبرغم كل هذه المشاكل، فهناك بسبب محق لدى الصينيين في تفاؤلهم بمستقبلهم على المدى البعيد، فالصين تمتلك موارد طبيعية هائلة، بما في ذلك كميات احتياطية كبيرة من الفحم الحجري، والنفط والمعادن الأخرى لكن أهم ما في الأمر هو أن الصينيين قد أبدوا بأنهم شعب قادر بصورة لا مثيل لها، وحيثما حل الصينيون واستوطنوا فيما وراء البحار كانوا يثبتون بأنهم قادرون على تحقيق الانجازات الضخمة، فهونغ كونغ، وسنغافورة مدينتان صينيتان بالدرجة الأولى، وتايوان كانت قد قطعت شوطاً بعيداً في مضمار الأداء الاقتصادي، ويبلغ دخل الفرد فيها ثلاثة أضعاف معدّل دخل الفرد في الصين الكبرى، كما أن صادراتها أكثر بعشرين مرة من صادرات الصين الكبرى، مع أنها لا تضم سوى ٢٪ من عدد سكان الصين الكبرى، وفي مختلف أنحاء الشرق الأقصى يعتبر نفوذ ونجاح التجار ورجال الأعمال ورجال المصارف الصينيين ضرب من الخيال والأساطير، وفي الصين الكبرى وحدها فقط كان الصينيون قد أخفقوا اقتصادياً، ويعزي السبب الأساسي لذلك الاخفاق لأمور سياسية وايديولوجية.

وتهيء اليابان أساساً لما يمكن أن تنجزه الصين في المجال الاقتصادي خلال القرن القادم، فسكان البلدين بالغو الذكاء، كما أنهم يتمتعون بمواهب فريدة من نوعها، كما أن لشعبيهما حضارات قديمة تجمع بين الدقة العظيمة والجمال، وبين التقليد المادي العنيف، وكلاهما يتمتعان بأقصى درجات الانضباط والنظام، مع التحلي بقوة بـ «خُلق العمل»، لكن استجابتهما ومواجهتهما للغرب جاءت بشكل اختلف فيه أحداهما عن الأخرى، ففي حين توصلت اليابان إلى امتصاص التقنية الغربية، وقامت الصين النزعة الغربية خشية تأثيرها المفسد، ونتيجة لذلك فقد أصبحت اليابان قوة صناعية رئيسية قبل الحرب العالمية الثانية، بينما ظلت الصين محافظة على

وضعها كبلد زراعي بدائي إلى حد كبير، ومهما يكن من أمر فقد بدأت الصين الآن، بما كانت اليابان قد فعلته قبل سنوات طويلة، وقد أصبحت اليابان على حافة الانتقال لكي تصبح ثاني أضخم قوة صناعية في العالم، مع أن عدد سكان الصين يبلغ تسعة أضعاف عدد سكانها، وفي الصين من الثروة والمصادر الطبيعية ما لا يمكن مقارنته بما تملكه اليابان من حيث الضخامة، وستستغرق ضخامة الصين واتساعها أجيالاً من الزمن لكي تصل بشكل كامل إلى ما وصل اليه العالم الحديث، وإن كانت بعض جوانب اقتصادها قد حققت التقدم وبسرعة، فإن جوانب أخرى ستظل بعيدة جداً عن الركب، لكن الإمكانية متوفرة فيها، والطاقة موجودة، اللهم إذا أبدى الصينيون المهارة والواقعية لتطويرها، وإذا تحلوا بالصبر من أجل القيام بذلك بصورة منظمة.

والسبب الذي جعل اليابان تحقق النجاح الاقتصادي الباهر، هو أنها لم تربط نفسها أبداً بعقيدة شيوعية، أو بنظام اشتراكي، وتبدو الصين الآن وكأنها تحاول اعتاق نفسه من بعض تلك الموانع، وإذا ما واصلت السير في هذا الاتجاه، فقد لا يكون هناك سقف محدود للاقتصاد الصيني، وإذا ما لجأت الصين إلى التقيد بالإيديولوجية الماركسية فلن يكتب لها النصيب بتحقيق طاقاتها وإنجازها.

ولقد شهد زعماء اليوم أخطاء عهد ماو، ويبدو أنهم قد عقدوا العزم على عدم تكرارها، والوقوع فيها مرة أخرى، وقد فارق ماو الحياة في عام ١٩٧٦، ولم يكد جسده يبرد، حتى تحرك الزعماء الجدد ضد «عصابة الأربعة» التي ضمت بين صفوفها أرملة ماو، جيانغ كينغ، وكان أفراد «عصابة الأربعة» من العقائديين الذين حملوا بشراسة شعار المحافظة على شعلة النقاء الإيديولوجي، وفي حين أنهم لا يتهجمون على ماو شخصياً، تجد الزعماء الصينين اليوم يتحدثون بحرية عن الأخطاء القاتلة التي كانت قد ارتكبت خلال العقد الأخير من فترة حكم ماو، وحقيقة أنهم بدلاً من أن يدافعوا عن الماضي القريب، يؤكدون على الحاجة إلى تجاوز أخطائه، والتعافي منها، هي أكبر دليل على أنهم سيتمكنون من التعافي، وبينما كانت السياسة والإيديولوجية تشكل حجر الأساس لكل شيء بالنسبة للحكام السابقين، فإن دراسات الحكام الحاليين وتقديراتهم أكثر واقعية بكثير فهم أقل اعتماداً على النظرية المجردة وأكثر اعتماداً على التعامل بالمراقبة الملموسة، فشعار دينغ: «اطلب الصدق من الحقائق» قد يبدو شيئاً أولياً بالنسبة للمراقب الغربي، لكنه ارتحال راديكالي، بل ابتعاد عن العقائدية الصينية الأخيرة، ويبدو في الوقت الحاضر بأن العصرنة تحقق انتصاراً على الثورة.

ويبدو زعماء القمة الصينية واثقين من أنفسهم، ومثقفين وواقعيين، وهوا جويفنغ واقعي صلب الذهن، فهو يتحدث بنعومة ولكن بثبات وتأكد وهادئ، أما دينغ اكسيابونغ فأكثر حماساً، وأكثر ديناميكية ويعطي الانطباع وكأن الشكوك لا تعرف قلبه، ويبدو منطقياً التخمين، عند تقويم التغيير في الصين، بأن يقال عن دينغ مجدّد ذو نزعة عدوانية، في حين أن هوا يعمل بهدوء ليضمن حدوث التغييرات على نحو غير سريع، وأن لا ينظر إليها بشكل اعتباطي، لكن كليهما يظهران

وكأنهما قد تحررا بعد موت ماو، والتلاشي الذي حل بعده «بعصابة الأربعة» التي تاجرت باسم ماو وسلطته، من أجل تعزيز النقاء الإيديولوجي العقائدي.

والشكل الذي سيتخذه الاقتصاد والمجتمع الصيني على وجه الدقة خلال السنوات القادمة أمر يستحيل التكهن به، فالصينيون يتمتعون بأقصى درجات الحذاقة، وذلك واحد من الأسباب التي تدفع الغربيين أحياناً ليرونهم «غير قابلين للتفحص الدقيق».

والحذاقة إحدى فنون كل من الديبلوماسية، ومهنة إدارة الدولة، وهي غالباً ما توفّر الطرق لاتخاذ القرارات وحل المشاكل على الأقل بفوارق لا يمكن اقتفاء أثرها، ويقوم الصينيون الآن بإبداء مرونة كبيرة في مساعيهم لجذب الاستثمارات الأجنبية، وتأسيس شركات مساهمة مع الشركات الغربية، والمسؤولون الذين يتولون هذه المهمة . يتضمنون قادة رجال الأعمال والتجارة لعهد ما قبل الثورة . يظهرون تفهماً متقدماً للنظام الرأسمالي، والنقد الدولي، ويبدو أن المزيد من الحوافز ذات الطراز الرأسمالي قد بدأت تدخل على النظام الاقتصادي في الصين، والرغبة في التجربة في الحقيقة، تعتبر من أبرز الخصائص التي تتصف بها الصين في الوقت الحاضر، وتبدو وكأن جذورها قد تعمقت في الثقة بدلاً من القلق، ويعطي الزعماء الصينيون الانطباع بأنهم متأكدون من أنفسهم ومن قدرتهم على القيام بمحاولة اتباع طريق جديدة، وعلى الاستفادة والتعلم من خبرة ما يصح وما لا يصح، ويشكو الغربيون من أن المشكلة الرئيسية التي يواجهونها في محاولتهم لإقامة الأعمال التجارية مع الصين تكمن في الطبقات المزعجة للبيروقراطية الصينية التي يتوجب عليهم التعامل معها، ويجب ألا يدعو ذلك للاستغراب، بما أن البيروقراطية المترسخة حتى العظم هي ميزة عامة لأنظمة الحكم الشيوعية والاشتراكية، ومما يدعو للسخرية أيضاً هو أن هذه الميزة كانت تشكل نقطة الضعف الرئيسية لحكومات الصين الإمبراطورية.

وتظل مشكلة تايوان مشكلة لا يلوح في الأفق حل سهل ومباشر لها، فليس بوسع الولايات المتحدة، كما أنه ينبغي عليها ألا تتراجع عن إعلانها الثابت الذي قدمته في بيان شنغهاي المشترك عام ١٩٧٢ . ضد استخدام القوة لحل تلك المشكلة، وفي حين أن الصين، كما يقدّر، ستواصل ضغطها من أجل سحب تايوان إلى ظل حكم حكومة بكين المركزية، فإن المصلحة الذاتية ستحاجج بقوة ضد أي لجوء للعمل العسكري مهما كان نوعه، أو برغم ضخامة عدد السكان التي تتميز بها الصين فإن عبور بحر مفتوح لمسافة مئات الأميال والقيام بعملية انزال بحري في تايوان، سيكون بمثابة عمل فيه من الهول والمخاطر ما فيه بالنسبة للصين الكبرى، فإلزام قواتها بعملية من هذا النوع يعني اضعاف قدرتها على الدفاع عن حدودها مع الاتحاد السوفييتي، وهي حدود طويلة، وكذلك يقوّض علاقاتها الجديدة مع الولايات المتحدة، وليس من المفيد بشيء فرض النظام الاقتصادي البدائي للصين الكبرى على تايوان، التي تتمتع بأكثر الأنظمة الاقتصادية ازدهاراً في آسيا بأسرها.

فإذا ما تواصل تغيير النظام الاقتصادي والسياسي لجمهورية الصين الشعبية، سيصبح بالإمكان تصور الطرق التي يمكن بموجبها الاتفاق على شكل لإعادة توحيد الصين الكبرى وتايوان، ليس في الوقت الحاضر بل فيما بعد.

فكلما ضاقت هوة الخلافات بين نظامي البلدين، كلما أصبح الجسر الذي سيقام بينهما أقصر مسافة، ويكفي بالنسبة للوقت الحاضر أن تؤجل القضية، مع عدم قبول أي من الجانبين بالحالة الراهنة، ولكن بعيش الجانبين معها، ومن شأن الشروط المختلفة أن تخلق في نهاية الأمر وضعاً مختلفاً، وقد يكون من الأفضل للطرفين أن يحصل التعايش السلمي والطوعي فيما بينهما.

فالسياسة الصينية يمليها ما يراه قادتها كالمصالح الوطنية للصين، ويبدو واضحاً جلياً في كل من التحدث إلى زعماء الصين، ومن سجل أعمالهم بأنهم، في مجال السياسة الخارجية، أقل التزاماً بكثير بالاعتبارات المجردة للإيديولوجية من معظم الحكومات الشيوعية، أو مما كانوا هم أنفسهم عليه قبل بضعة سنوات، إنهم يرون العالم فعلاً ويتحدثون عن العالم بطريقة ادراك، وعلى أسس سياسية عالمية أكثر من غالبية زعماء البلدان الأخرى، وقد أصبحت لديهم الآن نظرة عالمية فعلية، وأضحى همهم الأول اليوم تأثير السياسة على الصين، لكنهم يقيسون هذا التأثير بصورة مباشرة وغير مباشرة، فما يضعف السوفييت يخفف الخطر على الصين، ومن هنا فهم يؤيدون وجود حلف ناتو قوي، وبما أن فيتنام حليف سوفييتي، وتقوم بغزو كمبوديا لذا تجدهم يرتبطون بقضية مشتركة مع نظام حكم بول بوت، ويشنون هجومهم التأديبي على فييتنام كي «يلقنوها الدرس»، والولايات المتحدة هي الثقل المقابل للاتحاد السوفييتي لذا تجدهم يستديرون إليها ويلحون علينا كيل نقوي دفاعنا.

وكيف تقوم البلدان الأخرى بتنظيم شؤونها الداخلية أمر، بكل تأكيد يحظى من جانب الصينين بإهتمام أقل مما تحظى به طريقة إدارتها لشؤونها الخارجية، وفي هذا الصدد يعتبر موقف الصين كموقف تقليدي لقوة عظمى، أفضل من مواقف معظم الدول الديمقراطية، وبالتأكيد أفضل من موقف شعبة حقوق الإنسان في وزارة الخارجية الأمريكية.

فإذا ما نظرنا إلى المستقبل، بينما تقوم الصين بتطوير اقتصادها، وبناء قدرتها العسكرية وحتى تصبح، كما يبدو أقوى دولة في العالم، يظل السؤال الأساسي قائماً: كيف ستستخدم تلك القوة؟ وتعتمد الإجابة على هذا السؤال من الناحية الفعلية على ما إذا كانت ستصبح صينية أكثر مما هي شيوعية، أو أكثر شيوعية مما هي صينية، وإذا ما لجأ الصينيون، لأي سبب من الأسباب إلى اتباع السياسة التي كانوا يتبعونها خلال الخمسينات والستينات في سبيل بسط السيطرة الشيوعية في سائر أنحاء آسيا والعالم، فإنهم سيشكلون تهديداً كبيراً للسلام في العالم ولبقاء الغرب، لكنهم إذا ما واصلوا السير في الطريق الذي يبدون فيه صينيين تقليديين، فإن التاريخ سيكون في صالح التفاؤل، فخلافاً لروسيا التي كان تاريخها على الدوام يتصف بمواصلة التوسع الخارجي، كانت الصين بصورة تقليدية «المملكة الوسطى» المكتفية ذاتياً والمحتوية ذاتياً والتي لم تكن بأية

حاجة، ولم تكن لها أية مصلحة في أعمال الاحتلال الخارجية، وأي طريق تختاره الصين قد يعتمد تحديده على الولايات المتحدة قدر اعتماده على الصين، فإذا ما أوضحنا بأنه من مصلحة الصين، في هذا المجال، أن تكون صينية أكثر مما شيوعية، نكون قد خدمنا مصلحة الصين ومصلحتنا ومصلحة العالم.

وقد أخذ الشعور بالغبطة، غير الواقعي، الذي نجم عن تطبيع العلاقات بين الولايات المتحدة وجمهورية الصين الشعبية، في أعقاب الزيارة التي قام بها نائب رئيس الوزراء دينغ، والتي أسفرت عن نتائج فعالة، يتلاشى، فقد أصيب رجال الأعمال الأمريكيين الذين اتجهوا إلى بكين زرافات ووحدانا متوقعين تحقيق «ربح سريع» من جراء بيع منتجاتهم إلى بليون انسان من الصينيين، بخيبة أمل، فالصين تعاني نقصاً في مجال التبادل الخارجي، كما أن البيروقراطية الصينية تسير بسرعة الحلزون فقط، وكما سبق للأمريكيين واكتشفوا في الاتحاد السوفييتي، فإن من الصعوبة بمكان لأية شركة خاصة أن تقوم بأعمال تجارية مع حكومة شيوعية، فبعد فترة قصيرة من الاندفاع «الليبرالي» تراجع نظام الحكم الصيني وركز على عبارات عدم الرضى التي هددت بأن تفلت من اليد، وقد قوبل التحرك السوفييتي داخل أفغانستان بانتقاد حاد من قبل بكين، بيد أن الزعماء الصينين جعلوا الأمر واضحاً في مناطق أخرى بأنهم يحتفظون لأنفسهم بحق مواصلة أية سياسة خارجية يعتقدون أنها لمصلحتهم، بدلاً من السير دائماً وراء القيادة الأمريكية.

لقد كانت الصين دائماً سراً غريباً، والسؤال الذي يجب طرحه بإلحاح الآن هو: ما هو مدى عمق الاعتقاد الذي دفع ببكين للاتجاه نحو الغرب خارجياً، وبعيداً عن الماركسية العقائدية داخل بلدهم.

ويجب ألا يغرب عن البال أبداً بأن سياسة لينين الاقتصادية الجديدة خلال العشرينات ظلت لمدة خمس سنوات تشجع وترحب برأس المال، والخبرة الأمريكيتين، وما أن خدم ذلك أهدافهم، حتى اتخذ الكريملين قراراً بمتابعة ذاتية لهذه الأمور، وأعيد الأمريكيون و«الرأسماليون» الآخرون إلى بلدانهم، ومثل هذا الشيء قد يحدث في الصين ما لم يبق الزعماء الصينيون على قناعة بأن الاستثمار الأجنبي أمر لا مفر منه من أجل تقدمهم وأمنهم، وسيعتمد ذلك بدوره على ما إذا كان الأصدقاء، الجدد من العالم الرأسمالي سيتجنبون الانجرار، والإغراء من أجل وضع الربح السريع في المقام الأول، وقبل الاستثمارات الطويلة الأرجل، مما يجعل مستقبل معتمداً عل استمرار التعاون مع الغرب.

ولا يمكن التكهن في أي اتجاه ستسير السياسة الخارجية الصينية مستقبلاً، فيما عدا مجال، واحد وهو أن الصين ستقوم بكل ما يعتقد زعماؤها أنه يخدم مصالحها، والصينيون يحبون الأمريكيين أكثر مما يحبون الروس، فالروس يشكلون تهديداً لهم في الوقت الراهن، بينما لا نفعل نحن ذلك، وطالما يعتقدون بأن لدينا القوة والإرادة من أجل رفع المجن في وجه الروس فإن الصداقة الصينية الأمريكية ستكون محرك السياسة الخارجية للصين، وإذا ما أدى بهم سلوكنا في

آسيا، أو في أي جزء آخر من العالم إلى الاستنتاج بأننا لسنا صديقاً أو حليفاً أهلاً للثقة، فإنهم، لصالح بقائهم الذاتي، سيسعون إلى إيجاد تسوية مع الاتحاد السوفييتي، رغم خلافاتهم الإقليمية والإيديولوجية والشخصية مع الزعماء الروس، وهكذا فإن الدور الذي سيشغله الصينيون في المستقبل بأيدينا بقدر ما هو بأيديهم.

وبتعاملنا مع الصينين يمكننا أن نحظى باحترامهم فقط إذا أظهرنا أنفسنا تواقين لأن نجلب لهم السرور، فهم بحاجة لنا، على الأقل بقدر حاجتنا إليهم وربما أكثر، لأنهم أضعف منا، ولأن الخصم المشترك أقرب إليهم منا.

وعندما قمت بزيارتي الأخيرة إل الصين عام ١٩٧٩، كان اهتمام زعمائها في السياسة الخارجية يتركز على الأمن، وليس على التوسع، كانوا مهتمين بالانماء الداخلي، وليس بالمغامرة الخارجية، لكنهم أبدوا اهتماماً عميقاً بالتهديد السوفييتي، وما إذا كان رد الولايات المتحدة عليه سيكون كافياً، وإن النظرة العالمية المعقدة التي أظهروها لم تكن نظرة بأني إمبراطورية يفتش عن عوالم أخرى ليحتلها، بل نظرة رجل دولة يسعى للحفاظ على توازن عالمي للقوة، بحيث تكون بقية الدول الأخرى في أمان كدولته، فإذا ما سادت هذه النظرة خلال القرن القادم، ستكون الصين في الواقع «دولة عظمى ومتقدمة»، وقوة سلام عظيمة القدرة في العالم، وإذا ما أظهرنا بأننا شركاء أقوياء، ويمكن الوثوق بنا من أجل الحفاظ على الأمن، ستكون هناك فرصة أفضل بأن تلك النظرة ستسورد.

❖ ❖ ❖

الفصل السابع

القدرة العسكرية

«لم يرقد أي انسان في أي بلد كان، في فراشه وهو غير مطمئن لمعرفته بأن القنبلة الذرية، وطريقة استخدامها والمواد الخام اللازمة لصنعها محفوظة في أيدي الأمريكيين، ولست أعتقد بأننا كنا سنرقد جميعا مطمئني البال، لو أن الوضع كان مختلفاً، وكانت أية دولة شيوعية، أو فاشية جديدة تحتكر في الوقت الحاضر هذه الوسائط المرعبة».

ونستون تشرشل ١٩٤٦

«قد يكون لصالحنا إذا سمحنا لتفوق الولايات المتحدة أن يضمحل [وإذا ما تفوقنا في مجال الأسلحة] أشك بأننا قد نستخدم تفوقنا من حين لآخر كطريقة لنرمي بها بثقلنا بطرق بالغة الخطورة».

عضو مجلس الأمن القومي ١٩٧٨

فيكتور أو تجوف

كان المحلل الدفاعي هيرمان كاهن قد نشر كتاباً عام ١٩٥٩ عن «الحرب الحرورية النووية»، وقد لقي ذلك الكتاب مراجعة انتقادية متطرفة في مجلة «سيانتيفيك أمريكان» واحتج كاهن وطلب من المحررين أن ينشروا جوابه الذي أتى تحت عنوان «التفكير بما لا يفكر به»، ورفض دينيس فلانغان رئيس تحرير المجلة الطلب، ورد على كاهن يقول بأنه «ليس هناك معنى للتفكير بما لا يفكر به، ومن المؤكد بأنه من الأجدي بكثير أن نفكر بما يفكر به»، واستطرد فلانغان يقول: «الحرب النووية أمر لا يفكر به، وإنني أفضل أن أوقف أفكاري على كيفية الحيلولة دون وقوع الحرب النووية».

ولعل الترجيح الذي يتحدث عنه المحرر كان مسوغاً قبل عقدين من الزمن، أي عندما كانت الولايات المتحدة تتفوق على الاتحاد السوفييتي تفوقاً ساحقاً في المجال الاستراتيجي النووي، وربما كان بوسع الشعب الأمريكي آنذاك أن يعيش في تجاهل للحقائق المرعبة لنزاع القوى العظمى، والمواجهة النووية الهائلة، فمثل هذا النزاع ومثل هذه المواجهة يمكن أن يحكم عليهما بحق أنهما تقعان خارج نطاق الممكن.

لكن ما «لا يفكر به» لم يصبح قابلاً للتفكير به فقط، وإنما أصبح شيئاً يتوجّب علينا أن نفكر به، إن فقدان التفوق الاستراتيجي الأمريكي يستدعي ويتطلب منا فهم الاحتمالات والنتائج التي قد تنجم عن قيام مواجهة نووية ممكنة، وأكثر من ذلك علينا أن نستوعب مفهوم التوازن الاستراتيجي الذي من شأنه أن يحول دون حدوث المواجهة المذكورة.

لقد كان التفوق النووي ذا فائدة كبرى لنا، عندما كنا نتمتع به، وسيكون خطراً مميتاً لنا إذا ما سمحنا للروس أن يتمتعوا به ويحافظوا عليه.

إن حقيقة توفر المزية الاستراتيجية بأيدي الولايات المتحدة والغرب تقلل من خطر الحرب، أو الهزيمة بدون حرب، أما توفر المزية الاستراتيجية بأيدي الاتحاد السوفييتي فتزيد من خطر الحرب، أو هزيمة الغرب بدون حرب، فمع شبح النقص الاستراتيجي الماثل أمام وجهنا، يجب علينا الآن أن نستعيد ميزان القوة، بحيث نستطيع ردع الإعتداء السوفييتي، ونستبقي على الحرية لأنفسنا ولكافة البلدان الحرة، ولا بد لي من أن أؤكد الآن بالذات على أن التوازن الاستراتيجي قد أصبح «بالغ الخطورة»، كما جاء على لسان رئيس الأركان المشتركة، في حين أن خياراتنا من أجل التعامل مع الاعتداء السوفييتي المحلي المحدود قد قلت في مختلف أجزاء العالم، وتدنت إلى ما يقرب من الصفر.

فالولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي هما القوتان العظيمتان فقط، وفي مجال القوة النووية يتحرك السوفييت بخطى سريعة نحو مركز التفوق الواضح، وإن ذلك التفوق يشكل تهديداً بسبب حقيقتين اثنتين تدعوان لإثارة القلق العميق: أولاهما إن التفوق سيخلق قبل أن يكون بمقدور الولايات المتحدة أن تفعل شيئاً. وذلك في ضوء البرامج والتمويل الحاليين، وثانيتهما إنه سيتميز بضعف خطير لقواتنا الرادعة، وتباين كامل يوفر الأفضلية في القدرة على القتال والكسب والتعافي من الحرب النووية، ويعني ذلك بأن القادة السوفييت سيكونون قادرين على «ردع قوتنا الرادعة»، وتهديدنا بمزيد من الثقة بالتصعيد النووي أكثر مما نهددهم نحن، وفي الوقت ذاته يتمتع السوفييت بميزة كبيرة عنا في مجال القوات الأرضية التقليدية، وفي مجال القوات النووية العملياتية، كتلك المخصصة للاستخدام في مناطق معينة، كأوروبا والشرق الأقصى، وإن اقترابهم الجغرافي من كثير من مناطق المواجهة المحتملة . أوروبا والشرق الأوسط وآسيا وأفريقيا . يوفر لهم ميزة إضافية، ولقد كانت الولايات المتحدة بصورة تقليدية متفوقة في مجال القوة البحرية، إلا أن الاتحاد السوفييتي يسير بسرعة نحو إغلاق الهوة الفاصلة في ذلك المجال أيضا.

وترسم هذه الحقائق أمام الغرب صورة تنذر بالسوء، فالدول تميل إلى تفضيل الأدوات التي تتجاوزها، ويفضل السوفييت القوة العسكرية كأداة للسياسة، وليس الروس وحدهم بل الشيوعيون بصورة عامة كانوا يلحون دائماً، ويصرون على الأهمية الفائقة للقدرة العسكرية، وكان ماوتسي تونغ قد صرح قبل وقت طويل قائلاً: «القوة السياسية تنطلق من سبطانة البندقية»، كما أنه قال في إحدى تعليقاته بأن «السياسة حرب بدون إراقة دماء، والحرب سياسة بإراقة دماء»، وعرّف خروتشوف سياسته على أنها «قوة وارضاخ للعدو فقط، وليس باستطاعتنا أن نقولها بصوت عالٍ أي أننا نقوم بتنفيذ سياستنا من مركز قوة وهكذا يجب أن يكون الأمر».

وعند النظر إلى ميزان القوى العسكرية بين الشرق والغرب وتقويمه، من المهم أن نتذكر بأن كلا الجانبين يتسلحان لأغراض مختلفة، فلقد انغمس السوفييت في سباق التسلح، وعقدوا العزم على ذلك لأنهم يرغبون في تحقيق التفوق على الولايات المتحدة، وهم ماضون في مواصلة جهودهم وزيادتها في هذا المضمار، عاماً بعد عام، أما جهدنا نحن فلم يواكبهم، بل إنه تدنى في الحقيقة،

وكانت الولايات المتحدة قد تبنت في الستينات عن عمد مبدأ مكنمارا، الداعي إلى ضبط النفس والذي كان يرمي إلى قيام ضبط من قبل السوفييت، ويؤدي للوصول إلى اتفاقات تحديد الأسلحة مما يعود بالنفع على الجانبين، لكن السوفييت بدلاً من ذلك اغتنموه من أجل الإسراع في تحركهم نحو تحقيق التفوق، فقد قام السوفييت بالسباق، لكن الولايات المتحدة لم تفعل ذلك، وكانت النتيجة أن حصل تبدّل سريع في ميزان القوى لا سابق له في التاريخ، فلم تختلف جهود الطرفين فحسب بل اختلفت نظرتاهما إلى طبيعة المنافسة، ففي الغرب يحافظ على السلاح كضرورة للدفاع، أما في الشرق فيحافظ على السلاح من أجل تحقيق توسع القوة السوفييتية، وهكذا فليس «سباق التسلح» سباقاً بين متنافسين اثنين على هدف واحد، إنه أقرب اليوم للتشبيه بسباق بين الصائد والمصطاد، فإذا فاز المصطاد يعيش الاثنان، وإذا فاز الصياد يعيش واحد فقط.

إن الخلل في ميزان النوايا يؤثر على ميزان القوى وهو يضع السوفييت على «حافة» الاعتداء، فالمعتدي يختار زمان ومكان الاشتباك سواء في أدغال فيتنام، أو ضربة في قلب أوروبا، أو مواجهة قارية، وعلينا أن نصد «حافة» هذا المعتدي بردع فعال، سواء بتفوق قواتنا، أم بالمهارة والعزيمة التي نستخدمها بهما، ولكي نخلق حالة من التوازن في الصراع . للحفاظ على أمننا . فإننا بحاجة إما لمزيد من القوة التي تتغلب بها على ميزتهم المتأصلة أو دليل واضح على أن إرادتنا في استخدام قوتنا للدفاع عن مصالحنا مساوية لإرادتهم، ذلك هو السياق الذي ينبغي علينا أن ننظر فيه إلى التوازن الاستراتيجي.

كان التفوق النووي الأمريكي قد حافظ على السلام لمدة ربع قرن من الزمن، والآن وبعد أن أنتهى التفوق، إذا ما توصلت الاتجاهات الحالية، فإن السوفييت سيتمتعون بالتفوق النووي الاستراتيجي في منتصف الثمانينات.

فما هو التفوق يا ترى؟ لقد كان يعني عندما كان في أيدينا، خط الأمان الذي كان يضمن بأن السوفييت لن يغامروا بمواجهة نووية للمضي إلى تحقيق غايتهم للسيطرة على العالم، أما في أيدي السوفييت فسيصبح الخط الذي يمكنهم من متابعة سيرهم في الاعتداء الإقليمي، دون أن يتوقعوا أي رد نووي شامل، كما يمكنهم من التأمل في العمل النهائي لاتجاههم نحو السيطرة على العالم، وهو توجيه الضربة الأولى ضد الأهداف العسكرية في الولايات المتحدة، والتي من شأنها أن تقضي على قدرتنا على الرد بضربة معاكسة من شأنها أن تعدّل من استطاعتهم على القيام بالضربة الثانية، وسيتركهم ذلك عندئذ في موقف ليقدموا منه القرار النهائي: فإما الاستسلام وإما الزوال.

ففي محادثات الحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت ١) عام ١٩٧٢ وضع التعادل، أو التكافؤ بكلام آخر، مع تعديل جاكسون كأساس لسياسة الولايات المتحدة، والتعادل حالة ليست سهلة، وذلك بسبب حد سيف المعتدي، فطالما أننا نعيش في حالة تعادل، إنما نعيش في خطر، لكن التعادل بحد ذاته أفضل قطعاً من الدونية أو التقصير، إذا جاز التعبير، والتعادل أمر يمكن

للمتفاوضين أن يتفاوضوا عليه، ولا يمكن أن يتم النفع المتبادل بين القوى العظمى والتوصل للاتفاق عليه إلا على أساس التعادل، فالتعادل الاستراتيجي وضع يمكننا أن نعيش فيه بأمان، اللهم إذا كان تعادلاً حقيقياً وإذا كانت لدينا أيضاً القوة الكافية في مجال مسرح عمليات الأسلحة النووية، وإذا كانت لدينا قوات أرضية تقليدية قوية، وإذا أبدينا الإرادة والمهارة في استخدام قدراتنا، وإذا ما ربطنا بنجاح بين الأمور التي يريدها السوفييت في المجالات العسكرية والاقتصادية، وبين الأمور التي نريدها في المجال السياسي، وأهم شيء على وجه الخصوص هو تقييد المغامرة السوفييتية، وفي حين أن التفوق يكون مفضلاً في مثل تلك الظروف، فإن التعادل يكون مقبولاً، ولكن في تلك الظروف فقط.

وما أقصده بالتعادل ليس شيئاً من القدرة القوية على «التدمير المضمون» أو الحد الأدنى منها، فالتعادل لا يعني قبول فوارق كبيرة بين قدرات الولايات المتحدة وقدرات السوفييت، بل يعني أن قواتنا الاستراتيجية يجب أن تكون كافية لتنفيذ المهام وتحقيق الأغراض التي نرسمها، وألا تكون أقل قدرة من قوات الاتحاد السوفييتي، والتعادل يعني بأنه ليست لدى السوفييت ميزات لا يمكن صدها بميزات من قبل الولايات المتحدة، وليست لديهم إمكانيات يتمكنون من استغلالها ضدنا عسكرية كانت أم سياسية.

وهذا يعني بالمفاهيم العسكرية أنه ينبغي ألا تكون لدى الاتحاد السوفييتي المقدرة على كسب حرب ضد الولايات المتحدة، أما بالمفاهيم السياسية فيعني بأنه ينبغي على الزعماء السوفييت ألا يظنوا بأنهم يتمتعون بميزة استراتيجية نووية على الولايات المتحدة، كما أنه ينبغي على قادة أية دولة أخرى ألا يعتقدوا بأن لدى السوفييت مثل تلك الميزة.

ومن الضروري بمكان أن يكون لدى الولايات المتحدة، وأن ينظر إليها على أنه لديها، على الأقل من المرونة والحداثة في قواتها ما لدى السوفييت في قواتهم، بالإضافة إلى ما لديها من ثقل الوزن بكل بساطة، وأن لديها رؤوساً حربية وعدداً من قواعد قواذف الصواريخ بقدر ما لديهم، ولكي تتعامل بصورة فعالة مع القوات النووية الاستراتيجية السوفييتية في المستقبل يطلب منا أن تكون لدينا قوات انتقامية بإعداد كافية، وبأنواع كافية من السلاح، لكي تضمن النجاة، وتحافظ على بقائها ضد أي هجوم مباغت عليها متقن التنفيذ، ثم تقوم بتنفيذ المهمة الانتقامية المحددة لها بطريقة تسيطر فيها على التصعيد بدلاً من أن تسبّبه هي ذاتها، أي أن ذلك يعني بأنها يجب أن تكون قادرة على خرق الدفاعات السوفييتية، وتدمير أهداف عسكرية . داخل الاتحاد السوفييتي مع الاحتفاظ بقوات احتياطية كافية لكي تشكل ردعاً كافياً متبقياً.

فبوجود التعادل على نحو ما جرى تعريفه، ليس من المحتمل أن يقوم السوفييت بشن الضربة الأولى على الولايات المتحدة، ومن غير المحتمل أيضاً أن يتورطوا بنوع من الاعتداء العلني الذي قد يحسب على أنه سيؤدي إلى قيام رد نووي استراتيجي، ومن هنا كان التعادل الاستراتيجي يوفّر لنا فرصة إبقاء الشيطان النووي محصوراً في بوتقته، ويضمن للجانبين بأن الأسلحة النووية

ستستخدم سياسياً ودبلوماسياً بدلاً من أن تستخدم عسكرياً لكنه لا يخلق بيئة أو وسطاً خالياً من الخطر، كما أنه لا يريحنا من عبء ضرورة المحافظة على قوات تقليدية قوية، وقوات مسرح عمليات نووية قادرة على الحفاظ على ميزان محلي للقوة في كل منطقة معرضة للخطر، فضلاً عن أنه لا يزيل عن كاهلنا عبء الحاجة لاستخدام القوة، وأن نشكل تهديداً صحيحاً باستخدامها إذا ما تعرضنا للتحدي، وإن حد سيف المعتدي يجب أن يعدّل، ويحايد بقدرة وإرادة أولئك الذين يهددهم المعتدون.

إن التعادل في المجال الاستراتيجي النووي يجعل الأمر أكثر الزاماً لنا كي نزيد بصورة أساسية من قواتنا ذات الغرض العام، وأن نحسن قدراتنا الإقليمية، وفيما مضى كان تفوق الولايات المتحدة النووي يعوض عن الخلل في الموازين الإقليمية لقواتنا التقليدية، وعندما كانت الولايات المتحدة تتمتع بالتفوق النووي كان القادة السوفييت ملزمون على أن يضعوا في حسابهم أن القيام بعمل عدواني عسكري في أي مكان من العالم قد يؤدي إلى استخدام القدرة الاستراتيجية الأمريكية ضد الاتحاد السوفييتي، لكن التعادل الاستراتيجي يزيد إلى حد كبير من أهمية أي تفوق سوفييتي إقليمي في القوات التقليدية والقوات التكتيكية النووية، وبذلك فإنه يزيد من تهديد أمن تلك المنطقة.

فضمن الإطار الشامل للتعادل الاستراتيجي يسير الدور العادي والدور المضاد لكل من القوة والديبلوماسية قدماً نحو الأمام على مستويات أخرى، ويمكن للتعادل أن يكون كافياً، إذا كنا من القوة ما فيه الكفاية في مجالات أخرى . كقوات مسرح العمليات النووية، والقوات التقليدية، وقوة وتماسك حلفائنا، وإرادة ومهارة قادتنا . لكي نضع المغامرة السوفييتية تحت المراقبة دون أن تحقق ميزة استراتيجية، وإذا ما أخفقنا في تلك المجالات فلن يكون التعادل عندئذ كافياً، ويتوجب علينا إذ ذاك أن نواصل سباق التسلح الشامل، ونمضي جميعاً من أجل الانتصار، وبغير ذلك ستكون الخسارة من نصيبنا.

من تفوق الولايات المتحدة النووي إلى التعادل

في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة انهمكت الولايات المتحدة في نزع تسلح مرتجل وأحادي الجانب، فلقد قمنا بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٧ بتخفيض عدد قواتنا التقليدية من ١٤٫٥ مليون إلى ١٫٨ مليون، وقد كان لتلك السياسة ما يسوغها بصورة جزئية، بسبب احتكارنا للأسلحة الذرية.

ولقد علمتنا مشكلة كوريا بأن الأسلحة ليست كافية لردع حرب تشن بالأسلحة التقليدية، وكانت الحرب الكورية، وما دلت عليه من خطط الاتحاد السوفييتي العالمية قد صدمت الولايات المتحدة، وحدت بنا إلى القيام ببناء كل من قواتنا التقليدية والنووية، وإقامة نظام عالمي من القواعد التي تحيط بالاتحاد السوفييتي، وظل السوفييت يحافظون على جيوش أرضية أضخم،

وكانوا قد قاموا بتفجير قنبلتهم النووية الأولى في عام ١٩٤٩، وكانوا ينتقصون إلى نظام اطلاق قاري، وعلى أية حال كانت مساعي الولايات المتحدة الجبارة قد مكنتنا من المحافظة على تفوق لا جدال حوله في مجال القوات النووية، ومجال عرض قدرتنا في أية منطقة من العالم، كانت تتأثر مصالحنا فيها، وحتى بداية السبعينات لم يكن هناك انسان يشك بأن الولايات المتحدة كانت أقوى بلد في العالم، وكان وجود القدرة الأمريكية يردع العدوان العلني، ويجبر الشيوعيين على السير تحت الحدود بدلاً من السير فوقها.

وبفضل هذا التفوق استطاعت الولايات المتحدة أن تردع التدخل السوفييتي في أزمة برلين عام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩، وفي حرب الشرق الأوسط عام ١٩٥٦، وحرب لبنان عام ١٩٥٨، حيث كان التفوق البحري الإقليمي للولايات المتحدة يشغل دوراً حاسماً، وخلال أزمة الصواريخ في كوبا عام ١٩٦٢ جعلت الميزة التي كانت الولايات المتحدة تتمتع فيها على الاتحاد السوفييتي في مجال الأسلحة النووية بنسبة تفوق قدرها ١٥ إلى ١ باستطاعة كندي أن يحمل خروتشوف على التراجع.

وفي تلك الأثناء كان البناء النووي السوفييتي يشق طريقه، وازدادت حدة تسارعه بعد أزمة كوبا، وقد قال فاسيلي كوزنيتسوف، النائب الأول لوزير الخارجية السوفييتي، لمضيفه الأمريكي جون مالكوي: «لن تكونوا أيها الأمريكيون قادرون على أن تفعلوا ذلك تجاهنا مرة أخرى أبداً».

ورغم التهديد الذي كان يشكله تعاظم بناء القدرة النووية السوفييتية فإن برامجنا نحن قد تدنت عن مستواها، وكما جاء على لسان محلل سابق في وكالة الاستخبارات المركزية في وصف قدمه مؤخراً، إذ قال «إن موقف الولايات المتحدة في عهد وزير الدفاع مكنماراً انصف بالتزام ضبط النفس من جانب واحد».

وفي عام ١٩٦٥ كان مكنمارا قد قدم تسويغاً لعملية الضبط أو الاقناع تلك عندما قال: «لقد قرر السوفييت بأنهم قد خسروا السباق الكمي.. وليست هناك أية دلالة على أن السوفييت يسعون نحو تطوير قوة نووية استراتيجية بضخامة قوتنا»، لقد كان ذلك بمثابة خطأ بالحسابات انطوى على مأساة كبيرة، وقد جاء قول الدكتور فريد ك. ايكلي الرئيس السابق للهيئة الأمريكية للحد من الأسلحة ولنزع التسلح عندما وصف العملية بأنها «اخفاق لجهاز الاستخبارات» خير تفسير، وظل التقدير السنوي الذي كانت تقوم به استخبارات الولايات المتحدة، وعلى مدار احدى عشرة سنة يقلل إلى حد كبير من عدد الصواريخ الهجومية التي قد يستخدمها الاتحاد السوفييتي، وذلك خلال الستينات ومطلع السبعينات، وكذلك يقلل من جهده في مجال القوة النووية الاستراتيجية الكلية.

وتتضح الزيادات التي طرأت على القوة العسكرية السوفييتية مقابل القوة العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية من مقارنة النفقات الدفاعية في البلدين، وكانت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (سي.آي.ايه) قد قدرت بأن النفقات الدفاعية للاتحاد السوفييتي خلال العقد الماضي قد بلغت من ١١ ـ ١٢٪ من إجمالي الانتاج الوطني، بينما تقول تقديرات أخرى موثوقة بأن الجهد

الدفاعي السوفييتي في السبعينات قد وصل إلى ما بين ١٤ . ١٥٪، مع وجود تقديرات حسنة الإطلاع تقول بأن خطط النفقات قد وصلت إلى ١٨٪ من إجمالي الإنتاج الوطني عام ١٩٨٠، وإن زيادة هذه الأرقام يشك بصحتها لأن وكالة الاستخبارات المركزية في الماضي كانت تميل إلى التقدير دون الحدود بدلاً من المبالغة في التقدير، وبالمقارنة فقد تدنت الميزانية الدفاعية في الولايات المتحدة من ٩٪ من إجمالي الإنتاج القومي في عام ١٩٦٨ إلى ٥٪ في عام ١٩٧٨، وقد انخفضت نفقات الولايات المتحدة من أجل الدفاع خلال السنوات العشر الماضية بالدولار الثابت (مع عدم حساب التضخم) بمعدل الثلث في حين أن النفقات الدفاعية السوفييتية أخذت تواصل زيادتها عاماً بعد عام، وقد قدر أن الاتحاد السوفييتي قد أنفق ما قدره ١٠٠ بليون دولار تقريباً زيادة عما انفقته الولايات المتحدة بين عام ١٩٧٣ وعام ١٩٧٨ على بناء الأسلحة و٤٠ بليون دولار على الأبحاث في مجال الأسلحة وتطويرها، والمسألة لا تكمن في أعظم بناء للأسلحة منذ أعمال هتلر في هذا الصدد في الثلاثينات فحسب بل في التدني الكبير الذي أصاب الولايات المتحدة أيضاً، وقد فسر وزير الدفاع هارولد برلون في تقرير وزارة الدفاع الأمريكية لعام ١٩٨٠ هذا الأمر عندما قال:

لما ارتفعت ميزانياتنا الدفاعية قام الاتحاد السوفييتي بزيادة ميزانيته الدفاعية، ولما انخفضت ميزانياتها الدفاعية ازدادت ميزانيتهم الدفاعية أيضاً، وفي الوقت الذي تدنى فيه عدد القوات الأمريكية في أوروبا الغربية في الستينات، اتسع نطاق زج القوات السوفييتية في أوروبا الشرقية.

وفي الوقت الذي حافظت فيه القوات النووية العملياتية الأمريكية على مستوى ثابت، ازدادت فيه قوات العمليات النووية والهجوم المحيطي السوفييتية، وبينما أخذ عدد القوات البحرية في الولايات المتحدة بالانخفاض، أخذ عدد القوات البحرية السوفييتية بالازدياد، وهذا لا يساوي شيئاً، حيث أن معدل الزيادة في مساعيهم الدفاعية يتماشى بصورة قريبة جداً مع الزيادة الكاملة في النمو الاقتصادي السوفييتي، في حين أن الجهد العسكري للولايات المتحدة أخذ يضمحل كجزء من اقتصادنا.

وقد كان من الدراج الادعاء بأن السوفييت يريدون فقط مجاراتنا، ولكنهم في عام ١٩٧١ لحقوا الولايات المتحدة في إجمالي النفقات، وكانوا خلال العقد الماضي قد تجاوزونا في انفاقهم بمعدل ثلاثة أضعاف في مجال القوات النووية الاستراتيجية، وبمعدل ٧٥٪ على الأقل في مجال قوات الغرض العام، ولما كانت تكاليف العناصر والعمليات تشكل فقط ٣٠٪ من الميزانية العسكرية السوفييتية بالمقارنة مع ٦٠٪ مما تكلفه في الولايات المتحدة، فإن ذلك التفاضل يتضاعف كثيراً عندما يتعلق الأمر بالعتاد العسكري.

وإذا ما نظرنا إلى التسلح التقليدي فقط نجد بأنهم الآن يمتلكون سفن قتال سطحية رئيسية أكثر مما تمتلكه الولايات المتحدة، وضعف ما تمتلكه من الغواصات الهجومية، بالإضافة إلى أسطول من الغواصات الحاملة للصواريخ قوامه سبعين غواصة، والتي لا نملك منها شيئاً، ولقد

أطلقوا مؤخراً غواصة نووية تزيد سرعتها على /٤٠/ عقدة، وتغوص لعمق ٢٠٠٠ قدم زيادة عن أي شيء لدى الولايات المتحدة، ولديهم من الرجال تحت السلاح أكثر من ضعفي ما لدينا، وأربعة أضعاف ما لدينا من المدافع، فنحن ننتج /٤٠/ دبابة ثقيلة ومتوسطة في الشهر، في حين أنهم ينتجون /٥٠/ واحدة في الاسبوع، وفي مجال القوات النووية الاستراتيجية قدرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في عام ١٩٧٨، بأن النفقات السوفييتية، فيما عدا الأبحاث والتطوير والتجارب والتقويم، تبلغ ثلاث أضعاف نفقات الولايات المتحدة، وكانت ضعفي ونصف ما كانت عليه نفقات الولايات المتحدة خلال السنوات العشر الماضية.

ومنذ منتصف الستينات عندما بدأ مكنمارا سياسته التي اتصفت بالاقناع الأحادي الجانب لم نكن جدياً ننافس الاتحاد السوفييتي في تطوير القوات الاستراتيجية، ومنذ ذلك الحين كانت سبعة أنواع جديدة من صواريخ القذائف العابرة للقارات السوفييتية ICBM قد وضعت في الخدمة، ثلاثة قبل معاهدة الحد الأدنى من الأسلحة الاستراتيجية (سالت ١) وأربعة منذ عام ١٩٧٢ بموجب اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت ١).

ومع ذلك فهناك جيل خامس من القذائف الصاروخية العابرة للقارات ICBM قيد التطوير الآن، ومنذ منتصف الستينات أيضاً كان السوفييت قد وضعوا تحت الاستخدام أربعة أنواع من القذائف الصاروخية التي تطلق من الغواصات ICBM، ثلاثة منذ عام ١٩٧٢، وثلاثة أنواع جديدة من الغواصات الاستراتيجية والقاذفة الأمريكية ب ١ التي ألغيت ويقارب وزنها ثلاثة أرباع القاذفة الأمريكية المذكورة، أما في الولايات المتحدة فقد وضعنا نوعاً واحداً فقط من القذائف الصاروخية العابرة للقارات ICBM، ونوعين من القذائف الصاروخية التي تطلق من الغواصات SLBM قيد الانتاج منذ منتصف الستينات، والصاروخ العابر للقاراتماينوت مان ثلاثة: Minute Man III وصاروخ بوزيديون وصاروخ ترايدنت . ١ الذي بدأ الآن يسير على الخط، وخلافاً لذلك فقد بقينا نعتمد على القاذفة ب ٥٢ التي يعود عمرها إلى الخمسينات وبداية الستينات، والتي أصبح بعضها أكبر سناً من الطيارين الذين يقودونها، والصواريخ العابرة للقارات التي تعكس خطط وقرارات الاستخدام في مطلع الستينات، لقد قمنا بالغاء القاذفة ب . ١ وأجّلنا استخدام الصاروخ العابر للقارات م أكس MX الجديد بمعدل ثلاثة سنوات على الأقل، كما أننا تباطأنا بإنتاج غواصات ترايدنت.

وقد انحدرنا من موقع التفوق الذي لم يكن من جدال حوله في بداية الستينات، إلى موقع أفضل ما يقال عنه في أحسن الأحوال: موقع التبادل، وإننا نواجه تفوقاً سوفيتياً حاسماً في منتصف الثمانينات، وهذا ما يستوجب منا أن نعيد التفكير في الافتراضات الأساسية التي تكمن خلف فكرة الردع الأمريكية، وإننا مجبرون الآن على أن نفكر بما لا يفكر به.

من التعادل إلى التفوق النووي السوفييتي

إن الأول من أيار بالنسبة للولايات المتحدة والغرب يعني إشارة الإنذار الدولية، أما بالنسبة للاتحاد السوفييتي، فهو يوم الاحتفال السنوي بالحركة الشيوعية العالمية، وإن الأول من أيار عام ١٩٨٥ قد يشهد الفكرتين التاليتين وقد صهرتا في قالب واحد، كما قال في هذا الصدد بول نيتز معلقاً على التوازن الاستراتيجي.

«خلال السنوات الخمسة عشر الماضية لم يكن من المجدي لأي طرف بأن يشن الهجوم الأول، حيث أنه كان سيطلب من الطرف المهاجم استخدام الصواريخ العابرة للقارات، أكثر مما يمكن أن يدمره الهجوم، ومع حلول الثمانينات، وفي بدايتها سيكون ذلك الوضع قد تبدّل، فمع ذلك الوقت سيكون الاتحاد السوفييتي في مركز قادر منه على تدمير ٩٠٪ من قذائفنا الصاروخية العابرة للقارات، حتى ولو افترض المرء نجاة معظم قاذفاتنا الموضوعة في حالة تأهب، وبالوقت الكافي للقيام برد فوري، وبغواصاتنا في البحر لوقت أطول بكثير، فإن الباقي تحت سيطرتنا بعد هجوم سوفييتي أولي معاكس سيكون من الناحية الاستراتيجية في حكم المغلوب بفعل المقدرة التي يحتفظ بها الاتحاد السوفييتي على شن الحرب.

وفي خطاب ألقاه وزير الدفاع الأمريكي براون في الأكاديمية البحرية في الولايات المتحدة، أشار الوزير إلى أن السوفييت عاكفون منذ أكثر من عشر سنوات على اعتماد سياسة بناء قوات من أجل القيام بهجوم وقائي شامل على الصواريخ العابرة للقارات في الولايات المتحدة، وأضاف الوزير يقول بأن الاتحاد السوفييتي في أوائل الثمانينات سيمتلك أعداداً كافية من صواريخ اس اس ١٨ وإس اس ١٩ SS ١٨ SS ١٩ ليضمن تدمير الغالبية العظمى من قواعد صواريخ، ما ينوت مان العابرة للقارات في هذا البلد وذلك بهجوم مباغت وبحسابات بالغة الدقة.

ومن المقدّر بحلول عام ١٩٨٥ بأنه مع أو بدون المباحثات للحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت ٢) سيتمتع بميزة في قوة القذائف الصاروخية العابرة للقارات بنسبة ٦ . ١ علينا في مجال المقدرة العسكرية المضادة، وحوالي ٥ . ١ في ثقل الوزن، وأكثر من ٣ . ١ في أعداد عربات إعادة الدخول، وأكثر من ٥ . ١ في مجال تقديم الميغاتوناج (وزن الميغاطن) ومساواة في الدقة الشاملة، وستكون النتيجة تقصيراً كبيراً في مجال قدراتنا في الرد على الضربة الأولى حيث سيكون الاتحاد السوفييتي قد سبقنا بشوط كبير وسيكون الدمار الذي سيلحق باستقرارنا الاستراتيجي، وأمننا بمثابة جرح بليغ أصبنا نفسنا به ذاتياً، ومن المعترف به الآن بأن قوتنا في مجال القذائف الصاروخية العابرة للقارات ICBM ستكون ضعيفة في وجه الضربة الأولى، كما أن قواتنا القديمة من قاذفات ب ٥٢ التي يجعل ٢٠٪ منها محملاً، وفي حالة جاهزية على الأرض، ستكون معرضة، على الأرض وفي طريقها إلى الأهداف، للضرب بشكل هش، وسيكون نظام انذارنا واتصالاتنا أيضاً عرضة للهجوم، وايقاع الفوضى بين صفوفه، فضلاً عن أن قدرات السوفييت الحربية المضادة للغواصات قد لا تسمح بالثقة على بقاء ونجاة غواصاتنا في البحر لوقت إضافي، وهي تشكل

تقريباً ٥٠% من القوة وفي جميع الأحوال فإن شبح الاحتياطي الاستراتيجي السوفييتي الهائل . التي سيكون عشرة أضعاف احتياطينا على الأقل، بعد ضربة أولى . سيقلل من خطر التهديد الذي تشكله القوات المتبقية لدى الولايات المتحدة إضافة إلى أن الدفاعات السوفييتية الإيجابية والسلبية ستخفف من تأثيرها، إذا ما استخدمت.

وكما أعلن هنري كيسنجر أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ عندما قال في ٣١ تموز عام ١٩٧٩ .

«قلما وجد في التاريخ بلد قبل بصورة سلبية كهذه مثل هذا التبدّل الجذري في الميزان العسكري، وإذا كان لنا أن نتعافى منه ونتخلص من آثاره فلا بد لنا من الاعتراف بحقيقة أننا وضعنا أنفسنا في موقع الخسارة بشكل طوعي».

كان كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في بداية الستينات قد اختارا لنفسيهما موقفين مختلفين اختلافاً أساسياً حيال الردع النووي، فقد حاولت الولايات المتحدة أن تفصل بين الدفاع والردع، غير أن السوفييت رفضوا أن يفعلوا ذلك، ووجهوا تخطيطهم نحو القدرة على خوض حرب نووية والنجاة منها وتحقيق كسبها.

أما بالنسبة للتفكير الأمريكي فقد استبدل التفوق النووي ومحاولة الحد من الدمار في حال وقوع حرب نووية بنظريات الردع التي أكدت على حتمية الحاق الدمار الشامل بالسكان المدنيين، وقد ارتبطت هذه النظريات بالاعتقاد الموجه نحو الحد من التسلح، وأن الأسلحة النووية فوق الحد الأدنى الضروري ينتقص للفائدة السياسية والعسكرية، ونشأت نظرية التحديد التي قيدت دور الأسلحة النووية وحصرته بصورة أساسية «بالردع فقط»، أي التهديد بالعقاب الانتقامي من مجتمع المعتدي، وقد جاءت هذه المقدرة الانتقامية على ما يسمى بالتدمير المؤكد لتقاس إلى درجة كبيرة، على أساس مصائر السكان الذين يعتبر عددهم كافياً لردع هجوم شامل، أما التدمير المؤكد فلم ينطبق على الهجمات المحدودة، الأمر الذي يعتبر من أحد مساوئه الرئيسية.

وكان ذلك الإجراء وقتئذ بمثابة خطوة قصيرة للافتراض، بأن الزعماء السوفييت قد نظروا إلى الردع بنفس الطريقة، أو أنهم سينظرون إليه كذلك، على الأقل ببعض المساعدة من قبل الولايات المتحدة، والاعتقاد الذي لا يقل سذاجة عن ذلك هو أن مساعي الولايات المتحدة الاستراتيجية، كانت المحرك الذي دفع الردود السوفييتية، وأدى إلى الاقتناع بأن اقتناع الولايات المتحدة سيقابل بإجراء مماثل من قبل الاتحاد السوفييتي، فوفقاً لهذه النظرية، إذا كان إجراء الولايات المتحدة هو الذي سبب رد الفعل السوفييتي فإن التوقف الأمريكي عن العمل كان الشرط الأساسي لتوقف مماثل من قبل السوفييت، وإذا كانت الولايات المتحدة قد مدت من قدراتها النووية بصورة أساسية لدرجة متطلبات التدمير المؤكد، وإذا ما أعطي الاتحاد السوفييتي الفرصة لامتلاك مثل هذه القدرة، أي لمجاراتها، عندئذ سيخلق وضعاً من الردع المتبادل بين البلدين، وهذا ما يشجع على الوصول إلى اتفاقيات الحد من الأسلحة، ومهما يكن من أمر فلكي يتحقق هذا الشيء يتعين على

السوفييت أن يقصروا برامجهم الاستراتيجية وأهدافهم على التدمير المؤكد ويمتنعون عن كل من السعي إلى تحقيق التفوق وعن تحدي قدرات الولايات المتحدة على التدمير المؤكد، لكنهم لم يفعلوا، وبدلاً من ذلك فقد انتهزوا الفرصة للمضي قدماً نحو الوصول إلى التفوق النووي، وتحقيق أغراضهم الذاتية في خوض الحرب النووية.

ويرفض السوفييت من جانبهم الحجة القائلة بأن كلا الجانبين سيخسران في حال حدوث المواجهة النووية، وهم يعتقدون بأنه حتى الحروب النووية يمكن أن تخاض لأغراض سياسية، وأن أحد الجانبين يمكن أن يكسبها بالاستعداد الحذر والحريص، وإن الدمار الذي سيلحق بهذا الجانب قد يكون محدوداً، ويعتقدون أيضاً بأن مثل هذا الخوض للحرب النووية والقدرة على تحديد الدمار الناجم ليس أفضل رادع، وأفضل استراتيجية فحسب، في حال نشوب الحرب، بل انه الأساسي للاستخدام السياسي الفعال للقوة النووية، وإذا لم تعدّ أية قوة نووية العدة لنفسها كي تنجو من حرب نووية فهي لا تستطيع بصورة منطقية أو بثقة التهديد باستخدام الأسلحة النووية ضد قوة نووية أخرى، لأن ذلك يمكن أن يكون بمثابة ضرب من الانتحار الوطني.

هناك ثلاثة أخطاء جسيمة في مفهوم التدمير المؤكد المتبادل: الخطأ الأول، بالطبع، هو أن السوفييت قد رفضوا العمل بهذا المفهوم، وهذا من شأنه وحده أن يقضي على هذا المفهوم، والخطأ الثاني هو أن المفهوم بحد ذاته مفهوم خاطئ من الناحيتين السياسية والاستراتيجية، فهو يترك الولايات المتحدة أمام خيارات غير معقولة، إذا ما أخفق الردع، كما أنه لا يخدم أية أغراض سياسية أو عسكرية منطقية في حال نشوب الحرب، والردع المنطقي لا يمكن أن يقوم على ردود غير منطقية، فأي رئيس أمريكي في المستقبل، على سبيل المثال، سيغامر بنيويورك وفيلادلفيا وشيكاغو وواشنطن من أجل أن ينقذ برلين؟ والخطأ الثالث هو أن المفهوم خاطئ من الناحية الأخلاقية، ويجب على الولايات المتحدة ألا تضع نفسها البتة في موقع تعني استراتيجيتها منه ضمناً بأن القتل المتعمد للمدنيين هدف مناسب، ويجب ألا يقوم الردع على أساس مثل هذا التهديد، وإن هذين التناقضين الأساسيين، الاستراتيجي والأخلاقي، مرتبطان كلاهما بالآخر، ولقد كتب الاستراتيجي الصيني سون تسو في القرن الخامس قبل الميلاد يقول: «إن من الأهمية القصوى بمكان في الحرب أن تهاجم استراتيجية العدو، والشيء الأفضل الذي يلي ذلك هو أن توقع الفوضى والتفرقة بين صفوف حلفائه... وبعد ذلك تقوم بمهاجمة جيشه... إن أسوأ سياسة هي أن تهاجم المدن، هاجم المدن فقط عندما لا يكون أمامك خيار آخر».

بينما كانت إدارتي تسعى للوصول إلى وضع مستقر حيث الردع المتبادل والتعادل بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييت، كنا نرغب في الوقت ذاته في الابتعاد عن الاعتماد على التدمير المؤكد الذي بدا مسيطراً على التفكير والتخطيط الأمريكيين، وكنا نرغب أيضاً في استعادة الاعتبارات الاستراتيجية والسياسية التي كانت قد فقدت نتيجة فكرة التدمير المؤكد المتبادل، وفي عام ١٩٦٩ وضعنا أربعة مقاييس للإكتفاء الاستراتيجي، والتي كانت في جوهرها تشترط على أن

يكون التدمير المؤكد ضرورة لكنه ليس كافياً، وعلاوة على ذلك فقد طالبنا بقوات يمكن أن تضمن الاستقرار في حال قيام الأزمة، والتي لا تسمح للاتحاد السوفييتي بأن يحقق تفوقاً نووياً على الولايات المتحدة كما يمكن استخدامها للحد من الدمار الذي سيلحق بنا، في حال تعرضنا للهجوم.

وحاولت بطريقة أخرى أن أحول تفكيرنا وأبعده إلى حد ما عن مفهوم التدمير المؤكد، وفي خطابي حول السياسة الخارجية، الذي وجهته إلى الكونغرس عام ١٩٧٠، كنت قد طرحت سؤالاً واضحاً: هل ينبغي على أي رئيس أمريكي في حال وقوع هجوم نووي «أن يُترك أمام خيار وحيد بإصدار أوامره بالتدمير الشامل للسكان المدنيين لدى العدو مقابل أنه من المؤكد بأن ذلك سيعقبه الحاق مذبحة جماعية بالأمريكيين؟».

وفي خطابي لعام ١٩٧١ الذي وجهته بشأن السياسة الخارجية أيضاً، هيأت جواباً غير متكافئ: «ينبغي ألا يسمح . ولا لواحد . ممن سيخلفوني بالتدمير غير المميز لجماهير العدو المدنية، وذلك كرد وحيد على التحديات وهذا، على ما هو عليه، سيما وأن ذلك الرد يحمل معه احتمال قيام هجمات نووية على سكاننا نحن وجماهيرنا، وقد لا يكون من التماسك بشيء والتمشي مع المعنى السياسي للاكتفاء بأن نقيم تخطيط قواتنا فقط على أساس المقدرة النهائية . والنظرية . على ايقاع الخسائر التي يفترض بأنها غير مقبولة من قبل الجانب الآخر». وأكدت على أننا بحاجة في قواتنا الاستراتيجية إلى المرونة والخيار مما يساعدنا على اختيار وتنفيذ الرد المناسب دون اللجوء إلى التدمير الشامل.

وتصبح الحاجة إلى الخيارات أكثر الزاماً لنا، طالما أن السوفييت أصبحوا على وشك التمتع بالقدرة على القضاء على قدرة قوة الولايات المتحدة المضادة، وعندما يحققون ذلك الهدف سيكون أمام أي رئيس للولايات المتحدة، في ظل مبدأ التدمير المؤكد المتبادل خيار واحد ليمارسه في الرد على ضربة السوفييت الأولى . وهو الانتحار الجماعي، فهذا «الردع سيكون» غير فعال وغير أخلاقي، وبالتالي فإنه ينتقص لكل الثقة، وستكون السياسة الخارجية الأمريكية حينئذ رهينة العدوان السوفييتي.

وكان المفهوم الأمريكي السائد لسنوات عديدة هو أنه لا يمكن للحرب، ولن يمكن لها أن تحقق أي شكل ذي معنى للنصر لا العسكري ولا السياسي، أما المفهوم السوفييتي فقد تجلى بالاعتقاد بأن الحرب النووية . حتى ولو عنت كارثة كبيرة . يجب ألا تجرّد من معناها الاستراتيجي، ومهما كان هولها فالحرب النووية في نظرهم يجب أن يكون بالإمكان النجاة منها، وهي نوع من النصر ذي المعنى، والذي يمكن تحقيقه.

وفي هذا الصدد كتب المؤرخ ريتشارد بايبس من جامعة هارفرد يقول:

«إن المبدأ الأمريكي السائد يقول بأن الحرب الشاملة بين البلدان التي تمتلك ترسانات نووية كبيرة ستكون من الهول التدميري بحيث لا تترك فيها طرفاً رابحاً، وعليه فإن اللجوء إلى الأسلحة

لم يعد يمثل سياسة وطنية بالنسبة لزعماء مثل هذه البلدان كل في وجه الآخر... أما المبدأ السوفييتي بالمقارنة فيؤكد كل التأكيد على أنه في الوقت الذي تثبت الحرب النووية في الواقع على أنها ستصل إلى أبعد حدود التدمير الذي سيلحق بكلا الطرفين، فإن نتيجتها لن تكون الانتحار المتبادل بينهما: فالبلد الذي يكون على استعداد أفضل لها، ويتمتع باستراتيجية متفوقة يمكن أن يكسبها ويظهر كمجتمع أهل للانتصار».

ويمضي بايبس إلى طرح القضية من منظار تاريخي فيقول:

«إن البلد الذي تكبد، نتيجة حربين عالميتين وحرب أهلية، ومجاعة، ومختلف أنواع عمليات التطهير ما يقرب من ٦٠ مليون مواطن، يجب أن تختلف نظرته إلى «الضرر غير المقبول» عن نظرة الولايات المتحدة التي لم تعرف المجاعة في عمرها أو عمليات التطهير، والتي لا تتجاوز كافة الخسائر التي تكبدتها في جميع الحروب التي خاضتها منذ عام ١٧٧٥ الـ ٦٥٠٫٠٠٠ ضحية، وهذا العدد أقل من الخسائر التي تكبدتها روسيا أثناء حصار لينغراد وحدها خلال الحرب العالمية الثانية والذي دام /٩٠٠/يوم.

إن التعاظم الذي حققته القوة السوفييتية قد أضفى صفة الإلحاح على الفوارق بين مبدأي القوتين العظيمتين في هذه الفترة الحرجة، فقد أصبح النصر الاستراتيجي والبقاء في حال قيام حرب نووية ممكنة بالنسبة للأمريكيين أقل مدعاة للثقة من أي وقت مضى، وذلك بسبب تزايد القدرة الاستراتيجية للاتحاد السوفييتي، أما بالنسبة للسوفييت، بالمقارنة، فإن زيادة أسلحتهم الاستراتيجية، وبرامج دفاعهم المدني قد جعلت مبدأهم في تحقيق النصر أكثر احتمالاً مما كان عليه الوضع من قبل، ويبدو بأن الزعماء السوفييت يعتقدون الآن بأنه في ظل الظروف المفضلة يمكن للاتحاد السوفييتي أن يكسب حرباً ضد الولايات المتحدة، تستخدم فيها الأسلحة النووية الاستراتيجية، وفي غضون سنوات قليلة ستصبح الظروف مفضلة بالنسبة لهم ولصالحهم.

ويعتقد معظم المراقبين بأنه من غير المحتمل أن يقوم السوفييت بشن ضربة وقائية شاملة ضد قواتنا الانتقامية، لكنه يتعين علينا أن نعترف بأنه إضافة إلى أنهم يمتلكون القدرة على القيام بذلك فقط، كما أنه ستكون لديهم القدرة على فعل أقل من ذلك، كالقضاء على الألوية الأمريكية المقاتلة المتمركزة في ألمانيا الغربية على سبيل المثال، وإن قدرتهم على تحييد قواتنا الانتقامية تهيء لهم المزيد من الثقة لخياراتهم الأقل ويعني ذلك بأن الاعتقاد سيساورهم بشكل منطقي بأنهم قادرون على القيام بتوجيه ضربة نووية محدودة على قواتنا في أوروبا دون الخوف الذي كان يراودهم منذ تأسيس ناتو، بأن الولايات المتحدة تستطيع وقد تقوم برد انتقامي بشن هجوم نووي على الاتحاد السوفييتي.

لقد كان التفوق الأمريكي الاستراتيجي بعد الحرب العالمية الثانية ذا فائدة جلى بالنسبة لنا وللعالم الحر، وذلك بسبب موقفنا الدفاعي بصورة أساسية، وكان ذلك التفوق مركز ثقل الوزن السياسي، وكان بمثابة الورقة الرابحة في أيدينا لكي نستخدم قواتنا التقليدية بغية تحقيق أغراض

سياسية، وكان ذلك التفوق يشكل قيوداً صارمة على السوفييت ويجبرهم على الحرص على عدم إثارتنا حيث كانوا يظنون بأننا قد نرد، فإذا ما سمحنا للسوفييت أن يحققوا التفوق الاستراتيجي ويحافظوا عليه، سيترتب علينا أن نواجه الحقيقة بأنهم سيتجرأون إلى درجة كبيرة على استخدام القوة خارج المعسكر الشيوعي، وإذا ما احتفظ الاتحاد السوفييتي بالتفوق النووي الاستراتيجي ومسك بذلك زمام التهديد بالتصعيد في أيديه سيكون بوسع الزعماء السوفييت، وزعماء كثيرين آخرين أن يستنتجوا بأن الولايات المتحدة لن تميل كثيراً إلى معارضة التحركات السوفييتية التوسعية، عن طريق القوة العسكرية، وبذلك سنكون أقل عزماً فأقل في مواجهة الاتحاد السوفييتي.

وأفدح خطر في فترة التفوق السوفييتي النووي سيكون الهزيمة بدون حرب، وهناك صوت من الخارج يتعالى بوضوح، وهو صوت مجلة «الايكونومست» التي تصدر في لندن حيث كتبت حول هذا الموضوع تقول:

«مع حلول أوائل الثمانينات وبالعدد المتزايد من الرؤوس الحربية البالغة الدقة التي تجمّعها روسيا في صواريخها الضخمة، ستنتقل روسيا إلى مركز تكون قادرة فيه على تدمير جميع صواريخ أمريكا المتركزة على قواعد أرضية خلال نصف ساعة عن طريق توجيه ضربة هائلة في الوقت الذي تبقى الكثير من صواريخها كاحتياطي لها، وجاهزة لتوجيه ضربة ثانية... وإذا ما وقعت الضربة الروسية الأولى، فإن الهجوم الأمريكي المعاكس ضد نظام الصواريخ السوفييتية سيعتمد بصورة رئيسية على الصواريخ المحمولة على الطائرات الجوالة والمسموح بها بموجب اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت ٢)، والتي تستغرق عشر ساعات لكي تصل إلى أهدافها وحتى في هذه الحالة لن تكون قادرة على تدمير أكثر من نصف القواعد السوفييتية الأرضية.

وليس ذلك «تعادلاً»، وغالباً ما يقال، وهذا صحيح، حتى مع توفر هذه الميزات، فمن غير المحتمل أن يقوم الروس بالضغط على الزر من أجل روع المواجهة النووية الذي لا يمكن تصوّره، وهذا يغفل هدف الرياضيات النووية، والحقيقة هي أنه لا ينبغي على الروس أن يفعلوا ذلك، فإذا كانوا يدركون حتى أن المواجهة النظرية للضربة السوفييتية الأولى، والضربة الأمريكية المعاكسة قد تتركهم محتفظين بالعديد من صواريخهم، مما يجعل المدن الأمريكية رهائن في أيديهم، فقد يدركون أيضاً بأن الرئيس الأمريكي يدرك ذلك هو الآخر، وسيكون والحالة هذه مشلولاً بإدراكه هذا، بينما تكون اللعبة الرمادية للخداع والخداع المضاد قد اقتربت أكثر فأكثر من نقطة الضغط على الزر، تلك هي الحقيقة السياسية التي تكمن وراء الحسابات المجردة بظاهرها، حول من سيكون أوفر حظاً بتبقي عدد أكبر من الصواريخ لديه».

ففي لعبة الشطرنج المفضلة لدى الروس تلعب الملكة دوراً حاسماً حتى ولو لم تستخدم، أما على لوحة شطرنج السياسة الدولية فإن ملكة شطرنجهم، وهي الأسلحة النووية، يمكن أن تلعب دوراً حاسماً دون أن تستخدم إطلاقاً.

وخير تفسير يقدمه السير روبرت تومبسون عندما قال:

«عندما يدور الحديث عن الحرب العالمية الثالثة، فإن غالبية الناس يفكرون فيها على أساس قيام مواجهة نووية بين روسيا والصين، أو بين روسيا والولايات المتحدة، وفي كلتا الحالتين سنجر إليها جميعاً، لكنه من غير الممكن أبداً الوصول إلى أية نقطة عند التفكير بكسب الحرب بهذه الوسيلة، والنقطة الرئيسية التي أود طرحها هي أننا نعيش الحرب العالمية الثالثة منذ خمس وعشرين سنة، وإن الهدف السوفييتي على المدى البعيد هو كسب هذه الحرب بدون مواجهة نووية، وهذا يتطلب في نهاية الأمر وجوب حدوث استسلام استراتيجي من جانب الولايات المتحدة، يتحقق إما سياسياً ونفسياً بفقدان الإرادة والغاية، أو سياسياً وعسكرياً بجر الولايات المتحدة بالمناورة إلى مركز عالمي سهل المنال، وغير قابل للدفاع عنه، وإما بشيء من الاثنين معاً».

فخلال أزمة الصواريخ في كوبا عام ١٩٦٢، استطاع الرئيس كندي أن يتغلب على خروتشوف بسبب تفوقنا الاستراتيجي الحاسم، لكن الوضع الذي حدث لكندي وخروتشوف سينعكس تماماً مع انتصاف الثمانينات، وسنكون نحن من يقوم بعملية التضليل، وهم الذين سيطلبون يدنا.

والأسلحة النووية بالمعاني السياسية، كما يقول ستالين، أدوات يمكن استخدامها «لتخويف الناس ذوي الأعصاب الضعيفة»، وبهذا البعد للإرادة، وبهذه الأعصاب والإرادة المتصورة، التي إزدادت أهمية مع إزدياد قوة الترسانة النووية السوفييتية وتفوقها على ترسانتنا، لعل الإكراه أو الإجبار النووي اليوم هو الخطر الحقيقي، وربما أشد خطورة من الحرب النووية، وما يزيد من حدته هي الفوارق بيننا وبين السوفييت فيما يتعلق بالمبدأ النووي، وهذه الفوارق نابعة لا محالة من اختلاف التجارب التاريخية والحضارية لكل من القوتين الأعظمين، وهي تعني شيئاً واحداً: أي الافتراض بأن المفاهيم الاستراتيجية لدى روسيا، ولدى الولايات المتحدة متشابهة، وهو الذي يشكل الدليل الموجه للكثيرين من المجموعة التي تنادي بالحد من التسلح في هذا البلد: بأن ذلك خطأ مميت.

مراقبة التسلح

عندما تسلمت السلطة عام ١٩٦٩، كانت الإدارة السابقة قد كرست نفسها، لوقت لا بأس به، لفكرة الاتفاق مع الاتحاد السوفييتي، على الحد من الأسلحة الاستراتيجية، وظلت لمدة عامين تسعى جاهدة للحصول على إجراء محادثات للحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت)، وقد شكلت (سالت) هذه خلال تلك الفترة الأساس المؤثر والموجه لسياسة التسلح الأمريكي الاستراتيجي، وكانت هذه المهمة تتجلى برغبة الولايات المتحدة في ترك التفوق الاستراتيجي، مقابل علاقة ردع متبادلة متفق عليها في مباحثات (سالت) قائمة على أساس التعادل والتدمير المؤكد المتبادل، وقد كان لهذا الموقف تأثيره على فسح المجال أمام الروس لكي يجاروا الولايات المتحدة، أي ليلحقوا بها، في المقدرة الاستراتيجية الكاملة، بيد أن ما يؤسف له هو أنه أصبح من الواضح عام ١٩٦٩، بأن القوات السوفييتية كانت تتطور على نطاق أوسع وأسرع مما كان مقدراً، بميزات لم تتوافق

مع متطلبات التدمير المؤكد المتبادل، وتزايدت الأدلة وضوحاً على تهديد السوفييت لقوات الردع الأمريكية المتمركزة على الأرض، ولهذا السبب بالذات قمت باتخاذ القرار في آذار ١٩٦٩ بإعادة توجيه برنامج (ABM) القذائف الصاروخية الأمريكية «سينتينيل» بتركيزه على الدفاع عن مناطق خفيفة إلى برنامج، جديد، أي برنامج حماية يركز على الدفاع عن قوات الردع المهددة.

وواصلنا في الوقت ذاته مفاوضات (سالت) للحد من الأسلحة الاستراتيجية التي كانت قد بدأت بها إدارة الرئيس جونسون، لأننا كنا نأمل، إلى حد ما، بالتوصل إلى اتفاقات متكافئة على المدى البعيد من شأنها توفير المزيد من الاستقرار الاستراتيجي بأسلحة أقل، ولم يكن الكونغرس والبلاد على استعداد واضح لتقبل برامج القوة الاستراتيجية الجديدة الباهظة التكاليف، وقد دلت على ذلك حقيقة أن موافقة مجلس الشيوخ على نظام الحماية (ABM) قد جاءت على الحافة، ونجحت بفارق صوت واحد فقط، وقد تطلب تحقيق ذلك أن نقوم بممارسة أكبر حد من الضغط، وكنا بحاجة لشراء الوقت وكذلك لجس نبض السوفييت واختبار نواياهم فيما يتعلق بالحد من الأسلحة، فإذا لم يكن بالإمكان التوصل إلى حدود مقبولة، وإذا ما واصل السوفييت في نفس الوقت بناء قواتهم الاستراتيجية، سيتوفر لدينا الدليل الذي يمكننا به إقناع الكونغرس لكي يؤيد البرامج الاستراتيجية التي قد تدعو حاجتنا إليها، وكنا نأمل بالفعل بأن الاتحاد السوفييتي قد يقبل فعلاً باتفاقات المحافظة على استقرار التسلح، وكنا نأمل كذلك بأن مباحثات سالت قد تفتح الطريق إلى عهد من تحسين العلاقات وتكون فيه المنافسة متممة بالتعاون الدولي، ويحل التفاوض محل المواجهة.

وكانت المقترحات الأمريكية السابقة التي رسمت على أساس تحقيق الاستقرار للوضع الاستراتيجي . لتجميد الأنظمة الهجومية الاستراتيجية المركزية، وإقامة سقوف متساوية لها ولتخفيضها . قد قوبلت من جانب الاتحاد السوفييتي بالرفض، وفي الوقت ذاته واصلت مستويات القوة الاستراتيجية السوفييتية ارتفاعها، وبحلول عام ١٩٧١ توجب علينا أن نتخلى عن أهدافنا في سالت، تلك الأهداف التي اتسمت بالطموح الزائد، واستبدلناها بهدف بسيط وذلك ضمان الحصول على مواجهة سوفييتية على الحد من الأسلحة الهجومية، وهذا من شأنه أن يوقف استمرار السوفييت في بناء القواذف، وكانت غاية السوفييت بكل وضوح ترمي إلى مواصلة بنائها حتى تتم البرامج المخططة وكذلك لتحد إلى أدنى مستوى ممكن من برنامج الولايات المتحدة في مجال حماية القذائف الصاروخية (ABM)، وكان السوفييت يرغبون كثيراً في إعاقة نظام الولايات المتحدة (ABM) لسبب عام واضح، وهو أننا كنا نتمتع بتفوق تكنولوجي في هذا المجال، ولسبب خاص وهو أن ذلك النظام يمكن أن يتدخل في مبدأهم المتعلق بالقوة المضادة بما أن غرضه الأول هو الدفاع عن صواريخ (مانيوت مان).

وقد اتخذت الولايات المتحدة موقفها على أساس أن متطلبات نظام الحماية تمليها درجة التهديد الهجومي الذي يتعرض له (مانيوت مان) وإذا ما أمكن التقليل من ذلك الخطر يمكن

كذلك التقليل من متطلباتنا الدفاعية، لقد كان ذلك أساس الربط بين الهجوم والدفاع، وبمعنى أوسع وأعم كان اهتمامنا يتركز بشكل أكبر على استمرار زيادة القدرات الهجومية السوفييتية، ولذلك لم نتمكن من الموافقة على تحديد نظام الحماية الذي نتبناه دون تحديد القوات الهجومية، وأصر السوفييت على تحديد نظام الحماية فقط، وبسبب تعاظم البناء السوفييتي لم نكن قادرين على الوصول إلى تحديد للأسلحة الهجومية متماشٍ مع الدفاع المقام، لكننا نجحنا فعلياً في نهاية الأمر في التوصل إلى اتفاق جزئي على الحد من الأسلحة الهجومية لمدة خمس سنوات إلى جانب معاهدة نظام الحماية.

ولم نكن على اقتناع تام بذلك الاتفاق المتعلق بالقوة الهجومية، فقد هيأ للسوفييت مستويات أعلى مما كان فيما مضى يعتبر مقبولاً، وأعلى من المستويات التي سمح بها للولايات المتحدة، لكن هذا الأمر في الواقع قد عكس ببساطة حقائق الوضع في ذلك الحين، وكنا نقصد بألا يدوم الاتفاق بشأن القوات الهجومية أكثر من خمس سنوات، وللتأكيد على هذه الناحية فقد أضافت الولايات المتحدة على المعاهدة تصريحاً رسمياً نص على ما يلي: «إذا لم يتم التوصل إلى اتفاق من شأنه أن يوفر مزيداً من تحديد الأسلحة الهجومية الاستراتيجية، خلال خمس سنوات، فإن المصالح العليا للولايات المتحدة قد تكون معرضة للخطر، وإذا ما حدث ذلك فإن من شأنه أن يشكل أساساً للانسحاب من معاهدة نظام الحماية (ABM)».

كنا نعتقد بأن الميزات التي سيحققها السوفييت خلال السنوات الخمس، تلك ستتعادل بالميزات التي ستحققها الولايات المتحدة لا سيما في مجال التكنولوجيا، وأن برامج الولايات المتحدة الواسعة في مجال تحديث الأبحاث والتطوير والقوة ستكون قادرة على كل من المحافظة على الوضع، وعلى حمل السوفييت على الالتزام بالاتفاقية على قدم المساواة، وكان الأمل يحدونا بأن اتفاقية (سالت ١) ستمهد الطريق إلى اتفاقية (سالت ٢) أفضل وكذلك تشتري الوقت لنا، كما أملنا أيضاً بأن يكون لها أثر تعديلي على زيادة بناء الاتحاد السوفييتي.

ولم تجمدنا (سالت ١) بحد ذاتها في مركز أضعف، بل على العكس من ذلك فقد قامت إدارتي بالترحيب بتعديل جاكسون والتصديق عليه، الأمر الذي كان يستلزم جهداً استراتيجياً أمريكياً قوياً مع برامج تحديث مركزه كشرط للتصديق على (سالت ١) كما أنها اشترطت وجوب قيام أي اتفاق في المستقبل على أساس المساواة.

وتحركنا نحو اصلاح الخلل في التوازن الاستراتيجي، بدفع البرامج في مختلف مناطق الثالوث الاستراتيجي. الـ: أم أكس على الأرض، وتزايدت في البحر، و (ب. ١) في الجو، ولم يكن أي من هذه البرامج الثلاثة محظور بموجب الاتفاقية.

وكان من المقرر أن تحل ب. ١ محل قاذفاتنا القديمة من طراز ب. ٥٢، التي كانت قد صممت، ووضعت قيد الاستخدام في الخمسينات، والتي كان عمر خدمتها سينتهي في الثمانينات، وكان من المحسوب بأن قاذفات ب. ١ ستكون قادرة على خرق أحدث أنظمة الدفاع الجوي السوفييتية خلال

السبعينات، كما كانت ستجبر السوفييت على تحويل عشرات البلايين من الدولارات لانفاقها على أنظمة دفاع جوية في الثمانينات والتسعينات، وكان هذا التحويل كافياً لصرف المبالغ التي تصرف الآن لإيجاد المزيد من الأنظمة الاستراتيجية الهجومية الرامية لضرب الولايات المتحدة، وهكذا فإن إلغاء إدارة كارتر لبرنامج صنع القاذفة ب . ١ في صيف عام ١٩٧٧، قد يكون واحداً من الأخطاء الاستراتيجية الجسيمة التي ارتكبها هذا البلد في عمره كله.

وكانت غواصة ترايدنت مصممة على أساس ردف قوة غواصاتنا المؤلفة من ٤١ قطعة من طراز بوزيديون / بولاريس، وكذلك لتحل في النهاية محل القطع القديمة، كانت التزايدنت ستتحمل ٢٤ من الصواريخ البعيدة المدى، يحمل كل منها عشرة رؤوس حربية، لكن سالت ٢ تنص على تخفيض عدد رؤوس ترايدنت إلى سبعة رؤوس وصواريخ ترايدنت ستتجاوز من حيث المدى والحمولة والدقة أياً من أسلحتنا الحالية التي تطلق من الغواصات كما أنها تمثل ترتيباً جديداً من حيث ضخامة فاعليتها الردعية وصعوبة النيل منها.

وبصورة مماثلة أيضاً فإن القواذف الصاروخية العابرة للقارات أم أكس (MX) الجديدة المقترحة ستؤمن، إذا ما استخدمت، تحسيناً أساسياً للقوة الشاملة والوزن والدقة بالمقارنة مع قوتنا الحالية من صواريخ مانيوتمان، فضلاً عن أن الـ (MX) كانت مقررة لتستخدم بطريقة يصعب النيل منها نسبياً.

وكنا قد بدأنا أيضاً بتمويل تطوير أسلحتنا الصاروخية المحمولة تجوالاً، لكي يصار إلى استخدامها من قواذف (قواعد) في الجو والبحر والبر، وفي حين أن الصواريخ الجوالة سلاح قيم، فهو ليس نهاية حاجياتنا الدفاعية، وإذا صحت التصورات المتفائلة، فإننا قد نحقق تقدماً تكنولوجياً كبيراً على السوفييت في هذا النوع من الأسلحة، لكن دعاة الصاروخ المتجول كبديل عن الأسلحة الأثقل والأسرع والأكثر فعالية، يجب أن يفكروا ملياً في التردي السريع الذي حل بتقدمنا الذي كنا نتمتع به ذات يوم في قدرات الميرفينغ . أي القدرة على وضع بضعة رؤوس حربية على رأس صاروخ واحد مع توجيه كل رأس حربي نحو هدف مستقل عن الآخر، وبينما ما زلنا أيضاً لا نملك الصواريخ الجوالة حتى الآن، نجد أن لدى السوفييت الآلاف منها قيد الاستخدام.

والآن وبعد أن ألغيت القاذفة ب . ١، فإن استخدام صاروخ (MX) قد تأخر ثلاثة أعوام على الأقل، كما أن معدل انتاج ترايدنت قد تدنى (حيث أن القارب الأول لن ينزل إلى البحر حتى عام ١٩٨١) وواجه تطوير الصواريخ الجوالة (كروزر) مشاكل لم تكن في الحسبان، وما زال صاروخ مانيوتمان . ٣ المقذوف من الأرض يعتبر العمود الفقري لقوتنا في الردع الاستراتيجي، في حين أن الرؤوس الحربية على صاروخ اس اس ١٧ ١٧ SS هي أقوى من صاروخنا بمعدل من ٤ . ٨ مرات، والرؤوس المحمولة على صاروخ اس اس ١٩ (١٩ SS) أقوى من صاروخنا بمعدل ٦ . ١٢ مرة، وتلك الرؤوس التي يحملها الصاروخ السوفييتي اس اس . ١٨ ١٨ SS أقوى من الرؤوس التي يحملها صاروخنا مانيوتمان . ٣ بمعدل ١٦ . ٤٠ مرة.

وهكذا فإن تطوير السوفييت لتكنولوجيا الميرفينغ، إلى جانب الارتفاع الهائل لقدرة صواريخهم الضخمة بالمقارنة مع صواريخنا الأصغر حجماً، والأقل وزناً، يعني بأنهم يستطيعون تركيب المزيد من الرؤوس الحربية ذات القوة الأكبر على كل من صواريخهم أكثر بكثير مما نستطيع تركيبه نحن على صواريخنا، فاتفاقيات الحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت) لا تحد من عدد الرؤوس الحربية، بل تحد فقط من قواعد إطلاق الصواريخ (القواذف) أو الطائرات، لذلك يتحتم علينا أن نواجه الحقيقة المؤلمة بأن هذه التطورات قد قلبت المعادلة الاستراتيجية على نحو أساسي لصالح السوفييت.

عندما بدأت مفاوضات سالت ـ ٢ في أوائل عام ١٩٧٣، كانت غايتنا تتركز على اصلاح اللامساواة التي كانت قد قبلت بمحض الضرورة في محادثات سالت ـ ١، ولا سيما للحصول على تخفيضات الرمي بالثقل الشامل الذي سمحت للسوفييت بتحقيق ميزة علينا بنسبة ٤ إلى ١، وتركز اهتمامنا أيضاً على أنه سيكون بإستطاعة السوفييت تحويل الرمي بثقلهم مع منتصف الثمانينات إلى تعطيل السلاح عن ممارسة الضربة الأولى ضد القواعد الأرضية لصواريخنا العابرة للقارات، وغواصاتنا في المرافئ، وقاذفاتنا الجوية على أرض المطارات، وإزاء وضع كهذا لن يكون ثمة رد متوفر لدى الولايات المتحدة سوى الرد الانتحاري واللامنطقي برمته، وهو القيام بمهاجمة المدن السوفييتية بالقوات الضئيلة المتبقية لدينا، مما يدفع بالسوفييت إلى القيام برد انتقامي شامل على مدننا.

سدّت القيادة السوفييتية الطريق في وجهنا وأعاقتنا في موسكو خلال شهر حزيران لعام ١٩٧٤، ورفضت النظر في الحد من صواريخ القاء الثقل أو المستويات المعقولة من الرؤوس الحربية المحمولة على الصواريخ العابرة للقارات، وبدا من الواضح بأنهم وضعوا قيمة سياسية كبرى للمقدرة على توجيه الضربة الأولى إلى القواعد الأرضية لصواريخنا العابرة للقارات، وفي فلاديفستوك في شهر تشرين الثاني عام ١٩٧٤ واجه الرئيس فورد المقاومة ذاتها، وللأسباب ذاتها، وانتقل إلى أهدافه أقل طموحاً في التفاوض على تساوي أعداد القواذف الاسترتيجية بحدود أدنى على القواذف المسلحة بالرؤوس الحربية المتعددة، والطريقة الوحيدة التي كان يمكن بموجبها لمحادثات سالت ـ ٢ أن تحد من سباق التسلح بشكل مجدٍ ـ بتحديد الرمي بالأثقال ـ قد تم تجاوزها بالتعنت السوفييتي وبضعف قوة العضلات الأمريكية وانتقاصها للقدرة على المساومة، وبكل بساطة لم تكن لدينا البرامج التي نقدمها كحواجز في وجه السوفييت للمساومة ضد بنائهم الشامل لتسليحهم، وما زلنا ننتقص لتلك البرامج حتى الآن.

وحتى وقت مفاوضات فلاديفستوك كان الوضع الاستراتيجي يسير بتبدل سريع، وكذلك كانت الآمال الأمريكية في سالت، فالزخم السوفييتي كان في تزايد بدلاً من أن يسير في الاعتدال، وفي بعض الحالات مثل الاستعاضة عن الصواريخ الثقيلة العابرة للقارات من أس أس ـ ١٧ وأس أس ـ ١٨ بأخرى أخف من طراز أس أس ـ ١١، استغل تحديث القوة السوفييتية الثغرات في اتفاقية سالت ـ ١

خلافاً لتفاهمنا على تلك الاتفاقية، وأخذت قدراتهم الاستراتيجية الكاملة تعكس بشكل متزايد الاتجاه نحو التفوق والتصميم على تحقيق قدرة لخوض حرب نووية استراتيجية يقابله نظرة أمريكية وتطلع أكيد لتحقيق الردع، واتضح بأن توازناً استراتيجياً خطيراً قد بدأ يتبدل، وأن سالت لن تغير ذلك الاتجاه، وترتب على الولايات المتحدة حيال ذلك أن تتخذ خطوات فعالة من جانب واحد إذا كانت تنوي الحيلولة دون وقوع خلل رئيسي في التوازن ما بين أوائل ومنتصف الثمانينات، وكانت الحدود التي وضعت في فلاديفستوك مقبولة لأنها لم تحدّد قدرتنا على معالجة التهديد، ولأن الولايات المتحدة يومها كانت تنوي المضي في برامجها التي تضمن لها ذلك، فإذا كان تحديد الأسلحة لا يستطيع تحديد الخطر والتقليل منه، فلا ينبغي عليه أن يحد من قدرتنا على معالجته بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ومضت الولايات المتحدة إلى فلاديفستوك مصممة على أنه إذا ما أخفقت سالت في تحقيق المطلب الأول، أي الحد من الخطر فهي على الأقل لن تحقق المطلب الثاني وهو الحد من القدرة على معالجته.

وحاولت إدارة كارتر في آذار ١٩٧٧ إعادة إحياء مفاوضات سالت من جديد باقتراح واضح كان من شأنه إذا ما كتب له النجاح أن يحقق الوصول إلى وضع بعض الحدود للوزن السوفييتي المرمي به، وهذا الذي كنا قد سعينا لتحقيقه في عام ١٩٧٤، لكن السوفييت رفضوا اقتراح كارتر، وسرعان ما تخلت الإدارة الأمريكية عن مساعيها، وعادت إلى العمل بالخطوط العريضة التي رسمت في فلاديفستوك، وعلى أية حال فقد سمحت الإدارة، بلا حكمة، لإطار عمل فلاديفستوك أن يتسع بطريق يفضلها الاتحاد السوفييتي وهي لصالحه، وكما أظهرت محادثات سالت ـ ٢، فقد استسلمت إدارة كارتر في غضون العامين التاليين لمعاهدة سالت ٢ إلى الموقف السوفييتي في كل نقطة هامة تقريباً، كما أنها تخلت عن، أو أخرت البرامج التي كان من شأنها أن تجعل البيئة الاستراتيجية من بداية الثمانينات وحتى منتصفها في جانب أكثر أماناً بالنسبة للولايات المتحدة، وأكثر قدرة على المؤازرة في اتفاقيات سالت، ومن جملة ما تخلت عنه الإدارة هي طائرة [ب ـ ١] القاذفة، وانتاج صاروخ مانيوتمان ـ ٣، وإدخال صاروخ MX في وقت مبكر، وكذلك إعادة تركيز الصواريخ العابرة للقارات بأفضل وجه يبشر بالخير بشأن استخدام ترايدنت في الوقت المحدد له وفق الجدول الزمني، وكذلك الاستخدام غير المحظور لصواريخ كروز، والرأس الحربي النيوتروني، ومما يدعو للسخرية هو لو أن الإدارة الأمريكية لم تتخل عن، أو تؤجل تلك البرامج، لما كانت قد واجهت المعارضة التي لقيتها في سالت ـ ٢ رغم كل عيوبها.

ويتضح من السجل، بأن الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي قد تعارضا بشكل متناضر الأهداف خلال مفاوضات تحديد الأسلحة النووية الاستراتيجية، وتسعى الولايات المتحدة لتقليل خطر الحرب، أو الهزيمة بدون حرب، أو الدمار الذي سيحل إذا ما وقعت الحرب، ونفقات التسلح والتفاوض على تحديد متوازن للأسلحة النووية الاستراتيجية كوسيلة للوصول إلى هذه الغايات.

لكن السوفييت من جانبهم لا يسعون إلى التساوي، فهم يعتقدون بأن الحرب النووية الاستراتيجية بالرغم من أنهم لا يسعون إلى وقوعها وأنهم على رغبة تامة في إنفاق مبالغ طائلة من المال سنة بعد سنة استعداداً لكسبها، وهم يفضلون تحديد الأسلحة، الذي يحد من إمكانية الولايات المتحدة في المجالات التي تقدم فيها عليهم، والذي لن يحد من إمكانية السوفييت في المجالات التي يتقدمون فيها علينا، أو في المجالات التي يقصرون فيها عنا، وبحاجته إلى اللحاق بنا ومجاراتنا ضمنها.

وكانت غاية الولايات المتحدة خلال فترة إدارتي نيكسون وفورد، هي أن تحاول إقامة بنية للسلام، يشكل فيها التكافؤ المتفاوض عليه في مجال الأسلحة النووية الاستراتيجية حجر الزاوية، مع وجود قوة كافية في المجالات الأخرى للقدرة الوطنية كجزء من أساس تلك البنية، وتخلت الولايات المتحدة عن تلك الغاية، فبوجود، أو بغياب المزيد من اتفاقيات سالت ستواجه الولايات المتحدة تفوقاً سوفييتياً عام ١٩٨٥، وربما أكبر من ذلك، وهذا ما يخل بشكل خطير في استقرار علاقة القوة العظمى، ومن إحدى المقدمات الأساسية لعملية سالت هي وجوب قيام الطرفين بوضع صيغة قانونية للاستقرار الاستراتيجي، وهذا ما أخفقنا بالقيام به، لأننا لم نثابر على مجاراتنا للسوفييت بالعمل بموجب ما كانت تسمح لنا به سالت. ١.

واتفاقيات الحد من الأسلحة النووية الاستراتيجية لا تشكل غايات بحد ذاتها، وتماماً كما أن الأسلحة مطلوبة لغاية، كذلك يجب أن يتبع تحديد الأسلحة لغاية، فالسوفييت يتسلحون لكي يتوسعوا، بينما تتسلح نحن للوقوف في وجه هذا الطموح، وسيخدم تحديد الأسلحة أغراضنا فقط إذا حقق ما أسماه البعض «بأزمة الاستقرار» بين القوتين الأعظم، وذلك بتخفيض مستويات الأسلحة النووية الاستراتيجية.

وقد وصف بول نيتز أزمة الاستقرار على أنها «وضع لن تكون فيه أية ميزة هامة، في حال قيام أزمة تهدد بنشوب الحرب، للجانب الذي يقوم بتوجيه الضربة الأولى والاتقاء، أو شن الحرب تحت دلائل الهجوم» من الناحية العملية، يعني ذلك بأنه يجب ألا تكون في قواتنا نقاط ضعف يمكن للسوفييت أن يستغلوها، وينالوا منها بالضربة الأولى، ويجب على قواتنا أن تكون قادرة بشكل دائم على المضي لتأدية مهمتها، حتى في حال الهجوم الشامل المباغت، وأن تكون قادرة على الانتقام بطرق شتى، وأن يتبقى لديها ما يكفي من القوة لتوجيه الضربة مرة أخرى إذا لزم الأمر، وأن تحول دون تحقيق السوفييت لأية ميزة بعد المواجهة.

هناك ستة شروط لا بد من أن نستوفيها، قبل أن نمضي إلى أية اتفاقيات أخرى، حول الأسلحة الاستراتيجية.

١ . يجب علنيا أن نهيء لأنفسنا مركزاً قوياً نتفاوض فيه، وأن نبقي في ذهننا بأنه أفضل لنا ألا نوقع على اتفاق، من أن نوقع على اتفاق سيء، والطريقة الناجعة لتفادي الاتفاق السيء، هي: أن نضمن بأن يكون الوضع الاستراتيجي لصالح الولايات المتحدة أثناء المفاوضات، وأثناء الاتفاق،

وطوال مدة سريان مفعول الاتفاق، فاتفاق الحد من السلاح يعكس واقع القوة لدى الطرفين، وإذا كنا نرغب في الوصول إلى اتفاقات خيرة، علينا أن نهيء الواقع الذي يجب أن تنطلق منه تلك الاتفاقات، فالاتفاقات مقابل أساس تميز استراتيجي لدى السوفييت من شأنها أن تعكس فقط ذلك التميز، ولن تبدل منه بشيء.

٢ . يجب ألا يمنعنا أي اتفاق نتوصل إليه مع السوفييت من مساعدة حلفائنا في دول (ناتو)، من أجل تطوير القوة التي يحتاجون إليها كي يساعدونا على ردع الاتحاد السوفييتي عن استخدام الأسلحة النووية العملياتية.

٣ . يجب ألا يترك التزامنا بالحد من الأسلحة الاستراتيجية الولايات المتحدة، في حال مهاجمة أو تعرض أحد حلفائنا أو أصدقائنا للهجوم، أو تعرض أنظمة دفاعنا الاستراتيجية، أمام الخيار الوحيد يقتل الملايين من المدنيين السوفييت، فمثل هذا الموقف سيكون تقصيراً، ونقصاً محتوماً في قدرتنا.

ويقول الرئيس كارتر بأن غواصة بوزيدون واحدة قادرة على تدمير معظم المدن السوفييتية، في حال قيام السوفييت بضربة وقائية تقضي على قواعدنا الأرضية للصواريخ، وهذا الكلام ليس خطأ فادحاً فقط، وإنما غير قابل للتصديق، وبما أن السوفييت عندئذ سيكونون قادرين على الانتقام والقضاء على كل مدينة في الولايات المتحدة فإن تهديده هذا كتهديد الرجل الذي يقول: «افعل ما أقله لك وإلا فسأنثر دماغي على بذلتك الجديدة».

ويتعين علينا أن نحافظ على قوات قواعد أرضية كافية ودقيقة، لكي نضمن القيام بالضربة الثانية الفعالة، ليس ضد المدن والسكان في الاتحاد السوفييتي فحسب، بل ضد الأهداف العسكرية فيه أيضاً، لا سيما قواعد صواريخه العابرة للقارات . القواعد الأرضية . مع القدرة على «إعادة التذخير»، وعن طريق هذه المقدرة فقط يمكن المحافظة على القوة الرادعة.

٤ . أية اتفاقية سالت يجب أن تكون محددة بالوسائل الوطنية، دون التعاون مع الاتحاد السوفييتي.

٥ . يجب ألا يتبع تحديد السلاح بحد ذاته كغاية في معزل عن الأهداف الأخرى، ويجب أن يكون هناك ربط بين تحديد السلاح والسلوك السوفييتي في المجالات المعنيين فيها السوفييت بنشاطات تتعارض مع مصالحنا، ولا يمكن فصل تحديد السلاح عن الأخطار التي تتطلب منا المحافظة على الأسلحة، وإذا ما وقعت الحرب فسيكون السبب الأول في وقوعها هو الاخفاق في حل الخلافات السياسية إلى جانب اخفاق الولايات المتحدة في الحفاظ على قوات لمنع المعتدين من تحدي مصالحنا.

٦ . يجب ألا تمنع عملية سالت الولايات المتحدة من المضي قدماً في برامجها التي: (آ) تسمح بها بنود الاتفاق، و (ب) تعتبر هامة لتحقيق مركز استراتيجي أمريكي على قدر من المسؤولية، وإننا لعلي يقين بأن السوفييت سيقومون بفعل أي شيء مسموح به ويعتبرونه بأنه سيؤومن لهم

التفوق، ولن نستطيع نحن أن نضع في الجهد، أو نستخدم أو نوظف للتأثير السياسي، كأوراق مساومة، الصواريخ التي سمح لنا ببنائها، لكننا لم نفعل، وإذا كانت الولايات المتحدة تقوم بتنازل من جانب واحد، أي من جانبها فقط، على أمل دفع السوفييت للقيام بتنازلات من جانبهم، فإن السوفييت سيغتنمون الفرصة الكاملة لهذا الغباء، ويندفعون نحو الأمام في برامجهم، وتعليقاً على هذه النقطة كتب بول نيتز تقريراً جاء فيه:

«وجه السيناتور تاور السؤال التالي إلى الأكاديمي السوفييتي شوخكين: ما الذي سيفعله السوفييت مقابل الغائنا للقاذفة ب . ١؟ فأجابه شوخكين: «لقد أسأتم فهمنا، نحن لسنا. سلميين ولسنا انسانيين». وإنني متأكد بأنه كان لدى السيد شوخكين نقطة ثالثة في ذهنه، لكنه امتنع عن الادلاء بها زيادة في تأدبه، وهي «ولسنا بلهاء».

إننا منهمكون في سالت منذ عشر سنوات حتى الآن، وقد مارسنا تقييد الأسلحة الاستراتيجية أطول مما حصلنا عليه في اتفاقات سالت، فلم تتجسد الفوائد، والتي كانت في الأساس مرجوة، تجسيداً عملياً، وفي الحقيقة تردى مركزنا الاستراتيجي تردياً مستمراً، ومن الواضح الآن بأن اهتمامنا اليوم يجب ألا يتركز على سالت بل على تحديد مواقع الضعف في مركزنا الاستراتيجي، وإصلاحها بأسرع ما استطعنا لذلك سبيلا.

وإن عرض الإرادة والقدرة الأمريكيتين على حرمان الزعماء السوفييت من تحقيق التفوق الاستراتيجي الذي يسعون إليه سيكون له أثر ردعي على أولئك الزعماء على المدى البعيد أكثر من اتفاقية سالت أو أي شيء آخر، ومن شأن ذلك أن يولد القناعة لديهم على التقليل من مطامحهم وغاياتهم الاستراتيجية لأن تكاليف وعدم الضمانات الناجمة عن المضي نحوها ستكون مدعاة للامتناع، وبالتالي فإن اتخاذ إجراء حاسم لحرمان السوفييت من تحقيق التفوق ليس ضرورياً لأمننا في المستقبل فقط، وإنما قد يكون على المدى البعيد أفضل وسيلة للوصول إلى اتفاقيات حقيقية ذات منفعة متبادلة بشأن تحديد الأسلحة.

والسؤال المطروح أمامنا الآن هو: ما الذي تستطيع الولايات المتحدة أن تفعله لتحول دون تعرضها للقصف والنقص الاستراتيجي في المستقبل القريب؟ لدينا الآن بضعة برامج استراتيجية، ولن يكون لها أي تأثير قبل نهاية الثمانينات.

لكن ثمة أشياء يمكننا أن نقوم بها حيث من شأنها على الأقل أن تسهل الوضع، ريثما يصبح بالإمكان إيجاد حلول طويلة الأجل، وهناك أيضاً عدة خيارات قوة استراتيجية متوفرة على المدى المتوسط، من بينها الإسراع في بعض البرامج البعيدة المدى الحالية، وكثير من هذه الخيارات كان قد درس وقدم خلال العامين الماضيين من قبل مجموعة من علماء وخبراء اختصاصيين بالشؤون الدفاعية وهذه المجموعة: فريق البدائل الاستراتيجية الذي يرأسه الدكتور وليم فإن كليف من جامعة كاليفورنيا الجنوبية. والضعف الذي سيواجه صواريخنا العابرة للقارات مع منتصف الثمانينات يمكن تفاديه بالإسراع في إعادة تركيز صواريخ مانيوتمان ٣ بطريقة ملجأ التعدد

العمودي، وكان قد أوصي به أصلاً من قبل قوات سلاح الجو، دون الانتظار حتى تطوير صاروخ أم أكس MX، ويمكن التقليل من حدة الضعف الشديد في مجال قوة طائراتنا القاذفة بزيادة نسبة التأهب، وإعادة تركيز القوات البرية، وإعادة تعمير قاذفات ب . ٥٢ GS و HS، ويمكن تحسين قوة الغواصات بإدخال تعديلات على نظام الاتصال فيها، وبالإسراع في تحقيق زيادة في برنامج ترايدنت . ١، ويمكن كذلك الإسراع بإنتاج صواريخ كروز، وتوسيع رقعة إنتاجها، أما في مجال الدفاع المدني فالدراسات تظهر بأنه بالإمكان اتخاذ إجراءات غير مكلفة لتحسين قدرتنا في هذا المجال بصورة أساسية خلال ثلاثة أعوام، وبودي أن أضيف لذلك بأنه على المدى المتوسط، يجب إعادة احياء برنامج ب . ١ كقاذفة تفوق سرعتها سرعة الصوت، وقادرة على التسلل وحاملة لصواريخ كروز، بسرعة دون سرعة الصوت.

فالفرص الزمنية المكلفة الفعالية من أجل تعزيز قواتنا الاستراتيجية، والتقليل من حدة تعرضها للإصابة وسهولة النيل منها قائمة على نحو أفضل، مما هو مخطط له حالياً، لكن كل ما تحتاج إليه هو التصميم على التنفيذ.

حلف دول شمال الاطلسي وقوات المسرح الأخرى

بسبب وجود أوروبا واليابان من الناحية الجغرافية على مقربة من الاتحاد السوفييتي، يصبح من السهل مهاجمتهما بقوات تقليدية، مع أو بدون قوات نووية تكتيكية (عمليات نووية)، ومن هنا توجب عليهما الاعتماد على «المظلة النووية» للولايات المتحدة، فيما يتعلق بأمنهما، بيد أن الأوروبيين واليابانيين يرون الحديث عن تلك المظلة شيئاً محزناً، وهم يتساءلون فيما إذا كانت تلك المظلة ستنفتح أم لا إذا ما هطل المطر.

والمشكلة العسكرية الرئيسية التي شغلت بالنا بعد الحرب العالمية الثانية، هي الدفاع عن اليابان، التي كنا قد نزعنا السلاح منها، وأوروبا الغربية التي أصبحت معرضة بشكل كبير للخطر السوفييتي الذي يتفوق عليها تفوقاً كبيراً في مجال الأسلحة والقوات التقليدية، فقد قمنا في أوروبا بتشكيل حلف (ناتو) دول شمالي الأطلسي الذي سد الطريق في وجه التقدم السوفييتي نحو الغرب، وأرسلنا إلى شمالي شرقي آسيا قواتاً تقليدية، إلى كوريا، لتوقف التقدم الشيوعي، ثم أبقينا تلك القوات هناك لتحمي كوريا الجنوبية واليابان أيضاً، وقامت مظلتنا النووية بحماية كل من دول ناتو واليابان كما أنها عوضت عن النقص الذي نعانيه في مجال القوات التقليدية، وهكذا فقد جعل تواجد قواتنا الأرضية في أوروبا الغربية وشرقي آسيا من الواضح جدية التزامنا بالدفاع عن أوروبا واليابان، وقام كذلك بمثابة مراقب للتصعيد النووي، الأمر الذي أثبط إلى حد كبير وفعال من همة الروس وقيامهم بأعمال عدوانية.

ولم تتبدل مصالح الولايات المتحدة تبدلاً هاماً، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية لكن قدرتنا على حماية تلك المصالح قد تبدلت، وعلى الرغم من أن أوروبا الغربية واليابان منفصلتان جغرافياً، إلا أنهما تشكلان جزئين لكيان واحد: وهو، ذلك القسم من العالم الديمقراطي المصنّع

المهدد بالقوة العسكرية السوفييتية، وكان كلاهما قد حقق الازدهار تحت ظل حماية التفوق النووي الأمريكي السابق، وكلاهما الآن معرض وضعيف أمام الهجوم السوفييتي العسكري، ولانقطاع الإمدادات عنهما، كما أن كليهما عناصر جوهرية في التحالف الغربي.

فالأوروبيون لن يقنعوا «بتلميحات» الدعم الأمريكي، ولا «بإشارات» القوة الأمريكية، ولا «بالتأكيدات» الغامضة لوزارة الخارجية الأمريكية، التي تدعي بالروابط الأطلسية القوية، إنهم يلحّون على إظهار واضح وثابت للرغبة الأمريكية، في المحافظة على أمن واستقرار أوروبا الغربية، وليس بوسعنا أن نكون غامضين لأن أوروبا، على حد قول ريموند آرون، يمكن أن تحتمل وضعاً، من العبث، حتى وغير العادل، لكنها لا تحتمل وضعاً غامضاً، ولقد بين التاريخ بأن بلدان أوروبا تسعى إلى، بل تميل نحو وضع راهن مستقر، حتى ولو كان ذلك الوضع أقل تفضيلاً، فهم يفضلونه على مخاطر وضع غير مستقر، ولذلك فإنهم يطالبون بتحريك أمريكي مقابل كل تهديد سوفييتي، وإلا فسيغويهم الأمر للسعي إلى تحقيق تسوية وتعايش مع السوفييت.

وكما قال مستشار ألمانيا الغربية هيلموت شميدت عام ١٩٧٩: «إن التوازن هو العنصر الرئيسي الذي يقوم عليه الأمن، فمنذ سنوات عديدة وأنا أعتبر ميزان القوة الشرط الأول الذي لا بد منه لتحقيق السلام، وإنني أجد الآن بأن اعتقادي قد ترسخ»، فإذا لم تضمن أمريكا هذا التوازن، وإذا ما أدى عجز إرادتنا إلى تبدل ميزان القوى لصالح السوفييت، عندئذ سيكون لدى البلدان الأوروبية واليابان والصين وبلدان أخرى كالعربية السعودية كل الحق في الخوف من السوفييت ومن ثم التعايش معهم، وإن مثل ذلك التحول سيكون خطأنا، وخطأنا لوحدنا.

وقبل زيارتي إلى موسكو عام ١٩٥٩، قال لي هارولد ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا آنذاك، معلقاً بشكل ماكر: «إن ما يجمع بين الحلفاء هو الخوف وليس الحب»، وقد كان الخوف من السوفييت قبل ثلاثين سنة هو الذي أدى إلى تأسيس حلف ناتو، وإبرازه إلى حيز الوجود، كما أن التفوق النووي الاستراتيجي الأمريكي، والمهارة في إدارة الدولة قد أبقيا على تماسكه، واليوم لم يعد ذلك التفوق موجوداً، ويا للسخرية بالرغم من أن الخوف من الهجوم السوفييتي ليس أقل مما كان عليه عندما تأسس حلف ناتو، بما أن الاتحاد السوفييتي يتمتع الآن بتفوق في مجال الأسلحة النووية التكتيكية، كما أنه يمضي بسرعة للوصول إلى مركز التفوق في مجال الأسلحة الاستراتيجية، ويحافظ في الوقت ذاته على ميزته الكبيرة في مجال القوات الأرضية التقليدية، لذا فإن الخطر الذي يتهدد دول ناتو لا محالة أفدح اليوم مما كان عليه الأمر قبل عشرين سنة، وهكذا فإن مواجهته تستدعي إعادة نظر جذرية في الاستراتيجية العسكرية.

لقد كان ناتو على الدوام حلفاً عسكرياً ذا أهمية بالغة من أجل ردع الخطر الذي يشكله الاتحاد السوفييتي على أوروبا الغربية، وكان النجاح الذي أحرزه ذلك الحلف خلال العقود الثلاثة الماضية بالاستجابة والرد بمرونة وتصميم على التهديدات المتزايدة والمتبدلة مدعاة للإعجاب الشديد.

ومهما تكن الأحوال فقد حدث في الآونة الأخيرة أن تبدّلت ثلاثة ظروف أساسية تبدلاً دراماتيكياً، لدرجة أصبح ناتو معها أمام تحد لم يسبق له أن شهده من قبل:

الظرف الأول هو أن الاضطرابات الاقتصادية والنقدية الجديدة التي حلت بالعالم الغربي الصناعي، قد حدت بأناس كثيرين لاعتبارها أكثر الحاحاً من التهديد السوفييتي العسكري، ونتيجة لذلك فقد أصبح من الأكثر صعوبة الحصول على الدعم المالي والتأييد من قبل الرأي العام لمستويات القدرة العسكرية التي احتاجتها دول ناتو، أو بالأحرى حلف ناتو بالذات، والظرف الثاني هو أن قبول مستشار ألمانيا الغربية السابق، ويللي براندت بالتقسيم الإقليمي لألمانيا بدأ وكأنه قد خفف من الحوافز السوفييتية نحو استخدام الضغوط العسكرية في القطاع المركزي لحلف ناتو، وعلى الرغم من أن البناء العسكري السوفييتي قد تواصل في وسط أوروبا، إلا أن الأوروبيين لا يشعرون وكأنهم مهددون من قبل الروس، كما كانوا في الماضي.

والظرف الثالث هو أن تعاظم القوات النووية الاستراتيجية السوفييتية . والضعف الناجم لدى الولايات المتحدة في قدرتها أمام هجوم سوفييتي مباشر . قد زعزع الثقة في الضمانة الأمريكية لأمن أوروبا الغربية. وتلك هي معضلة ناتو الأساسية، وقد ترتب على الولايات المتحدة، إزاء سعيها إلى التفاوض على توازن نووي مستقر، أن تعدل من ضمانتها لأمن أوروبا الغربية التي كانت، أي الضمانة، تقوم في الأساس على التفوق النووي الأمريكي، وتلك معضلة لا يمكن أن تلام عليها لا أمريكا ولا أوروبا، كما أنه لا يبدو من المحتمل بأن نتمكن من التخلص منها بشكل كامل، ومع ذلك فما زال بالإمكان معالجة تلك المعضلة بصورة أكثر فعالية مما كان عليه الأمر فيما مضى.

لقد دأبت الولايات المتحدة وحاولت جاهدة لما ينوف على عقد من الزمن لحل معضلة ناتو، بالتأكيد على القوات التقليدية، فقد حسب بشكل منطقي أنه بوجود دفاع تقليدي متين على الأرض في أوروبا سيردع السوفييت عن قيامهم بعملية غزو، ويمنعون من التهديد بإقدامهم على العمل العسكري لغرض التأثير السياسي ولكي تكون مثل هذه السياسة فعالة، فإنها تتطلب بأن يكون أي هجوم يثمنه السوفييت غير نووي، وأن تكون قوات ناتو التي تزج في المقدمة من القدرة بما يكفي للوقوف في وجه الغارة السوفييتية، بحيث يتوجب على السوفييت دفع ثمن باهظ جداً لقاء قرارهم بضرب السلام في أوروبا.

وتكن العسكرية السوفييتية احتراماً وافراً لقدرات ناتو، وعلى أية حال، فقد قاموا مؤخراً ببناء قواتهم الذاتية، وتحديثها في أوروبا إلى درجة أصبحوا معها يملكون ميدانياً أضخم، وأقوى قوة عسكرية ضارية شهدها العالم، وأكثر من ذلك، كما قال القائد الأعلى السابق لقوات الحلفاء، الجنرال الكسندر هيغ عندما كرر تحذيراته، بأن قوات معاهدة (حلف) وارسو قد أصبحت تمتلك القدرة على شن هجوم بدون إنذار استراتيجي، كما أن عضوي مجلس الشيوخ نون وبارتسليت قد قدما تقريرا إلى الكونغرس عام ١٩٧٧ تضمن: «أن القوات السوفييتية في أوروبا الشرقية، يمكن أن تبادر بالقيام بالحرب من «منطلق قائم» كما جاء في تقريرهما ما يلي: «بما أن قدرة حلف وارسو

على شن هجوم من «منطلق قائم» تتعاظم بالنسبة لقدرة حلف ناتو الدفاعية، وكذلك يتعاظم الاحتمال بأن قوات حلف وارسو ستكون قد وصلت إلى الراين، عندما تتخذ قوات حلف ناتو القرار باستخدام الأسلحة النووية التكتيكية».

فموقع قوات حلف وارسو الجغرافي يوفّر لها ميزة عسكرية هائلة، بينما ينبغي على القوات الأمريكية التي تشكل القوة التعزيزية الأساسية لقوات حلف ناتو أن تنقل بحراً عبر المحيط الأطلسي، الذي يعج بالغواصات السوفييتية، أو فوق الاطلسي بجسر من الألمنيوم الذي قد لا يثبت أنه من الشدة بقدر ما يتطلبه وزن حركة النقل، وقد بينت عملية تجريبية للحرب (بيان نظري) عن طريق الكومبيوتر (العقل الالكتروني) في البنتاغون عام ١٩٨٧، بأنه قد لا تتوفر للولايات المتحدة المقدرة على إقامة جسر جوي، وجسر بحري لنقل القوات إلى أرض المعركة دون أن يقضي عليها جميعاً قبل وصولها إلى هناك، ففي التدريب أو خلال إجراء البيان وكانت جميع قواتنا تقريباً، المحدد لها أن ترسل إلى أوروبا قد وصلت إليها، لكن الكثير من الأسلحة الثقيلة التي كانت تحتاج إليها قد توقفت في الولايات المتحدة، كما أن الجيش خلال الأيام الثلاثين الأولى من البيان التجريبي، قد نفذت قذائف مدفعيته، وجنازير دباباته، وعدة أنواع أخرى من الذخيرة الهامة، ويعود السبب في ذلك، بصورة جزئية، إلى أن مخزون المستودعات في أوروبا تدنى إلى مستويات بالغة الخطورة إبان الحرب العربية - الإسرائيلية عام ١٩٧٣، ولم يعوض بشكل كافٍ أبداً وقد بينت الدراسات بأن بعض الجيوش الأوروبية تبدأ باستنفاذ ذخيرتها في غضون أيام بدلاً من أسابيع، وهكذا في ضوء الأعداد الهائلة التي تمتلكها جيوش حلف وارسو، ووجود القوات السوفييتية في مواقع تعتبر أوروبا الغربية منها ضمن مجال ضرب تلك القوات، واعتماد السوفييت المؤكد على القيام بالهجوم الشامل السريع والمباغت، يمكن التقدير بأن قوات ناتو التقليدية لن تكون كافية على الوقوف في وجه الهجوم السوفييتي الشامل، حتى ولو اقتصر على الأسلحة التقليدية.

حتى ولو افترضنا جدلاً بأن ناتو قد يستعيد التوازن في مجال القوات التقليدية، فستظل هناك المشكلة الكبيرة والتساؤل حول الدور النووي في الردع الأوروبي - أو في القتال الحقيقي، إذا ما أخفق الردع، والسؤال الذي يجب طرحه: ترى ما الذي سيحدث إذا تمكنت دفاعات ناتو التقليدية من الوقوف في وجه هجوم من قبل الاتحاد السوفييتي، ووجد السوفييت أنفسهم محصورين، ترى هل سيقبلون بهذا المأزق الحاسم - كمحاصرة الملك في لعبة الشطرنج - وهل ستسمح لهم الأهداف السياسية التي قاموا بعملية الغزو ضد أوروبا الغربية من أجلها بالوقوف عند ذلك الحد، ! أو هل سيقومون، بعد أن وصلوا إلى هذا الحد، بالصعود إلى مسرح العمليات النووية واضعين في حسابهم بأن الأمريكيين لن يقوموا بتوجيه ضربة من الولايات المتحدة البعيدة موجهة إلى الاتحاد السوفييتي ذاته؟ في ذلك الوقت قد يتراءى لزعماء الكريملين بأننا لن نفعل ذلك بسبب خشيتنا من ضربة سوفييتية مضادة وأكيدة من شأنها أن تقضي على مركز عصب قدرة أمريكا: ألا وهي قوات صواريخنا العابرة المركزة على الأرض بالإضافة إلى غواصاتنا في المرافئ، وقاذفاتنا في

قواعدها، وكما سبق لوزير دفاعنا السابق جيمس شليسينجر وقال عام ١٩٧٥ مبيناً في تقرير قدمه إلى الكونغرس: «إن قوا حلف وارسو لا تفكر بالحربين التقليدية والنووية على أساس أنهما كيانان منفصلان، وبرغم الاتجاه الحديث الذي اتخذته مؤخراً نحو تحسين قواتها التقليدية، والاعتراف بأن الحرب التقليدية في أوروبا لا تحتاج إلى أن تتصعد إلى حرب نووية، فإن استراتيجية حلف وارسو وقواته ما زالت تتجه بشكل قوي وتدرب على أساس العمليات النووية».

ونجد حتى أن التخطيط العسكري السوفييتي يدعو إلى إمكان استخدام أسلحة نووية مسرحية، في حال أية حرب في أوروبا محدودة على أهداف مسرح عمليات في أوروبا ذاتها، فصواريخهم من طراز اس اس . ٢٠ SS ٢٠ وقاذفتهم باك فاير هي برمتها أنظمة نووية عملياتية جديدة، ذات قدرات عبر قارية، وليس هناك أي شيء يقابلها في ترسانات الغرب، وصواريخهم النووية الميدانية المطورة، وطائرتهم الهجومية الجديدة التي يمكن أن تزود بأسلحة نووية تفوق بصورة عامة من حيث المدى وغزارة النيران والدقة والحركة قدرات ناتو النووية المسرحية، إن غرض روسيا من وراء مثل هذه الأسلحة هو اعطاؤها اليد النووية العليا على المسرح الأوروبي، في وضع تكون فيه قوات الولايات المتحدة الاستراتيجية عرضة بشكل يسهل النيل منها من قبل قدرة سوفييتية عبر قارية مساوية أو متفوقة، والأكثر من ذلك أيضاً هو أن قوات حلف وارسو قد تلقت تدريباً كبيراً على العمليات في مناخ . أو بيئة نووية.

وتحمل قاذفة باك فاير صواريخ نووية جواله (كروز) وصواريخ هجومية، ولا تغطي أوروبا الغربية فقط وإنما مشارف الأطلسي على القارة الأوروبية أيضاً، ومع إعادة تزويدها بالوقود يمكنها الوصول إلى الولايات المتحدة، وصاروخ اس اس . ٢٠ SS ٢٠ صاروخ متحرك، ولذلك فإصابته صعبة المنال، وفي عام ١٩٨٠ سيكون السوفييت قد أدخلوا حوالي مئتي صاروخ اس اس . ٢٠ في الخدمة وأنهم يقومون بزيادة عدد هذه الصواريخ بمعدل صاروخ واحد أسبوعياً ويحمل كل صاروخ أس أس . ٢٠ ثلاثة رؤوس حربية دقيقة من طراز ميرف، وإن مداه الذي يصل من ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ ميل يمكنه من إصابة أي هدف في أوروبا، من النرويج إلى انكلترا وحتى مضيق جبل طارق، ويمكن أن يحول صاروخ اس اس . ٢٠ أيضاً إلى صاروخ اس اس . ١٦ SS ١٦ العابر للقارات، والقادر على الوصول إلى الولايات المتحدة وذلك ببساطة، أي فقط بإضافة مرحلة ثالثة للمرحلتين اللتين يمتلكهما صاروخ أس أس . ٢٠ حالياً.

وليس لدى ناتو أي شيء يعادل الـ أس أس . ٢٠، أو القاذفة باك فاير فالصواريخ المئة والثمانية من طراز بير شينغ . ٢، ذات الرأس الحربي الواحد، التي تم الموافقة مؤخراً على تطويرها في منتصف الثمانينات لا تتمتع سوى بثلث المدى الذي يتمتع به صاروخ اس اس . ٢٠، وإذا ما واصل الروس بإدخالهم إلى الخدمة أسلحتهم الجديدة بالمعدل الحالي، فإن دول ناتو في منتصف الثمانينات ستتأخر شوطاً بعيداً عنهم، حتى بعد إدخال صواريخنا من طراز بيرشينغ وكروز إلى

الخدمة، لذلك فقد أضحى من الواضح بأن هناك حاجة ماسة وقائمة إلى زيادة تحديث القوات النووية الميدانية، وقوات المسرح النووي لدول حلف الناتو على اللوحة.

وقد كان إدخال الرأس الحربي النيوتروني إلى الخدمة الخطوة الأولى المنتظرة في هذا الاتجاه، فهذا النوع من السلاح سيكون ذا فعالية شديدة ضد جيوش الروس المدرعة الضخمة، لكن ميزته الأولى والرئيسية هو أنه كان سيقلل من مردود الأسلحة النووية الميدانية، وكذلك من مشكلة النشاط الإشعاعي، لأن تأثيره سيكون طفيفاً جداً على أولئك غير الموجودين في منطقة إشعاعه المباشرة: أي أن تأثيره عكسي . إصابة القوات الصديقة سيكون على أقله، وهكذا فإن السلطات السياسية ستكون أكثر ميلاً للموافقة على استخدامه ضد الدبابات الغازية، مما ستكون بالنسبة للأسلحة النووية الميدانية الأكثر قدماً، والأكثر قدرة على التدمير، والتي هي في حوزة دول ناتو، وعليه فإن استخدام هذا النوع من السلاح كان من شأنه أن يزيد من الثقة بقوتنا الرادعة، ويجعل وقوع الحرب أمراً أقل احتمالاً .

وفي جميع الأحوال، لقد كانت المعالجة السياسية التي قامت بها حكومتنا لقضية القنبلة النيوترونية تنطوي على الغباء، فلقد قلنا لحلفائنا بأننا سنضعها قيد الاستخدام، فقاموا باتخاذ الخطوات نحو إعداد الرأي العام لديهم للقبول باستخدامها، ثم قمنا بسحب البساط من تحتهم، بتغيير رأينا، والدول عن استخدامها، وكانت إدارة ظهرنا لهم تلك بمثابة سبب رئيسي لقلة الثقة بنا من قبل أولئك الذين يعتمدون علينا من أجل حمايتهم، ويعتبر هذا الحدث من الأسباب الرئيسية التي يجب أن تدفعنا نحو التزام أقصى جانب الحذر والدقة في إصلاح «شبكة» الردع الأمريكي التي لا يمكن «رفؤها».

وأهم مبدأ، أو أساس، بعد انتهاء مشكلة استخدام القنبلة النيوترونية، هو معالجة كافة قضايا المسرح النووي . كالعقيدة والتصميم والاستخدام والتفاوض . يجب أن تشكله حماية وحدة التحالف، فبدون وحدة ناتو، واسترداد أقصى درجة للثقة المتبادلة، فإن استخدام قوات المسرح النووي الحديثة يحتمل أن يكون مستحيلاً، ومن المؤكد بأن أية قوة نستطيع تجميعها في ظل مثل هذه الظروف لن تؤثر على الاتحاد السوفييتي، ولن تردعه لا عسكرياً ولا سياسياً .

إن قرار الحلفاء المنتظر بشأن المضي في وضع صاروخ بيرشينغ البعيد المدى، وصاروخ كروز الذي يطلق من الأرض قيد الاستخدام، قرار ذو قيمة سياسية لدرجة أنه يمثل مطلباً لوحدة الحلف في وجه الضغط السوفييتي، ومهما يكن، فإن ذلك الاستخدام قد ربط بأغراض الحد من التسلح، وهذا ما يثير التساؤلات حول حسناته العسكرية، ولقد تم اقناع بعض الحلفاء بأن الحاجة تدعو لوجود مثل هذه الأنظمة، بينما يراها آخرون بمثابة أدوات لتحديد الأسلحة في المستقبل، ومن هنا فقد كان هذا الخلاف في التصور يشكل مصدراً سياسياً لوقوع الحلف في أتون من الفوضى، التي يستطيع السوفييت استغلالها .

فالتحديث يجب أن يجري على أساس المزايا التي يشكلها هو وحده، فلو أضفينا الصفة المنطقية على نظام، حتى ولو بصورة جزئية على أساس قيمته التفاوضية، من أجل الحد من التسلح فإننا سنثير شكوكاً مسوغة ليس حول أهميته العسكرية فحسب، بل حول تصميمنا على المضي في هذا البرنامج، ومن الواجب تحسين الوضع العسكري في دول ناتو «قبل» أن يتم التوصيل إلى أية اتفاقيات رئيسية مع دول حلف وارسو حول تحديد الأسلحة، وإذا ما وقعنا اتفاقات تحديد الأسلحة أولاً فإنما نقوم بمغامرة خطيرة . وهي وشيكة بالتأكيد حيث أن تلك الاتفاقيات ستعكس فقط اختلال التوازن القائم، وتساعد على استمراره.

وأهم مسألة يجب حلها ليست المسألة الفنية لأي سلاح يكون الأكثر فعالية من حيث التكلفة، بل الانقسام داخل الحلف حول المبدأ، فالبعض . الأوروبيون على الأغلب . ينظرون إلى قوات المسرح لديهم كطريقة «لاعطاء الإشارة» للاستعداد للتصعيد وحلقة اوتوماتيكية للقوات الاستراتيجية للولايات المتحدة، أما الآخرون . الأمريكيون على الأغلب . ينظرون إلى قوات المسرح كطريقة للدفاع عن أوروبا، وفي الوقت ذاته للسيطرة على، أو احتواء الحرب في أوروبا دون أن تستدعي الحاجة وقوع مواجهة نووية بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي.

فلا بد من إيجاد طرق للتسوية بين هذين المفهومين، وفق الحقائق الجديدة للتوازن الاستراتيجي، ومفهوم «الأوروبيين» يجهل أو يتجاهل حقيقة أن اعطاء الإشارة السياسية يتطلب قدرات عملياتية عسكرية حقيقية، وأكثر من ذلك، إنه يفترض بأن القوات الاستراتيجية للولايات المتحدة ستعوّض بشكل فوري أية نواقص في قوات المسرح لحلف ناتو، ومع ذلك فإن تزايد ضعف موقف قوة الولايات المتحدة في مجال الصواريخ العابرة للقارات المتركزة على قواعد أرضية ICBM، وتشعب الأهداف السوفييتية الكثيرة، والزيادة المحدودة المتوقعة في برامج القوة الاستراتيجية للولايات المتحدة، إلى جانب الموانع التي تشكلها سالت في وجه القوات الأمريكية يعني بأنه إلى أن تنعكس تلك الاتجاهات، فإن قدرة الأنظمة النووية الاستراتيجية للولايات المتحدة، المركزة من أجل تغطية الأهداف العسكرية الأوروبية ستتواصل في الاضمحلال والتناقص.

«والمفهوم» الأمريكي، في نظر العديد من الأوروبيين يبالغ في التأكيد على حرب نووية محدودة تقتصر على أوروبا، وهذا ما يثير قلقهم، وما لا يعتقدون بكفايته حسب مقتضيات الضرورة السياسية للحفاظ على أقوى حلقة ممكنة وارتباط بجميع الأنظمة الاستراتيجية الأمريكية، ولهذا السبب فإن كثيراً من المقترحات الأمريكية بشأن تحسين القوات النووية المسرحية لحلف ناتو . حتى للحد اللازم لتطبيق مفهوم الأوروبيين . تبدو للأوروبيين الغربيين كدليل على استعداد الولايات المتحدة للنظر في وقوع مواجهة نووية في أوروبا دون تصعيدها إلى مستوى استراتيجي.

فعلى الطرفين، والحالة هذه، أن يدركا بأن الهدف المشترك والأساسي هو «الردع» لكل من: أمر حدوث هجوم فعلي، مع قدرة السوفييت على استغلال الوضع العسكري سياسياً، فاستراتيجيات

الردع في حلف متعدد الجنسيات قد لا يتطابق تطابقياً تاماً مع المنطق العسكري الاستراتيجي، لكنها لن تقدر على التحمل إذا لم تتطابق مع الواقع، وفي حين أن الارتباط بالقوات الاستراتيجية الأمريكية، ليس، ولن يكون بما كان عليه من القوة فيما مضى، فهو سيظل قائماً، وإن «درجة» الاعتماد الحالي على تلك القوات يجب أن تردف دفاع أقوى على المسرح . الدفاع الفعلي، فردع هجوم دول حلف وارسو الرامي إلى الاستيلاء على أراضي أوروبا الغربية، يجب أن يقوم بشكل أكثر على أساس المقدرة على منع السوفييت من تحقيق هذه الغاية، وبشكل أقل كثيراً على أساس قلة الثقة بالتهديد الذي يشكله الانتقام من قبل القوات الاستراتيجية الأمريكية، وليس ذلك تكرار ازدواجية نووية أمريكية . فالقوات النووية الميدانية والمسرحية، ستظل في الحقيقة أمريكية بشكل بارز، كما أنه ليس مجرد محاولة لجعل الصدام النووي مقتصراً على أوروبا، بل على عكس ذلك، فإنما هو سعي لتعزيز الردع وتقويته.

ويتعين على الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين وضع الخطوط العريضة لمثل هذا المبدأ وتحديد متطلبات التحديث وفقه، مع التمسك الشديد والثابت بأهدافنا المشتركة، ولكن أيضاً بواقع الوضع الاستراتيجي، وثمة أمور يمكن الاتفاق عليها: في حين يتوجب وجود نوع من إعادة التأكيد على الاعتماد على مظلة القوة الاستراتيجية الأمريكية، يجب ألا يكون هناك تكرار للازدواجية، وتعويضاً لذلك يجب تقوية الجانب الميداني والمسرحي للمظلة النووية، ولا بد أيضاً من تبني استراتيجية دفاعية وعقيدة جديدة لمواجهة القدرات الحديثة لتجمع جيوش حلف وارسو، ونقطة الانطلاق هي الاعتراف بالطبيعة الحقيقية لمبدأ حلف وارسو، فذلك المبدأ يرمي إلى هزم دفاعات دول حلف ناتو، والاستيلاء على الأراضي بشكل سريع باستخدام الأسلحة النووية التكتيكية، والأسلحة الكيميائية، والتقليدية.

ولمواجهة هذه الاستراتيجية نحتاج إلى مبدأ استخدام قوة نووية مسرحية تجعل من الواضح بشكل مطلق العلاقة الجديدة لقوات المسرح بالقوات النووية الاستراتيجية للولايات المتحدة المركزة على طرف واحد لطيف الردع، وكذلك بالقوات العسكرية التقليدية للحلفاء المستخدمة في أوروبا على الطرف الآخر.

وفي قلب المركز الاستراتيجي للطيف، يجب أن تقوم قوات الولايات المتحدة إلى جانب أنظمة المسرح البعيد بتحييد . تعطيل . خطر مثل تلك القوات السوفييتية، ورئيس جمهورية الولايات المتحدة وحده فقط القادر على تحديد مبدأ الاستخدام المحدود والاختياري الذي تدعو الحاجة إليه من أجل ضمان الإجراء الحيوي اللازم لمثل هذا التحييد.

أما على الطرف الميداني من الطيف فقوة نووية مسرحية مستحدثة، ستؤمن الردع الرئيسي للهجمات النووية والتكتيكية أو التقليدية السوفييتية الشاملة، وسيحدث ذلك حتى ولو كانت القوات التقليدية لدول حلف ناتو تحسنت إلى درجة كبيرة، ولا يمكن التوقع من حلف ناتو القدرة على احتواء مثل تلك الهجمات بالقوات التقليدية وحدها، ولكي يكون فعالاً ينبغي أن يكون الردع

المسرحي قادراً بشكل واضح على إيقاف هجوم واسع النطاق يشن من قبل قوات حلف وارسو، وكذلك على الحيلولة دون خسارة الأرض، ويستدعي كذلك القدرة على تحديد وتدمير أهداف عسكرية في ميدان المعركة والقضاء على دعمها من المؤخرة.

ويتطلب هذا الأمر تحديث مركزنا على اللوحة: فالأسلحة النووية والممتلكات العسكرية الحاسمة على المسرح، يجب أن تجعل أكثر قدرة على البقاء في وجه هجوم مباغت، كما يجب تحديث الأسلحة النووية للإسراع في رفع مستوى قدرتها الدفاعية، وتقليل تأثيرها في مجال التدمير الذاتي الناجم لهذا الغرض، وكذلك يجب إدخال أنظمة المدى المسرحي لمواجهة خطر القاذفة باكفاير، وصواريخ أس أس ـ ٢٠، ولكن ليس على حساب تحديث الأسلحة النووية الميدانية، وتدعو الحاجة أيضاً إلى تحديث القوات التقليدية بالاستفادة من التقنية الحديثة، ويجب تبني خطط تجمع بين استخدام الأسلحة النووية والتقليدية، لجعل الردع القائم بشكل أقوى على حرمان المعتدي من تحقيق أغراضه، محطاً أكبر للثقة، وفوق كل شيء يجب اتخاذ قرارات لرسم خطوط مبدأ التحديث والحيلولة دون تجزئة القوى.

وسيكون ذلك بمجمله في غاية الصعوبة، كما أن الضرورة تقتضي قيام مزيداً من تعاون الحلفاء، أكثر مما شهدناه في الآونة الأخيرة، وعلى الولايات المتحدة أن تمسك بدفة القيادة، ولكن لكي تفعل ذلك بحكمة، يستوجب عليها قبل كل شيء أن تنظم موقفها هي بالذات، ولا يعني ذلك تكرار الأخطاء التي ارتكبت في الستينات، عندما كانت نزعتنا ترمي إلى فرض استراتيجية على حلفائنا، ويجب أن توضع الحلول مع حلفائنا سوية، غير أن القيادة الحكيمة تستحيل بدون حس بالتوجيه، وإن من أحد الأسباب الرئيسية للارتباك الاستراتيجي الذي يعاني منه حلف ناتو اليوم، هو انتقاص الولايات المتحدة إلى الحس الثابت بالتوجيه فقد كانت غايتنا خلال السنوات الأخيرة تتركز على الوصول إلى قرارات عسكرية متفرقة للحلف، ولا بد من توقف هذا الاتجاه، فالجهود التعاونية المجموعة لتجديد ولاسترداد الواقع والثقة بالردع في أوروبا من شأنها أن تساعد على بناء وحدة الحلف، إلى جانب القوة العسكرية والسياسية كذلك.

إن وصول اسبانيا ودخولها حلف ناتو أمر ينطوي على أهميته وهو في غاية الحيوية، وإذا ما جمعت القوات الاسبانية التي يصادر إلى تحديثها الآن على قدر من السرعة، والموقع الاستراتيجي الرئيسي، مع تعاون فرنسا المتعاظم داخل الحلف، سيتمتع ناتو بالعمق العسكري الذي ينتقص إليه الآن، وقد كانت الولايات المتحدة قد تبنت، وطالبت بانتساب اسبانيا لعضوية الحلف منذ الأيام الأولى لإدارة الرئيس ايزنهاور، فمع ذهاب نظام حكم فرانكو ونشوء الديمقراطية في اسبانيا، أصبح مطلوب من الأوروبيين الغربيين أن يستعدوا لضم اسبانيا إلى حلف ناتو، فالشعب الاسباني شعب مجد وشجاع وقدير، والولايات المتحدة والغرب بحاجة لأبنائه كأصدقاء وحلفاء، لا سيما أن وحدة ناتو السياسية، أهم من مركزه العسكري من أجل تثبيط همة السوفييت، وعدم تشجيعهم على القيام بالتجارب والمغامرات.

أما تركيا فقنبلة موقوتة، إذا ما سمح لها بأن تنفجر، سيكون أثرها على حلف ناتو وأكثر تخريباً من الثورة في إيران، وتركيا لا تمتلك على النفط، لكنها تتشارك بالحدود مع ايران وسورية والعراق والاتحاد السوفييتي، فهي تسيطر على المدخل المؤدي للبحر الأسود، وعلى المدخل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، كما أنها تشكل ثلث أجزاء ناتو المؤلفة من ستة وستين جزءاً، كما أن قواتها المسلحة التي تتألف من ٥٠٠٫٠٠٠ رجل تعتبر الثانية من حيث الحجم في حلف ناتو بعد قوات الولايات المتحدة، ولقد كانت تركيا منذ قرون بمثابة هدف للعدوان السوفييتي.

ومشاكل تركيا الاقتصادية مشاكل مؤهلة، وهي تواجه على حد قول سليمان ديميريل رئيس وزرائها: «أخطر أزمة في تركيا منذ أن أسسنا الجمهورية عام ١٩٢٣»، إضافة إلى ذلك فإن النزعة الدينية تمزقها، كما أن المجموعات السياسية الراديكالية تتهددها بالخطر، وتسودها الآن موجة من الاضطرابات والاغتيالات، ومازالت حكوماتها منذ زمن تعاني من الضعف وعدم الاستقرار، ولأسباب سياسية محضة ظل الكونغرس الأمريكي يضن عليها بتقديم المساعدة العسكرية والاقتصادية، فإذا اضمّحلت تركيا سيتمزق الطرف الجنوبي لناتو، وسيضيع، كما أن تأثير ذلك على جيران ذلك الطرف المنتجين للنفط سيفوق كل حساب، ومن هنا فإن الضرورة تقتضي بشكل ملح أن تبادر بلدان ناتو، بما فيها الولايات المتحدة، إلى إيجاد برنامج يتضمن تقديم المساعدة العسكرية والاقتصادية التي تضمن عدم حدوث مثل هذا الأمر.

ناتو والنفط شريان الحياة

إن ستين بالمائة من نفط أوروبا ينقل بواسطة البحر من دول الخليج العربي، فأوروبا، شأنها شأن اليابان، أكثر اعتماداً على النفط من البلدان العربية منا نحن، وهذا الاعتبار إلى جانب كثير من الاعتبارات الأخرى هو ما أدى بالجزء الأكبر من حلفائنا دول ناتو، أن ينظروا إلى الخطأ والصواب في حرب يوم الغفران عام ١٩٧٣ نظرة تختلف عن نظرتنا، وباستثناء الهولنديين الذين تلقوا ضربة من جراء حظر النفط بسبب معارضتهم للعرب، والبرتغاليين الذين كانت لديهم آنذاك مستعمرات أفريقية تحتوي على النفط، فقد كانوا لا يملكون الرغبة بمساعدتنا لمساعدة الإسرائيليين، وذلك خشية أن يعاقبهم العرب، بإيقاف إمدادات النفط الحيوية عنهم، ولذلك فقد منعت معظم بلدان ناتو الهبوط، وحقوق التحليق في أجوائها لطائراتنا التي كانت تحمل الإمدادات للإسرائيليين، كما أنها قاومت تحويل المعدات العسكرية من وسط أوروبا إلى إسرائيل.

فلا بد إذن من الاعتراف بأن الوضع الذي يواجه حلفائنا الأوروبيين الغربيين، فيما يتعلق بإمداداتهم النفطية وضع في غاية الصعوبة، وأن اهتمامهم وقلقهم بشأن تحويل المعدات من مستودعات ناتو كان مشروعاً، ومهما يكن فلا واحد من الاعتبارين يسوغ قلة تأييدهم، بالمقابل، للولايات المتحدة، وليس امتناعهم عن دعمنا عام ١٩٧٣ وحده هو الذي حال دون كسبهم لميزة ملموسة ودائمة مع الدول العربية، وجعل سياستهم تتسم بقصر النظر فيما يخص العلاقة الاستراتيجية لإسرائيل بالأمن الأوروبي الغربي، إن اخفاقهم في تأييد الولايات المتحدة بما كانت

تعتقد أنه مصلحة وطنية كبرى . ومشتركة لحلفائها . ينطوي على معان تنذر بسوء صحة الحلف ذاته، فما هي صلاحية ناتو وفعاليته إذا لم نكن قادرين على اعتماد سياسة واحدة لمعالجة مشاكل الأمن الرئيسية خارج أوروبا؟ إن الاعتبارات السياسية العالمية والاقتصادية، في الخليج العربي بوجه خاص، تخلق مشاكل، وعندما تكون خارج حدود ناتو فإنها بدون أي شك تهم ناتو كحلف، ولقد بين ناتو حتى الآن عن نفسه بأنه غير قادر للرد على مثل هذه المشاكل كحلف، لذا فإنه من الالحاح والضرورة بمكان أن نعمل على إيجاد وسائل منسقة وفعالة لمعالجة مثل هذه المشاكل.

والتحدي الرئيسي في هذا الصدد ليس اجرائياً، وليس تقنياً: إنه تحدٍ سياسي، فمصالح الأوروبيين الحيوية والمشروعة في الشرق الأوسط والخليج أكثر أهمية بالنسبة لهم من أهمية المصالح الأمريكية في المنطقة بالنسبة للولايات المتحدة، والولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان ستظل معتمدة إلى درجة كبيرة على النفط المستورد من الشرق الأوسط والخليج العربي خلال الفترة المتبقية من القرن الحالي، وإن السوفييت يدركون ذلك، وقد بدأت احتياطات السوفييت من النفط تتدنى، وهم الآخرون سيحتاجون إلى نفط الشرق الأوسط في القريب العاجل، فلهذه الاسباب وغيرها، لهم طمع كبير في هذه المنطقة، وكما قال جيمس ر. شليسينجر، الذي كان وزيراً للدفاع في إدارتي، في خطابه الوداعي كوزير للطاقة في عهد إدارة كارتر: إن ناتو اليوم «غير كاف لأنه لا يقدم حماية لمصادر الطاقة التي يعتمد عليها أمننا الجماعي»، واستطرد يقول: «إن الخطر ما حق، لأن السيطرة السوفييتية على صنبور النفط في الشرق الأوسط ستعني نهاية العالم بالشكل الذي كنا نعرفه منذ عام ١٩٤٥، والتعايش المشترك بين البلدان الحرة».

وبأعجل مما نرغبه أو ما قد نتوقعه ستستدعي الضرورة من البلدان الأوروبية أن تكون مستعدة وراغبة في استخدام القوة العسكرية بالتعاون مع الولايات المتحدة، دفاعاً عن مصالح الغرب الحيوية والمشروعة في الشرق الأوسط، أو الخليج العربي؛ فإذا ما تعرضنا لتحد على هذا النحو لن يكون أمامنا خيار، سوى القيام بما هو ضروري للحيلولة دون الحاق الأذى بالنفط الذي هو شريان حياتنا.

فالتواجد العسكري في منطقة الشرق الأوسط، أو الخليج العربي لا حاجة له أن يكون، ويحتمل بأنه يجب ألا يكون تواجداً لناتو، كما أنه لا حاجة له لأن يكون في ظل قيادة ناتو، ولكن يحتمل بأن تدعو الحاجة في المستقبل لإيجاد طرق تستطيع بموجبها بعض الدول المتعاونة زيادة ورفع جاهزية قواتها، بعد استشارة الحلف، دون أن تطلب التعاون، أو حتى موافقة الجميع.

إن المركز الاستراتيجي للتحالف الغربي بأسره يتمحور اليوم، وسيظل كذلك لسنوات قادمة، حول الاعتماد على حصول أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية واليابان على النفط الخام من الخليج العربي، وعلى مواصلة الثقة بحماية ودعم الولايات المتحدة للدول الرئيسية في المنطقة، وعلى الحد من النفوذ السوفييتي فيها، وعلى تفادي الحرب إن كان ثمة إمكان لذلك، لكن هذه المصالح

ليست إعداماً ذاتياً، بالرغم من أنها، إلى حد ما، ذاتية الدلالة، فمن الضرورة أن نكون على استعداد، وأن ينظر إلينا بأننا على استعداد، لأن ننضم جميعاً، ونهب للدفاع عنها.

ويجب أن تكون لدى الولايات المتحدة أيضاً المقدرة على التدخل من جانبها، بصورة فردية في هذه المنطقة الحيوية من العالم، إذا ما دعت الحاجة لذلك، فالقواعد المقامة استراتيجيا لمواجهة القواعد السوفييتية في المنطقة، وقوة التدخل السريع ستظهر للسوفييت، بأننا جادون في التصدي للتهديد الذي يشكلوه على النفط، شريان حياتنا.

إن فكرة التدخل السريع مجدية ومفيدة أيضاً لأجزاء أخرى متقلقلة وحساسة في العالم أيضاً، وقد كان السيناتور جون ستينيس عضو لجنة الخدمات المسلحة في مجلس الشيوخ قد أوضح معلقاً بطريقة ملونة على هذه الناحية، عندما قال: «لدينا مشاكل أكثر من مجرد مشاكل التهديدات الاستراتيجية»، واستطرد ستينيس يقول: «يتوجب علينا أن نكون على استعداد لمزيد من المشاكل المقلقة، وأن تكون لدينا قوات تستطيع الدخول إلى خلجان العالم الثالث»، وقوات التدخل السريع، إذا ما استخدمت بذكاء من شأنها أن تؤمن للولايات المتحدة المرونة اللازمة لتلبية حاجات الحلفاء في أرجاء العالم.

ومما يجدر بالملاحظة، بل ما يجب ملاحظته، بأن قدرة قوة التدخل السريع ستعتمد على قواعد، وعلى معدات وإمدادات مسبقة التمركز على اليابسة أو في البحر، وقد لا يمكن نقل كميات المعدات التي تدعو الحاجة إليها، عبر جسر جوي، وقبل كل شيء، إن قوات التدخل السريع إذا اعتمدت على القواعد والتمركز المسبق فإننا سنخسر في الوقت الحاضر مستويات من الميزانية البحرية.

اليابان

إن اليابانيين، من الناحية الاستراتيجية، في موقع مماثلٍ تماماً لموقع أوروبا، فالأخطار التي تتهدد اليابانيين تأتي بصورة أساسية من الاتحاد السوفييتي: كالإكراه النووي، وقطع الطرق البحرية بين اليابان والخليج العربي والتنكيد بهجوم من الجو، ورداً على هذه التهديدات هناك ثلاث خيارات، أمام اليابانيين: باستطاعتهم أن يعيدوا تسلحهم بكل من الأسلحة التقليدية والأسلحة النووية، وباستطاعتهم التوافق مع الاتحاد السوفييتي بعرضهم التبادل بخبرتهم الفنية مقابل عدم الإعتداء عليهم، والخيار الثالث هو مواصلة اعتمادهم على الولايات المتحدة، فبالنسبة لبضعة سنوات أخرى من الآن سيتبعون الطريق، أو الخيار، الثالث؛ وفي الوقت ذاته يمكن أن يتوقع منهم أن يقوموا بإجراء زيادة معتدلة على نفقاتهم الدفاعية، والحفاظ على اتصالهم مع الاتحاد السوفييتي لأن استقرارنا الذي أصبح موضع شك به كحليف قد أجبرهم على ابقاء خياراتهم مفتوحة.

وفي حزيران عام ١٩٧٩، أثناء اجتماع القمة للدول السبعة في طوكيو، تلقت اليابان صدمة بسبب وصول «مينسك»، حاملة الطائرات الجديدة لدى الاتحاد السوفييتي، إلى محاذاة خليج طوكيو، وقد وضعت لها خطة التمركز الدائم، أو التواجد بالأحرى، في المحيط الهادي (الباسفيكي).

وتصدرت هذه الإيماءة المثيرة الخطوط العريضة، وارتفعت على الرايات في مختلف أنحاء اليابان أكثر من أول قمة دولية في اليابان منذ الحرب العالمية الثانية، وكانت بالنسبة لليابانيين بمثابة حدث يرمز إلى إعادة قبولهم في حلقة القوى العالمية، ومع ذلك فإن وجود مبنسك قد قلل من درجة تأثير اليابان، وكان رئيس الوزراء السابق ايساكو ساتو قد قال لي في عام ١٩٧٠، بأن اليابان منشغلة في «تجربة جديدة تماماً في تاريخ العالم»، وقصد بذلك أن بلده كانت جادة في احتلال مكانها كقوة عالمية رئيسية بدون قوة عسكرية.

وكانت مخصصات اليابان قد حددت أقل من ١٪ من إجمالي دخلها القومي للدفاع، بالمقارنة مع ٥٪ مما هو عليه الأمر في الولايات المتحدة، وعلى الأقل من ١١ ـ ١٣٪ في الاتحاد السوفييتي. وهو أصغر نسبة موجودة في بلد رئيسي في العالم، باستثناء المكسيك، وإن هذا الاتجاه الحر حول الدفاع هو الذي ساعدها على زيادة النمو الاقتصادي الخيالي، وقد قدر الخبراء الاقتصاديون بأنه لو كانت اليابان قد أنفقت ٦٪ من إجمالي دخلها القومي على أمور الدفاع، خلال العقدين الماضيين من الزمن، لكان إجمالي دخلها القومي قد انخفض بمعدل ٣٠٪ عما هو عليه حالياً، والبالغ تريليون دولار، والذي سيصبح خلال مدة قريبة ثاني أضخم اقتصاد في العالم، حيث ستتجاوز اليابان الاتحاد السوفييتي.

لكن هذا الاتجاه ذاته هو الذي جعل اليابان ضعيفة جداً من الناحية العسكرية، فجيشها المؤلف من ١٥٥ر٠٠٠ رجل يقدر بربع حجم جيش كوريا الشمالية، كما أن سلاحها الجوي المؤلف من /٤٤٠٠٠/ رجل غير محمي بشكل كاف، وقواتها البحرية المؤلفة من /٤٢ر٠٠٠/ رجل يمكن النيل منها بسهولة بواسطة هجوم جوي، وهي قادرة على حماية الطرق البحرية التي تعتمد عليها اليابان.

وكان لي كوان يو رئيس وزراء سنغافورة قد أشار إلى المعضلة اليابانية يوم قال لي عام ١٩٦٥: «إن اليابانيين شعب عظيم، فهم لا، ويجب ألا يقتنعوا بدور عالمي يوقفهم عند حد وضع أجهزة راديو ترانزيستور أفضل وماكينات خياطة، وتعليم الآسيويين الآخرين كيف يزرعون الأرز».

وعلى أية حال فإن الحكومة اليابانية حالياً تحدد دورها على أنه حرمان مدبر واسع بين الممثلين السياسيين الرئيسيين، بدلاً من أن تقودهم نحو هدف واضح، وهناك اتفاق عام في الوقت الحاضر على أن أمن اليابان في حالة انزلاق، ولكن بينما يحقق اليابانيون تقدماً مشجعاً في مجال تقوية قواتهم العسكرية، لم يقوموا بعد بإتخاذ القرار البالغ الصعوبة، ولكن الضروري لزيادة النسبة التي فرضوها على أنفسهم، أي ١٪ من الاتفاق على شؤونهم العسكرية، وما لم يحدث نوع من هزة مفاجئة في النظام الدولي ـ كنزاع كوري ثان مثلاً، أو حرب صينية ـ سوفييتية ـ فإن

تحسينات قوة اليابان يحتمل أن تظل محدودة في مجالات معينة بدلا من أن تنطلق عبر الميدان بكامله.

واليابان بحاجة للمزيد من الدفاع، وهي قادرة على تأمين ذلك، فالحواجز الموضوعة أو الموانع في وجه الانفاق على الدفاع، هي حواجز سياسية ونفسية، وليست اقتصادية، وقد يكون من غير الواقعية توقع قيام حكومة يابانية في المستقبل القريب بكسر الطوق التقليدي لتخصيص نسبة الـ ١٪ من إجمالي الدخل القومي للنفقات الدفاعية، ولكن حتى ضمن تلك الحدود يمكن، بل من الواجب زيادة النفقات، كما يجب على الزعماء اليابانيين إعداد شعبهم من أجل بل جهد عسكري أكبر، وفي الوقت ذاته يتعين على اليابان أن تعوّض عن اتجاهها الحر والمحدود بشأن الدفاع، بتحمل نصيب أكبر من العبء الاقتصادي للعالم الحر. بالمساعدة الخارجية على سبيل المثال.

وسيظل حجر الزاوية للدفاع الياباني، تحالفها مع الولايات المتحدة، والحاجة تدعو إلى تقوية التعاون العسكري بين اليابان والولايات المتحدة، لأن ذلك من مصلحة البلدين، فالمشاركة الوثيقة بين أقوى قوة عسكرية واقتصادية في العالم الحر، وأقوى دولة اقتصادية في آسيا، يمكن أن تشكل أساساً للقدرة الأمريكية السياسية والعسكرية على الحركة في المنطقة، وتقوم بدور كبح جماح نزعة السوفييت إلى المغامرة.

فبمزيد من التعاون الودي البحري، يمكن للأساطيل الأمريكية واليابانية أن تحسن إلى حد بعيد من تغطيتها لخطوط الاتصال البحرية جنوبي اليابان، نحو منطقة الخليج العربي، وإذا ما قوبل هذا التعاون بتعاون مماثل من قبل ناتو في البحر الأبيض المتوسط، سيصبح من السهل استخدام أسطول الولايات المتحدة الخامس في المحيط الهندي، ويمكن إجراء ذلك دون توريط اليابانيين في المسائل السياسية الدولية، التي قد لا يكونوا على استعداد لها، ودون تخفيض التواجد البحري الأساسي في شرق آسيا.

حتى لو افترضنا أنه يمكن تلبية متطلبات الدفاع عن الأجواء اليابانية، وحماية الطرق البحرية والإنذار الأولي، يظل هناك خطر التهديد النووي من قبل روسيا، فحوالي نصف صواريخ روسيا الجديدة من طراز أس أس. ٢٠ في أقصى شرق الاتحاد السوفييتي، وهي تغطي اليابان، وإن نصف القطر العملياتي لقاذفات باكفاير المركزة شرقي الأورال، يمكن أن تشمل اليابان بسهولة، وعلى الرغم من أن المشكلة في شمال شرقي آسيا هي بصورة أساسية نفس ما هي عليه في أوروبا الغربية . سرعة تعاظم بناء قوة سوفييتية نووية تهدف لضرب حلفاء الولايات المتحدة. فإن حلها بالنسبة لليابان لا يمكن أن يكون كالحل بالنسبة لناتو، لأن اليابان لم تستطع بعد قبول تركيز قوات نووية مسرحية على أراضيها، وبمقدور الولايات المتحدة أن تؤمن تغطية مسرحية بعيدة المدى لشمالي شرق آسيا بصواريخ كروز (جوالة) محمولة على غواصات، أو مركزة على قواعد أرضية ومستخدمة من قواعد مقامة على أراضينا، ومن أحد عيوب سالت. ٢ هو أن البروتوكول يحدد استخدام مثل هذه الصواريخ، على مدى ٦٠٠ كم فقط، وعلى الولايات المتحدة أن تدخل للاستخدام صواريخ

بعيدة مركزة على الأرض، ومركزة في البحر في غربي الباسفيكي كجزء من قوة نووية مسرحية مستحدثة.

إن الدفاع عن كوريا أمر لا مناص منه لأمن اليابان أيضاً، وانني أذكر بوضوح بمحادثة أجريتها مع وايتو كرتشامبرز، عندما قامت كوريا الشمالية بغزو كوريا الجنوبية، أيد بشدة اجراء الولايات المتحدة والأمم المتحدة حيث قال: «إن الأمر الذي يجب أن ندركه هو أنه بالنسبة للشيوعيين، ليست الحرب بشأن كوريا، ولكن بشأن اليابان» فسيطرة الشيوعيين على كوريا ستكون بمثابة سهم موجه إلى قلب اليابان، وفي ضوء التطورات الحالية في العالم يتحتم على الولايات المتحدة أن تعزز، بدلاً من أن تضعف قواتها في كوريا الجنوبية، كما يتحتم عليها أن تتحاشى الوقوع في الخطأ الذي ارتكبناه في إيران بتقويض حكومة صديقة، لأنها لا تحرز تقدماً نحو إرساء قواعد الديمقراطية على النمط الامريكي، بالسرعة التي نرغبها.

وأخيراً بالنسبة لشرقي آسيا، كما وبالنسبة لأوروبا الغربية، إنه لمن منتهى الضرورة، أن توضح الولايات المتحدة مبدأ عقيدتها النووية الإستراتيجية بطرق تقوي من المظلة النووية، بدلاً من اضمحلالها، إن هذه المبادرة الاستراتيجية تخدم مصالحنا الوطنية المباشرة، وكذلك مصالح أصدقائنا وحلفائنا وبدون كلفة نتحملها أبداً.

وإذا ما أخفقنا في إعادة تجديد وتعزيز تحالفنا مع اليابانيين، فاننا سنجبرهم إما على المضي في الطريق لوحدهم، أو على السعي للتوافق والتعايش مع السوفييت، واليابانيون لا يريدون الالتفات إلى الاتحاد السوفييتي، لأن اليابان جزء من العالم الحر، والولايات المتحدة مستهلك أكبر لمنتجاتها من الاتحاد السوفييتي، وبينما أعادت الولايات المتحدة أوكيناوة إلى اليابان عام ١٩٧٠، فإن الاتحاد السوفييتي يرفض رفضاً قاطعاً حتى التحدث عن إعادة جزر اليابان الشمالية التي استولى عليها بعد الحرب العالمية الثانية، وحتى أنه يقوم بتحدٍ، بزيادة وجوده العسكري فيها، ولكن اليابان في جميع الأحوال لا تريد أن تكون في الجانب الخاسر مرة أخرى، وإذا ما فقد اليابانيون الثقة في الردع الأمريكي، سيدفعون على مضض إلى عقد أفضل صفقة تمكنهم مع السوفييت، وإن التأثير السياسي العالمي لمثل هذا التطور سينزل كارثة بالغرب.

إن النتيجة مسألة تتعلق بسياستنا، وليست بالسياسة السوفييتية، فلدينا المقدرة على تعزيز مركز الغرب في آسيا، وعلينا أن نستخدم تلك المقدرة حتى آخر نفس، لكي نحمي كلاً من مصالحنا ومصالح أصدقائنا، وحلفائنا في آسيا.

القوة البحرية

إن الحدث الدراماتيكي الذي جسد حقيقة إبراز الولايات المتحدة كقوة عالمية، هو ذلك الإجراء الذي كان قد اتخذه الرئيس تيودور روزفلت قبل خمسة وسبعين سنة بإرساله «للأسطول الأبيض الكبير»، حول العالم، ومما يدعو للسخرية هو أن أنحدار الولايات المتحدة كقوة عالمية، قد يكون علامة تراجع بحرية أخرى: أي بفقداننا لتفوقنا الغربي الذي لا نقاش حوله لصالح القوة البحرية للاتحاد السوفييتي.

فالولايات المتحدة بلد «جزيرة»، ولذلك فهي قوة بحرية، أما الاتحاد السوفييتي الذي يقع في قلب الأراضي الأوروسية، فهو قوة برية، بشكل أساسي، ولكونه قوة برية فقد كان من المنطق التوقع منه بأن يحافظ على تفوق في مجال القوات الأرضية على طول حدوده البعيدة الامتداد، مع خصوم أقوياء، وكقوة بحرية وجزيرة معتمدين على التجارة عبر المحيطات، وعلى خطوط الاتصال البحرية مع حلفائنا، ينبغي على الولايات المتحدة أن تصر على تفوق حاسم في مجال السيطرة على الممرات المائية في العالم.

وبينما لم نقم ولم ننشد الميزات «الطبيعية» للاتحاد السوفييتي في مجال البر، لم يبادلونا هم من جانبهم الاعتراف بلقبنا البحري، وبدلاً من ذلك فقد عكفوا، وبشدة على اتباع ومواصلة برنامج بحري هادف إلى التغلب على ميزتنا، وتجريدنا منها في المحيطات في حال قيام الصدام . وهو برنامج يوفر لهم القدرة على الحركة، في حين يسعى لحرماننا من تلك الصفة بالذات، وتاريخياً لم تكن البحرية السوفييتية على قدر من الأهمية، أما الآن فقد تغير ذلك.

وتماماً كما كان تعاظم البناء الاستراتيجي السوفييتي، يتوازى مع تخفيف الحشد من قبل الولايات المتحدة، اتبع النمط ذاته بالنسبة لبحرية الطرفين: أي كان السوفييت يواصلون بناءهم، بينما أخذنا نحن بالتقوقع.

ومن قوة بحرية ساحلية غير مهمة في نهاية الحرب العالمية الثانية، تحول السوفييت اليوم إلى قوة بحرية عالمية رئيسية، فهم يملكون الآن أضخم وأحدث قوة بحرية على سطح البحار في العالم، وأضخم اسطول غواصات هجومي فيه، وأضخم أسطول من الغواصات الحاملة للصواريخ عابرة القارات، وقد قام السوفييت مؤخراً بمضاعفة حجم أضخم طوافات لديهم، كما بدأوا بانتاج أولى حاملاتهم الهجومية النووية ويعتبر ذلك بمثابة خطوة جديدة في برنامجهم للتوسع البحري، وتقوم السفن الحربية بالعمل الآن بشكل منتظم ليس في المحيطين الأطلسي والباسفيكي فقط، وإنما في المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط والبحر الكاريبي، ولا تهدد البحرية السوفييتية تفوقنا البحري فحسب، بل إنها في طريقها لتصبح عنصراً أساسياً من عناصر قدرة الاتحاد السوفييتي المتعاظمة بسرعة لكي يزج بقوته العسكرية، بسرعة وبمرونة، إلى أبعد المناطق وأقصاها مسافة في العالم، ولعل أبرز دلالة على النوايا السوفييتية هو اتساع رقعة قدرة

سفنهم، فنصف تلك القدرة فقط موضوع قيد الاستخدام الآن، مما يفسح المجال أمام الزيادة الكبيرة في بناء السفن في المستقبل.

وحتى أنه في الوقت الذي كان السوفييت عاكفين فيه على وضع قوة مضادة هائلة قيد الاستخدام ضد بحريتنا، كانت الولايات المتحدة تقوم بتوفير الكثير من المتاعب عليهم، فقد قمنا خلال السنوات العشر الماضية بتخفيض عدد سفننا بمعدل أكثر من النصف، وذلك من «٩٧٦» عام ١٩٦٨ حتى «٤٥٣» عام ١٩٧٨، وقد علق على هذا الأدميرال جيمس ل. هولواي رئيس العمليات البحرية آنذاك، عندما قال في ١٩٧٨، أنه في الحرب البحرية: «التي ستشرك في المقاتلات السوفييتية في كل من المحيط الأطلسي والباسفيكي، فإن أملنا بالنجاح في السيطرة على البحر سيكون أملاً هامشياً».

ويتبجّح رئيس أركان البحرية السوفييتية الأدميرال سيرجي غورسكوف بقوله: «إن علم البحرية السوفييتية يرفرف خفاقاً فوق محيطات العالم، وإن عاجلاً أم آجلاً سيتوجّب على الولايات المتحدة أن تفهم بأنها لم تعد تتمتع بالسيادة على البحار».

وقد يكون غورسكوف مبالغاً بمنجزاته ومجحفاً في تقدير تفوق حاملاتنا، لكن الحقيقة تظل قائمة بأن البحرية السوفييتية قد قفزت قفزة كبيرة لاحتلال مركز ثاني أفضل بحرية في العالم، وأنها تتحرك بسرعة فائقة نحو احتلال المركز الأول، وسيكون ذلك بمثابة كارثة للولايات المتحدة، وليس لدينا وقت نضيعه كي نتفاداها.

وفي مقدمة طبعة ١٩٧٩ . ١٩٨٠ للكتاب الرسمي «سفن حين المحاربة» يحذّر المحرر من أهمية هذه التطورات، ويقول بأن الإخفاق في مواجهة التحركات السوفييتية إلى داخل البلدان «التي لا يمكن أن يكون ثمة سبب لتواجدهم فيها سوى الخطط التوسعية والسيطرة النهائية عليها»، ويسمح للاتحاد السوفييتي بإقامة سلسلة من القواعد التي تشبه شبهاً كبيراً تلك القواعد التي استخدمتها الامبراطورية البريطانية في نهاية القرن الماضي، ويمضي إلى الاستنتاج الآتي:

«إن قادة الغرب بإلقائهم لدرع الأمن البحري قد أضعفوا مركزهم لدرجة أضحوا معها يسيرون نحو مركز يسهل النيل منه لدرجة الابتزاز، ترى ما هي نتائج الابتزاز؟ الحرمان من المواد الأولية ومن أسواق وحرية أولئك الأصدقاء الذين ليسوا من القوة بما يكفيهم لضمان أمنهم».

والسوفييت على استعداد للمحافظة على بحرية تعداد قطعها /٧٧٥/ سفينة على الأقل بالنسبة للمستقبل المنظور، أما غاية الولايات المتحدة حتى منتصف الثمانينات فهي /٥٢٥/ سفينة فقط، وبينما تسعى البحرية الأمريكية بالكاد نحو تجنب المزيد من تخفيض ميزانيتها، يقوم السوفييت ببناء أربعة أصناف جديدة من طوافاتهم البحرية، وبينها على الأقل اثنتان من حاملات الطائرات، كما يقومون ببناء غواصة جديدة كل ستة أسابيع. وليس المطلوب من الولايات المتحدة أن تقابل الاتحاد السوفييتي سفينة بسفينة، فنحن لدينا حلفاء بحريون رئيسيون بينما ليس لديهم، ومما يجدر بالملاحظة أيضاً هو أنه على الرغم من وجود حلفاء لدينا، فإن مشكلة رئيسية تعترضنا في

الحصول على تعاون من قبل أولئك الحلفاء الذين يعارضون أن ينظر إليهم بأنهم متورطون معنا في بعض المناطق، كما حدث في الشرق الأوسط أيام حرب عام ١٩٧٣، فضلاً عن أن الاتحاد السوفييتي يتمتع بميزة فريدة من نوعها: وهي أن أسطول صيده وتجارته البحري مدموج مع بحريته، وقد كانت شبكات الصيد السوفييتية «غير العسكرية» تقوم بصورة تقليدية بدور خدمة كعيون وآذان للبحرية السوفييتية على محاذاة شواطئنا.

ولهذه الأسباب مجتمعة كان من المتوجّب علينا أن نبذل جهوداً أساسية من أجل زيادة حجم قواتنا البحرية وتحديثها، وقد أظهرت دراسة للمجلس الأطلسي أجريت مؤخراً، بأنه يطلب تخصيص مبلغ إضافي قدره /١٠/ بليون دولار سنوياً من أجل بناء السفن الأمريكية وتزويدها بالطائرات، من أجل حماية بحرية قوامها /٦٠٠/ سفينة، وربما يكون هذا المبلغ الحد الأدنى المطلوب لتحقيق هذه الغاية، وأظهرت الدراسة كذلك بأنه يتعين على أعضاء الحلف الآخرين أن يكونوا قادرين بمجموعهم على الحفاظ على /٦٠٠/ سفينة أخرى لقاء زيادة سنوية إضافية مقدارها /٦/ بليون دولار تقريباً، بعد فترة من التحديث، وتبدو هذه المستويات متشية مع الانفاق الدفاعي الإجمالي للحلف، ويجب أن تؤمن قوى بحرية قادرة، إذا ما جمعت كلها، على الوقوف في وجه التهديد الذي تشكله البحرية السوفييتية التي يبلغ تعداد قطعها /٧٧٥/ سفينة، إن كان ثمة اقتضاء للأمر واننا نحتاج إلى سياسة واحدة تحدد بشكل واضح لكل بلد حليف دور ومهمة بحريته في المستقبل، واستراتيجية لتنفيذها، وأن نتشارك في برنامج بناء للسنوات العشر أو العشرين القادمة، فلا شيء أقل من ذلك سيكون كافياً.

إن للبلدان الحليفة مجال مشترك للمصلحة، بمعنى أننا جميعاً نعتمد على طرق بحرية مفتوحة من أجل استمرار ازدهارنا، وفي الحقيقة من أجل بقائنا ذاته، فتقاطع المحيط ذي العالم الواحد، أي ذلك الجسد المائي، الذي يجعل اليابسة تبدو زرقاء من الفضاء، يربط بين أميركا وأوروبا، ويؤمن الاتصال بين الغرب وباقي أجزاء العالم، وكما قال هارولد ماكميلان بأن آسيا وأفريقيا الرئتان الكبيرتان التي تتنفس بواسطتهما الحضارة الغربية، ومحيطات العالم شرايينها التي تقدم لنا الأوكسجين الذي يحفظ لنا الحياة، ومن تلك الرئتين.

والشريان الذي يأتي مباشرة من هاتين الرئتين التوأم، هو المحيط الهندي، فكثير من الأمريكيين إذ ما طلب إليهم تسمية المحيطات الخمسة إلى جانب البحار السبعة لن يمضوا في إجابتهم إلى أبعد من ذكر المحيط الأطلسي والباسيفيكي، والمحيط الآخر الذي يجب علينا أن نبدأ بزيادة تفكيرنا حوله هو المحيط الهندي، وفي عام ١٩٦٨، خلال شهر واحد بعد إعلان البريطانيين عن بداية انسحابهم من «شرقي السويس»، وصل الأدميرال غورسكوف إلى الهند لاختباره المياه السياسية، وبعد ذلك على الفور سارعت البحرية السوفييتية إلى البدء بجعل نفسها صاحبة الدار في المحيط الهندي، وبحلول عام ١٩٧٦ بلغ عدد الأيام البحرية التي يقضيها

السوفييت هناك خمسة أضعاف عدد أيامنا، وبحلول عام ١٩٧٩ حافظوا على إبقاء من ثمانية عشر إلى عشرين سفينة من تلك المياه.

ويحتوي المحيط الهندي العديد من النقاط الحساسة التي يتوجب على سفن العالم التجارية والعسكرية أن تمر عبرها، فمضيق هرمز يسيطر على حركة المرور من وإلى الخليج العربي، وقناة السويس ومضيق باب المندب يسيطران على المرور إلى البحر المتوسط، ومضيق ممر مالاكا إلى اليابان، والمحيط الهادي (الباسيفيكي)، فبوجود مجموعات، يدعمها السوفييت، تزحف نحو الوصول للسلطة في المناطق الواقعة حول كل حدود محيط «هلال الأزمات» وبالسفن السوفييتية تمخر عبابه ذهاباً وإياباً على حسابه، فإن المحيط الهندي قد يصبح في يوم من الأيام «بحراً أحمر».

ولدى أمريكا أساطيل متواجدة بشكل دائم في المحيط الأطلسي، والمحيط الهادي، والبحر الأبيض المتوسط . وهي جميعاً مناطق ذات مصلحة حيوية ومشروعة للولايات المتحدة، وفي ضوء الانسحاب البريطاني وتزايد أهمية المحيط الهندي أصبح من الواجب علينا، مجتمعين مع حلفائنا، أن نقوم بإيجاد إجراء لتركيز اسطول أميركي خامس هناك، فوجوده إلى جانب القوى البحرية البريطانية والفرنسية والاسترالية، سيشكل قوة تحافظ على الاستقرار في تلك المنطقة.

وينبغي على الغرب . وعلى الولايات المتحدة من جانبها وحدها . أن تزيد من بناء القوة البحرية، لكي تكون قادرة على الدفاع عن تلك الممرات البحرية التي تعتبر حيوية بالنسبة له.

مبدأ نكسون

إن المزيد من القنابل النووية والتفوق العسكري الذي لا سؤال حوله، والقوة الاقتصادية الشاملة المتفوقة لن يردع الحرب الثورية والارهاب، أو الأشكال الأخرى لأعمال الشيوعيين العدوانية التي أخفقت في الحرب التقليدية، وعليه فقد كان من المتوجب على الولايات المتحدة وحلفائنا وأصدقائنا تطوير قوة مشتركة في وجه القوة المستخدمة ضدنا، وليس هناك من معنى أن تحاول استخدام مطرقة لقتل ذبابة، فذلك النوع من الأعداء يستدعي استخدام سلاح أقل قوة، ولكن أكثر فعالية . ككشاشة الذباب اللاصقة مثلاً.

وفي وضع مثل هذا ليس ميزان القوى في الترسانة هو المهم، وإنما ميزان القوة في ميدان المعركة، فإذا كنا على مساواة نسبية مع السوفييت في مجال الأسلحة النووية لكن لدى السوفييت /٥٠٠٠/ كوبي أو حتى /٥٠٠/ فوضوي وإرهابي، حيث لا يكون لدينا قوة مضادة، فإن ميزان القوى على مسرح العمل سيكون لصالحهم بشكل كامل، وقوات الدفاع المحلية المزودة بأفضل المعدات هي أفضل وسيلة لمعالجة هذه التهديدات المتدنية المستوى، لكن المعتدي إذا كان يتلقى مساعدة من الخارج يصبح من الضروري حصول أولئك الذين يدافعون عن حريتهم على المساعدة من الخارج.

لقد تضمن مبدأ نيكسون بأن تقوم الولايات المتحدة بتقديم الأسلحة والمساعدة إلى البلدان المهددة بالاعتداء عليها، إذا كانت تلك البلدان ترغب في تحمل المسؤولية الرئيسية من أجل تقديم القوة البشرية اللازمة لها، للقيام بالدفاع عن نفسها.

ولدى بعض الأمريكيين نفور لاهوتي إزاء قيام الولايات المتحدة ببيع السلاح إلى الخارج، بيد أن أولئك الذين يعارضون تزويدنا لأصدقائنا بالسلاح الذي يحتاجونه للدفاع عن أنفسهم، إنما يجهلون نقطة واحدة على قدر بالغ من الأهمية، وليس هناك تقريباً حالة واحدة في سجل الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية قامت بها الولايات المتحدة بتقديم أسلحة لبلد، واستخدمت من قبل ذلك البلد لأغراض عدوانية، أما الأسلحة السوفييتية فهي التي كانت تستخدم دائماً لضرب السلام.

وسواء برغبتنا أم بدونها، فغالبية البلدان بحاجة للسلاح، ويصح ذلك بوجه خاص على الدول الواقعة في طريق الأطماع السوفييتية، وكثير من تلك البلدان على علاقات غير صديقة مع جيرانها، والديمقراطية في أجزاء كبيرة من العالم ضعيفة أو غير موجودة، وإن الجيش مطلب أساسي للحفاظ على الاستقرار الداخلي، وهذه الأمور، بكل بساطة، من حقائق الحياة، والحقيقة الأخرى في الحياة هي أن السوفييت تجار أسلحة راغبون، حيثما يمكن لمبيعات السلاح أن توفر لهم موطئ قدم على الباب.

وليس باستطاعة السوفييت مجاراة الغرب فيما يتعلق بالتبشير بتحقيق التقدم الاقتصادي، كما أن أيديولوجيتهم تتمتع بقليل من الجاذبية، ولكن إذا وجد أي زعيم لبلد مهدد أو غير مستقر بأن الطريق الوحيدة التي تضمن له الاحتفاظ بالسلطة هي الالتفات إليهم، فإنه سيفعل ذلك، وبعض الزعماء الذين حصلت القطيعة بينهم وبين الاتحاد السوفييتي، قد يجبرون على الاستدارة إليه من جديد، إذا لم توفر لهم الولايات المتحدة مصدراً بديلاً للسلاح، وعلينا ألا نترك مثل أولئك الزعماء بذلك النوع من خيار هوبسون.

والآن عندما يقوم الاتحاد السوفييتي بمواصلة صب الأسلحة الروسية والقوات الكوبية في أفريقيا، يمضي البعض في الغرب بمحاجتهم ومطالبتهم بعدم وجوب مساعدتنا لأهداف أو ضحايا ذلك العدوان، لاعتقادهم بأن السوفييت سيحفرون بالنهاية قبورهم بأيديهم في أنغولا وأثيوبيا وأفغانستان، وأماكن أخرى، لكن هذا الأمر لن يحدث، فالروس لا يعرفون الشفقة في استخدام القوة، وأنهم خبراء في فتح قبور للآخرين، وليس هناك مقاومة محلية مهما بلغت ضراوتها، قادرة على الوقوف إلى أمر غير محدد في وجه معتدٍ أفضل منها تسليحاً.

وقد كتب كولن ليغوم، الخبير البريطاني بشؤون أفريقيا، يقول: «إن هناك عبارة جديدة تزحف متسللة إلى اللغة الماركسية في العالم الثالث وهي: «الأسلحة المتفوقة»، وإن الحجة التي يطرحها أولئك الذين ينادون بالتغيير الثوري هي أنه باختيارك لحلفائك الاستراتيجيين، عليك أن تتأكد من أنهم يملكون «اسلحة متفوقة».

إن الثقة بالإمداد بالأسلحة محط اهتمام بالغ من قبل زعماء بلدان العالم الثالث والسوفييت يقفون إلى جانب أصدقائهم في هذا المضمار، وأنه لمن الحماقة من جانب الولايات المتحدة والخطر عليها أن نقوم بمنع بيع الأسلحة لأصدقائنا، في حين يقوم الاتحاد السوفييتي بتزويد أعدائهم بالسلاح.

والأمر الذي يدعو للسخرية هو أن الاتحاد السوفييتي قد حقق نجاحاً منقطع النظير منذ الحرب العالمية الثانية، وذلك بطبيعته الخاصة لمبدأ نيكسون، فقد قام السوفييت في فييتنام بمساعدة حلفائهم، بتزويدهم بالأسلحة، وبنسبة كبيرة من الرجال، أما بالنسبة لنا فقد لقي أكثر من /١١٠ر٠٠٠/ انسان مصرعهم نتيجة محاربة القوات الشيوعية التي يدعمها السوفييت في كوريا وفييتنام، ولم يتكبد السوفييت خسائر في الأرواح البشرية في تلك الحروب.

إن مصالح الولايات المتحدة ومصالح أصدقائنا وحلفائنا تتطلب أن نمد البلدان المهددة بالمساعدة التي تحتاجها، للدفاع عن أنفسها، كما أن الظروف العالمية ما زالت تستدعي وجوب تطبيق العناصر الأساسية لمبدأ نيكسون تطبيقاً كاملاً، وعلينا أن نتمتع بالقدرة النووية الاستراتيجية من أجل إشهار السيف في وجه السوفييت أينما سعوا لتوسيع رقعة سيطرتهم، وعلينا أن نحافظ على التزامنا بمعاهدتنا بامتلاك قوة كافية بشقيها التقليدي والمسرح النووي؛ وعندما يلجأ السوفييت إلى العدوان غير المباشر بدعمهم للحرب الثورية، بامكاننا تفادي المزيد من «فييتنامات» أخرى بتقديم العون العسكري والاقتصادي لاصدقائنا، بحيث يكونون قادرين على الدفاع عن أنفسهم، بدون تأكيدنا على تحمل عبء خوض الحرب نيابة عنهم.

مواجهة التكاليف

إن المفهوم القائل بأن الحكومة تنفق على التسلح أكثر مما تنفقه على برامج الخدمات الاجتماعية لا يعدو عن كونه خرافة، فالميزانية الدفاعية الاجمالية اليوم أقل من ٥٪ من إجمالي دخلنا القومي، وأقل من ٢٥٪ من الميزانية الفيدرالية (الاتحادية) بالمقارنة مع القمة التي وصلت إليها ١٣.١٢٪، و٦١٪ في هذا السياق. أي ١٣.١٢ من إجمالي الدخل القومي و ٦١٪ من الميزانية الاتحادية. في أوج الحرب الكورية، وفي حين أن الإتفاق على الدفاع قد تدنى منذ عام ١٩٦٥ من ٧ إلى ٥٪ من إجمالي الدخل القومي، ارتفعت نسبة الانفاق على برامج الخدمات الاجتماعية للصالح العام من ١٢٪ إلى ٢١٪، وذلك على الصعيد الفيدرالي وصعيد الولايات، والصعيد المحلي، أي أربعة أمثال ما أنفقناه على الدفاع.

وعلق ميكائيل نوفاك على ذلك قائلاً: «إن المجتمعات الحرة غير طبيعية على هذا الكوكب؛ فقلما ارتفعت في التاريخ البشري، كما أنها انهارت بصورة مشتركة في وجه القوة البربرية المتفوقة...... وإن الأخلاقية المتفوقة المزعومة للمسؤولين عن شؤون الدولة. الذين يرغبون بالمزيد من الأموال لبيروقراطية الفقر، والأقل منها لبيروقراطية الدفاع. قد لا يكونون أخلاقيين كما يرغب المسؤولون عن شؤون الدولة أن يعتقدوا».

ويقوم فريتز كرايمر، معلم هنري كسنجر السابق، بتصوير المسألة على النحو التالي: «إنها مسألة أولويات»، فقد قال لي ذات مرة: «إذا كان لدي بيت في الوادي وحدث ارتشاح في السد في الجبال يجب إصلاح الارتشاح قبل إضافة غرفة لبيتي، أو شراء لوحة لبيكاسو لتعليقها في بيتي».

ويقوم مارشال السلاح الجوي الملكي السير جون سليسور بوضع «مسألة الولايات» هذه على شكل كبسولة فيقول: «أن أهم خدمة اجتماعية يمكن لحكومة أن تقدمها لشعبها هي المحافظة على حياتهم وجعلهم أحراراً».

وإذا ما افترضنا استمرار الانفاق الحالي على الدفاع في كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، فإن الغرب مع انتصاف الثمانينات سيواجه وضعاً في أبلغ درجات الخطورة، عندئذ سيتمتع السوفييت بتفوق لا جدال حوله، في المجال الاستراتيجي وأسلحة المسرح النووي، وتفوقاً ساحقاً في القوات الأرضية والجوية، وعلى الأقل تساوياً في مجال القوات البحرية.

إن الزيادة التي اقترحتها الإدارة الحالية للانفاق على الدفاع والبالغة ٥%، هذا إذا كانت ٥% فعلاً، غير كافية برمتها لمجابهة هذا التهديد، وبدلاً من التركيز على مثل هذه الزيادات المئوية القسرية أو الطفيفة، ينبغي علينا أن نعيد النظر في متطلباتنا العسكرية، وأن نحدد التمويل اللازم لتلبيتها، وذلك بموجب مجموعة الأولويات الثابتة والمعقولة غير أنه حتى الملخص السطحي لحاجياتنا يظهر بأن زيادة ٥% هو مبلغ قليل جداً في هذه المرحلة المتأخرة.

فمع أو بدون اتفاقيات سالت، لا بد لنا من زيادة قدرتنا النووية الاستراتيجية، بحيث يكون لنا بعد تلقي ضربة أولى ممكنة، ما يكفي من الصواريخ المركزة على الأرض لتصفية الصواريخ السوفييتية المتبقية في قواعدها الأرضية، وتدمير جميع الأهداف العسكرية الهامة، ويظل لدينا قوة احتياطية مساوية أو متفوقة على قوة الاتحاد السوفييتي، وبالإضافة لذلك علينا أن نحسن ونقوي من مقدرتنا على حماية سكاننا المدنيين، وإلا سنكون مهددين بالاستسلام بما أن خيار التدمير الجماعي المتبادل بالنسبة للسكان المدنيين لن يكون خياراً موثوقاً، ومن المتوجب علينا أيضاً أن نستعيد التعادل بين مقدرة ناتو ومقدرة حلف وارسو في المجال التقليدي، ومجال المسرح النووي، وأن نضمن بأن تنجو قواتنا، وتحافظ على بقائها حتى من هجوم مباغت.

ومطلوب منا كذلك تقديم السلاح والمساعدة اللازمة لأصدقائنا وحلفائنا لمجابهة التهديدات التي يواجهونها من قبل القوات التي يمدها الاتحاد السوفييتي، وحلفاؤها بالعون والسلاح، سواء كانت تلك التهديدات داخلية أم خارجية.

وكقوة أرضية ذات جبهتين، فقد يتوقع من الاتحاد السوفييتي أن يتمتع بتفوق شامل في مجال القوات الأرضية التقليدية، لكننا نحن قوة بحرية ولذا يترتب علينا أن نقوي بحريتنا لكي نضمن تفوقاً محتوماً في البحر، بما أن أمننا، وأمن كل دولة تستخدم الطرق البحرية في العالم يعتمد على ذلك التفوق.

وليس بوسعنا تحقيق كل ما نحتاجه بدون ثمن على كل من الصعيدين الاجتماعي والمالي.

لقد اعتبرت انتهاء مسوّدة مبدأ نكسون في عام ١٩٧٣ واحدة من المنجزات الرئيسية التي كانت إدارتي قد حققتها، وبعد سبعة أعوام من ذلك استخلصت وبعناد بأنه من الواجب علينا إعادة تقديم هذه المسودة، إن حاجة الولايات المتحدة إلى الوصول لمركز عسكري قوي الآن، حاجة ملحة وإن الجيش المتطوع قد أخفق في تهيئة الكادر الكافي ذي المستوى الذي تتطلبه أسلحتنا البالغة التعقيد؛ ويجب أن تتقاسم تحمل هذا العبء على قدم المساواة كافة طبقات المجتمع وفئاته باختيار عشوائي . لا على التعيين . وبأقل ما أمكن من الاحتياطيين، وحتى بذلك الشكل ستعترضنا صعوبات جمة، ومهما يكن شكلها، فالمسوّدة ليست غير عادلة بأصلها، ويمكن تسويغها بالضرورة فقط، ولكن عندما نتطلع إلى الثمانينات تصفعنا الضرورة على وجهنا: أي أننا لا يمكن بكل بساطة أن نغادر بدونها، ففي إلغاء ذلك القرار درهم حكمة وقنطار جنون وإن تعنتنا وامتناعنا عن المضي في المسودة سيجعلنا من الضعف بحيث نقول للحرب هيا تفضلي، وعندها سنجد أنفسنا قائمين بفرض مسودة زمن حرب أو جدولاً زمنياً للحرب.

ولكي نلبي متطلباتنا من أجل استرداد ميزان قوة كافٍ لمنع وقوع الحرب أو لتحاشي الهزيمة بدون حرب، يلزمنا اقرار زيادة في ميزانيتنا الدفاعية بمقدار ٣٠ بليون دولار على الأقل . بدولار ١٩٨٠ . سنوياً، ولمدة خمس سنوات، وهذا يعني زيادة حقيقية بمعدل أكثر من ٢٠٪ فوق المستويات الحالية، وذلك مبلغ ضخم، لكنه لن يبلغ أكثر بكثير من ١٪ من إجمالي الدخل القومي، إنه ضروري للتأمين على حياتنا . حياتنا كأمة، وحياة وحرية أكثر من بليونين من الناس الذين يعيشون في العالم غير الشيوعي، وهذه هي أهم خدمة اجتماعية يمكن أن نقدمها.

الفصل الثامن

القدرة الاقتصادية

«ليست سياستنا موجهة ضد أي بلد أو عقيدة بل ضد الجوع والفقر والحرمان والمشاغبات، ويجب أن يكون هدفها خلق اقتصاد ناشط في العالم بحيث يؤدي إلى خلق ظروف سياسية واجتماعية يمكن أن تعيش فيها المؤسسات الحرة»

جورج. س. مارشال ١٩٤٧

«وماذا يقول الشعب السوفييتي عن الرأسمالية العفنة؟ «قد تكون عفنة، وبالطيب رائحتها» . وهم يستنشقونها بشهوانية».

فلاديمير بوكوفسكي ١٩٧٨

تماماً كما أن القدرة العسكرية تشكل العضلات، فإن القدرة الاقتصادية تشكل وسائل الحياة . الدم . لاستراتيجية ناجحة بغية تحقيق النصر في الحرب العالمية الثالثة، فالقدرة الاقتصادية لا تمكننا من الحفاظ على القدرة العسكرية التي نحتاجها فحسب، بل إنها بحد ذاتها سلاح قوي، إذا ما استخدم بمهارة، يمكن أن يدفع بمصالحنا إلى الأمام، فهي توفر الأزدهار وليس الدمار، وقد آن لنا أن نتوقف عن نزعتنا التسويغية لتكتمنا بشأن استخدامها.

والحقيقة المبسوطة واضحة كعين الشمس لكل من يرغب في النظر إليها، وهي أن الغرب بوجه عام، والولايات المتحدة بوجه خاص قد خلقا أعظم جهاز اقتصادي عرفه الانسان في تاريخه، أما الشيوعية، النظام الذي يعد بالثروة للجميع فقد حوّلت، من الناحية العملية، الوفير إلى الندرة، والفائض إلى الفقر.

لقد اعتادت روسيا القيصرية أن تكون مصدراً رئيسياً للحبوب، كما أنها كانت تعرف بسلة خبز أوروبا، أما الآن فقد أضحت زراعتها سلة مهملة، وبالرغم من أن أكثر من ٣٠٪ من اليد العاملة فيها مستخدمة في المزارع بالمقارنة مع ٣٪ مما هو عليه الحال في الولايات المتحدة في هذا المضمار، يتحتم عليها أن تستورد ملايين الأطنان من القمح . الحبوب . لتطعم شعبها، و «المعجزة الاقتصادية» للصين التي أسهب الصحفيون السذج في الغرب باطراد المديح عليها لسنوات عديدة قد انكشفت حقيقتها، وتعرت الآن لتظهر بأنها لا تعدو عن كونها عملاً إعلانياً، فلقد اعترفت صحيفة بكين «بيبول ديلي» . الشعب اليومية . بأنها كانت قد نشرت تقارير خاطئة ومضللة في الماضي بغية إظهار الأمور بشكل أفضل مما هي عليه بحقيقتها، وتعترف الصين الآن بأنها تنتج الحبوب بأقل ما كانت تنتجه قبل عشرين سنة، وفي كمبوديا أدت حملة «التطهير» التي قام بها «الخمير الحمر» إلى القضاء تقريباً على أشكال المدنية الحديثة، وفي ذلك عودة حرفية للبربرية؛ وإن أعداد الكمبوديين الذين يضحى بهم على مذبح الإيديولوجية قد وصل إلى الملايين، حتى قبل الغزو الفييتنامي الأخير لذلك البلد المأساة.

وحيثما وجد بلد مقسم، يكون الطرف أو الشق الحر منه هو المزدهر، فالألمان الغربيون أغنى من الألمان الشرقيين بمعدل الضعف، والصينيون الأحرار أغنى بثلاثة أمثال من الصينيين الشيوعيين.

إن إنتاج الولايات المتحدة ضعف إنتاج الاتحاد السوفييتي، وبشكل إجمالي ينتج الغرب أربعة أضعاف ما ينتجه المعسكر السوفييتي، واليابان، جار الاتحاد السوفييتي، التي يبلغ عدد سكانها أقل من نصف عدد سكانه، ومساحتها أقل من ٦٠/١ من مساحته، وقلما يوجد فيها مصادر طبيعية، تسير سريعاً في طريقها للتفوق على الاتحاد السوفييتي في مجال الانتاج.

ومن ناحية أخرى، فإن إفلاس الشيوعية قد أرغمها على الاستدارة إلى الغرب من أجل الحصول على المساعدة، وبالرغم من أن السوفييت كانوا يتبجحون منذ زمن طويل بمنجزاتهم الاقتصادية، إلا أن الاتحاد السوفييتي يعتمد اقتصاديا على الغرب منذ العشرينات، ولما واجهته الاضطرابات الاقتصادية في أعقاب قيام الثورة، وجه لينين نفسه الدعوة للشركات الغربية من أجل إقامة الامتيازات الصناعية . وهو إجراء وتحرك لقي الترحيب في الغرب على أنه «تعايش سلمي»، ولكن تفسير لينين له كان مختلفاً عندما قال في اجتماع للحزب الشيوعي: «إن الامتيازات لا تعني إقامة سلام مع الرأسمالية، بل إنها حرب على مستوى جديد».

وتناولت الشركات الغربية الطعم باندفاعها زرافات ووحدانا وبشراهة كبيرة لاستثمار ما وجدوه سوقاً غنية جديدة، وقد منح أكثر من ٣٠٠ «امتياز» وفي عام ١٩٣٠، استناداً إلى إحدى التحليلات الكاملة، كانت كل عملية صناعية رئيسية في الاتحاد السوفييتي قد استمدت من التكنولوجية الغربية، وحالما تمكن السوفييت من الحصول على رأس المال والتكنولوجيا اللذان كانوا بحاجة لهما سارعوا إلى إجبار الشركات الغربية على مغادرة البلاد، وبحلول عام ١٩٣٣ لم يبق هناك امتياز صناعي أجنبي واحد في الاتحاد السوفييتي، ومع ذلك ففي غضون تلك الفترة القصيرة من «التعايش» الاقتصادي كانت مساهمة أمريكا في التصنيع السوفييتي من الضخامة لدرجة أن ستالين نفسه كان قد اعترف في عام ١٩٤٤ بأن ثلثي المشاريع الصناعية الضخمة في الاتحاد السوفييتي كانت قد أقيمت بمساعدة أمريكية.

وتواصلت المساعدة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية، عندما قامت الولايات المتحدة بتقديم قرض مساعدة عقدي لروسيا بما تبلغ قيمته /١١/ بليون دولار.

وبعد الحرب العالمية الثانية تحقق إعمار الاتحاد السوفييتي من جديد بدرجة كبيرة على أيدي المانيا المهزومة، فقد تم فك معامل صناعية تبلغ قيمتها /١٠/ بليون دولار، ونقلت إلى روسيا حيث أعيد تجميعها هناك، ومن بين تلك المعامل مثلاً معمل كارل زايس (لصناعة العدسات الدقيقة)، ومعمل سيارات أوبل، ومصنع صواريخ ف . ٢ ٢-V في نورد هاوسن، وهذا ما شكل القاعدة أو الأساس لبرامج سبوتنيك السوفييتية، وقد قال الجميع بأن ستالين قد نقل أكثر من ٤٠٪ من قدرة ألمانيا

الصناعية عام ١٩٤٣، وقام السوفييت كذلك بنقل المواهب الألمانية الخلاقة. حيث نقل /٦٠٠٠/ بين عالم ومهندس وعائلاتهم، أي ما مجموعه /١٦٠٠٠/ انساناً نقلوا خلال ليلة واحدة.

بيد أنه عند إحقاق الحقيقة، فإن الاتحاد السوفييتي بمفرده يشكل كابوساً للاقتصادي، فقد بعث بريجينيف في عام ١٩٦٩ برسالة سرية إلى اللجنة المركزية يفصل فيها الوضع البائس للصناعة السوفييتية، فالنفط الذي يشكل تقريباً نصف تبادله التجاري الخارجي أخذ ينضب ويجف، وسيبيريا الغنية بمواردها لا يمكن الوصول اليها بسبب الموانع الصعبة، كما أن معدل نمو قوة اليد العاملة يتضاءل، وإن كثيرين من أولئك الذين اصبحوا الآن متقدمين في السن، وهم من المسلمين، الأقل ثقافة، من أواسط آسيا السوفييتية. وعليه فإن الدلائل تشير إلى تباطؤ وتدني معدل النمو الاقتصادي في المستقبل.

وهكذا فإن النظام الاقتصادي الشيوعي الذي يتصف بأعلى درجات المركزية، إلى جانب حوافزه المحدودة، غير قادر على خلق تقنيات ابداعية جديدة بالمعدّل الذي يقدر عليه الغرب.

الحرب الاقتصادية السوفييتية

يتعامل السوفييت بالصفقات والشؤون الاقتصادية على أساس أنها قضايا متعلقة بالدولة، وهم يطبقون عليها نفس المبدأ والتكتيك الذي يتبعونه أثناء الممارسة على أرض المعركة، فهم لا يستخدمون التجارة لمحاولة قطف زبدة التقنية الغربية لأنفسهم فحسب بل إنهم يسعون الى اضعاف الغرب بوسائل الحرب الاقتصادية، وهي وسيلة من أشد وأمضى أنواع الأسلحة من حيث فعاليتها في الحرب العالمية الثالثة.

وكما أوضح المحلل ريتشاردت. ماك كرومر عندما قال:

يبدوا بأن السوفييت قد توصلوا لاكتشاف سبل شتى من اجل مضايقة وتخريب الأنظمة السياسية والاقتصادية للغرب، ويقومون بتنفيذ هذه المهمات بوسائل وأدوات، مثل اللجوء الى الاحزاب الشيوعية الغربية التي يساعدونها على نطاق واسع، على نشر الارهاب، وتشجيع النزاعات والحروب خارج المعسكر الشرقي، وبذل جهود دعائية ماهرة مركزة على الشركات الغربية المتعددة الجنسيات، بين صفوف الآخرين.

فلا شيء أكثر إثارة لخشية أولئك الذين يتخذون القرارات بشأن الاستثمارات الطويلة الأجل في البلدان الأخرى، من تقارير النشاطات الارهابية فيها، أو أعمال اختطاف أو قتل رجال الأعمال، و بطريقة أقل دراماتيكية ولكن بنفس المستوى من الفعالية يمكن للاتحادات التي يقودها الشيوعيون، أن تخلق أيضاً مناخاً غير ملائم للاستثمار.

فقد توقف الاندفاع الاقتصادي، الذي شهدته ايطاليا بعد الحرب، في أواخر الستينات بسبب اضرابات جماعية واسعة قادها الشيوعيون، الأمر الذي ادى الى زيادة هائلة في الأجور، وصلت حتى ٥٠% وحسبما يقول الدكتور ماك كرومر فإن الاقتصاديين قدروا بأن هذه الزيادات في الأجور قد حطمت فعلاً الاقتصاد الايطالي، أكثر مما فعلته الزيادة التي تبعتها، والتي فرضتها دول أوبيك

على أسعار النفط، وذلك باضعاف قدرتها على المنافسة على الصعيد الدولي، وكذلك باستنزاف الأموال من حوض الاستثمار، وبما أن الارهاب الذي اعتمدته الألوية الحمراء قد اضيف الى سحر الجن، فقد نصب الاستثمار الخاص في ايطاليا، وبدون استثمارات خاصة فمن المؤكد أن تتدنى مستويات المعيشة مما يزيد في خلق القلق والامتعاض الذي سيتمكن الشيوعيون من تحويلة واستخدامه لاغراضهم.

فالأحزاب الشيوعية المحلية، بقيادتها للاضرابات ومطالبتها بزيادات كبيرة للأجور، وبدعوتها لتأميم الصناعات، وبتمويلها واعتمادها للإرهاب ضد رجال الأعمال، يمكن أن تقضي على مناخ الاستثمار في بلد لدرجة توقف تدفق الأموال إليه، وهذا، بحد ذاته، يمكن أن يكون ذا أثر كبير على ما إذا كان البلد سيظل حراً أم لا.

وفي السلفادور، البلد المتناهي في صغره، قامت العصابات اليسارية بشن هجوم ساحق ضد اقتصاد البلاد، وقد صرح رفاييل كالينت، زعيم أكبر فئة يسارية قائلاً: إذا استطعنا ايقاف جمع المحاصيل، سنستطيع الحاق الضرر بالعدو الرأسمالي أكثر مما نفعله بمئة قنبلة، فالبن يشكل أكثر من ٧٠% تقريباً من دخل السلفادور، وقد استطاع اتباع كالينت في الآونة الأخيرة احتلال سبعة أضخم مصانع للبن، واجبار أصحاب الطواحين على الموافقة على رفع زيادة الأجور بنسبة ١٠٠%، مما دفع بالاقتصاد للتراجع نحو الوراء شوطاً بعيداً، ويقول كالينت: ليست الفكرة أن نساوم ونحصل على الموافقة، بل هي ان نقلب ونحطم، كما قام رجال العصابات باختطاف رجال أعمال متنفذين ومع أواخر عام ١٩٧٩ كانوا قد جمعوا ٥٠ مليون دولار تقريباً مما دفع لهم على شكل فدية، ونتيجة لذلك فقد أزاحت معظم الشركات الأمريكية مدراءها من غير السلفادوريين، كما ان السياحة واعمال البناء والصناعة قد تعرضت جميعها من قبل العصابات الذين يضعون أنفسهم في مركز لتسلم السلطة إذا ما انهار الاقتصاد.

وأخذ الشيوعيون الآن يلجأون الى استخدام سلاح النفط كوسيلة لضرب الأسس الاقتصادية الحيوية للمجتمع الغربي، فالاضرابات التي قادها الشيوعيون في مجال صناعة الفحم الحجري الأوروبية خلال الحرب العالمية الثانية، أدت إلى زيادة الاعتماد على النفط من الشرق الأوسط، وبعدئذ أنطلق السوفييت وعن تعمد مسبق ومدروس منذ الخمسينات لخلق الصعوبات في وجه استيراد الغرب للنفط من الشرق الاوسط، وقبل فترة وجيزة، قام مؤخراً رئيس الوزراء السوفييتي كوسيجن ذاته بحمل رأس حربة الضغط السوفييتي على العرب لاستخدام النفط كسلاح ضد الغرب، وان اندفاع السوفييت إلى داخل افريقيا تغذية الى حد بعيد دوافع الأخطار الاقتصادية الموجودة هناك.

وخلال الحرب العالمية الثانية تنبهت الولايات المتحدة، بل اعترفت بأهمية الجبهة الاقتصادية في المعركة فعمدت الى تشكيل مجلس قوى للحرب الاقتصادية ومنذ ذلك الحين، منيت المحاولات العديدة من أجل العمل على تنسيق سياسة اقتصادية دولية، بما فيها محاولة أجريت

خلال مدة إدارتي، بالاخفاق بسبب العراك البيروقراطي فيما بين المؤسسات الحكومية المعنية بذلك، أما الآن فالوقت آخذ بالنفاذ، وإن الحاجة تدعو الى مكافئ عصري، متمش مع الوقت الحالي، لمجلس الحرب الاقتصادية ذاك، بغية خوض المعارك الاقتصادية للحرب العالمية الثالثة، ويجب تأسيسه واخضاعه للسلطة المباشرة لرئيس الجمهورية، ولا بد من اجراء تنسيق للسياسات المتعلقة بالتجارة والمساعدات الخارجية والقروض، ودعم هيئات تقديم القروض الدولية، وذلك من أجل خدمة مصالح السياسة الخارجية للولايات المتحدة، والقيادات والتوجه الرئاسي المناط برئاسة الجمهورية، وحدهما القادران على تحقيق هذه النتيجة.

التجارة مع الاتحاد السوفييتي

إن المجال الذي تدعو فيه الحاجة الماسة الى التوجه وإعارة الانتباه البالغ، هو مجال التجارة مع الاتحاد السوفييتي، ويقوم السوفييت من جانبهم باستخدام أي سلاح ممكن من أجل قطع حبال نجاة الغرب الاقتصادية في أفريقيا والشرق الأوسط وغيرها من المناطق الحرجة، ومن هناك إنه لمفروض علينا ألا نلقي لهم حبل نجاة لانقاذهم من اقتصادهم الذي يغوص نحو الغرق . إلا مقابل ثمن.

في عام ١٩٢٢ قال رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج عن روسيا: يساورني الاعتقاد بأننا يمكن أن ننقذها بالتجارة، فللتجارة أثرها البالغ فهي أكثر تأكيداً، في رأي على وضع نهاية لوحشية وخشونة البلشفية ونزعتها قابلة للأخذ بها قبل خمسين سنة عندما كانت الشيوعية السوفييتية كماً غير معروف، أما اليوم فليس ثمة مجال للعفو عن مثل هذا التفكير، والنظرية الدارجة التي تقول بأن الشيوعي البدين أقل خطراً من الشيوعي النحيل نظرية منقوضة وهراء بهراء، ومن المؤكد بأن خروتشوف كان متخماً.

إن في التجارة مع السوفييت، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، تقوية عسكرية لهم، حتى أن التجارة بالمواد غير الاستراتيجية تحرر لهم المصادر كي يستخدمونها بسبل أخرى، ويجب ألا يغيب من ذهننا أبداً بأن إقامة العلاقات التجارية مع السوفييت بتضمن هذه التكاليف، وإن التجارة معهم غير مسوغة إلا إذا فاق حجم الأرباح حجم التكاليف، ومن هنا يجب أن نخلص إلى نتيجة واحدة وهي أن تجارتنا مع الروس يجب أن تستخدم كسلاح وليس كهبة.

ففي عام ١٩٧٢ وقعت الولايات المتحدة عدداً من الاتفاقيات التجارية مع الاتحاد السوفييتي، كجزء من كل، بغية توثيق الارتباط بينهما، فقد كنا في عام ١٩٧٢ نريد مساعدة الروس لتخليص أنفسنا من مشكلة فييتنام، وكنا نتفاوض معهم على معاهدة للحد من التسلح، كما كنا نقوم بتوسيع مجال الاتصال فيما بين الشعبين، ونحاول إقامة نمط من الاقناع أو الضبط المتبادل تستطيع بموجبه كلتا القوتان الأعظم حل النزاعات عن طريق التفاوض، بدلاً من حلها بحدوث المجابهة، وكانت التجارة من الأمور الأساسية التي توجّت علينا أن نقدمها لقاء التنازلات السياسية والديبلوماسية، وكنا أيضاً نقوم قصداً وبشكل مدروس على العمل لايجاد شبكة من الاعتماد

المتبادل فيما بيننا، كل على الآخر، من شأنها أن توفر لنا المزيد من الراحة وتذليل الصعوبات الناجمة عن أية أزمة في المستقبل، وكنا نريد من السوفييت أن يفكروا مرتين بالتكاليف الاقتصادية الباهظة التي سيترتب عليهم دفعها من جراء تحرشهم بنا، وتحريضهم لنا، وبخلق المتاعب بقيامهم بالمغامرات.

وفي حديثي الذي وجهته للشعب السوفييتي، عبر التلفزيون، أثناء قمة موسكو عام ١٩٧٤ شبهت لهم وصولنا إلى اتفاقات شتى حول التجارة والأسلحة، والاتفاقات الأخرى كعملية نسج قطعة من القماش حيث قلت يومها: تماماً كما أن قطعة القماش أقوى من الخيوط التي حيكت عنها، كذلك فإن شبكة الاتفاقات التي نقوم بحياكتها هي اضخم من مجموع أجزائها.... وهكذا فإن كل اتفاقية جديدة لن تكون مهمة بمفردها، ولكن أهميتها ستكون بقدر ما تضيف من قوة واستقرار لمجمل علاقاتنا.

ومنذ ذلك الوقت، أخذ تردي موقف أمريكا العسكري والتأثير البالغ الذي خلفه فرض الكونغرس للقيود على تقديم العون والدعم للقوات المناوئة للسوفييت في جنوب شرقي آسيا وأمريكا، وبعض مناطق المتاعب الأخرى شكلت، مجتمعة، على التجارة من الأعباء أكثر ما يمكن تحمله، فالتجارة يجب أن تشكل الجزرة، والقدرة العسكرية العصا، إذ بدون العصا سيقوم السوفييت بكل بساطة بتناول الجزرة ورميها في سلة أمتعتهم للرحلة، ويواصلون تقدمهم وترسيخ أقدامهم في انغولا وأثيوبيا وأفغانستان، وطالما ان السوفييت يواصلون السير في طريقهم العدوانية الحالية . وسيثابرون على القيام بذلك الى أن نواجههم بتكاليف غير مقبولة . علينا أن نتذكر بأن التجارة شيء يريدونه، وهو ما يمكننا أن نعطيه أو ننكره عليهم، لأن تحديد ذلك يعتمد على سلوكيتهم.

وعلينا أن نلتزم جانب الحذر خاصة فيما يتعلق بتمويل التقنية المتقدمة التي من شأنها أن تقوي السوفييت عسكرياً بصورة مباشرة، إن آخر المبتكرات التقنية المتعلقة بالعقل الالكتروني . الكومبيوتر . أصبحت بشكل محتوم لا يقبل الجدل ضرورة فائقة، وذات أهمية حيوية للعديد من صنوف الأسلحة الحديثة، ومن الحري بنا ألا نكون من السذاجة بحيث نفترض بأن سلع التقنية العالية التقدم التي يطلبها السوفييت لقطاعهم الاستهلاكي مقررة بالضرورة لذلك القطاع، فصفيحات السيليكون بدارات متكاملة مرتبة عليها، يمكن أن تستخدم لآلات الجيب الحاسبة . أو لتوجيه أجهزة الصواريخ العابرة للقارات، وفي جميع الظروف كائنة ما كانت يجب ألا يسمح بنقل أية تقنية من شأنها أن تؤثر تأثيراً مباشراً على أمننا القومي.

وفيما يتعلق بالتقنية الأقل حساسية علينا ان نعقد صفقاتنا مع الاتحاد السوفييتي، ما أمكننا ذلك، بحيث نحتفظ بذراع العتلة في أيدينا، والمصانع الحديثة التي تعتمد على التزويد بقطع التبديل بشكل مستمر، او التي تتطلب صيانة معقدة يمكن أن توفر فرصاً يمكننا استغلالها لصالحنا، ومبيعات القمح والحبوب يمكن تخفيضها أو الغاؤها لفرض سلوك ايجابي، وعلى أية حال يجب ان ندرك بأنه إذا كان لتحديد التجارة أن يكون فعالاً كأداة للسياسة، فإن الإجراء من

جانب الولايات المتحدة وحدها سيكون بمثابة قصبة في غاية الهشاشة، فبوسع الروس والبلدان الأخرى التي نحاول التأثير على سياساتها تلبية حاجياتهم من بلدان أخرى، والتي جميعها حلفاء للولايات المتحدة، ونتيجة لذلك فإن العمل الموحد على الجبهة الاقتصادية من قبل الولايات المتحدة وحلفائها ضروري، كضرورة السياسة العسكرية المنسقة إذا كان لنا أن نردع العدوان.

إن العديد من الصفقات التجارية . كانشاء مصنع على أساس تسليم المفتاح باليد مثلاً . ينطوي على مساوئ كبيرة ولها تأثيرها البالغ، بمعنى أن لا قيمة لها كورقة مساوية بعد إتمام الصفقة، فلن يكون باستطاعتنا سحب المصنع من الاتحاد السوفييتي بعد أنجاز بنائه، كما لن يكون بمقدورنا أن نطالب باعادة التقنية بعد ان يكون قد تم نقلها.

إن المعاملة على أساس وضع البلد الأفضل تشكل ذراع العتلة الاقتصادية التي يمكننا استخدامها لتحقيق أغراض ديبلوماسية، ووضع البلد الأفضل شيء نقدمه بشكل روتيني لكافة أولئك الذين يشاركوننا التجارة، ومن حيث الجوهر فإن هذا النوع من المعاملة يعني بأنه في مسائل كمسائل الأسعار، والأنظمة التجارية، نقوم بمعاملة هذا البلد كأفضل ما نعامل ذاك، والمعاملة على أساس وضع البلد الأفضل أيضاً ذات تأثير من حيث تخفيض رسوم الاستيراد على البضائع الواردة من البلدان، التي تعامل به، وهذا ما ترحب به دول المعسكر الشيوعي ترحيباً كبيراً، وحتى عام ١٩٧٩ كانت الدول الشيوعية التي تعامل على هذا الأساس أربعة فقط، وهي: بولونيا ورومانيا، ويوغسلافيا، وهنغاريا، وقد قدم للصين في أوائل عام ١٩٨٠.

وطالما أن السوفييت يواصلون اتباع وتطبيق سياستهم العدوانية حول العالم، يتوجب علينا ألا نمنحهم ميزة المعاملة على أساس البلد الأفضل في أية حال من الأحوال، وفي ظل أية ظروف كانت، لأن ذلك سيكون بمثابة إشارة الى ان العدوان يكلف غالياً، ومن ناحية أخرى يتوجب علينا بألا نقول بأنهم لن يحصلوا على هذه الميزة أبداً، وعلينا أن نتمسك بمبدأ وضع البلد الأفضل كحافز من أجل تعديل سلوكهم في المستقبل.

التجارة مع اوروبا الشرقية

إن الغالبية العظمى من شعوب أوروبا الشرقية، وحتى زعماءهم الشيوعيين، ضد الروس، وهم يمتعضون ويكرهون وجود قوة احتلال، ولقد قدم الأوروبيون الشرقيون عروضاً هامة عن افكار الحرية والديمقراطية، وهو شيء لم يبده الروس في عمرهم، إنهم شعوب على درجة عالية من الشجاعة والاقدام، وهم يتحملون عبئاً ثقيلاً منذ عام ١٩٤٥، وانهم سيواجهون سنوات قاسية تنتظرهم، ويستحقون أن نقدم لهم الدعم بشقيه المعنوي والمادي.

وعلى العموم أنه لمن مصلحتنا بمكان أن نوسع مجالات الاختبار، أمام الاوروبيين الشرقيين، التي يمكنهم فيها الحصول على بضائعهم، فالسوفييت يستخدمون حصنهم الاقتصادي، ويشددون قبضتهم على الذين يدورون في فلكهم في أوروبا الشرقية،لكي يبقوهم في خطهم سياسياً، ولذلك فأي بديل يقدمه الغرب يخفف من اعتماد أوروبا الشرقية على السوفييت.

وتقلل التجارة من اعتماد الأوروبيين الشرقيين على الاتحاد السوفييتي فضلاً عن أنها تبقي الجسر مفتوحاً بين الشرق والغرب، ويتوق الأوروبيون الشرقيون إلى الاتصال مع الصنف الثاني من أوروبا، وهكذا فإن الاتصال البشري الذي ينجم عن التجارة ذا أثر دائم لهم، أكبر وأهم ما يفعله لدى الروس، وانه لمن قبيل الخطأ النظر إلى التجارة بين الشرق والغرب فقط على أساس العلاقة الثنائية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وإن قلة الاتصال بين الشرق والغرب . بين شطري أوروبا الشرقي والغربي . على المدى البعيد ستثبت بانها بالغة الأهمية.

وتجارتنا مع أوروبا الشرقية، بالطبع، يجب ان تكون محدودة بحقيقة أن معظم ما نحوله الى هناك يمكن أن يصبح في متناول يد الاتحاد السوفييتي لا سيما فيما يتعلق بالتقنية العالية، حيث أننا نتوقع بأن كل ما نغلفه ونرسله إلى براغ أو صوفيا سيفتح في نهاية الأمر في موسكو.

وما يجب علينا أيضاً هو التمييز في تقديم الشروط التجارية المفضلة إلى بلدان أوروبا الشرقية، فرومانيا وبولونيا غير المعنيتين في السياسات الخارجية القائمة على المغامرة يجب ان تحصلا على افضل الشروط والمعاملة من جانبنا، أما تلك الدول الأخرى كألمانيا الشرقية التي تساهم بشكل علني في العدوان حول العالم فيجب ألا تحصل على ذلك.

وأخيراً علينا ان ندرك بان شعوب أوروبا الشرقية لن تصبح خارج نطاق الاعتماد، أو تستقل إذا جاز التعبير، عن الاتحاد السوفييتي بين عشية وضحاها، فالتجارة والاتصال مع الغرب لا محالة ستؤدي إلى مزيد من الاستقلال الاقتصادي لدى الدول التابعة، بيد انه يتحتم علينا ألا نطالبهم أو نتوقع منهم أن يؤكدوا استقلالهم السياسي قبل الأوان، ولقد أظهرت التجربتان المأساويتان اللتان عرفهما الهنغاريون عام ١٩٥٦، والتشيكيون عام ١٩٦٨، بأن السوفييت لن يسمحوا لأنفسهم بأن يرمي بهم بعيداً، وبأسرع ما يمكن.

التجارة مع الصين

إن سيطرة السوفييت على الصين ستجيء بمثابة ضربة قاضية للعالم الحر، ووجود صين ضعيفة يفتح الباب في وجه العدوان الروسي، ولذلك كان من مصلحتنا تعزيز الإقتصاد الصيني وتقويته.

وقد تكون الصين الآن في نقطة انعطاف هامة، فجمهورية الشعب تعاني من وضع اقتصادي بائس، وأخيراً أخذ زعماؤها بأنهم يستطيعون الاستفادة من مساعدة الغرب، إن الهزات الداخلية التي حلت خلال الفترة التي حاول فيها ماو واليساريون المتطرفون إدارة أكبر بلد في العالم بالأقوال والفصاحة الثورية قد انتهت الآن، ولو مؤقتاً على الأقل، ويحاول الزعماء الصينيون الحاليون تحقيق أكبر مهمة للصين . وهي التحديث . العصرنة . بطريقة أكثر حساً، وهم يعترفون علناً بأنهم يستطيعون التعلم من الغرب، وهنا يمكن القول بأن نجاح أو اخفاق مساعيهم في سبيل جلب قسط من التحديث للشعب الصيني خلال السنوات القليلة القادمة سيحدد ما إذا كانت الصين ستستمر في السير في خطها الأكثر اعتدالاً، بأنه في مصلحتنا أن تظل الصين منفتحة الى

الطرق الغربية وإن الدفع الذي تعطيه التجارة مع الغرب، ومع اليابان على وجه الخصوص، الى خططهم في التحديث، سيكون هاماً قيما يتعلق بالطريق الذي سيتبعونه في المستقبل، ولذلك فإن معاملتنا لهم الآن التي قدمناها، على أساس اعتبار الصين البلد الأفضل، لها ما يسوغها، ولذلك منعناها عن الاتحاد السوفييتي، إن الاتحاد السوفييتي يهددنا أما الصين حالياً، فلا.

وفي تعاملنا سواء مع الصين أو الاتحاد السوفييتي أو أوروبا الشرقية، يجب علينا أن نضمن بأن الحد الأدنى لسياستنا، أي حد الأمان هو تأثيرها على اهدافنا السياسية العالمية، وعلينا أن نعقد صفقة مع الاتحاد السوفييتي عندما يكون فيها تبرئة ذمتهم سياسية أو ديبلوماسية، أو بمعنى آخر ألا نخسر في هذين المجالين، وعلينا أيضاً، قدر استطاعتنا، أن نسعى لايجاد ترتيبات من شأنها أن تسمح لنا بسحب المزايا، إذا لم يلزم السوفييت حدهم في المساومة وعلينا ألا نثق بحسن نيتهم في المستقبل، ومن المتوجب علينا أن نستخدم قدرتنا الاقتصادية لنوفر الفرصة للأوربيين الشرقيين ونشجعهم على اتباع سياسات خارجية مستقلة خالية من روح المغامرة، وعليهم استخدام قدرتنا الاقتصادية من اجل بناء الصين لتكون في مركز لا يسهل النيل منه وأن . بجعلنا ذلك من مصلحتهم الخاصة أن نقوم به . نشجع الصينيين على متابعة السير في خط الاعتدال.

وقد يكون لتجارتنا مع البلدان الشيوعية مفعول عكسي، أي ان النار قد تصيبنا من الخلف، إذا لم نستخدم قوتنا بمنتهى الدقة، وبطريقة جراحية على اساس أعطني لأعطيك، ويجب أن نتوقع ركب بعض المخاطر في الأمل بالوصول إلى خلق عالم يعمه السلام والازدهار، وإذا لم نستخدم المزايا الكبيرة التي توفرها لنا قدرتنا الاقتصادية، أو إذا ألقينا بتلك المزايا جانباً بالابتعاد عن التجارة فلن نكون قد قمنا بشيء سوى التبذير بأكبر مواردنا قيمة في الحرب العالمية الثالثة.

مساعدة أصدقائنا

إن مهمة اعداد قوتنا الاقتصادية وتسخيرها لخدمة أغراض سياستنا الخارجية تختلف اختلافاً تاماً عندما نتعامل مع الحلفاء بدلاً من الخصوم.

لقد قدمت الولايات المتحدة بين عامي ١٩٤٦ و١٩٧٦ ما ينوف على /١٨٠/ بليون دولار كمساعدات خارجية إلى /١٣٧/ بلداً حول العالم، وكثير من تلك المساعدات قد هدرت، وبعضها لم يساعد على تحقيق تقدم لمصالحنا، ولكنها بشكل عام كانت استثماراً باهظ الثمن، ويستحق دفعه من أجل غايتنا نحو ايجاد عالم سلمي، وأفضل لنا، ولجميع الشعوب.

إن أكبر استخدام دراماتيكي لقدرتنا الاقتصادية قد قمنا به، جاء في بداية الحرب العالمية الثانية عندما ساعدنا أوروبا كي تعاود الوقوف على قدميها بخطة مارشال، وقد قال وزير خارجية بريطانيا بيفن بأن مساعدتنا كانت: «كحبل النجاة للمهددين بالغرق»، وبتلك المساعدة استطعنا أن نفعل أكثر من مجرد تلقيم مضخة استعادة الاقتصاد الأوروبي، فباظهارنا للأوروبيين كم هي أهميتهم بالنسبة لنا، قمنا بتحريك طاقات مستنفذة لقارة بأكملها، فكرمنا الذي أبديناه لألمانيا

وايطاليا واليابان، مكنهم أن يتحولوا من أعداء إلى حلفاء لنا، دون أن يبدو أي كره لنا، فلم يحدث من قبل أن قام بلد منتصر بتمويل أعدائه المهزومين ليعودوا إلى التنافس معه.

لقد قمنا بدور القيّم الأمين على المدينة الغربية بأسرها في تلك السنوات العصيبة، وإن الأرباح التي خصت جميع أبناء العرق البشري قد أثبتت قيمة استثمارنا، يومذاك كنا نقدم المساعدة للبلدان الصناعية، كي تتنفس الصعداء وتتعافى من ويلات الحرب، أما الآن فقد اتسع نطاق أغراض مساعدتنا.

أولاً: يجب أن تستخدم المساعدة الأمريكية لتقوية وتعزيز القاعدة الاقتصادية للبلدان، أمثال كوريا الجنوبية، التي نقدم لها المساعدة العسكرية. وثانياً: علينا أن نساعد البلدان التي تواجه خطراً من الداخل، والتي تحتاج المساعدة الخارجية، لكي تحافظ على استقراها الاقتصادي، وبذلك نقطع الطريق على الثوريين، ونحرمهم من «السبب» الذي سيمكنهم من الإطاحة بالحكومة، ثالثاً: علينا أن نواصل كرمنا بتقديم مساعدات إنسانية محضة لضحايا الكوارث الطبيعية، كالزلازل والمجاعات والفيضانات، فضحايا الكارثة يعانون بغض النظر عن حكومتهم، وهكذا يجب أن نساعدهم أياً كان نوع الحكومة في بلدهم. كما شاهدنا عندما قمنا بإرسال الإغاثة لضحايا الزلزال الذي وقع في رومانيا عام ١٩٧٧، وفي حالة نظام الحكم الشيوعي الذي لا يعرف الرحمة كما هي الحال في كمبوديا علينا أن نضمن بأن تذهب مساعدتنا لأبناء الشعب مباشرة، وليس للحكومة كي تحافظ على نفسها في مركز السلطة. رابعاً: إن ثلثي العالم يعيش حياة التخلف ففي تلك البقاع من العالم لنا مصلحة عملية وإنسانية بتقديم المساعدة لها من أجل تطويرها، لكن هذه المصلحة تشاركنا فيها بلدان أخرى متقدمة ينبغي عليها أن تساهم في عمليات التطوير، وعلى تلك البلدان التي قمنا بمساعدتها على اعادة بناء نفسها بعد الحرب العالمية الثانية، أن تقوم بمساعدة الآخرين اليوم. خامساً: يمكن للمساعدة أحياناً أن تستخدم بشكل واسع الفعالية، وبالغ التأثير من أجل تحقيق ديبلوماسية معينة كما فعلت بشأن تحقيق الاتفاق المصري . الإسرائيلي في عام ١٩٧٩.

عندما قمت بجولتي الأولى إلى الشرق الأقصى عام ١٩٥٣ قال لي بعض أصحاب «أيادي الصين القديمة»: «أعطي كل آسيوي مداً من الرز فلن تكون هناك أية شيوعية»، لكن ذلك لم يكن صحيحاً يومئذ، وليس صحيحاً اليوم، فالفقر لا يوجد الشيوعية، بل الشيوعية هي التي توجد الفقر، وبوسع الشيوعيين أن يجدوا قضايا أخرى إلى جانب الفقر كي يستغلوها، لكن البلدان المتقدمة أقل هشاشة وضعفاً من البلدان الراكدة، حتى أنه ولو لم تكن الشيوعية تهديداً للعالم، فإن مساعدة الناس على التخلص من براثن الفقر شيء يتحتم علينا القيام به لأنه حق، تماماً كما يتحتم علينا مساعدة الشعوب للحفاظ على الحرية لأن ذلك حق.

وليس باستطاعتنا أن نساعد جميع البلدان على نفس القدر من المساواة، ولا ينبغي علينا أن نقدم عذراً عن استثنائنا لتقديم المساعدة الاقتصادية الخاصة للبلدان التي يهمنا أمنها بشكل

خاص، فالسوفييت لا يشعرون بالخجل عندما يقدمون المساعدة إلى حيث يمكن ان تحقق تقدماً لمصالحهم على الوجه الأفضل، فخارج العالم الشيوعي، نصف المساعدة السوفييتية الاقتصادية تقريباً ما بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٧٦ كانت قد ذهبت إلى أربعة بلدان: الهند ومصر، وأفغانستان وتركيا، وفي كل بلد من هذه البلدان للسوفييت مصلحة سياسية عالمية كبيرة، فمصر كانت قد هيأت لهم أول موطئ قدم وضعها السوفييت في الشرق الأوسط مع أنهم قد فقدوا نفوذهم هناك، وأفغانستان وقعت تحت سيطرتهم الآن، كما أن تركيا في طريقها لتصبح أرض معركة اقتصادية رئيسية.

فقبل الحرب العالمية الاولى كانت تركيا تسمى (برجل أوروبا المريض)، أما الآن فقد أصبحت تقريباً الجعبة النهائية، فالتضخم قد وصل فيها إلى ١٠٠% تقريباً، والبطالة٢٠%، وإن ما تجنيه تركيا من تبادلها الخارجي لم يكن كافياً لتسديد فواتير النفط، ومع ذلك وتركيا بحاجة ماسة لمساعدتنا، قام الكونغرس، بضغط من اللوبي اليوناني، بتخفيضها، وهناك قول قديم مأثور: التركي يحرق لحافه ليقتل برغوثاً، فإذا أظنا الأتراك أكثر من ذلك بسلوكنا الضغين، فقد يقومون بحرق الجسور مع الغرب، والسوفييت ينتظرون حدوث ذلك بفارغ الصبر، وبينما قمنا بتخفيض مساعدتنا لتركيا، زادوا هم من جانبهم مساعدتهم لها، حيث قدموا لها خلال السنوات الأخيرة ما يزيد على / ١/ بليون دولار، ولن يترددوا في ملء الفراغ في تركيا إذا ما قصرنا وأدرنا ظهرنا، وكوبا تكلف السوفييت /٣/ بليون دولار سنوياً، كما ان أثيوبيا قد كلفتهم / ٢ / بليون دولار حتى الآن ومع ذلك فإنهم راغبون في دفع ثمن عالٍ للفوز بالمناقصة حول البلدان التي يريدونها.

هناك ثلاثة قواعد يجب ان نتبعها في تقديم المساعدة الاقتصادية.

أولاً: تماماً كما أن صاحب المصرف لا يعمل معروفاً للمقترض عندما يقدم له قرضاً سيئاً، فنحن لا نعمل معروفاً للبلدان التي نقدم لها المساعدة التي من شأنها أن تبقي على استمرار عدم الفعاليات، وينبغي علينا أن نصر على مطالبة من يتلقون مساعدتنا أن يتبنوا نظامنا السياسي، بل علينا ان نربط المساعدة بسياسة اقتصادية سليمة، مصرين على أن تذهب المساعدة إلى مشاريع أمامها فرص كبيرة لتحقيق النجاح، فبتأكيدنا وثباتنا على هذه الناحية نتمكن من مساعدة الدول النامية على تعلم الدروس بطريقة سهلة، وذلك أن بلداناً أخرى قد تعلمت الطريقة الصعبة بشأن ما يصير وما لا يصير.

ثانياً: يجب علينا أن نقاوم غوغاء ارسال المزيد من مساعدتنا عن طريق الهيئات المتعددة الجنسية، كالبنك الدولي مثلاً، إن أنظمة ومواثيق مثل تلك الهيئات والمنظمات لا تسمح لها بالتمييز بين البلدان على أساس سياسي وقلما يخدم مصلحة الولايات المتحدة أن تدفع ثلث حساب البنك الدولي في الوقت الذي يقدم فيه البنك الدولي قرضاً لفييتنام التي تواصل اعتداءاتها على جيرانها، مدته خمسين سنه، وبفائدة قدرها ١% ولسنا نحن الذي نطالب البنك الدولي بالاجابة على هذا السؤال، بل علينا أن نعترف بالواقع، ونركز المزيد من أموال مساعدتنا المتوفرة على برامج ثنائية الجانب، حيث يمكننا استخدامها بصورة أكثر فعالية من أجل ان تحقق سياستنا الخارجية تقدماً في أغراضها.

ثالثاً: يجب علينا ان نستخدم مساعدتنا من اجل دفع سياستنا نحو الأمام وكذلك دفع قضية السلام والاستقرار في العالم، ولا يجب أن نفتح أيدينا لكل بلد يطلبها ويحتاجها، إن البلدان التي صفعتنا في الجبين بشأن المسائل المتعلقة بمصالحها الحيوية . برفضها تأييدها في قضية كقضية احتجاز الرهائن في إيران التي تعتبر خرقاً لكل مبدأ من مبادئ السلوك الدولي، على سبيل المثال . يجب ألا تتوقع منا ان ننسى لها هذا الموقف، عندما تسعى للحصول على مساعدتنا.

ومن أهم الميزات التي يمكننا، على المدى الطويل، أن نستمدها من قوة الغرب الاقتصادية، قد تأتي عن طريق استخدامها المباشر لتلك القوة، ولكن عن طريق الاجتذاب الذي تشكله للشعوب حول العالم، وعلى الرغم من أن الكثيرين من زعماء العالم الثالث يرغبون في الحصول على السلاح، أكثر مما يرغبون في الحصول على المواد الغذائية، ويتعبير أدق يفضلون الحصول على النبدقية على الحصول على الزبدة، وبعضهم لا يفعلون ذلك، ومثال من الفئة الأخرى هو الرئيس السوداني جعفر نميري الذي أعلن مؤخراً يقول: (أننا نقول للاتحاد السوفييتي وحلفائه: انفضوا أيديكم عن افريقيا، فقارتنا بحاجة للجرارات الزراعية، وليست بحاجة للبنادق).

في حديث أدليت فيه في لندن عام ١٩٥٨ قلت: (إن ما يجب أن يكون واضحاً، ويراه العالم كله كما هو على حقيقته، هو أن الشعوب يمكن ان تتنافس، وتتغلب على البلدان الديكتاتورية، وذلك بتحقيق التقدم الاقتصادي، ويجب ألا يكون هناك شعب في العالم اليوم مرغم على الاختيار بين رغيب الخبز وبين الحرية).

ولقد أظهرت البلدان الحرة تفوقها في مجال تحقيق وتصدير التقدم الاقتصادي، والخطر القائم الآن هو أننا لم نثبت فعاليتنا في حماية الحرية، بقدر ما يثبت السوفييت فعاليتهم في تقدم الاستعباد، وعندما يرى زعماء البلدان ذات المركز الضعيف في أنحاء العالم بأننا عازمون ومصممون على إشهار السيف في وجه الروس عسكرياً، عندئذ سيستوفي اجتذاب نظامنا الاقتصادي الشروط لكي يفعل فعله السحري.

الحفاظ على القوة الاقتصادية

إن أحد الأهداف الاستراتيجية الرئيسية للسوفييت في الحرب العالمية الثالثة، هو اضعاف اقتصادنا والقضاء عليه، وإذا نريد الفوز بتلك الحرب يجب أن يكون من أحد أولوياتنا الحفاظ على اقتصاد أمريكي قوي، ومنتج حر.

وبدون الحرب الفعلية لا يمكن للاتحاد السوفييتي القضاء على قوة أميركا الاقتصادية، لكننا نحن يمكن أن ندمرها بأنفسنا، والخطر الرئيسي الأول في هذا الصدد لا يأتي من الانتكاس، ومهما كانت الآلام التي تسببها الانتكاسات فهي أمراض يتعافى المريض منها، بل إن الخطر الرئيسي يأتي من فقر الدم الزاحف الذي تسببه الضرائب والقيود والتأميم والاشتراكية للحكوميين، وما اصطلح على تسميته في الآونة الأخيرة: (بالمرض الانكليزي).

فقد نادى المثقفون البريطانيون قبل الحرب العالمية الثانية بمبادئ الاشتراكية الديمقراطية، واتسعت رقعة نفوذهم وتأثيرهم الكبير في مجال نشر هذه المبادئ في أنحاء العالم، وبعد الحرب العالمية الثانية عكف السياسيون البريطانيون بشكل متزايد على وضع تلك المبادئ موضع التنفيذ، ونتيجة ذلك يجب أن تكون بمثابة تحذير للعالم، وللولايات المتحدة بشكل خاص.

وقد قال زعيم حزب العمال انيورين بيفان عن بريطانيا ذات يوم: (إن هذه الجزيرة مؤلفة من الفحم الحجري، ومحاطة بالأسماك، والتنظيم القوي فقط قادر على خلق نقص في الفحم الحجري والسمك في بريطانيا العظمى في آن واحد)، وبعد سنوات من الادارة الاقتصادية الاشتراكية حصل النقص في المادتين المذكورتين، وبحلول عام ١٩٧٦ كانت الحكومة تنفق ٦٣ دولار عليهما من أصل كل ١٠٠ دولار متداول في بريطانيا العظمى، أما الصناعات البريطانية المؤممة فآخذة بالاقتراب من التخمة في كل مكان من أسواق العالم، وحتى فترة قريبة بلغت الضرائب المفروضة على الدخل الشخصي حتى ٨٣٪ ، وبحدود ٩٨٪ على الدخل (غير المستحق)، ونتج عن ذلك تراجع الحوافز، مما حدا بأكثر أبناء بريطانيا انتاجاً على مغادرتها . بلغ عددهم بـ /٦٥٫٠٠٠/ في عام ١٩٧٥ وحده، وخلق ما ندعوه باسم «هجرة الأدمغة»، أو النزف الدماغي، بتعبير آخر، مما أدى إلى إصابة الاقتصاد بالوهن، وجاء تأميم الخدمات الصحية في بريطانيا بمثابة كارثة، إذ كان في نهاية عام ١٩٧٤ أكثر من نصف مليون انسان ينتظرون الدور على لوائح الانتظار من أجل عمليات جراحية «غير حرجة»، وفي عام ١٩٧٩ بينما أوشك الاقتصاد على الوقوع في الفوضى والإضطراب، تعهدت زعيمة حزب المحافظين البريطاني، مرغريت تاتشر، بالابتعاد عن الدولنة الخانقة . تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية . وإعادة بريطانيا إلى عهد الحوافز الفردية، وقد صوت البريطانيون على التغيير الذي وعدت به، وإن تاتشر أمام تحدٍ بالغ الصعوبة، ولكنه على قدر عالٍ من الأهمية الملحة من أجل استعادة حيوية بريطانيا الاقتصادية.

ومالم نقم نحن أيضاً بعكس اتجاهنا، فإن الولايات المتحدة تسير نحو الاشتراكية بكل شيء، ما عدا الاسم.

فعندما يستدير العالم الشيوعي إلى الغرب لانقاذه من حماقاته الاقتصادية، يكون عبثاً من جانب الغرب أن يدير وجهه في الاتجاه الآخر، أي أن يدير له ظهره، ومع ذلك فإن الولايات المتحدة تفعل ذلك تماماً، إن الوعد بالعلاجات الدولنية لكل مرض اجتماعي حقيقي، أو مرتقب، يشكل مطلباً أساسياً لا بد منه لكل الذين ينادون باسم الشعب والديماغوجيين، والمطالبة بأن تقوم الحكومة بعمل «شيء ما» قد يحقق الارتياح على المدى القصير، لكن التأثير الإجمالي لجميع تدخلات الحكومة في هذا القبيل، سيكون من شأنها تدمير القادة التي يقوم عليها كل شيء آخر.

حتى أن جون مايناد كينيس، واضع الأنظمة الاقتصادية الليبرالية قد حذر من أن مستوى الانفاق العام إذا ما تجاوز ٢٥٪ من إجمالي الإنتاج القومي سيؤدي إلى عواقب وخيمة، وتصل

ميزانيات دولتنا على الصعيد المحلي، وصعيد الحكومات الفيدرالية الآن إلى ٣٢٪ من إجمالي الإنتاج القومي، وقد ارتفعت عما كانت عليه في الخمسينات يوم كانت ٢١٪ في عام ١٩٥٠، والميزانية الاتحادية (الفيدرالية) لعام ١٩٨٠ وحدها أضخم من إجمالي الإنتاج القومي لجميع بلدان العالم البالغ عددها ١٥٩، باستثناء ثلاثة بلدان، فميزانية عام ١٩٨٠ لكل من وزارة الصحة ووزارة التربية والشؤون الخيرية ـ حوالي ٢٠٠ بليون دولار ـ هي أضخم من ميزانية أية منظمة على وجه الكرة الأرضية، باستثناء الميزانيتين الحكوميتين للولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، ولم تكن الزيادة الكبيرة في الميزانية في مجال الدفاع، بل في مجال البرامج الاجتماعية وتحويلات الدخل، وفي الحقيقة، على أساس الدولار الثابت، فإن الحكومة تقوم بالانفاق على الدفاع عام ١٩٨٠ أقل مما كانت تنفقه عليه عام ١٩٦٠، رغم تزايد حدة خطر التهديد السوفييتي الكبير، وبالمقارنة فقد ارتفعت النفقات الفيدرالية على برامج الشؤون الاجتماعية الخيرية للصالح العام خلال الخمس وعشرين سنة، ما بين ١٩٥٠ و ١٩٧٥، بسعر الدولار لعام ١٩٧٥، مما يعادل ٣٢ بليون دولار إلى ١٦٩ بليون دولار، أي من ٢٦٪ من الميزانية الاتحادية حتى ٥٤٪.

وتستهلك الحكومة الآن المزيد من البضائع، وتنفق المزيد من الأموال وتوظف المزيد من الناس كما أنها واقعة تحت الديون أكثر من أية فئة في المجتمع.

وتنمو الحكومة وتزداد البيروقراطية، ويشد تشابك القواعد الحكومية الخناق على عنق كل واحد سواهما، وتعاني الولايات المتحدة الآن من زيادة التعقيد القانوني، وزيادة التقاضي، وزيادة التنظيم فوق طاقتها ووضعها يزداد سوءاً عاماً بعدم عام، في هذا الشأن.

إن الحكومة الفيدرالية تدفع سنوياً ٦ بليون دولار فقط، لتشغيل هيئاتها التنظيمية المعتادة، وهي زيادة بمقدار سبعة أضعاف منذ عام ١٩٧٠، ويقدر ميوري ل. وايدنبوم، المسؤول السابق في وزارة الخزانة، التكاليف لعامة الناس للمطابقة مع الأنظمة الفيدرالية بـ ١٢١ بليون دولار سنوياً ـ أي أكثر من ٥٠٠ دولار لكل رجل وامرأة وطفل في أمريكا.

وهناك نفقات مستورة ضخمة أيضاً: في مجال أفكار لم تتبع، وأعمال لم يبدأ بها بعد، واختراعات أبقيت بدون تطوير، لأن الحكومة كانت تختنق تحت سيل من ورق، إن الابتكار هو الشعلة التي تقلع النمو الاقتصادي، والانتاجية هي المحرك الذي يقود الإزدهار، لكن الإفراط في التنظيم يقضي على الاثنين معاً.

فالإنتاجية الأمريكية ـ أي المردود الفعلي لساعة العمل ـ ما زالت تحتل مرتبة من أعلى المراتب في العالم، لكن معدل زيادتها أظهر بأنه ينذر بالتدني، وخلال السنوات ما بين ١٩٤٧ و١٩٦٥ ارتفعت الإنتاجية بنسبة معدّل سنوي قدره ٢ر٣٪، ثم تدنت هذه النسبة إلى ١٪ سنوياً في منتصف السبعينات، وفي عام ١٩٧٥ كان المردود خلال ساعة العمل قد أخذ يسجل تراجعاً فعلياً، إن الإنتاجية وسادة بين الأسعار والأجور، فهي التي تحدد مدى سرعة ارتفاع مستوى المعيشة، وبدون رفع لمستوى الإنتاجية سيكون مصيرنا الوقوف على الخط باقتصاد راكد.

وعلينا إزاء ذلك أن نكسر القيود التنظيمية للجمود، ونندفع للتجديد والإبتكار، ونقدم الحوافز للشعب بحيث تحصل التجارة والأعمال على المبالغ الكبيرة التي تحتاجها لتستثمرها، من أجل إعادة بناء صناعة البلاد، واستعادة مركزنا المنافس في الاقتصاد العالمي.

وفرض الأسعار والحواجز التجارية لابقاء البضائع الأجنبية المنخفضة الثمن خارج سوق الولايات المتحدة قد يشكل ارتياحاً قصير الأجل للمنتجين الأمريكيين، وكارثة طويلة الأمد للاقتصاد الأمريكي وللمستهلك، والموقوف السليم الوحيد هو إتاحة الفرصة للشركات الأمريكية باستعادة قدرتها على المنافسة، بإزاحة القيود والأنظمة الحكومية الزائدة عنها، وتقديم الحوافز للصناعة الأمريكية، لكي تتعصرن، وتستبدل المعدات القديمة التي بطل زيّها، إن نظام الضرائب الحالي عندنا بمثابة سبب رئيسي من أسباب تدني الإنتاجية في الاقتصاد الأمريكي، فأي اقتراح لتخفيف الضريبة عن الشركات يقابل على الفور بالمهاجمة من قبل أصحاب النظرة الديماغوجية السياسية على أنه يرمي لمساعدة الغني على حساب الفقير، إن ذلك غسل اقتصادي للآدران، وما يريده الناس، فقراؤهم وأغنياؤهم، في المقام الأول هو الحصول على العمل وإذا ما استمر نظام ضرائبنا في عملية عدم تشجيعه للحوافز، ومكافأته للتكاسل ستزداد صعوبة إيجاد العمل، طالما أن الصناعة الأمريكية لا محالة ستصبح غير قادرة على المنافسة لا داخل البلاد ولا خارجها، أي بمعنى أن مستواها ستدنى، ولن يتخطى منتجاتها بالرواج.

وقبل كل شيء، ينبغي علينا أن نتحكم بالتضخم ونجعله تحت سيطرتنا. وفي هذا الصدد يعلق فيرمونت رويستر موضحاً:

«التضخم يعتبر معاكساً للإنتاجية بالنسبة لكل تطلع آخر، بما في ذلك تلبية حاجات الفقراء والملونين والمرضى والشبان، إنه يقضي على إزدهارنا الاقتصادي، كما أنه يكلفنا مركزنا في العالم، ويضعف من قدرتنا على الدافع عن أنفسنا، وعن مصالحنا في الخارج، كما أنه يرمي بأثقل الأعباء على كاهل الفقراء، والطبقة المتوسطة، وهنا الطامة الكبرى، حيث أنه يجعل أبعد من المنال البرامج الاجتماعية بذاتها كخطة عملية فعالة متعلقة بالصحة الوطنية، التي يسعى إليها مستميتين من يسمون أنفسهم «الليبراليين».

ولا يمكن التغلب على التضخم إلا بمعالجة المشكلة من جذورها: دور الحكومة ألابعد من الحد، ورهن المستقبل بالإنفاق خارج نطاق وسائلنا، والإفراط في القيود، وسياسة التضخم النقدي، وسياسة الضرائب التي تعاقب المبادرة، وعدم التحضير، للإدخار والاستثمار، وانخفاض مستوى الإنتاجية، ومالا يصح هو معالجة أعراض التضخم بفرض تحديد الأجور والأسعار.

في ١٥ آب عام ١٩٧١ قمت بعمل ضد كل ما في من فطرة، حول ما هو خير للاقتصاد الأمريكي: لقد فرضت لمدة تسعين يوماً تجميداً للأجور والأسعار في كافة أنحاء البلاد على أن تعقبه عودة تدريجية لإزالة التحديد، لكن التاريخ كان قد علمني أنه في حين تكون التحديدات محببة سياسياً، فإنها تنطوي على كوارث من الناحية الاقتصادية، كانت روما الإمبراطورية قد فرضت تحديداً

للأجور والأسعار في عام ٣٠٠ ميلادي لكن إجراءها ذاك أثبت بأنه غير عملي وشغل دوراً بارزاً في انهيار اقتصاد روما، وقد كتب أحد المؤرخين المعاصرين يقول: «لم يعد يأت الناس بأية مواد للأسواق، بما أنهم لا يستطيعون الحصول على أسعار معقولة لها، وهذا ما أدى إلى زيادة الحاجة....».

ورغم احتجاجاتي، كان الكونغرس الخاضع لسيطرة المعارضة قد أعطاني الصلاحية لفرض التحديدات، ومع إزدياد التضخم سوءاً قامت جوقة كبيرة من الكونغرس وبين صفوف الشعب بسيل من المطالب الداعية إلى استخدام الصلاحيات وتعالت الضجة الغوغائية لدرجة أن وزير الخزانة جون كونللي، الذي كان يمقت فكرة التحديد بقدر ما كنت أكرهها شخصياً، قد قال لي بفظاظة: «إذا لم نقترح برنامجاً مسؤولاً جديداً سيكون لدى الكونغرس برنامجاً آخر خالٍ من المسؤولية على طاولتك في غضون شهر».

وعندما فرضت التحديدات في آب ١٩٧١ عم البلاد الاهتياج بالغبطة وتنفست الصعداء، وفي تجارة اليوم الأول ارتفع معدل دوجونز في وول ستريت ثلاثة وثلاثين نقطة، لكن ذلك كان بمثابة ضجة خاطئة، فعلى المدى القريب وفرت التحديدات الارتياح، أما على المدى البعيد فقد زادت الوضع سوءاً، وبعدما وضعت أصبح التخلص منها بطريقة منظمة أكثر صعوبة مما كنت قد توقعت، ومع طول مدة سريان مفعولها ازداد خلل الموازين الاقتصادية، وزيد في الطنبور نغماً، مما يترتب عليه دفع الثمن فيما بعد، وأفضل شيء فعلته التحديدات، إن كان لنا أن نتعلم الدرس، هي أنها أبانت بصورة دراماتيكية أنها لا تصح.

ويمكن لتحديدات الأسعار أن تفعل واحداً من شيئين: إما أن تخلق فائضاً، وإما تخلق شحاً، فأسس أسعار المنتجات الزراعية أدت إلى إيجاد فائض من الحبوب، وسقوف الأسعار للنفط والبنزين أدت إلى نقص هذه المواد، وعندما تدفع الحكومة ثمن منتوج أكثر مما يرغب به المستهلكون يزيد المنتجون منه أكثر مما يرغب به أو يطلبه المستهلكون، وعندما تضع الحكومة سقفاً للأسعار بحيث لا يسمح للمستهلكين بدفع المبلغ الذي يرغبونه لقاء ذلك المنتوج لن يقدم المنتجون منه ما يكفي لتلبية مطالب الشعب، وقد تكون هناك ظروف يمكن فيها تسويغ خلق الفائض، ففائض انتاجنا من الحبوب مثلاً ساعد على المحافظة على استقرار سعر القمح لمدة عشرين سنة، ولكن ليس هناك تسويغ لخلق النقص في المواد الصناعية الأساسية.

وبناء على ذلك فإن تحديد الأسعار والأجور داخل اقتصاد كامل يخلق آلاف المشاكل المتفرقة من الفائض والنقص، فقد يكون هناك من الخشب أكثر مما يريد أي كان، لكن ليس هناك ما يكفي من المسامير، وقد يكون هناك من السيارات أكثر مما يريده الشعب، ولكن ليس هناك ما يكفي من البنزين، وقد يكون هناك فائض من القمح في الوسط الغربي، ولكن ليس هناك عربات قطار تنقله إلى السوق.

إن أفضل نصيحة اقتصادية يسعني أن أقدمها إلى من خلفوني في منصب الرئاسة هي أن يقاوموا بشدة الضغوط السياسية لفرض تحديد للأجور والأسعار مهما كانت قوة تلك الضغوط، فالتحديد لن يحل مشكلة التضخم، صحيح أنه يمكن أن يخلق بعض الارتياح على المدى القريب، ولكنه من المحتوم بأنه سيؤدي إلى خلق كارثة على المدى البعيد، إن الحل الوحيد لمشكلة التضخم، هو أن تقلل الحكومة من نفقاتها وأن يزيد الشعب من انتاجه.

وما نفعله بالاقتصاد الأمريكي ليس مهماً داخل البلاد فحسب بل في الخارج أيضاً؛ إن الاقتصاد الأمريكي ينتج من البضائع والخدمات ما قيمته /٢/ تريليون دولار، أي ربع كل شيء ينتج في العالم قاطبة، فسبعون بالمائة من تجارة العالم تتم صفقاتها بالدولار، والقول القديم بأنه عندما يعطس الاقتصاد الأمريكي، يصاب اقتصاد زائير بالنمونيا . التهاب القصبات الرئوية . ما زال صحيحاً، وإننا اليوم نعاني من حمى شديدة.

كان في يوم من الأيام قول يردد «سليم كالدولار»، وكان ذلك قولاً ووصفاً صحيحاً، ولم يكن من قبيل النكتة، وإذا ما استمر الدولار في فقدان قيمته، ستصبح التجارة الدولية لعبة تخمين، وستصبح أسواق النقد العالمية أمكنة لإزدهار المخمنين، ومعاناة رجال الأعمال.

وليست هناك قوة اقتصادية وعسكرية صاعدة يمكنها أن تحل محل الولايات المتحدة في تحمل أعباء الاقتصاد الدولي، وعلينا أن نضع الأمور في نصابها فلسنا مدينين بتلك الأعباء تجاه أنفسنا فقط، وإنما هناك مسؤولية مترتبة علينا تجاه باقي أجزاء العالم، وإن الطريقة لإعادة الثقة بالدولار في الخارج، هي إعادة إقامة سلامته داخل بلدنا، فإلى أن نفعل ذلك سيظل شبح انتشار التضخم في سائر أرجاء العالم والحواجز التجارية مائلاً أمام رجال الأعمال في كل مكان، ويعيق التجارة التي هي سائل حياة ـ أو بالأحرى دم ـ النظام الاقتصادي الدولي.

وكما علق ايرفينغ كريستول، عندما قال: بأن سياستنا الخارجية، وسياستنا الاقتصادية مرتبطتان ارتباطاً عروياً، لا يمكن فصمهما.

«والحقيقة التي لا مفر منها، هي أن الاقتصاد الأمريكي عضو من جسد اقتصاد عالمي أكبر، فلا يمكن لواحد أن يبقى على قيد الحياة، وألا يزدهر بالتأكيد، بدون الآخر، وثروة البلدان اليوم غير قابلة للتقسيم، وهكذا فإن نمونا الاقتصادي معتمد على سياستنا الخارجية قدر اعتماده على سياستنا الاقتصادية، وإذا ما أخفقنا في خلق لمثل هذا النمو، فإن ديمقراطيتنا ذاتها ستتداعى، بما أن الضغوط الاقتصادية ستؤدي إلى نشوء الاستقطاب السياسي، داخل البلاد وخارجها.... وما يبدو بأن قلة هم الذين يدركونه، هو أن التطلع إلى نمو اقتصادي شرط أساسي مسبق لبقاء أية ديمقراطية حديثة على قيد الحياة، ومن بينها الديمقراطية الأمريكية ضمناً».

الطاقة

إن الطاقة، إلى جانب التضخم، هي المسألة الأكثر إلحاحاً في وجه الاقتصاد الأمريكي، والأنظمة الاقتصادية في العالم اليوم، فالطاقة أمر أساسي لاقتصاد العالم حيث أن كافة الصناعات الأخرى تعتمد عليها.

لقد كان الحطب وقود العالم ما قبل الصناعي، والفحم الحجري وقود الثورة الصناعية الأولى، التي بدأت في القرن الثامن عشر، وأصبح النفط وقود الثورة الصناعية الثانية، التي ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا، وستشكل المصادر الأخرى للطاقة بما في ذلك الطاقة النووية، والطاقة الشمسية وقود الإنجازات الصناعية المتقدمة في القرن الحادي والعشرين.

ليس هناك شيء أقرب لأن يكون طبيعياً أكثر من نضوب أحد مصادر الطاقة والإرتفاع التدريجي لسعره واستبداله بمصدر آخر جديد، لكن هذه الحالة في أيامنا قد تحولت إلى أزمة.

وهناك ثلاثة مرشحون عادة إلى صف المقدمة من أجل دور السفّاح في مشكلة الطاقة العويصة الحالية: شركات النفط، ومنظمة أوبيك، والحكومة، فلقد أصبح من المعروف وبصورة خاصة بين صفوف السياسيين، بل من الشائع أن يجعلوا من شركات النفط أكباش الفداء، ولكن ليست الشركات هذه هي التي أوجدت أزمة الطاقة، فالشركات في حقيقة الأمر من أفضل المتحاشين مع المستهلك في المحاولة لحل تلك الأزمة فمنذ عام ١٩٥٠ وحتى عام ١٩٧٠ أي في الفترة التي كانت فيها شركات النفط في أوج قوتها، كان سعر البنزين قد ارتفع من ٢٧ سنتاً للغالون الواحد حتى ٣٦ سنت، ونصف تلك الزيادة جاء لزيادة الضريبة، وفي السبعينات عندما قامت أوبيك والحكومة الفيدرالية بتجريد شركات النفط من كثير من صلاحياتها، ارتفع سعر البنزين من ٣٦ سنت إلى أكثر من دولار للغالون الواحد.

وفي الأول من شهر كانون الأول عام ١٩٧٠ كانت أوبيك تأخذ ثمن البرميل الواحد . أي ٤٢ غالون . من النفط الخام /١٫٨٠/ دولار، وفي أواخر عام ١٩٧٩ أصبحت تطالب بـ /٣٠/ دولار للكمية ذاتها أي أكثر من خمسة عشر ضعفاً، لذلك فإن الزيادات التي قامت بها أوبيك هي التي سببت ارتفاع أسعار البنزين على المضخة وليس تآمر شركات النفط، وبالإضافة إلى زيادة الأسعار، فإن عدم الاستقرار السياسي في منطقة الخليج العربي قد أدى إلى تقلقل امدادات النفط، وطالما أن الغرب يعتمد على النفط من الخليج العربي، ستكون هناك أزمات أو احتمال نشوء أزمات، وفي هذه الحالة للحكومة دورها الذي تشغله، لكن الدور الذي اختارت أن تشغله الحكومة قد حول الأزمة من مسرحية . دراما . يمكن التحكم بها، إلى مأساة أغريقية.

لقد كنت أول رئيس للجمهورية يقترح برنامجاً للطاقة واسع النطاق، ولقد فعلت ذلك قبل عقدين من الزمن تقريباً، أي في عام ١٩٧١، وفي خطاب ولايتي الأخيرة الذي وجهته للاتحاد في عام ١٩٧٤ وصفت الطاقة بأنها أولى أولوياتنا.

ومثلي مثل من خلفوني، حيث كنت أصاب بخيبة أمل في أعقاب أخرى، بمحاولتي جعل الكونغرس يعمل بمقترحاتي التي تضمنت: حواجز شرعية لخط أنابيب آلاسكا، وتنفيذ المقترحات المتعلقة بتحويل الفحم الحجري، وعدم وجوب تقييد الغاز الطبيعي، وتطوير مفاعل سريع التوليد، وبعض الإجراءات الأخرى التي تدعو الحاجة إليها، ولقد كانت سياستي المتعلقة بمسألة الطاقة . والتي سميتها مشروع انديباندانس، أي الاستقلال . تهدف على المدى البعيد إلى الحث على إنتاج الطاقة من مصادر قابلة للتجديد، كالقدرة النووية، وعلى المدى القريب إلى التخفيف من اعتمادنا عن موردين أجانب للنفط لا يمكن الوثوق بهم، والاعتماد عليهم، والولايات المتحدة مؤهلة بشكل فريد من نوعه للقيام بهذه الإجراءات، لكن سياسات الحكومة الثلاثية الاعتبار كان لها تأثير مضاد، حيث أنها في الحقيقة قد زادت من اعتمادنا على النفط الأجنبي.

وبالنسبة للوقت الحاضر تشكل مواد الوقود التقليدية ٩٠% من المصادر التي تلبي حاجاتنا في مجال الطاقة، فإمدادات النفط، نصفها مستورد، تشكل ٤٥%، والفحم الحجري ٢٠%، والغاز الطبيعي ٢٥%، فبدفع إنتاجنا من هذه المصادر قفزاً إلى الأمام، وبزيادة الحفاظ عليه، في حين نندفع أيضاً إلى زيادة استمدادنا للطاقة من مصادر قابلة للتجديد يحتمل أن نكون قد تحكمنا «بأزمة الطاقة»، ولكن كما هي عليه الحال، إنما ندفع بالأمور نحو أسوأ ما كانت عليه فيما مضى.

فسياسات الحكومات فيما يخص تحديد الأسعار، وفرض الضرائب العالية، والإفراط في فرض القيود قد أثبطت العزيمة على استخدام مصادرنا الداخلية للطاقة، وشجعت على التبذير، وزادت في ضعف موقعنا أمام زيادات أوبيك، وانقطاعات الأمداد، وتحديد أسعار النفط ونظام توزيع مؤمم، اللذين أسفت لعدم إزالتهما قبل أن أترك السلطة في عام ١٩٧٤، كانا قد خلقا نقاط نقص وفيض على نمط لوحة المراقب في جميع أنحاء البلاد، كما أن وزير الخزانة السابق وليم سيمون، الذي خدم أيضاً كمدير للطاقة في عهدي، قد قال لي معلقاً بحصافة على نظام التوزيع: «ألطف ما يمكنني القول عنه أنه كان كارثة».

إن أفضل طريقة لتشجيع التقين . هي عن طريق السوق الحرة، فعندما يصبح التبذير باهظ الثمن سيجد الناس طرقاً للتخلص منه، وبطريقة أكثر مردوداً مما قد ترسمه الحكومة أبداً، وأقل جهداً بكثير، ويوسع الحكومة أن تؤيد أقوالها بالأفعال بشأن التقنين باتخاذ إجراء بسيط واحد، وهو إزالة التحديد من النفط والغاز الطبيعي مرة واحدة وإلى الأبد.

فعدم تحديد الأسعار لا يخفف من الاستهلاك فحسب، بل إنه يدفع على زيادة الإنتاج، ولمدة خمس وعشرين سنة الآن كان تحديد الأسعار على مبيعات الغاز الطبيعي، داخل الولاية قد جعل غير اقتصادي بيع الغاز من الولايات المنتجة له إلى بقية أجزاء البلاد، حيث الغاز مطلوب، وفي شتاء عام ١٩٧٦ . ١٩٧٧ أغلقت آلاف المصانع، وقعد بلا عمل أكثر من مليون انسان بسبب شح الوقود . أي النقص الذي سببته إجراءات التحديد مثل تلك التي نصت على عدم تجاوز الغاز الطبيعي لحدود الولاية والبقاء ضمنها.

والضرائب العالية على الأرباح «الهائلة» ذات تأثير مماثل بشأن عدم تشجيع الإنتاج، وما لم يستطع المنتجون في هذا البلد تحقيق المزيد من الدولار بواسطة بذل المزيد من جهودهم، فليس ثمة حافز لهم لحل مشكلة الطاقة، ولن يكون هناك جدوى في تقديم حوافز تدفع على إنتاج جديد للنفط بإزالة تحديد الأسعار، ثم سحب الحوافز بفرض ضرائب جزائية، وما تحققه ضرائب «الأرباح الهائلة» هو هول للحكومة يدفع ثمنه المستهلك.

والفحم الحجري هو أكبر مصدر للطاقة لدينا، وبمعدلات الاستهلاك لعام ١٩٧٣، لدينا من الفحم الحجري ما يكفي لمدة ثمانمائة عام، لكن طفح الموانع البيئوية عن حدها قد حالت بيننا وبين استخدامه من أجل تقليل اعتمادنا على النفط المستورد لدرجة أن نسبة حاجياتنا للطاقة التي زودت بالفحم الحجري قد نقصت خلال السنوات الأخيرة، وليس هناك من معنى أن في جعبتنا نصف احتياطي العالم الحر من الفحم الحجري دون أن نستخدمه، وعليه كان لا بد من إعادة النظر في القوانين البيئوية المحلية، التي صدرت في وقت كنا أمس ما تكون حاجتنا فيه للطاقة.

إن وزارة الطاقة تستخدم /٢٠٫٠٠٠/ انسان، وميزانيتها السنوية تبلغ ٨ بليون دولار، لذلك يجب الغاؤها، فلقد كان انجازها الأساسي الذي حققته حتى الآن هو الحيلولة دون حل السوق الحرة لأزمة الطاقة، وطالما أن الحكومة هي التي تقوم بإدارة أعمال الطاقة سنظل نعاني من أزمة الطاقة وكل التاريخ الأسود لتدخل الحكومة، سواء في بريطانيا، أو الاتحاد السوفييتي، أو الولايات المتحدة يؤدي إلى استنتاج واحد، وهو: أن السياسة مضرة بصحة الاقتصاد.

وإذا نظرنا إلى المستقبل أمامنا، ينبغي علينا أن نعد أنفسنا إلى يوم ستصبح مواد الوقود التقليدية فيه نادرة جداً، وباهظة التكاليف لكي تظل المصدر الأساسي لصناعتنا، وحينئذ سيكون مركز مصادر الطاقة القابلة للتجديد قد وصل إلى الحد لمدنا بخزان لا ينضب تقريباً من الطاقة، ومن هنا كان لا بد من تقديم الدعم الشديد لبرامج الأبحاث المتعلقة بالطاقة الشمسية والجيوحرارية وغيرها، كما سبق لي وألححت عليها عام ١٩٧٣ وفعل كذلك الرئيس كارتر من بعد في عام ١٩٧٩.

ولا واحداً من تلك المصادر القابلة للتجديد سيبشرنا بالخير في المجالين القريب والبعيد أكثر من الطاقة الذرية، ولكن مما يؤسف له هو أن قضية الطاقة النووية قد سيِّست واستقطبت وشحنت بالعواطف، وأصبحت معارضة الطاقة النووية «القضية» الجديدة لليسار السياسي، وقد قام اللوديتيون العصريون الذين يتاجرون بنشر الرعب بحملتهم الإيديولوجية العنيفة في الشوارع في محاولتهم لمنع المناقشة المعقولة، وما زالت حتى الآن الشركات التي تود التحرك قدماً في هذه المجالات ممنوعة عن القيام بذلك، بما يسميه وليم سيمون «بلحاف جنون القيود البيئوية» التي تهدد بالقضاء على القدرة الحياتية الاقتصادية لطاقتنا النووية، وكان آخر مصنع طاقة نووية بني في الولايات المتحدة قد استغرق مدة ستة عشر عاماً حتى تم بناؤه، لكنه في كوريا الجنوبية

يستغرق أقل من خمس سنوات، ونتيجة لذلك، حتى قبل آخر زيادة أسعار قامت بها أوبيك، كانت الكهرباء المولّدة بواسطة مصانع الطاقة النووية تقدر فقط بنصف كلفة الكهرباء المولّدة بواسطة مصانع تدار بالنفط، في كوريا الجنوبية.

ومما لا ريب فيه هو أن الطاقة النووية تنطوي على مخاطر، شأنها في ذلك شأن أي مصدر آخر للطاقة، وهناك متسع للخلاف حول درجة تلك الأخطار، لكنه يترتب علينا أن نجعل ذلك الخلاف ضمن حدود معروفة ومعقولة بدلاً من أن نسمح لمستقبل طاقتنا أن يضيع في خضم من الإعلانات، ولو أن أسلافنا كانوا قد أصغوا لصوت مخاوفهم فقط، لما كانت أميركا قد اكتشفت أبداً، ولما كان العالم الحديث قد بُني.

ومن مكتبي في سان كليمنت بوسعي أن أرى يومياً القباب البيضاء لمصنع سان اونوفر للطاقة النووية، وتلك القباب لا تهددني بخطر الاشعاع كما أنها لا تذكرني البتة بالموت أو الدمار، فلو أنها كانت تفعل ذلك لما كنت قد بنيت البيت الأبيض الغربي على مقربة منها، ومقابل أبوابها في عام ١٩٦٩.

وعلى العكس من ذلك فإن هذه القباب تمثل بالنسبة لي ولجيراني الحرارة والنور، وكذلك آلاف مراكز العمل لأولئك العاملين في المصانع التي تعتمد على الكهرباء التي تنتجها، وإضافة لذلك فهي تمثل نمو اقتصاد متسع وارتفاع لمستوى المعيشة، فضلاً عن أنها تمثل أضخم مصدر للطاقة، وأكثرها قدرة، وأقلها ثمناً، وهو ما يصفه الدكتور ادوارد تيللر على أنه: «أنظف الطرق، وأكثرها أماناً لتوليد كميات كبيرة من الطاقة الكهربائية»، إننا بحاجة تلك الطاقة لمستقبل البلاد، وكما قال «بكل وضوح، ما لم نحقق المزيد من استخدام الفحم الحجري والطاقة النووية خلال العقد الزمني القادم، فإن هذا المجتمع قد لا ينتجها».

سبع سنوات مرت الآن على قيامنا بمشروع اندبيانداس لكننا لم نقترب أكثر حتى الآن من تحقيق استقلال أكثر مما كنا عليه عام ١٩٧٣، وإننا في حقيقة الأمر أبعد شوطاً في هذا الصدد، لذلك يطلب منا أن نبدأ بالاستعداد لحماية مصالحنا في المناطق المنتجة للنفط في العالم، كما يطلب منا أيضاً أن نرفض السلبية الغامضة «للنمو المحدود»، ونواصل السير في الضغط والتركيز على احراز التقدم الكبير في مجال تطوير مصادر طاقتنا الهائلة، وبهذا الشكل فقط يمكننا أن نضمن قابليتنا، واستمرارنا، كأقوى قوة اقتصادية وعسكرية في العالم، وإذا لم نسلك هذا الطريق، فإننا سنواجه ظلمة متزايدة في كل عام يمر كما يعقب الظلام غروب الشمس.

السقف اللامحدود

ليس الاقتصاد مجرد عالم المحاسبين، بل أنه عالم الروح أيضاً، فنحن نكفي أنفسنا بالعمل، ونغني حياتنا وحياة الآخرين، وأهم ما في الأمر هو أن هناك علاقة قائمة بين الحريات البشرية والاقتصاد الحر، وكما قال ميلتون فريدمان الاقتصادي الفائز بجائزة نوبل: «إن الدليل التاريخي يتحدث بصوت واحد فقط عن العلاقة بين الحرية والسياسة وسوق حرة ولست على علم بأي مثال

لا في الزمان ولا في المكان لمجتمع نعم بالحرية السياسية على نطاق واسع، ولم يستخدم أيضاً شيئاً يمكن أن نقارنه بسوق حرة كي ينظم الحجم الأساسي للنشاط الاقتصادي»، وبشكل عكسي، عندما تختفي الحرية الاقتصادية تزول معها الحرية السياسية.

إن الصراع بين «الثورة» الأميركية، «والثورة» الشيوعية هو صراع بين مجتمع حر، ومجتمع خاضع للسيطرة، فالشيوعيين ماديون، لكنهم أخفقوا في مجاراة المنجزات المادية للرأسمالية، فما وعدت به الاشتراكية تقوم الرأسمالية بتقديمه، وما كان دعاة المدينة الفاضلة، أو جمهورية أفلاطون، قد تكهنوا به توفره الرأسمالية، وما يحلم به الحالمون لقرون من الزمن، كانت الرأسمالية قد أنتجته، وما زالت تواصل أنتاجه أي: الحرية، والثورة، معاً، للكثيرين.

إن سعير الشعور باقتراف الذنب قد أشبعنا بفكرة أنه يجب علينا أن نكون اعتذاريين ومدافعين عن ثروتنا، ولأن اقتصادنا اقتصاد غني فهو مجتمع شرير، فإذا أعطينا صحة لهذا القول الهراء، إنما نكون قد أسأنا بحق أمريكا وبقية العالم، والحقيقة الناصعة هي أن مجتمعنا مجتمع غني لأنه مجتمع منتج، وما لم نقبل بهذه الحقيقة ونتغنى بها فإن المثل الذي نقدمه للبلدان المحتاجة في العالم سيكون مثلاً خاطئاً.

والفقر يضطهد لذا فإن أفضل ترياق ضد الفقر هو الإنتاجية، والإنتاجية تحقق حدها الأعظمي عندما يقدم الاقتصاد حوافز ومكافآت للعمل المجد، وزيادة الجهد، والاستثمار المتزايد.

إن الغالبية العظمى من شعوب العالم تريد التحول لكنها تريده تحولاً نحو الأفضل، فالشيوعية تعرضه ثم تقوم بفرض نظام يوجد التحول نحو الأسوأ، أما الرأسمالية، بالمقارنة، فأعظم أداة للتحول التقدمي في تاريخ المدينة، فهي تحقق المزيد من الأزدهار وأوسع نطاقاً لاقتسامه مع توفير المزيد من حرية الاختيار، من أي نظام اقتصادي آخر.

في بداية الثورة الصناعية ، قبل مئتي عام ، كان معدل دخل الفرد في العالم / ٢٠٠/ دولار سنوياً، بسعر الدولار لعام ١٩٧٩ ، أما اليوم فقد أصبح معدل الدخل السنوي للفرد / ٢،٠٠٠/ دولار، ويتنبأ الفلكي هيرمان كاهن بانه سيرتفع إلى / ٢٠،٠٠٠/ دولار خلال القرن الحادي والعشرين، ويقول كاهن أننا في منتصف الطريق في الثورة الاقتصادية التي تعتبر أهميتها بأهمية تلك الثورة التي حولت الانسان من صياد الى مزارع قبل / ١٠،٠٠٠/ سنة، وتعليقاً على هذه الناحية كتب كاهن يقول: «قبل مئتي عام كان أبناء البشرية في كل مكان تقريباً قلة بالمقارنة، وفقراء، ويعيشون جميعهم تحت رحمة قوى الطبيعة، وخلال قرنين من الزمن، متجاوزين جمعاً من تعاسة الحظ الشديدة وسوء الادارة كثر عددهم وأصبحوا أغنياء، وسيطروا على قوى الطبيعة».

وما يميز المئتي سنة الماضية عن آلاف السنين التي سبقتها، هو الرأسمالية الصناعية، فحتى الثمانينات من القرن الثامن عشر كانت أربعة أخماس العائلات الفرنسية تنفق ٩٠% من دخلها على الخبز فقط، وللغاية الوحيدة، وهي المحافظة على بقائها على قيد الحياة، ومع فجر الرأسمالية الصناعية حطمت السلاسل التي كانت تقيد الناس بالأرض، وتدفق الفلاحون بالآلاف الى المدن

سعياً وراء حياة أفضل، وواجه ملايين من الناس صعوبات الحياة الأولى في المدينة للهروب حتى مما هو أكثر إنهاكاً من نصيب فلاح.

وكما كانت عليه الحال بالنسبة لأولئك الفلاحين قبل مئتي عام، فإن المستقبل بالنسبة لنا اليوم مجهول ومترامي الأطراف، والانسان مذ كان يتطلع إلى المستقبل بمزيج من الأمل والترقب، وإن تلك المخاوف الآن تحرك من قبل رسل مدهب جديد يزيدون سعيرها اضراماً وهم: خصوم النمو، وخصوم التقنية وخصوم الأعمال التجارية وخصوم التقدم، ويحذر عالم الاجتماع روبرت نيسبيت بقوله «ليس بوسعي أن أفكر بأي تحول ثقافي عمّ في أمريكا خلال الجزء الأخير من القرن العشرين، حافل أكثر بالعطاءات الدستورية والنتائج المادية، من الاختفاء شبه الكامل بين صفوف المثقفين وليس بين غالبية أبناء الشعب» للايمان بالتقدم.

لقد كان هناك دائماً أنبياء بشروا بيوم القيامة وكان هناك أناس أصغر عقولاً، وأقل ايماناً، وكان البونديون (المنجمون) في أيام كولومبس قد نصحوا ملك وملكة اسبانيا بأنه من المستبعد أن تتمخض رحلاته التي كان يزمع القيام بها عن نتائج طيبة، كما أن خبراء السكك الحديدية كانوا قد استبعدوا، بل قالوا من: «غير المحتمل أبداً» تطوير أي نظام للنقل تستطيع وسائطه أن تسير بسرعة يزيد معدلها عن عشرة أميال في الساعة، وباسبوع واحد قبل أن يطير رايت واخوانه أبدت صحيفة نيويورك تايمز استخفافها بفكرة أن الانسان يستطيع الارتفاع عن الأرض، وقال المتشائمون الجبناء، مراراً وتكراراً أن أولئك المتشائمين كانوا على خطأ، فإذا لم نسقط كرهائن لمخاوفنا . وبوجه أكثر تحديداً رهائن مخاوف أقلية لا شأن لها سوى الأقوال والجعجعة . فإننا سنبدد كل المفاهيم ذات التصور المسبق «الحدود» للنمو، وسندخل عهد، «السقف اللامحدود»،

إن مشاكلنا الاقتصادية القائمة نشترك جميعاً في حل واحد وهو: زيادة الانتاجية، والتحدي المائل أمامنا هو استخدام القوة الاقتصادية للغرب، من أجل خلق ازدهار عالمي، وذلك أمر يمكن تحقيقه ولكن فقط إذا حافظنا على الديناميكية القوية للرأسمالية الصناعية.

وقد أصبح من المميز في يومنا هذا بأن مفكراً عسكرياً وخبيراً بشؤون الاستراتيجية السوفييتية، وهو السير روبرت تومبسون، قد وضع الاطار لواحد من أكثر المسائل الاقتصادية تعقيداً، بل أعقدها في عصرنا. يقول تومبسون: بأن البلدان الزراعية الكبيرة كالهند تشكل الأهداف الرئيسية للاستراتيجية السوفييتية، وتلك مسألة تنطوي على اهتمام بالغ الخطورة، وعن ذلك يقول «بما أن الأمر يؤدي إلى وضع حيث ان حوالي ثلاثة أرباع العالم يعانون من الجوع بسبب تبني الاقتصاد الماركسي، وأن جوعهم من الحدة بحيث أن تقديم الغذاء لهم هو خارج نطاق قدرة اميركا الشمالية، فإن ما ينذر بالخطر، التفكير بما سيصل اليه ميزان المساعدات الأمريكية، إذا توجب على أمريكا تقديم الغذاء إلى عالم بكامله، كما أن ما ينذر بخطر أكبر التفكير بما قد يحدث إذا لم تقدم الولايات المتحدة الغذاء لهم»، «فالسقف اللامحدود» لعالم حر، أو المطالب اللامحدودة من الولايات هي الخيارات البديلة التي نواجهها خلال القرن المقبل.

إن العالم الغربي يتفوق على العالم الشيوعي اقتصادياً بنسبة أربعة إلى واحدة، ومع ذلك فقد ساوانا الاتحاد السوفييتي في مجال القدرة العسكرية، ومن الواضح بأنهم يسخرون مواردهم الاقتصادية لنشاطات يعتقدون بأنها تمكنهم من كسب الحرب العالمية الثالثة؛ وهكذا تقتضي الضرورة منا بأن نستخدم أكبر ميزة في متناول أيدينا، ألا وهي قوتنا الاقتصادية من أجل مجاراة جهودهم العسكرية، أو سبقهم فيها، وأن نأتي في الوقت ذاته بحياة جديدة من السلام والازدهار لشعوب العالم قاطبة.

ويعود أيضاً ريتشارد ماك كرومر ليفسر التحدي بقوله «يجب أن تقوم استراتيجيتنا على فتح باب رأس المال الخاص، على أساس عالمي واسع النطاق، ونيعده من جديد إلى النمو والتطوير، ولكي نفعل ذلك علينا أن نبدأ بشكل منظم بمهاجمة الخوف، وعدم الاستقرار، والسياسة الاقتصادية، وتتغلب عليها لأنها تجتمع كلها من أجل خنق الاستثمار، لأن هذا هو التطلع إلى ايجاد نمو وتطور اقتصادي يعم العالم ويجب أن يتضمن ذلك العمل على أيجاد أمن مادي أكبر للمجتمعات الواقعة كفرائس تحت أنياب الاتحاد السوفييتي، والارهاب والعصابات والكوبيين».

فإذا قمنا فعلاً باستخدام القوة الاقتصادية، انما نقوم بخوض الحرب العالمية الثالثة بما ينطبق وقواعدنا، ثم وكسبها، كما أن العالم عندئذ سيكون الكاسب أيضاً.



الفصل التاسع

قوة الارادة

«إن التمساح بالتصنيف الحيواني عينه اكثر بدائية من المخلوق البشري: ولكن إذا ما قفز انسان مؤثق وأعزل في نهر التمساح، فإن التمساح سيكون الغالب»

هوغ سيتون . واتسون

«ان واحد من دروس التاريخ التي يجب على الانسان أن يتعلمها رغم أنه مؤلم جدا، هو أنه ما من مدنية يمكن أن تؤخذ على انها أمر مسلم به، ولا يمكن الحكم المسبق عليها، إذ أن هناك دائماً عصراً مظلماً ينتظر في الزاوية المخفية، فإذا استخدمت أوراقك على نحو سيء ترتكب أخطاء كثيرة، ومن واجبنا الا نفكر أبداً بأن ذلك لن يحدث لنا، فذلك أمر محتمل طالما أنه كان وقع اربع خمس مرات في تاريخ العالم....

ولا يراودني أدنى شك كان، بأنه ليس لدى أمريكا سوى المصادر المادية فحسب، وإنما المصادر المعنوية، وهي بنفس أهمية الأولى، لكي تعيد تأكيدها على قيادتها للعالم وأن تمارس دور القيادة بشدة .... وأعتقد بانه يتعين على أمريكا أن تقوم بالعمل بإرادة قوية، وكلما سارعت للقيام بذلك كلما سهل الأمر عليها».

بول جونسون

قبل وقت ليس بطويل سألت الدكتور إدوارد تيللر، الفيزيائي النووي الذي غالبا ما يسمى «أبو القنبلة الهيدروجينية» عن رأيه بما ستؤول إليه الأمور في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٠ ، ففكر ملياً ثم أجاب بأنه يعتقد أن هناك احتمال بمقدار ٥٠% أن الولايات المتحدة لن تكون على قيد الوجود، وسألته عما إذا كان يقصد وجودها المادي أم كنظام حكومة، فقال: «أحدهما، أو كلاهما».

إن هذا الأمر يبدو مرعباً، ولكن كما قال صموئيل جونسون ذات مرة: «عندما يعلم انسان بأنه سيعلق بالمشنقة خلال أسبوعين، فإن ذلك يستدعي تركيز ذهنه بشكل متسائل»، وإن مهمتنا اليوم هي ان نركز ذهننا دون تأخر وبذلك نتجنب تعليقنا بالمشنقة.

وإحدى ميزات المدنيات المتقدمة، هي أنها كلما ازدادت غنى وبدانة، كلما ازدادت طراوة وهشاشة، وعبر التاريخ كانت المدنيات البارزة والمتصدرة للقيادة في أيامها، قد دمرت من قبل البرابرة، ليس لأنها كانت تنتقص للثروة والسلاح، بل لأنها كانت تنتقص للإرادة، ولأنها استيقظت وتنبهت متأخرة للخطر، وردت عليه بمنتهى الذعر في وضع إستراتيجية لمقابلته.

فالمتقائلون، غير القادرين، أو غير الراغبين في مواجهة عظمة التحدي، يفترضون بأن الغرب سيحافظ بشكل أو بآخر على بقائه، وأن المجتمعات الحرة التي تمكنت من مقاومة تحديات عديدة

فيما مضى ستتمكن من مقاومة هذا التحدي كذلك، أما المتشائمون فينظرون إلى تقدم مدّ «الاشتراكية» على أنه أمر محتوم ولا مناص منه، وأن المقاومة في نهاية الأمر ستكون عقيمة، وكلتا الفئتين تفضلان التفكير في الحرب النووية، فالمتشائمون يتاجرون، عن رغبة، ببلد هنا وآخر هناك لبضعة سنوات تحل فيها الراحة وتسهل الأمور، والمتفائلون يتحدثون عن قابلية الإنسان للاكتمال ويفترضون بأننا إذا ابتسمنا بسخرية كافية في وجه الروس، ستذوب قلوبهم، وتميع سياستهم.

ومن يقوّم الأمور بعين أكثر برودة لن يرى لا النصر ولا الهزيمة كأمر محتوم، وكلا الجانبين له من القوة ما عظمت حدودها، كما أن لكل منهما الكثير كي يقاتل من أجله، ولكل أيضاً اختلاف قوته، ومراكز ضعفه تماماً كاختلاف غاياتهما.

والشيء الذي يجب ألا نتوقعه هو أن السوفييت سيميعون، أو أن القيم والمطامح السوفييتية خلال العشرين سنة القادمة ستختلف اختلافاً ملحوظاً عما كانت عليه باستمرار خلال ما يزيد على ستين سنة الآن منذ استيلاء لينين على السلطة، فلقد أظهر السوفييت بوضوح كل ما يريدون، فنحن نعرف ما الذي تريده الولايات المتحدة وحلفاؤها، كما نعرف الوسائل التي يتبعها السوفييت من أجل تحقيق غاياتهم، ونعرف الموارد الموجودة تحت تصرف كل من الجانبين والشيء الحاسم غير المعروف لا يمكن في الضربة التي يوجهها السوفييت، بل في رد الغرب عليها، وكما قال ونستون تشرشل الثاني مؤخراً عندما كتب: «إن أيام سيادة الغرب بال جهد قد ولت الآن».

إن المبارزة بين الولايات المتحدة والسوفييت صراع بين قطبين متنافرين للتجربة البشرية، بين أولئك الممثلين بالسيف والروح، وأولئك الممثلين بالخوف والأمل، فنظامهم محكوم بحد السيف، ونظامنا تحكمه الروح، ونفوذهم انتشر بالاحتلال، أما نظامنا فقد انتشر بإعطاء المثل، وليس ذاك الصراع بجديد، فهو لم يبدأ بانتهاء الحرب العالمية الثانية، أو بقيام الثورة الشيوعية، إنه صراع قديم قدم المدنية ذاتها، والتاريخ لا يقدم لنا دليلاً أكيداً على النتيجة، لأنها تظهر لنا عبر القرون بأن أحد الجانبين قد تغلب في البداية، ثم الآخر بعده، إنه صراع قديم قدم نزعة حكام إلى فرض العبودية، واستماتة شعب للتخلص منها، وعمره عمر سعي بلد ليحتل، وسعي بلد آخر لمقاومة ليحتل، وسعي بلد آخر لمقاومة الاحتلال، فأنظمة الاستبداد ارتفعت وسقطت، كذلك حدث للأنظمة الديمقراطية أيضاً، ولقد ناضل الإنسان ضد الاضطهاد وانتصر، كما أن المضطهدين قد انتصروا هم الآخرون.

وكتب ايديث هاملتون، المؤرخ المتخصص في تاريخ اليونان القديم، ذات يوم يقول: «بالنسبة لإغريق تلك الأيام كان أثمن ما يملكونه هو الحرية، التي كانت علامة مميزة بين الشرق والغرب... ويقول هيرودوت بأن إغريقياً كان يقول لفارسي: «لا تعلمون ما هي الحرية، فلو كنتم تعلمون فعلاً لقاتلتم من أجلها بأيديكم العزلاء، إذا لم يكن لديكم السلاح؟»، وما زالت الحرية حتى الآن علامة مميزة بين الشرق والغرب.

وقال غاندي في إحدى المرات: «لا يكمن لأي مجتمع كان أن يبنى على نكران الحرية الفردية»، ولكن في نظر مؤرخ سوفييتي شاب معارض، وهو أندريه أمالريك: «إن أفكار الحكم الذاتي، والمساواة أمام القانون والحرية الشخصية هي بشكل كامل تقريباً أموراً غير مفهومة بالنسبة للشعب الروسي وهو لا يتصورها..... أما فيما يتعلق باحترام حقوق الفرد على هذا النحو، فإنما بمثابة فكرة تثير الاستغراب والدهشة».

وبالنسبة للعديد من الامريكيين، فإن التجربة الروسية غير معروفة بصورة مماثلة أيضاً، وهناك فكرة مضللة واسعة الانتشار، وهي بما أن طريقة الحياة السوفييتية غير طبيعية بالنسبة للامريكيين، فإنها غير طبيعية بالنسبة للروس، الذين إذا ما تعرفوا على طريق الحياة الغربية سرعان ما يودون الحصول على التغيير، والغربي يعتقد بأن النظام السوفييتي معرض للتحول بكل بساطة لأن الشعب لا يستطيع أن يعيش مثل هذه الحياة، لكن السوفييت في الحقيقة يفعلون، وهذه هي النقطة التي ينبغي على الغرب أن يفهمها جيداً، فبوسعنا أن نأمل بأن يتغير النظام الشيوعي في النهاية، لكننا انما نجازف ونعرض أنفسنا للخطر إذا ما توقعنا بأنه سيتحول، واقمنا سياستنا على أساس هذا الأمل.

إن السيف السوفييتي مشحوذ بنيران قرون من المعاناة، وبالنسبة للسوفييت أقصى درجات الوحشية والتعذيب لا تتشكل شيئاً غير قابل للتفكير به، لانها أصبحت جزءاً من خبرتهم، نحن نعرف الحرية والتحرر، والأمل والروحية بالنفس، وهم يعرفون الظلم والمذابح والمجاعة والحرب والإذلال، وهذه الميزات النوعية التي تجعل الانتصار السوفييتي تصوراً مرعباً للعالم، هي ذاتها التي تجعله ممكناً.

وخلال المئتي سنة الأولى من عمرها، قلما كانت الولايات المتحدة قد شهدت الرخاء النادر، ولكوننا محميين باثنين من المحيطات من سعير الصدامات العنيفة التي كانت تجتاح أوروبا وآسيا، استطعنا أن نحقق الحلم الذي كان الملهم لابداعنا، واستطعنا التركيز على قهر قارة، وعلى بناء أقوى آلة صناعية عرفها العالم، وجعلنا منها منارة تشع بنورها للعالم.

إنا قادرون على النقد والتدقيق، بشكل لاذع، في عيوننا في حين تتجاهل العيوب للبلدان الأقدم. والأحدث . لأننا نحن الذين نتحمل مسؤولية عيوبنا، ولم يكن علينا أن نقيس أنفسنا بالرجوع إلى بقية العالم، لأن ما تبقى من العالم كان بعيداً، ولا علاقة لنا به تقريباً، وقد كان من حين لآخر يقترب منا ويعتمد علينا، فقد توجب علينا خلال حربين عالميتين أن نهب للتدخل بعد قيامهما، وذلك لكي نضمن انتصار جانب الحرية، لكننا بقينا بعيدين بصورة أساسية، وعندما ظهرت البربرية الجديدة، كانت بلدان أخرى في بداية مسيرها، وتحملت البلدان الأخرى وزر العدوان، في حين كنا نرفع من معنوياتها عن بعد، وقد قال لي أندريه مالرو في إحدى المرات، بأن الولايات المتحدة كانت «البلد الوحيد الذي أصبح اقوى بلد في العالم دون أن يسعى لتلك القوة»، وبما أننا لم نسمع للقوة، لم نكن على استعداد لممارستها عندما تقلدنا مسؤولياتها، لكننا الآن أصبحنا على الخط الأول في الجبهة والعدو الذي نواجهه عدو شرس وعنيف.

إن أولئك الذين يصلون الى القمة في الاتحاد السوفييتي يفعلون ذلك بتمكنهم من أن يكونوا أكثر مكراً، وأكثر شراسة، وأقل شفقة من منافسيهم، فقد كتب ليون تروتسكي يقول: «كان لينين، في كل فرصة سانحة، يؤكد على الضرورة المطلقة لوجود الرعب»، وكان لينين ذاته قد أعلن بوضوح في عام ١٩٢٠، بأن «المفهوم العلمي للديكتاتورية، يعني لا أكثر ولا أقل من السلطة غير المحدودة، التي تركز مباشرة على القوة، ولا يحد منها أي شيء، ولا تقيدها أية قوانين، ولا أية قواعد مطلقة، لا شيء آخر سوى ذلك».

وكان ستالين يقوم بقتل مليون انسان في السنة خلال مدة بقائه في السلطة، التي دامت ربع قرن من الزمن، وكان كل من خروتشوف وبريجينيف قد تلقيا تدريبهما تحت إشراف ستالين، ليس على توزيع الطوابع التي يذهب ريعها من أجل الأغذية، ولا في هيئة للسلام، بل بالقضاء على نحو كافٍ، على أولئك الذين كان ستالين ينظر اليهم بانهم يشكلون تهديداً لسلطته، وقد أرسل خروتشوف من قبل ستالين إلى اوكرانيا في عام ١٩٣٨ لإدارة عملية التنظيف السياسي هناك، وخلال عام واحد تمت تصفية / ١٦٣/ من أصل / ١٦٦/ عضو من أعضاء اللجنة المركزية، وعندئذ رقي خروتشوف لنيل مرتبة العضوية الكاملة في المكتب السياسي.

والقوى الداروينية، قوى الارتقاء الذاتي، للنظام السوفييتي، لا تخلق القادة الذين لا تعرف الرحمة قلوبهم فحسب، بل القادة الأذكياء، وقد كتب السفير السابق فوي كوهلر، عن خروتشوف يقول:

«بالنسبة ليث تبين بأنه تجسيد للصفقة الروسية «ختري» غير قابلة للترجمة تقريباً، وحسب القاموس فهي تعني داهية، ماكر، فنان، معقد، أو نداف قطن، لكنها في الحقيقة تعني أكثر من ذلك، وهي تعني ايضاً غير متردد، ولبق، وذكي، وسريع البديهة، فإذا ما جمعت هذه الصفات كلها في انسان ستحصل على خروتشوف «الختري» الفاجر والمستأسد حسب متطلبات الظروف، والديماغوجي الانتهازي بشكل دائم».

وغالباً ما نبالغ نحن في تأثرنا بنمط وطريقة وثقافة زعماء البلدان الأخرى ناسين بأن طرق اللباقة لا تخلق قائداً قوياً، والثقافة قد تقوي الدماغ، لكنها قد توهن العمود الفقري.

في البداية حاول كثير من الخبراء الامريكيين بشؤون الاتحاد السوفييتي التقليل والخط من قدر خروتشوف في تقويمهم له قائلين بأنه كان ضعيف الثقافة، ولغته الروسية سيئة ولا يجيدها، ويفرط في احتساء المشروبات، وجلف في معاملته، لكنهم أخطأوا الهدف، وكان جون فوستر دالاس ينظر من خلال الواجهة، وفي اجتماع لمجلس الأمن القومي عقد مباشرة بعد تولي خروتشوف السلطة قال دالاس لايزنهاور حرفياً: «أي واحد ينجو ويصل الى القمة في تلك الغابة الشيوعية المجهولة المعالم، لا بد ان يكون قائداً قوياً وعدواً خطيراً».

لقد كان دالاس على حق لأن أي انسان يصل الى القمة في الاتحاد السوفييتي، يكون قد تسلق على ركام كبير من الجثث كي يصل إلى ذلك المركز، ولم يكن بقادر على فعل ذلك، ما لم يكن قدم

أسباباً للآخرين، لكي يخشوه أكثر مما يخشاهم، فبمرورهم عبر نيران التطهير، وتجاوزهم لها، والحيل والمنافسة على السلطة لحد قطع الأعناق، يكون القادة السوفييت ويخرجهم بقساوة الفولاذ.

وإذا كان القادة السوفييت قساة، وعنواناً للفظاظة كذلك يكون شعبهم، حيث ذلك الشعب كان قد تحمل كل ما أنزله به أولئك القادة من ألوان المعاناة والعذاب، فالقساوة معلم جيد مما يجعل الشعب السوفييتي جيد التتلمذ في الحقيقة، ولما لوحظ بأنه عرف الناس الذين عاشوا خلال الثورة، وحياة المزارع الجماعية، ورعب حكم ستالين، والغزو الألماني في الحرب العالمية الثانية، قال المعارض السوفييتي ليف كوبيليف إل أحد الأمريكيين معلقاً: «أرأيت كم نحن أكثر خبرة منكم».

وليس معنى هذا كله بأن نقول بأن الشعب السوفييتي، أو حتى بالضرورة قادته، سيئون بالوراثة، وهناك قول قديم «بوسعي أن أكره الخطيئة، ولكن ليس من يرتكبها». فأنا أحب الشعب الروسي، وأحب الشعب الصيني، لكنني أكره الشيوعية وما تفعله للشعب، فالشيوعيون منتجات نظام صارم، وورثة تقليد قاسٍ، فهم يتصرفون غريزياً كالنمر الذي يأكل البشر.

وعداك عن هذا وذاك، وفي جميع الأحوال فإن الشعب السوفييتي شعب محب وكريم وطيب، وذو قدرة عالية في مجالات شتى، لقد عانى ما عاناه من ألوان العذاب الوحشي، قبل وبعد الثورة، وإن أبناءه تواقون لأن يكونوا على وئام مع أبناء الشعب الأمريكي، وكثير من الزعماء السوفييت قادرون على التصرف في منتهى الاحترام، كما أنهم عاطفيون حقاً عندما يتحدثون عن آمالهم بالنسبة للجيل القادم، وعن الدمار الذي عانى منه شعبهم في الحرب، وفي عام ١٩٧٣ وجهت دعوة خاصة لتناول وجبة عشاء متواضعة للرئيس بريجينيف في منزلي في سان كليمانت حيث قدمت له التوست الحار بصورة شخصية، فسالت الدموع من عينيه، وكان معناها مقروءاً، وقام عن كرسيه مندفعاً وضمني بين ذراعيه معانقاً على طريقة دب روسي، ولكن في الليلة ذاتها أتى بغروميكو ودوبرينين وقام بهجوم شرس دام ثلاث ساعات على سياستنا في الشرق الأوسط.

وحقيقة أن القادة السوفييت يستطيعون أن يبدوا في منتهى الصداقة بصورة شخصية حتى ولو في الحين الذي يتآمرون فيه على تدمير بلد الشخص الآخر، هي عملية ازدواجية وليست تناقضاً، وبوسعهم أن يكونوا من المحبة والمودة كأفراد بقدر ما يكونون من قلة الرحمة والوحشية كزعماء للسلطة، وذلك لأن هذه هي الطريقة التي يقوم عليها النظام السوفييتي، فالكرم والحب والوداعة وسماحة النفس جميعها شمائل لها موقعها في الروح الروسية، ولكن ليس في أفعال الحكومة السوفييتية، وذلك تمييز قلة جداً هم الأمريكيون القادرون على ادراكه.

إن الطبيعة الاستبدادية للنظام السوفييتي هي قوته الرئيسية، ونقطة ضعفه الرئيسية في آن واحد، وما يسر الخاطر هو أن بينيتو موسوليني هو الذي أوجد كلمة «الاستبدادية» . توتاليتارنية . عندما كتب في عام ١٩٣٢ مقدماً تفسيراً رسمياً للنظام الفاشستي:

«إن النظام الفاشستي يؤكد على أهمية الدولة، ويعترف بالفرد فقط بقدر ما تتطابق مصالحه مع مصالح الدَولة... وإن المفهوم الفاشستي للدولة مفهوم شامل، وخارج نطاقه لا وجود لقيم إنسانية أو روحية، لأية قيمة أخرى، كثر ذلك أم قل، وبالنسبة لفاشستية الدولة مطلقة، والأفراد والمجموعات لا يقبل بهم إلا بقدر ما يتصرفون وفق ما تريده الدولة».

وهكذا فإن وصف موسوليني للفاشستية يفسّر على أنه بمثابة دستور أو ميثاق عمل للشيوعية.

وقوة الاستبدادية السوفييتية هي أن الحكومة تستطيع أن تركز جهودها في أي مجال كان: العسكري والاقتصادي والدعائي والعلمي والتربوي، أما المجتمع الحر الجماعي فلا يستطيع فعل ذلك، فمعظم قراراته الاقتصادية تتخذ في السوق التجاري، ونظامه التربوي يسير بطريقه الخاص، كما أن صحافته حرة، وباستطاعة حكومتنا أن تقدم المساعدة لبعض أنواع البحث العلمي وبذلك تتمكن، على سبيل المثال ، من الإسراع في تطوير بعض الأسلحة الجديدة المختارة، أو التقنيات الجديدة' لكن الجزء الأكبر من أبحاثنا مسير من قبل القطاع الخاص، لأغراض خاصة.

أما ضعف النظام الاقتصادي، فهو أن السيطرة البيروقراطية المركزية تخنق القدرة على الابداع، وتحد من الحوافز، بينما يقدم نظامنا الحر الحوافز ويشجع القدرة الخلاقة، وبذلك فإننا ننتج أكثر منهم: المزيد من البضائع والمزيد من الأفكار، والمزيد من الابتكارات، فهم يركزون انتاجهم المحدود إلى درجة كبيرة على المحاولات التي يعتقدون بأنها خير ما يخدم أغراضهم الأساسية.

وتماماً كما كان ستالين يقوم بتصدير الزبدة بالطن، والحبوب بحمولة السفن، بينما ملايين الفلاحين عنده كانت تموت جوعاً، بوسع الاتحاد السوفييتي اليوم، من الناحية العلمية، أن يسحب القمصان عن أجسام عماله ليبني من الصواريخ، أكثرها وأضخمها، وبالمعنى العسكري البارد فتلك أضخم ميزة يتمتع بها، لأنها تمكن القادة السوفييت من أن ينفقوا على قدرتهم العسكرية أكثر من ضعف نسبة إجمالي الدخل القومي التي تنفقها الولايات المتحدة في هذا الخصوص، إنهم قادرون على أن يقولوا لعمالهم أين يعملون، لأي عدد من الساعات، وبأية أجرة، ولا يخشون الإضرابات.

ونتيجة لاختلاف أنظمتنا، فحشد إرادة الأمة مهمة أكثر صعوبة في الغرب، لكنها أيضاً أكثر أهمية، في الاتحاد السوفييتي الحكومة تأمر، والشعب يطيع، أما في الغرب فالشعب يتحدث بنغمة الكأكأة ويمضون في طرقهم الخاصة، الزعماء السوفييت يتحكمون بالقيادة ويتملكون بها، أما زعماء الغرب فعليهم أن يقودوا.

في أمريكا الروح موجودة، ولكن اللهم إذا وجدت الشرارة لا يقادها، وكما قال تشرشل ذات يوم: «لم نقم بالرحلة على طول الطريق عبر القرون، وعبر المحيطات، وعبر الجبال لأننا مصنوعون من قصب السكر».

أن أقوى قوة لدى أميركا في هذا الصراع العالمي هي أميركا ذاتها . شعبنا وأرضنا ونظامنا وحضارتنا وتقاليدنا وسمعتنا، والتاريخ الأمريكي حافل بسجل الأبطال القدامى: هناك مزارع فيرمونت الصخري، وعامل المنجم من بنسلفانيا، والمزارع الجنوبي اللطيف، والنفطي من

تكساس، والمقامر من لاس فيغاس، وعامل منجم الذهب من كاليفورنيا إلى آخر ما تتضمنه القائمة الطويلة، ورعاة البقر، وقطاع الطرق، والرواد والتجار، وذوو الأعناق الخشنة ولصوص الخيول، كلهم يشتركون في سمة واحدة تتردد في الغناء الفولكلوري الأمريكي وهي: الفردية، لقد كنا دائماً نشجع ونكافئ الفرد، ولقد أصبح القبول بالفوارق الفردية شعارنا وعلاقتنا المميزة.

والأميركيون شعب كريم أيضاً، ولقد أظهرنا أنفسنا بأننا راغبون في مساعدة الآخرين في أي مكان من العالم، كما قمنا بتقديم المساعدة وتشجيع التطور في باقي أنحاء العالم، لأننا كنا ملتزمين بتاريخنا الذي يفرض علينا أن نرى الخير في تعاظم مستمر، اننا نريد جيراناً مستقلين ومعتمدين على أنفسهم، وشركاء تجارة مزدهرين، وبلدان ترتبط معنا بمصلحة مشتركة تعود علينا بالفائدة جميعاً، ولهذا كان لدى الولايات المتحدة أصدقاء، وحلفاء، وكان لدى الاتحاد السوفييتي رعايا ودول دائرة بفلكه.

من الحياد الذي أعلنه جورج واشنطن في مبدأ مونرو، وخطة مارشال ينطلق الفيض الأمريكي الذي يزدري الحرب، ويسعى بدلاً عن ذلك لنشر الحرية والازدهار، إن لدينا احتراماً طبيعياً لفردية الآخرين، واهتماماً لرغد عيشهم، وهذه الغرائز تشكل الأساس لسياسة خارجية بناءة، وتحظى بالاحترام الكبير من جانب البلدان الأخرى «شريطة» أن نبدي أيضاً التصميم الذي يطلب من قوة عظمى.

وهنان إذن، وعلى وجه الدقة التامة، في عبارة «شريطة» المشار اليها اعلاه يكمن أكبر ضعف فينا، وأكبر خطر على الغرب، ولا جدال حول انه إن كان لسباق تسلح أن يحدث، فسيكون بمقدورنا الفوز به، وإن كان لسباق اقتصادي أن يحدث فسيكون بمقدورنا الفوز به، وإن كان لمبارزة من اجل نيل «قلوب وعقول» شعوب العالم أن تحدث فسيمكننا الفوز بها، لكن هناك سؤالاً باقياً وهو فيما إذا كنا قادرين على الفوز بالامتحان الذي سنعني به فعلاً، ألا وهو: اختيار الإرادة والعزيمة بيننا وبين أقوى قوة مسلحة عدوانية عرفها العالم.

وقال وليم بوكلي الصغير مرة بأنه يفضل أن يحكم من قبل الأسماء المئة الأولى في دليل هاتف بوسطن، بدلاً من أن يحكم من قبل كلية في جامعة هارفرد، وهذا ما يعكس تحليلاً ذكي التصور لنقاط القوة الأمريكية، ولنقاط ضعفها، فالناس جميعاً غالباً ينتقصون التجربة والخبرة، لكن لديهم حس عام جيد، وعندما تقضي الضرورة يستطيعون أن يشكلوا خزاناً هائلاً للشجاعة والإرادة، لكن أصبح ما تجاوز الحد اللازم هو عدد نخبة المثقفين والمفكرين الأمريكيين، الذين أظهروا أنفسهم بأنهم لامعو الذكاء، وذوو قدرات خلافة ونزويون وسذّج واعتباطيون وعميان يبصرون بعين واحدة: فهم يميلون إلى أن ينظروا ببصر شحيح إلى اليمين فقط وليس إلى اليسار، وعندما نبدو في غاية التعقيد بشأن الأفكار المجردة، ويمكن أن نصبح في غاية البساطة والسذاجة فيما يتعلق بوقائع الصراع العالمي الحقيقي نجد أنفسنا منهمكين بترديد «الحرب شر» و «السلام خير» ونفعل بالكلام كل شيء.

إن المشكلة العاجلة أمام الأمة هي أنها في الوقت الذي يخوض فيه الرجل العادي في أمريكا الحرب، تقوم النخبة المفكرة بإعداد جدول أعمالها، والقرار فيما إذا كان الغرب سيحيا أو سيموت هو اليوم بأيدي نخبة السلطة الجديدة فيه: أي أولئك الذين يحددون شروط المناقشة العامة ويديرون الرموز، ومن يقررون فيما إذا كانت الأمم أو القادة سيعرضون على، وسيظهرون على مئة مليون جهاز تلفزيوني إما «كأخيار» أو «كأشرار»، إن نخبة السلطة هذه تضع حدود الممكن لرؤساء الجمهورية والكونغرس، وهي تفرغ الانطباع الذي يحرك الأمة أو يغرقها في مستنقع موحل.

وقد خسرت أمريكا في فييتنام لأن نخبة السلطة دأبت على إظهار دييم أولاً، ثم تيو من بعده كفاسدين وديكتاتوريين، لذا فإن الحرب لا تستحق أن نخوضها . متجاهلة كم سيكون البديل أسوأ، كما أن شاه ايران والرئيس أنا ستاسيو سوموزا قد لقيا المصير ذاته، بقيام الولايات المتحدة بوضع الشحم على المزالج لاسقاطهم، وعندما كان لا يزال مندوبنا لدى الأمم المتحدة آندرو يونغ قد رشح آية الله الخميني لاحتلال مركز القديس، وأثنى على القوات الكوبية بقوله أنها توفر «الاستقرار» في أفريقيا، وقام التلفزيون بإضفاء الصفة الرومانتيكية على الثوريين، وبذلك ساهم مساهمة فعالة في إتاحة المزيد من الفرص أمام إمكانية شن الحروب الثورية المدعمة من قبل السوفييت بنجاح، كما فعلت تماماً صحيفة نيويورك تايمز بوصفها الرومانتيكي لكاسترو قبل ٢٠ سنة والذي كان قد شكل العامل الرئيسي في إعطاء الصفة الشرعية لثورته، وضمان النصر له.

وهذا المركب من المواقف ليس بأمر جديد، قال رينولدنيوبهر بأن الشيوعية أكثر خطراً على الغرب من فاشيست النازيين المجردة، لأن «روسيا تأتي إلى كل بلد تنوي أرضاخه (كمحرر) له من الاضطهاد (الفاشستي)، و (الامبريالي)...، فالمثل الأعلى المنطوي على الفساد قد يكون أكثر فعالية بخطره من التحدي الصريح للقيم المثالية جميعاً، وإن الدليل على تلك الفعالية تقدمه حقيقة أن الطابور الخامس لروسيا في العالم الغربي، لا يتألف من الخونة البؤساء الذين كانوا يشكلون (العصابة) التي تسيطر عليها النازية، وليس كذلك من مجرد مأجوري الحزب الشيوعي، بل إن بينهم الآلاف من أصحاب المثل العليا المضلَّلون والذين ما زالوا يعتقدون بأن روسيا هي القابلة القانونية لمجتمع مثالي قيد المخاض، وعلى وشك رؤية ضوء الحياة، ومهما بلغت حذاقة الشيوعية، فلن تجعل منها خطراً أكبر من خطر النازية إذا ما كان الفكر الغربي أكثر تبصراً.

وعلى الرغم من أن تعريف موسوليني للفاشيستية كان وصفاً كاملاً للشيوعية السوفييتية، إلا أن الفاشستية قد حددت كيمينية، ولذلك فهي «شر» في حين حددت الشيوعية على أنها يسارية، لذا فإن لم تكن «خيرا» فعلاً فلينظر إليها على الأقل من منظار عاطفي بأنها تدل على خيرها في حين تخفي مساوئها.

فالزراعة الجماعية السوفييتية التي فرضت في الثلاثينات كانت أبرز الشناعات التي يمكن تذكرها في تاريخ البشرية، وهي بطرق شتى نموذج لمأساة القتل الجماعي التي وقعت في كمبوديا في عصرنا، فلقد تفرق شمل عدد كبير من العائلات وذبح الفلاحون لمجرد محاولتهم الإبقاء على

خنزير أو بقرة، كما أن الملايين من الذين صودرت ممتلكاتهم القليلة قد جمعوا في عربات الأبقار وأرسلوا ليلقوا الموت في أراضي سيبيريا اليباب المتجدة، وتيتم أطفال، وشردوا عن أهليهم وأموا براري الريف هائمين على وجوههم يعانون الجوع، يفترشون الأرض، ويلتحفون السماء، فلا منازل لهم يأوون إليها، ولكن القادة ذوي الطراز الفكري في الغرب كانوا قد أخذوا برومانسية الثورة لدرجة أنهم أغلقوا عيونهم متعامين عن الجروح التي خلفتها ورأوا مجدها فقط، وهكذا وفي وسط أتون الرعب استطاع جورج برناردشو ان يدلي في مؤتمر صحفي في موسكو بقوله أنه «أكثر قناعة من أي وقت مضى» بأنه ينبغي على البلدان الرأسمالية أن «تتبنى الطرق الروسية»، وكتب كذلك في سجل تشريفات الفندق الذي كان ينزل فيه: ليس في العالم الآن بلد تحقق زيارته المتعة أكثر من روسيا السوفييتية، وأنني أعتبر السفر اليها في غاية الأمان والمسرة.... وغداً أغادر أرض الأمل هذه، وأعود إلى بلداننا الغربية بلدان اليأس».

وتعليقاً على أيامه التي قضاها كمراسل لصحيفة (مانشستر غارديان) خلال عهد ستالين أعاد مالكولم موغجيريدج مؤخراً إلى الأذهان «أن الأداء فوق العادي للطبقة المثقفة الليبرالية كان في تلك الأيام بتدفقها إلى موسكو كتدفق الحجاج الى مكة، كما كان أفرادها في غاية السرور والدهشة لما شاهدوه هناك، وكان رجال الاكليروس (الكهنة) يطوفون باطمئنان وسعادة في أرجاء المتاحف المعادية لله، وزعم السياسيون بأن ما من نظام أو مجتمع يمكنه أن يكون أقدر على تحقيق مساواة أفضل أو أن يكون أكثر عدلاً، وأعجب المحامون بالعدالة السوفييتية، كما أطرى الاقتصاديون بالمديح على الاقتصاد الروسي» ثم استطرد يقول: «هذا ما جعلني أفكر، بل وأدرك حق الإدراك الرغبة الكبرى للغرب بالموت، وأحساس. كما كان، بأن الانسان الغربي يسير وهو نائم نحو دمار نفسه».

ويقول وليم بغاف المحرر في صحيفة «نيويورك» بأن «أولئك الذين يؤمنون بالشيوعية الروسية ومضوا بحماس الى موسكو قبل نصف قرن ليشاهدوا ما أرادوا مشاهدته، وليس أكثر من ذلك، ليسوا أناس يمكن إسقاط أسمائهم من الذاكرة، لقد كان بينهم جون ريد، وبرناردشو، وأندريه جيد (لمدة من الزمن). وتيودور دريزر. وجون دوز باسوس، وجوليان هو كسلي» وفي وقت أقرب كان قد حاجج قائلاً : «بعد ان قضى ستالين، وقلت الثقة بمجتمع الاتحاد السوفييتي كمجتمع إصلاح، مثلت شيوعيتا ماوتسي تونغ وهوشي منه دور المناداة بالمثل الطيب لدى جيل جديد من أصحاب المثاليات الأمريكيين والأوروبيين»، ويقول عن اولئك :«إنهم يرون في الشخصية السياسية ومنجزات البلدان الأخرى ما يحتاجون لرؤيته .. وبالنسبة للمعجبين الأجانب كانت فييتنام والصين في معظم الأحيان هي أهم ما يمثل في أذهانهم، وبما أنهما بهما يمكن أن يظل قائماً، كما أنه يمكن الاعتقاد بعناد على أنهما مجتمعا العدالة والتعاون البشري الحار، والدعم المتبادل، والأمانة البسيطة وقول الحقيقة».

وعمى العين الواحدة المقارن الآخر موجود أيضاً فيما يتعلق بأفريقيا، وقبل سقوطه بوقت طويل كانت الأعمال الوحشية التي ارتكبها عيدي أمين في أوغندا، قد بانت على أنها خارج نطاق قدرة أي تسويغي انهزامي لكي يتظاهر بأنها كانت تمثل شيئاً سوى أشنع أعمال التنكيل والذبح على نطاق واسع، ومع كل ذلك قام بمراءاة أولئك القادة الأفارقة وانتخبوه رئيساً لمنظمة الوحدة الأفريقية، في حين لقي كيله التهجم الأخلاقي الصاعق على الغرب تجاهلهم، وطالب طلبة جامعة هارفرد بمقاطعة جمهورية جنوب أفريقيا وليس بمقاطعة أوغندا أو موزامبيق التي تسيطر عليها الشيوعية، وفي جنوب أفريقيا يسمح للسود ببعض المناطق، ويمنعون من بعض أشكال التآخي، أما في أوغندا فقد هرست رؤوس السود بالمطارق كما بترت أرجلهم وأرغموا على أكل لحوم زملائهم المساجين قبل أن يموتوا، لكن موجة الغضب الدارجة، أو موضة الغضب الرعناء موجهة ضد التمييز العنصري بين الملونين، وليس ضد العبودية.

وفي ذلك يقول الفيلسوف ايريك هوفر من لونغشورمان:

«إن إحدى امتيازات الطبقة المثقفة التي تدعو إلى الاستغراب هي حريتهم في ارتكاب الخطيئة بشكل مفضوح دون أن يسيئوا إلى سمعتهم، فالمثقفون الذين كادوا يؤلهون ستالين في الوقت الذي كان يقضي فيه على الملايين من الناس ويخمد أدنى حد لحركة الحرية. لم يفقدوا ثقة الآخرين بهم أي لم يكذبوا، وما زالوا ماضين في وضح النهار، وتحت عين الشمس جهاراً في أي موضوع، كما أنهم يلقون آذاناً صاغية باحترام، وعندما ذهب النحوي الميتافيزيقي نوام شومسكي إلى هانوي ليتعبد هناك في هيكل الديمقراطية والحقوق الانسانية، لم يكذب ولم يسكت عندما شن الشيوعيون الانسانيون كابوسهم المرعب في فييتنام الجنوبية وكمبوديا».

وليس هناك انسان أكثر عمى من ذلك الذي لن يرى . وهذا ما أصبحت عليه الحال لكثير من أبناء المؤسسة الثقافية في أمريكا خلال معظم هذا القرن، ومن دواعي الأسف كما يقول هوغ سيتون واتسون، «لا شيء يمكن أن يدافع عن مجتمع من نفسه إذا كان ١٠٠ر٠٠٠ من رجال ونساء طبقته العليا هم صانعوا القرارات والذين يساعدون على تحديد تفكير صانعي القرارات وهم المصممون على الاستسلام».

وكثير من أولئك الذين أجدر بهم أن يحسدوا على الحفاظ والدفاع عما تمثله أميركا قد شلوا. بدلاً من أن يقوموا بذلك. بشعور بالذنب في غير مكانه أدى بهم للتخلي عن الإيمان بمدنيتنا، وكما أوضح المعلق الصحفي تورمان بودهوريتز عندما قال: «إن القوى التي حالت دون كل من تعزيز قوتنا العسكرية، واعطاء الحركة لإمكاناتنا الاقتصادية تبدو وكأنها قائمة على أساس الاعتقاد المتواصل للكثيرين بأن نوع المجتمع والمدنية اللذين نملكهما لا يستحقان الحفاظ عليهما، ولا يستحقان الدفاع عنهما بالوسائل العسكرية ولا باستمرار الوسائل الاقتصادية».

وإذا كانت أميركا ستخسر الحرب العالمية الثالثة فإنما سيكون السبب في ذلك اخفاق طبقة القيادة فيها، وبوجه أخص بسبب الانتباه والصيت والشرعية الذين أعطيا «للنزويين» . أولئك الهواة الانفعاليين الذين أفرطوا بالافتتان، والذين يتاجرون بشعار آخر فكرة وهي تصعيد موضة

الاحتجاجات الدارجة، ويتفتفون عبر الأوساط الإعلامية التي أساس خلقها، فالانتباه الذي أعير لهم و«لقضاياهم» يضفي الرومانتيكية على التفاهة، ويضفي التفاهة على الجدية، كما أنه يحط من مستوى المناقشة العامة إلى درك قصاصات الكرتون، ومهما تكن آخر قضية رفعوا شعارها . سواء ضد الحرب، أو ضد القوة النووية أو ضد القوة العسكرية، أو ضد الأعمال التجارية . فإنها بلا تحديد قضية ضد مصلحة الولايات المتحدة على مسرح صراع الحرب العالمية الثالثة.

إن هؤلاء النزويين جاهزون برأيي بمجرد القاء السماعة، كما أن آراءهم تعامل على أنها أخبار . ليس لأنهم سلطات، بل لأنهم مشهورو الصيت، فعقولهم غير منفتحة للحجة، وحججهم غير منفتحة للحقيقة، كل ما في الأمر هو حبهم للظهور، والمناداة بالشعارات، وليس أكثر، ويرى البعض أن في شعاراتهم وظهورهم تآمراً، ويشكون بأن توجيههم يمكن أن يكون من موسكو، لكن هذا الظن يخطئ الهدف، فسلوكهم ذاك ليس تآمراً وإنما تطابقاً، فلو كان تآمراً لكان من الأسهل معالجته، إن النزويين جيش من السذّج يحركهم نجم الموضة ويجذبهم التصفيق، إنهم يسمون أنفسهم «ليبراليين»، لأن «الليبرالية» موضة دارجة، لكنهم فقدوا أية صلة مع الروح التقليدية لليبرالية، وكما أوضح ميكائيل نوفاك: «إن روح الليبرالية تؤمن بالطاقة الكبيرة لروح الفرد، وتؤمن باقتصاد حر وتأدب حر... فعلى الليبراليين على أن يبدأوا بتعزيز مؤسسات المجتمع المتوسطة التي هي وحدها، كائنات حية اجتماعية، تستطيع مراقبة قوة الدولة».

هناك نوعاً من قانون غيريشام ينطبق على المناقشة الهامة: وهو أن الأفكار الشريرة تطرد الأفكار الخيرة، وإن إعارة الانتباه إلى التظاهر الفارغ يوصد الباب في وجود المناقشة الجدية.

وفي عصر أقل أخطاراً يمكننا أن نطلق العنان لطفرة النزويين على خشبة مسرح المناقشة العامة، أما الآن فإن بقاءنا القومي يعتمد على أن نتعلم كيف نميز بين ما معنى له، وما لا معنى له.

إن المسائل التي تواجهنا مسائل معقدة، والإجابات عليها غير واضحة أبداً، وهذا ما يزيد، بدلاً من أن يخفف من حاجتنا إلى إعادة البحث بهدوء وعقلانية عن الطرق البديلة، وعن نتائج بديلة، كما أن ذلك يزيد من الحاجة إلى التزام بأقصى درجات الحذر والعناية كي نضمن بأن نقرر على أساس هذه الحقيقة، وليس على أساس الخيال الجامح.

والميزة المقرر لنخبة الطبقة المثقفة والإعلامية اليوم، هي أنها تسبح هائمة في بحر من الخيال الجامح، فعالم التلفزيون هو عالم خيالي بالمقام الأول، والتلفزيون هو القاسم المشترك للاتصال في عالمنا الحالي، وتجربة أميركا الموحدة، وإن هذا الأمر ينطوي على ما ينطويه من المضامين المرعبة في المستقبل.

وإن الأفكار التي تلائم اللاصقات الواقية ضد الصدمات ليست بأفكار أبداً، وإنما هي بكل بساطة مجرد وجهات نظر، وليس اتخاذ وجهات النظر بديلاً عن التحليل، ولسوء الطالع فإن التلفزيون، في أغلب الأحيان، بالنسبة للأخبار كاللاصقات الواقية ضد الصدمة بالنسبة للفلسفة وهذا له تأثيره الهدام على فهم الرأي العام لتلك القضايا التي يتوقف عليها البقاء القومي.

وخلال السنوات الأخيرة فقط كانت فكرة أن الحياة تفسّر بأنها قد أخذت تسيطر على عقول جيل من الأمريكيين تربى مدللاً متفسخاً خنوعاً، وعلى الاعتقاد بالمرور على الحياة مرور الكرام وأن أي تباين بين المجتمع الأمريكي كما هو عليه رجل الفضائل الشفافة دليل على أن المجتمع فاسد، وليس الذي يتهدد مجتمعاً ذا درجة عالية من التطور هو الإفراط في الاستهلاك الذي يؤدي إلى نضوب طاقاته، بل عزله على الإحاطة بالخطر المتشابك لوجوده الأساسي، الذي يؤدي إلى تبلد ذهنه وعدم حسه بالواقع والحقيقة، مما يجعله فريسة للبرابرة الذين يتربصون به على الأبواب بشكل دائم، ولما كان الرخاء يأتي بسهولة، يصبح من السهل الافتراض بأن الأمن يأتي بسهولة بالمقارنة أيضاً، أن «عنف الشارع» ووحشية الغابة والتهيج الذي يصيب بصورة طبيعية أولئك الذين يجعلهم وجودهم المتقلقل في حالة تأهب دائم، كلها أمور تجعلهم يتوسدون حياة الرخاء التي تصبح فيها السهولة والاحترام من المسلمّات.

ولو ترك لهم الخيار لفضّل معظم الناس أن يعبروا البحر الكاريبي على أن ينخرطوا مع الميليشيا السياسية، لذا من الحري بنا، بل هناك ما يشدنا لكي نصغي إلى صوت آمالنا بدلاً من أن نصغي إلى صوت مخاوفنا أن تكون نظرتنا إلى الطبيعة البشرية نظرة تفاؤلية مرتدين ثوب الفضيلة الأخلاقية، وقد يصبح من الأسهل والأكثر رأفة إن شجبنا أولئك المنذرين بالسوء والذين يدعون إلى وجوب استعدادنا للأسوأ، كي نحافظ على الأفضل، ويتطلب منا بذل جهد وكثير من الإرادة كي نستيقظ من سباتنا، ولندع جانباً الانقياد وراء ملفاتنا في سبيل الدفاع عن حريتنا، إن الترهل بلاء تسببه الراحة، ولهذا فإن كل مدنية في الماضي حققت استراحة كانت قد لقيت الدمار من قبل مدنية أخرى أقل منها تقدماً، ومن هنا كانت مهمتنا تتجلى في تأكدنا من ألا يحدث لنا مثل هذا الأمر.

إذا كان للغرب أن يخسر الحرب العالمية الثالثة، فإنما سيكون سبب ذلك عدم رغبته في مواجهة الحقيقة، وكذلك بسبب الاجبار على العيش في عالم الأحلام، وصهر الحوار العام بالخيالات الرومانتيكية والتصور بأن الفولاذ البارد يمكن أن يقاوم بالأخلاقيات البسيطة.

والشيء الأساسي الذي يتوجب أن نعرفه عن الانهيار الذي يصيب إرادة أميركا، هو أنه ليس اخفاق شعبها بل اخفاق قادتها، ويقول روبرت بيسبيت: «يبدو وكأننا نعيش في عصر آخر يظهر فيه (انهيار الأعصاب) جلياً، ليس في عقول الأكثرية في أمريكا بل في عقول أولئك الذين يشكلون حراساً لأبواب الأفكار، أي المثقفين»، وقد أوضح الكسندر سولزينيتسين بوصفه «انهيار الشجاعة» على أنه الصفة البارزة التي يتسم بها الغرب، حيث قال: «إن مثل هذا الانهيار للشجاعة يلاحظ بوجه خاص بين صفوف الفئات الحاكمة والنخبة المثقفة التي تسبب انطباع نقص الشجاعة لدى المجتمع بأسره» ثم يخلص سولزينيتسين إلى طرح السؤال التالي: «هل يتوجب على المرء أن يوضح بأن انهيار الشجاعة منذ أقدم الأزمان كان يعتبر بداية النهاية؟».

إن أميركا عملاق نائم، وقد آن الأوان لايقاظ ذلك العملاق لكي يحدد هدفه ويستعيد قدرته ويحيي إرادته، فلا شيء أقل من ذلك سينقذ الغرب، ومؤسسات الحرية في سائر أنحاء العالم، من البربرية التي لا تعرف الرحمة والتي تهددنا جميعاً، وكما حاجج سولز ينيتسين بقوله أيضاً: «ليست هناك أسلحة، مهما بلغت قوتها، يمكن أن تساعد الغرب حتى يتغلب على نقص قوة الإرادة، وفي حالة الوهن النفسي تصبح الأسلحة عبئاً على الجانب المستسلم».

ولم تخسر الحرب في فييتنام على أرض المعارك في فييتنام، وإنما خسرت في ردهات الكونغرس، وفي غرف مجالس إدارات الشركات، وفي الهيئات التنفيذية للمؤسسات، وفي غرف تحرير كبريات الصحف وشبكات التلفزيون، كما أنها قد خسرت في صالونات جورج تاون، وغرف رسم «الجميلين» في نيويورك وقاعات دروس الجامعات الكبرى، فالطبقة التي قدمت القيادة القوية التي جعلت النصر ممكناً في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، هي التي سببت أخفاق أميركا في معركة من المعارك الحاسمة للحرب العالمية الثالثة ألا وهي فييتنام.

لقد كان لهم أعذارهم حيث قالوا عنها بأنها كانت حرباً خاطئة في المكان الخاطئ (كما لو أن هناك أي حرب تكون حرباً صحيحة، في المكان الصحيح)، وقالوا عن تيو بأنه كان ديكتاتورياً فاسداً، وإننا بمساعدتنا لفييتنام الجنوبية إنما نتسبب بإحلال الموت والدمار، وقالوا أيضاً بأن فييتنام الجنوبية ليست مهمة ولا تستحق أن تنقذ، ومنذ ذلك الحين أخذ تدفق سيل اللاجئين الفييتناميين، والمصير المأساوي لشعب كمبوديا يعصف بضمائر الكثيرين ويمزقها، والآن أصبحوا ملزمين ولديهم الفرصة كي يعملوا عن استرداد القوة لقيادة أميركا، وبذلك يضمنون بألا تتكرر مثل تلك المآسي، وحتى على نطاق واسع.

ويجدر بالذكر أن أكبر تحول تنظيمي في طبقة القيادة في أمريكا هو تطوير قوة هائلة جديدة في أيدي الأوساط الشعبية، لكن الإخفاق الذي منيت به قيادة أمريكا تلو الاخفاق تعود أسبابه إلى أبعد من النخبة المثقفة، وأوساط الشعب، فلقد كان زعماء «الأعمال التجارية الكبرى» في يوم من الأيام حصن دعم لقوة أميركا، عندما كانوا يتمتعون باستقلال كامل، أما الآن، مع بعض الاستثناءات العجيبة، فقد أصبحوا جبناء يمتنعون عن الخوض في المياه البيروقراطية، أو مهاجمة المتحدثين باسم المستهلك، وبما أن الشركات الكبيرة قد أصبحت بيروقراطيات كبيرة، فقد أصبح زعماء الشركات أنفسهم بيروقراطيين كباراً، وهناك بضعة من كبار زعماء الأعمال التجارية يمكنني أن أصنفهم في حلقة بريجينيف البدين، فجورج ميني، أو فرانك فيتزيمونس يمكن أن يكونوا في مصافه، فعندما كشفت الأوراق، وعندما وصل مستقبل أمريكا إلى الحافة، وكنت بحاجة إلى الدعم من أجل القرارات الحقيقية الصعبة، قلما كان بوسعي الحصول عليه من رؤساء الشركات التجارية، أو رؤساء الجامعات، لقد كنت احصل عليه حقاً من زعماء اليد العاملة ومن صغار رجال الأعمال، أي من «الطبقة المتوسطة في أمريكا». فلقد كان لأبناء تلك الطبقة القلب الطيّب، والإرادة القوية، والقدرة، وهذا ما أنقذ أمريكا فيما مضى، وسينقذها مرة أخرى.

والآن بعد أن هيأت فييتنام قدراً كبيراً من المساعدة، وبعد أن أصبح الروس يقومون بشكل واضح باستخدام الجيش الأحمر ذاته لامتصاص البلدان بشكل مباشر في إمبراطوريتهم، هناك تحركات قوية، بل اهتياجات، ففي فرنسا، مثلاً، حيث قطع اليسار شوطاً بعيداً في تعاظمه في دوائر الطبقة المثقفة، يقوم أيضاً بخلق نوع من التفكير الذي هو أشد ما عليه من القسوة والواقعية في الغرب، وعليه فإنني آمل بأن يكون ثمة اتجاه في الغرب، وأن أولئك الذين يجب أن يكون دورهم الطبيعي قيادة الإرادة وتوجيهها في أمريكا، يجب أن يبادروا على الفور مرة أخرى إلى قيادة تلك الاتجاهات التي يتطلبها البقاء الوطني.

ولذلك على أمريكا أن تتمسك بحقائق القوة وتقبض عليها، وأكثر من ذلك عليها أن تقبل بالقوة وأشدد على كلمة تقبل بوجود القوة، وأن تقبل بما ينطوي عليه استخدام القوة من غموض، وذلك الغموض المتأصل أحياناً في العالم الذي يسيطر عليه الصراع، والعالم غير الكامل، لقد مضى الآن الوقت الذي كنا نستطيع فيه أن نتمهل ونتردد وننصاع إلى رفاه التلاعب الأخلاقي كعذر لنا على ابقاء قدمنا خارج المياه الموحلة، ولم يعد النقاء، في عالم اليوم، عذراً للجبن، وكل يوم يضيع في الندم على قوتنا الهجومية الاستراتيجية يزيد في ضيق خط الأمان الحالي الذي هو في غاية الخطورة.

لعل الأمة التي تساوي بين الصيت، أو بين الشهرة والحكمة ، والتي تنظر الى نجوم الرقص والممثلات السينائيات كحاملي وحيها تستحق الخسارة، ومع ذلك فما زال هناك أكثر من ذلك أمام أمريكا ، هناك المزيد من الأعمدة الفقرية والمزيد من الحس العام والمزيد من العزيمة ، اللهم إذا أوقظ الرأي العام لإِدراك الحقيقة وما هي عليه ، وينبغي ألا نخطئ التقدير بأنه: إذا ما استيقظ أبناء الشعب الأمريكي ذات يوم ليجدوا أنفسهم أمام الخيار الخطير، بين الحرب والعبودية ، فلاشك بأنهم سيحاربون ، انهم سيحاربون بالصواريخ وبالطائرات وبالسفن والدبابات ، وإنهم سيحاربون ، إذا اقتضى الأمر ، بالعصي والحجارة حتى وبأظافرهم العزلاء.

فلم يسبق للأمريكيين أن عرفوا العناء بالشكل الذي عرفه الروس، لكننا عرفناه وتغلبنا عليه، فلم تكن الحدود في يوم من الأيام حفلة راقصة ولم تكن الحربان العالميتان كومتا حطب. لقد قدم المهاجرون الذين وفدوا الى شواطئنا في أيام ما قبل الحرب من أجل وجودهم، وهكذا فقد ازدادوا قوة في سياق قدومهم وتوطنهم، صحيح أننا لم نواجه المعاناة بنفس المستوى الذي خبره الروس، لأنه لم يرتب علينا أن نفعل ذلك، لكننا قد أثبتنا مراراً وتكراراً، بأن ماترتب علينا القيام به. نستطيع القيام به، متى ما أدركنا ضرورة فعل ذلك.

وإذا كان أولئك الذين لم يعرفوا قط غياب الحرية يتباطؤون ويمشون الهوينة لإدراك كم تعني بالنسبة لهم، عندئذ يصح القول، بالقدر ذاته، بأن أولئك الذين لم يسبق لهم في عمرهم أن عاشوا بحرية قد يطلقون في تقويمهم لشدة تصميم الشعب الحر على الحفاظ عليها، وهكذا إذا ما وجد أبناء هذا الشعب أنفسهم وجهاً لوجه أمام فقدانها بصورة مفاجئة، فانهم حينئذ سيكتشفون قيمتها، وهذا، في نهاية التحليل. ما يستدعي من الكريملن التوقف عنده والتفكير فيه.

ويطلب منا في الوقت ذاته ان نعطي تلك الحقيقة الأساسية أقل مما تستحق وذلك بالأفعال التي تؤدي معناها داخل بلدنا، وعلينا، والحالة هذه أن نظهر للكريملين بأن اتجاهه نحو السيادة العسكرية لن يحقق أية فائدة ترتجي في نهاية الأمر، وبالاضافة لذلك علينا أن ندرك بأن ما نحن متورطون فيه ليس سوى الحرب، حتى وإن كان تورطنا بها بغير المعنى التقليدي الذي كانت قد حددته كتب التاريخ عندنا، وإذا لم يكن لهذه الحرب أن تتصعد الى مستوى الصدام العسكري الحقيقي. فمن المتوجب علينا خوضها بشكل فعال على المستوى غير العسكري.

والعنصر الحاسم في تطور استراتيجية من شأنها أن تؤدي بنا إلى تحقيق النصر بدون الحرب، هو قوة الإرادة. فالقدرة العسكرية والقدرة الاقتصادية ضروريتان، لكنهما لا تجديان نفعاً بدون قوة الإرادة.

ولقد قيل بأنه حيث توجد الإرادة يوجد الطريق، وكما سبق لنا وأثبتنا فيما مضى، وفي أغلب المواقف. فسيكون بمقدورنا أن نجد الطريق إذا ما استجمعنا ارادتنا.

❖ ❖ ❖

الفصل العاشر

سلطان الرئاسة

«يتوجب على الرؤساء أن يتمتعوا بالارادة من أجل السلطة، والا فلن يكونوا رؤساء ناجحين، عليهم أن يسعوا إلى القوة فيبنوها، إذا لزم الأمر، من كل قصاصة من قصاصات السلطة الرسمية، والنفوذ الشخصي الذي يستطيعون الإلقاء به، وعليهم أيضاً أن يحرسوا باستمرار أية قدرة أنجزوها ويكدسوها بحيث تكون متوفرة في المستقبل».

جميس ماك غريغور بيرننز

عندما تتوقف لتخفض صون خصم ما، تفلح عندما تخلع فكه متحديا؟

هيوغ سيدي

عندما دخلت الكونغرس للمرة الأولى قبل أكثر من ثلاثين سنة، كان ترومان في البيت الأبيض، وكان ستالين في الكريميلن، وكان ماك آرثر يحكم اليابان، أما أوروبا فكانت تئن تحت الأنقاض التي خلفتها الحرب، ومنذ ذلك الحين أتيح لي أن أشهد أمماً تتقدم وتضمحل، كما شهدت القادة يحققون النجاحات ويخفقون، وكان قد مر على أمريكا سبعة رئاسات للجمهورية، كما كانت قد واجهت أزمات كثيرة، حيث خاضت حربين، وتحاشت بضيق خوض حروب أخرى.

وبينما كنت أرقب انكشاف الاحداث العالمية عبر تلك السنين، اتضح لي بأن أكثر العوامل حسماً، من أجل قوة الغرب وتماسكه، ومن أجل فرص السلام، هي القيادة التي يظهرها رئيس جمهورية الولايات المتحدة.

فللرئيس الأمريكي سلطة هائلة في زمن الحرب، كونه قائداً أعلى للقوات المسلحة، وله أيضاً سلطة هائلة وواسعة من أجل الحيلولة دون وقوع حرب، والمحافظة على السلام، وبما أنه سبق لي وتحملت المسؤوليتين كلتيهما، أصبحت أدرك بأن المسؤولية الثانية يمكن أن تكون أكثر أهمية من الأولى، كما أن ممارستها بشكل فعال قد تكون أكثر صعوبة، لا سيما في هذا العصر عصر «حرب اسمها السلام».

فالامريكيون يفضلون أن يديروا مبارزاتهم في زمن السلم على المسرح الدولي حسب قواعد مركزية كوينزبري، أما بالنسبة للسوفييت فإن القواعد ذاتها تنطبق في زمن السلم وزمن الحرب، وتلك هي قواعد قتال الشوارع: أي أن كل شيء يصح، ولكي يواجه تحديهم ينبغي على الرئيس الأمريكي أن يستخدم كل ما في حوزته من قوة بطريقة فعالة ومسؤولة، ولا أجد بداً هنا من التأكيد على أن كلمة «مسؤولة» تتضمن المسؤولية المحددة التي يتحملها وحده من أجل ضمان بقاء الأمة، ومستقبل العالم الحر.

وهذا يتطلب من الرئيس أن يفكر على نحو واقعي، وليس بسذاجة، وأن يكون ديبلوماسياً حاذقاً، فيعرف متى يمضي إلى حضور القمة، ومتى لا يمضي، وماذا يتوجب عليه حين وصوله إلى هناك.

وينبغي عليه كذلك بالا يقدم لخصومنا أبداً شيئاً يريدونه، مالم يحصل على شيء نريده، وفي الوقت الذي يحترم في مبدأ الانفتاح الذي يبدو عملياً، عليه أن يحافظ على السرية ما اقتضت الضرورة ذلك، وان يعي بأن جمع الاستخبارات، وتسيير النشاطات السرية يسوغان من حيث منعهما لوقوع الحرب بقدر ما يسوغان من أجل شنها، وأخيراً عليه أن يقبل بواقع أن الكمال الأخلاقي في ادارة شؤون الأمم أمر لا يمكن توقعه، ويجب ألا يكون مطلباً إن الرئيس بحاجة لأن تكون لديه نظرة عالمية، وحس بالتناسب وشعور دقيق بالممكن فضلاً عن أنه بحاجة أيضاً لأن يدرك كيف تفعل القدرة فعلها، وعليه أن يتمتع بالإرادة كي يستخدمها.

إن الاستخدام الفعال للسلطة، وعلى المسرح الدولي بوجه خاص، مهارة تعلمها الخبرة فقط، بيد أنه بوسعنا أن نتعلم من خبرة الآخرين، إذ يمكننا أن نعتمد على حكمة غيرنا من البشر، ففي أوج أيام الامبراطورية الانكليزية، كانت أعين الشباب الانكليز ترنو إلى زوايا بعيدة المرامي في أطراف المعمورة، ولدى البريطانيين تقليد وطني في حكم امبراطورية مترامية الأطراف، من جزيرة صغيرة، وهذا واحد من الأسباب التي جعلتهم من البراعة الفائقة بمكان، من حيث فن الحكم، وهكذا فقد أتتهم النظرة العالمية بصورة طبيعية، وكذلك فعل التآلف مع ممارسة السلطة، ومع طرق العالم.

وفي عالم ما بعد الحرب كانت أمريكا قد تحملت مسؤوليات عالمية، ومن هنا يطلب منا أن نعد جيلنا القادم للمضي قدماً في تحملها، ويجب أن ندرك بأنه في حين أن الشعب الأمريكي هو الذي اختار الرئيس الأمريكي، إلا أن هذا الاختيار يمكن أن يحدد مستقبل الشعوب الحرة في أي مكان كان.

إن كان لي أن أرسم لوحة مؤلفة من عشرة قواعد أعلقها على الجدران الداخلية للبيت البيضوي لخلفائي كي يتبعوها خلال سنوات الخطر القادمة فستكون كالآتي:

١ . كن على استعداد دائم للتفاوض، ولا تتفاوض أبداً دون أن تكون مستعداً.

٢ . إياك أن تكون مولعاً بالقتال. وتمسك دائماً بالثبات.

٣ . تذكر دائماً بأن الموافقة على الصكوك يجب أن تتم دائماً بصورة علنية، ويتم التفاوض عليها بصورة سرية.

٤ . لا تسعى أبداً للعلنية التي قد تقضي على القدرة على تحقيق النتائج.

٥ . لا تتخلى أبداً من جانب واحد. عما يمكن استخدامه كورقة مساومة ودع خصومك يقدمون شيئاً ما لقاء كل شيء يحصلون عليه.

٦ . لا تجعل خصومك أبداً يقللون من قيمة ما قد تفعله رداً على التحدي، ولا تعلمهم مسبقاً بما قد لا تفعله.

٧ . اترك لخصومك دائماً خط عودة، ينقذ ماء وجههم.

٨ . عليك أن تميز دائماً بدقة بين الأصدقاء الذين يقدمون بعض الحقوق الإنسانية، وبين الأعداء الذين ينكرون جميع الحقوق الانسانية.

٩ . اعمل دائماً من أجل أصدقائنا على الأقل، بقدر ما يفعله خصومنا لأعدائنا.

١٠ . لا تفقد الإيمان أبداً، ففي القضية العادلة يمكن للإيمان أن يحرك الجبال، ولا جدوى في الإيمان بدون قوة، لكن القوة بدون إيمان عقيمة.

وبعد أن بينت هذه القواعد العشر، أود أن اقترح على الرئيس أيضاً أن يحتفظ في درج مكتبه، وفي ذهنه بعيداً عن مرأى الآخرين، المبدأ الحادي عشر ألا وهو: عند القول «دائماً» و «أبداً» عليك أن تبقي دائماً على تحفظ ذهني، ولا تكشف أبداً الاستثناء الوحيد، وأن تفسح المجال بشكل دائم للمناورة، إن كلمتي «دائماً» و «أبداً» تشكلان مراكز الإرشاد، ولكن في ديبلوماسية المخاطر القصوى، هناك بضعة مواقف يجب أن تكون ثابتة، ولا مجال للعدول عنها، وعلى الرئيس أن يكون دائماً على استعداد لما كان قد ظن بأنه لن يفعله أبداً.

الديبلوماسية الخاصة

إن الديبلوماسية بطبيعتها يجب أن تدار خارج مجال عدسات الكاميرا والميكرفون، إذا كان يراد لها ان تحقق النجاح، وليست الديبلوماسية مساومة بصوت أجش في بازار شرقي، بل طريقة هادئة وحاذقة للأحساس بتفاوت وتباين درجات مختلف عناصر موقف الطرف الآخر، التي يمكن التفاوض عليها، وكذلك محاولة العديد من سبل الأخذ والرد، أي بلام آخر اتباع اسلوب هات وخذ.

ويتوجب على المتفاوضين أن يكونوا قادرين على تقديم المقترحات الاختبارية، والبحث عن البدائل وجس نبض الطرف الاخر لمعرفة ردود فعله، ولن يكون بمقدورهم أن يفعلوا ذلك إلا إذا التزموا جانب السرية، والتفاوض الصادق هو السعي للوصول إلى شكل من اشكال التساهل الذي يدفع بالمصالح العامة للطرفين المتفاوضين نحو الأمام، وذلك بالاتفاق على المصالح المحددة لكل منهما، فبموجب اتفاقية كهذه يحصل كل طرف على شيء ما، ويقدم شيئاً ما أيضاً، وإن الكشف المبكر، أي في غير أوانه، لجزء من الاتفاقية . أو حتى لجزء من المقترحات الاختبارية التي يمكن الاقلاع عنها في النهاية . يمكن أن يقضي على الاتفاقية بكاملها، وهكذا فإن التزام السرية في المفاوضات من شأنها أن تدفع بالاتفاقية إلى الأمام، في حين أن الاعلام عنها، أي التطبيل والتزمير فيها، يؤدي إلى احباطها.

وغالباً ما يمكن تحقيق النتائج عن طريق الديبلوماسية الهادئة، التي لا يمكن أن تتحقق الديبلوماسية المكشوفة، وقد حدث ايضاح كلاسيكي لهذا الامر خلال مدة رئاستي الأولى عام ١٩٧٠ ، ففي خريف ذلك العام كشفت طائراتنا الاستطلاعية يو . ٢ فوق كوبا النقاب عن وجود قاعدة قيد البناء في سيينفيوغوس يمكن استخدامها لغواصات مجهزة بالصواريخ النووية، وقد جاء ذلك بمثابة خرق لاتفاقية عام ١٩٦٢ بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بشأن كوبا، وبدلاً من أن نواجه الروس مواجهة علنية بمعرفتنا بهذا الخرق، قررنا اللجوء إلى استخدام الديبلوماسية

الهادئة بحيث نمكنهم من الانسحاب دون فقدان ماء وجههم علناً، وقام هنري كيسينجر بإعلام السفير السوفييتي أناتولي دوبرينين بأننا على علم بالقاعدة التي يجري بناؤها وقال له على نحو مفهوم لا غموض فيه، بأننا نعتبر هذا لاجراء خرقاً للاتفاقية المعقودة بيننا، كما أفهم دوبرينين بأننا أبقينا الأمر على ما هو عليه من الهدوء بشكل متعمد، بحيث يستطيع السوفييت الانسحاب دون مواجهة علنية.

بعد ذلك بأسبوعين سلم دوبرينين كيسينجر مذكرة تفيد التأكيد على تفاهم عام ١٩٦٢ بشأن كوبا، وتضمنت المذكرة أيضاً بأن السوفييت لا يقومون بأي شيء من شأنه أن يشكل خرقاً لذلك التفاهم، وأظهرت استكشافات طائرات يو . ٢ بأن عمليات بناء القاعدة قد تباطأت في الموقع، وبعد تأخيرات لإنقاذ ماء الوجه توقفت أعمال البناء برمتها، وتم التخلي عن القاعدة في سيينفيوغوس، وعليه فقد فعلت استراتيجتنا فعلها، وقرر الروس الاستفادة من القدرة على المناورة التي وفرتها لهم استراتيجيتنا المنخفضة الأساس، وبنفيهم لعدم وجود أي خرق أبداً أبتعدوا وتراجعوا عن الأزمة وانقذوا ماء وجههم في الوقت ذاته فالديبلوماسية الهادئة المدعومة بأعصاب قوية ثابتة وبترسانة كانت لا تزال متفوقة قد أثبتت سيادتها، فلم نقم بفرض القضية على مسرح العلنية المفتوح، حيث لن يكون باستطاعة الروس أن ينسحبوا إلا بثمن باهظ يدفعونه من سمعتهم، وسهلنا عليهم أمر التراجع، وبذلك تحاشينا الوصول إلى شفير هاوية المواجهة، بشأن كوبا مرة أخرى.

ولقد برهنت تلك الحادثة على الحكمة التي ينطوي عليها مبدأ ليدل هارت القائل:

«إنه لمن المبادئ الأولية للاستراتيجية، إذا وجدت خصمك في موقع يكلفه ثمناً باهظاً، إذا ما أرغمته على التراجع، فعليك أن تترك له خط الرجعة . كأفضل طريقة لضعضعة مقاومته، ويجب أن ينطبق ذلك على حد سواء كمبدأ للسياسة، سيما وقت الحرب، إذ عليك أن توفر لخصمك سلماً ينزل على درجاته».

وهكذا فقد أثبتت اللمحة الجانبية المنخفضة، بأنها السّلم الذي استخدمه السوفييت.

في اجتماعاته عام ١٩٧٨ في كسب ديفيد مع الرئيس المصري أنور السادات، ورئيس الوزراء الإسرائيلي ميناحيم بيغن أوضح الرئيس كارتر بصورة دراماتيكية، فيما أوضحه، فوائد التفاوض في جوٍ خالٍ من عويل وهراء كلاب الصحافة، وأثبتت اجتماعاته المغلقة مع السادات وبيغن، بأنها كانت في غاية الأهمية من حيث تذليلها للعقبات، وتعبيدها للطريق أمام اتفاق السلام المصري الإسرائيلي.

وهناك، بالطبع، أوقات يصبح الإعلان للملأ فيها تكتيكاً مجدياً من أجل دفع عجلة المفاوضات نحو الأمام، ولتجميع الدعم وفرض الضغط على الطرف الآخر، أو لمواجهة دعاية العدو، فقد حدث أن أعلنت جهاراً في كانون الثاني من عام ١٩٧٢ بأن هنري كيسينجر يقوم منذ ما يقرب من عامين بالسفر بشكل دوري وسري إلى باريس، لإجراء مفاوضات هناك مع ممثلين عن فييتنام

الشمالية، وكشفت النقاب أيضاً عن مقترحات كنا قد قمنا بها بصورة سرية، وكانت فييتنام الشمالية قد أستغلت سرية تلك المفاوضات على نحو من الوقاحة، فقد وجهت إلينا تهمة التعنت في حين كنا قد قطعنا شوطاً بعيداً في التقدم بمقترحات السلام، كما أن الفييتناميين الشماليين قد خلقوا العراقيل في وجهنا لإعاقة جهودنا، وفي هذه الحالة التي انكشفت فيها آمال فييتنام الشمالية في النيل من إرادة أمريكا، وإثباط عزيمتها بانحائها باللائمة علينا على عدم تحقيق التقدم، وإثارة مشاعر العداء للحرب، أصبح لا بد لنا حيال ذلك من أن نقوم بكشف السجل للرأي العام، وكما قلت يومئذ: «تماماً كما أن المفاوضات السرية يمكن أن تكسر احياناً طوق الرأي العام، فإن كشفها للرأي العام يمكن أن يساعد على كسر طوق السر» وحتى في حالة كهذه إذا اعتبر كشف الأمر للرأي العام تكتيكاً، من الأفضل أن تواصل المفاوضات ذاتها بصورة سرية.

ويوضح الديبلوماسي البريطاني السير هارولد نيكولسون قضية الديبلوماسية الخاصة، أي السرية، بشكل كامل في كتابه «الديبلوماسية» حيث جاء قوله: في حين يجب أن يعلن عن السياسة الخارجية، وجعلها عرضة لأقرب تمحّص من قبل الرأي العام، فإن المفاوضات اللازمة لتنفيذ تلك السياسة يجب أن تبقى سرية، وإلا فإن السياسة ذاتها ستمنى بالخراب، وفي تعليقه على السرية التي التزم بها وودرو ويلسون أثناء المفاوضات على معاهدة فرساي، مضى نيكولسون إلى القول حتى أن: «أعلى رسل الديبلوماسية المفتوحة، وجد، من الناحية العملية، بأن التفاوض المفتوح غير عملي برمته»، ثم استطرد قائلاً بأن نيلسون قد أخفق في «التكهن بأن هناك كل الاختلاف في العالم بين (الصكوك المفتوحة)، وما يتوصل إليه بشكل مفتوح . أي بين السياسة والتفاوض».

الورقة القاضية

تتطلب الديبلوماسية غالباً توازناً دقيقاً ومعقداً بين الغموض، والحديث المستقيم، وبين ما لا يتكهن به، وما هو قابل جداً للتكهن به، فهناك لعبة معقدة تجري بين خصمين، وهي لعبة تتضمن، أو يجب أن تتضمن أقل قدر من التحرز من الجانب الأمريكي، وأكبر قدر ممكن من التحرز من جانب الطرف الآخر.

وفي هذا الصدد يمكن القول بأن العلاقات الدولية، هي لعبة تشبه لعبة البوكر إلى حد كبير، حيث يمكن كسبها بالورقة الرابحة الأقوى التي هي أهم ما في اللعبة، لأن خصمك . أي الزعيم السوفييتي على سبيل المثال . بدونها يكون على معرفة كاملة فيما إذا كان سيتغلب عليك أم لا، وإذا عرف بأنه سيكسب فسيقدم على مبارزتك، أما إذا علم بأنه لن يكسب فسيطوي أوراقه وينسحب من اللعبة.

إن الولايات المتحدة مجتمع مفتوح، وجميع أوراقنا مكشوفة على الطاولة، سوى ورقة واحدة، وورقتنا الوحيدة المغطاة، هي إرادة وأعصاب الرئيس الأمريكي، وانعدام القدرة على الحكم المسبق عليه، أي قدرته على حمل العدو على أن يفكر مرتين قبل القيام بإعلان المواجهة، وإذا ما كشفنا هذه الورقة لن يبقى في الأمر مبارزة، وعلينا بالطبع أن نتمتع بفن في كشف الأوراق، ولكن علينا

في الوقت ذاته أن نجعل الروس يفكرون بأن ورقتنا الرابحة ورقة على قدر بالغ من الأهمية في الحقيقة، فالروس سادة متفوقون في فن اخفاء ورقتهم الرابحة، أي أنهم سادة في المفاجأة، وفي أغلب الأحيان، إن لم نقل دائماً وأبداً، تظل المفاجأة ورقتهم الرابحة.

ومع كل ذلك فليس بوسعنا البتة أن نطلق هذا الحكم بشكل مؤكد، لذا يجدر بنا أن نلتزم جانب الحيطة والحذر في تفاوضات معهم، أو مع وكلائهم، ولكي نضع أنفسنا على قدم المساواة معهم يجب أن تكون أوراقنا «المكشوفة» بقوة أوراقهم، وورقتنا «المستورة». أي الرئيس الأمريكي. يجب أن يكون غامضاً في كل شاردة وواردة، كرؤسائهم.

هناك العديد من الأمثلة، التي وقعت خلال السنوات الأخيرة، التي توضح خطر كشف جميع الأوراق، وكذلك مدى فائدة الإبقاء على ورقة واحدة مستوردة.

في عام ١٩٥٠ كانت الولايات المتحدة تتمتع بتفوق نووي كاسح، لكن وزير خارجيتها آنذاك دين أشيسون كان قد أعلن عن النظرة الأمريكية للمصالح الدولية الحيوية، مستثنياً كوريا الجنوبية، لذلك اعتقد الشيوعيون في كوريا الشمالية بأن نوايانا قد كشفت، وأنها لا تشتمل على الدفاع عن كوريا الجنوبية، وهكذا فقد قاموا بشن هجومهم واثقين من الدعم من كل من السوفييت والصينيين، وكان ذلك بمثابة خطأ في الحساب قد ارتكبوه، قائم على أساس اعتقادهم بأننا قد أسأنا التقدير، فلو أن إعلان أشيسون قد ترك أي مجال للشك في أذهان الشيوعيين، لكان بالإمكان تفادي وقوع حرب كوريا الجنوبية.

وأثناء سير الحرب كشف ترومان مرة أخرى ورقه بإعلانه عن تمنعه عن استخدام أسلحة نووية تكتيكية كانت أم استراتيجية في العمليات الحربية، وهكذا فقد كشف الكوريون الشماليون والسوفييت والصينيون مرة أخرى ما في أيدينا من أوراق، وشعروا بالراحة من أجل مواصلة الحرب على المستوى التقليدي، ولم تصبح الورقة سراً بشكل فعلي إلا بعد تولي إيزنهاور زمام السلطة، حيث أنه كان قائداً عسكرياً قوياً، ومشهوداً له، وكان لديهم كل الحق في أن يتساءلوا حول نواياه، ولم يقدم لهم أيزنهاور أي سبب للاعتقاد بأنه قد لا يستخدم تفوقنا الاستراتيجي، وعلى العكس من ذلك فقد أصدر وزير خارجيته جون فوستر دالاس تلميحات قوية، عن طريق الأوساط الدبلوماسية، بأنه قد يفعل ذلك، ومع ابقاء المسألة غامضة، بدأ الشيوعيون بالتفاوض الجدي وتوقفت الحرب على الفور.

وعندما تحركت القوات الفرنسية البريطانية إلى مصر، يوم بلغت أزمة السويس ذروتها، اقترح رئيس الوزراء السوفييتي نيكولاي بولغانين على الرئيس إيزنهاور، أن يقوم السوفييت والأمريكيون بإرسال قوات عسكرية مشتركة من جانبيهما للعمل على وقف القتال في مصر، وهو اقتراح سارع البيت الأبيض لوصفه على أنه غير مقبول، ومع تزايد حدة القتال بدا بأن السوفييت قد يقومون بعمل ما من جانب واحد، أي من جانبهم، لذلك أصدر إيزنهاور أوامره إلى رؤساء الأركان المشتركة بوضع الوحدات العسكرية الأمريكية في حالة تأهب، وحتى بعد إعلان توقف إطلاق النار واصل

السوفييت تهديدهم بإرسال «متطوعين» إلى مصر، وفي حين جاء رد إيزنهاور بلغة ديبلوماسية، خوّل قائد قوات حلف ناتو أن يكون فظاً في رده، حيث قال بأن المعسكر الشيوعي سيلقى الدمار في حال قيامه بالهجوم، وقد جاء في مذكرات إيزنهاور قوله: إن القضاء على المعسكر الشيوعي كان مؤكداً، تماماً كما يعقب النهار الليل، وهكذا فقد أثبتت التهديدات السوفييتية بأنها لا تعدو عن كونها كلاماً، وليس أكثر، ومهما يكن من أمر فقد كان من الواضح بأن إيزنهاور كان محط ثقة، ويجب تصديقه لكونه قائداً عسكرياً قوياً، فضلاً عن توفر التفوق النووي الشامل، مما شكل دوراً حاسماً لردع التدخل السوفييتي.

وبعد عامين من أزمة السويس، أي في ١٩٥٨، عندما واجهت الولايات المتحدة تهيدات الشيوعيين الصينيين بالاستيلاء على جزر كيوموي، وماتسو، التي يسيطر عليها الوطنيون، أوضح لي أيزنهاور نظرته لمفهوم الورقة الرابحة، وتعقيباً على خبرته كقائد عسكري، فقد قال لي: «يتعين عليك بألا تجعل العدو أبداً يعرف ماذا ستفعل، لكن الأهم من ذلك هو ألا تجعل العدو يعرف بتاتاً ماذا لن تفعله»، وإذا ما شعر الخصم بأنه من المتعذر الحكم عليك مسبقاً، أو التكهن بما قد تفعل، فإنه سيمتنع عن الضغط عليك بما يزيد عن الحد، وهكذا تزداد الأوراق التي يطويها، والرئيس الذي لا يمكن التكهن بما سيفعل يكسب يداً أخرى، وبالمقابل فإن التصريحات التي تبدو لتستبعد استخدام القوة، في الوقت الذي يمكن أن يقصد بها عدم الإثارة، من شأنها أن تحرض الخصم على المطالبة بالمزيد حتى ولو كنت قوياً، فمن سوء الاستراتيجية بمكان أن تظهر بمظهر الضعف، فقد يؤدي هذا الأمر إلى خطأ في الحساب من جانب خصمك، مما يترتب عليه الكثير من المخاطر، وقد أدى اجتماع قمة ڤيينا بين خروتشوف وكندي إلى مثل هذا الخطأ في الحساب عام ١٩٦١، ولعل كندي كان واثقاً من قوته، لكنه لم يظهر تلك الثقة لخروتشوف، وقد كتب جميس رستون منذئذ يقول: «لقد مضى كندي إلى هناك بعد الخطأ الجسيم الذي ارتكبه في خليج الخنازير، واستذِّل من قبل خروتشوف الذي استخف به» ويستطرد رستون في قوله: «اجتمعت لمدة ساعة على انفراد مع الرئيس كندي، وذلك مباشرة بعد اجتماعه الأخير مع خروتشوف في ڤيينا في ذلك الحين، وقال لي كندي بأن خروتشوف قد افترض بأن أي رئيس أمريكي يقدم على غزو كوبا بدون استعداد كاف، رئيس ينتقص للخبرة، وأي رئيس يومها لا يستخدم القوة من أجل تنفيذ الغزو، فسيكون رئيساً ضعيفاً، وقد اعترف كندي بمنطق خروتشوف حول الأمرين».

وطلب خروتشوف يدي كندي فيما بعد، بوضع الصواريخ في كوبا، ونجمت عن ذلك لهجة شديدة لحدوث مواجهة نووية خطيرة، وهذا ما كان بالإمكان تفاديه، لو كان سلوك كندي في ڤيينا قد ولد انطباعاً قوياً لدى خروتشوف عن القوة والتصميم.

وفي عام ١٩٧٣ عندما كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي متقاربتين من حيث المقدرة النووية، طالب بريجينيف بأن تنضم الولايات المتحدة إلى الاتحاد السوفييتي بإرسال قوات إلى الشرق الأوسط أثناء الحرب العربية الإسرائيلية، وقد كان من شأن ذلك أن يؤدي إلى خلق وضع في

غاية القابلية للتفجّر، وهدد بريجينيف قائلاً بأننا إذا لم نوافق على المشاركة في ذلك الإجراء، فسيقوم بإرسال القوات السوفييتية من جانب واحد فقط، لكنه ما لبث أن تراجع عندما أصدرنا الأوامر بالتأهب العسكري.

وكان من الجائز بألا يكون لذلك التأهب تأثيره، لو لم يستنتج بريجينيف من محادثاته معي. التي كانت قد جرت في شهر حزيران من ذلك العام، وكذلك من الإجراءات القوية التي كنا قد قمنا بها لحماية مصالحنا في فييتنام عام ١٩٧٢، بأنني قد أؤيد أقوالي بالأفعال الحقيقية، ولذلك لم يرغب بالقيام بتلك المغامرة.

أما في عام ١٩٧٩ فإن ردة فعل إدارة الرئيس كارتر الخفيفة نسبياً إزاء التحركات السوفييتية السابقة، يمكن أن تكون قد دفعت إلى حد بعيد بيريجينيف للاستنتاج بأن بوسعه أن يرسل الجيش الأحمر إلى أفغانستان، دون إثارة الولايات المتحدة على القيام بالرد القوي.

وليست التصريحات العلنية بأننا لن نسمح للروس بردنا على أعقابنا فعالة، لأن الروس يعتبرون ذلك كلاماً من قبيل التبجح، وذلك في المقام الأول، لأنهم منهمكون في هذا النوع من الصراخ والتهويل، لذا يجب أن تكون لديهم على الدوام مسائل جدية حول ما سيفعله الرئيس الأمريكي، فيجب على سبيل المثال، ألا نصرح أبداً بأننا لن نشن الضربة الوقائية الأولى، وسواء لجأنا إلى ذلك الخيار في أي يوم من الأيام، أم لم نلجأ له، علينا أن نترك باب إمكانية قيامنا بذلك في الظروف القصوى مفتوحاً.

فالإرادة المعلنة، والأعصاب، وعدم معرفة نية الرئيس، تصبح عوامل أكثر أهمية في الوقت الذي يتحرك فيه الاتحاد السوفييتي من موقع أضعف إلى موقع التفوق في مجال الأسلحة النووية، وإذا ما خشي السوفييت من إمكانية قيام الرئيس الأمريكي برد فعل قوي سيكونون أقل احتمالاً للقيام بوضعه على محك التجربة، وإذا خلصوا إلى الاستنتاج بأنهم يستطيعون التكهن بما سيكون رده، وأن رده سيكون ضعيفاً فسيجسون نبضه ويختبرونه، وعندئذ إذا صح استنتاجهم فسيربحون، أما إذا تبين بأنهم على خطأ فسيكونون قد ارتكبوا خطأ في الحساب من شأنه أن يؤدي إلى حرب تقليدية شاملة، أو حتى نووية، وإن الدروس التي يقدمها التاريخ، هي أن الحروب في أغلب الأحيان تنجم بسبب هذا النوع من الخطأ في الحساب.

استخدام السرية

السرية زاوية حادة، لا بد منها في إدارة العلاقات الدولية، سواء في التعامل مع الصديق . أم مع الخصم، فبدون الكتمان . وضمان الكتمان . يظل الأمر ضعيفاً في تحقيق أي شيء كان.

والحرية التي يشعر بها القائد من أجل تبادل المعلومات، والأفكار بصورة فرديةمع حلفائه تتناسب طرداً مع إيمانه بقدرتهم على إبقاء ما يقوله لهم سرياً، فالرؤساء الأمريكيون بصورة عامة لديهم بصورة استثنائية علاقات مفتوحة مع نظرائهم البريطانيين، ومن أسباب ذلك هو أن البريطانيين يحفظون السر، ومحط ثقة، فلم يحدث لي أن عرفت بأية مناسبة، أن المحادثات التي

أجريتها مع الزعماء البريطانيين قد تسربت أبداً، والشيء ذاته يصح على عدد من حلفائنا الآخرين، لكن ذلك ولسوء الحظ لم ينطبق على جميع حلفائنا، حتى ولو انطبق ذلك على المباحثات الشخصية بين رؤساء الحكومات، لكن لم ينطبق على المحادثات التي كانت تتم على مستويات أخرى.

ولقد أتيح لي أن أجري محادثات فردية مع الجنرال ديغول عندما كان رئيساً للجمهورية في فرنسا، ولكن عندما كنا لوحدنا بوجود المترجم فقط، حتى أن الأمر كان في غاية الأهمية ويعتمد على من يكون المترجم ذاته، فقد كان ديغول يتحدث بمنتهى الحرية بحضور مترجمه الشخصي، ولكن ليس بحضور مترجم من وزارة خارجيتنا، إذا كان لا يعرفه، وعلى أية حال عندما أحضرت صديقي القديم الجنرال فيرنون ج. وولتز، الذي كان ليس واحداً من أمهر المترجمين في العالم فحسب، بل كان معروفاً شخصياً وموثوقاً من قبل الجنرال ديغول، سر ديغول وتحدث مرة أخرى بحرية.

وحيث لم نكن نشعر بحرية المشاركة في بنود المعلومات البالغة الأهمية مع حلفائنا، فإن الأذى الذي كان يلحق بالعلاقات فيما بيننا أحياناً كان يبلغ حداً كبيراً، وكان يحدث ذلك فعلاً، حيث كان الخوف من تسرب المعلومات غير مباشر، عندما لم يكن بمقدورنا أن نخبر طرفاً دون أن نخبر الطرف الآخر.

وجاء الإعلان في ١٥ تموز عام ١٩٧١ عن زيارتي المزمعة إلى الصين مذهلاً لليابان حيث وصف «بصدمة نيكسون». فقد اعتقد اليابانيون، وهم على حق في اعتقادهم، بأنهم كحليفنا الرئيسي في آسيا، كان يفترض أن يكونوا على الأقل على علم بهذا التحول الهائل في السياسة، فقد كان من المفروض أن يعلموا، ولو كنا في عالم تسوده المثالية لكانوا قد أعلموا بذلك، ولكن لو تسربت كلمة واحدة عن ذلك التحرك، لكانت قد قضت على المبادرة التي اتخذناها إزاء الصين في مهدها، لذلك لم نتمكن من إعلام أي حليف، قد يسر بها، ولو كنا قد أعلمنا حليفاً دون أن نعلم الآخرين وانفضح أمر ذلك تباعاً، لكان لذلك أشد الأثر مرارة، ولشعرنا بالندم.

إن باستطاعتنا تقاسم المعلومات ذات الجانب الحساس المعين مع الحلفاء فقط، عندما نثق بأنهم لن يسربوها، وبالمقابل فباستطاعتهم أن يقاسمونا المعلومات فقط، عندما يثقون بأننا لن نسربها.

إن للسرية أهميتها الخاصة في التعامل مع زعماء البلدان الشيوعية، لأنهم نتاج نظام يقوم السرية حق قيمتها ولهذا استطعت التحدث بصورة فردية مع الصينيين . لأنهم لا يسربون شيئاً أبداً، ولأنهم بالقياس نفسه يتوقعون منا أن نحفظ الأسرار، وإذا ما أخفقنا في فعل ذلك، فإن فرص التفاوض معهم بأية طريقة مجدية ستتضاءل بصورة كبيرة، وقد تزول تماماً.

ومما يؤسف له، ولسوء طالع الأمة فقد خلقت تصدعات الأمن وضعاً خاصاً في غاية الصعوبة إبان فترة إدارتي، وأكبر حدث دراماتيكي كان قد وقع خلال شهر حزيران عام ١٩٧١ عندما أعلنت

للملأ فجأة ما سميت بأوراق البنتاغون، وهي عبارة عن /٧٠٠٠/ صفحة من الوثائق المصنّفة المتعلقة بحرب فييتنام، بما في ذلك بعض المعلومات التي كانت لا تزال من الأهمية والحساسية بمكان، ليس للولايات المتحدة فقط، وإنما للعديد من حلفائنا أيضاً، وقد كانت تلك الوثائق قد سرّبت إلى صحيفة نيويورك تايمز قبل ذلك الحين بعدة أشهر، وقد أحاطت الصحيفة المذكورة قضية حصولها على الوثائق بأقصى درجات السرية إلى أن استعدت لتلقي بها علينا، حتى بدون إشعار مسبق، ولو للحظة واحدة، ودون أن تعطي الفرصة لرسمي واحد مسؤول ليقرأها، أو على الأقل ليقوم بنصح الصحيفة، والتنويه إليها، عما يمكن أن تنطوي عليه بعض أجزاء تلك الوثائق من حساسية وأهمية، فمن جانبي أنا شخصياً، كنت دائماً أكن الاحترام البالغ لصحيفة نيويورك تايمز، واعتبرها واحدة من ألطف الصحف في العالم، وما زلت حتى الآن، لكنني اعتبرت إجراءها ذاك بمثابة واحد من أتفه اجراءات المسؤولية الصحفية سبق لي أن شهدته خلال ربع قرن من الزمن قضيته في الخدمة في الحياة العامة، وقد أبدى مخالفته في الرأي لقضية أوراق البنتاغون كبير القضاة وارنر بيرغر، معلقاً على تقصير صحيفة نيويورك تايمز في استشارتها للحكومة بشأن تلك الأوراق حيث كتب يقول:

«قلما يسعني الاعتقاد، ولا يمكنني أن أصدق بأن الصحيفة التي كانت منذ زمن طويل تعتبر مؤسسة كبيرة في حياة الأمريكيين، تقصر في أداء واحد من الواجبات الأساسية والبسيطة، حتى للمواطن فيما يتعلق باكتشاف أو حيازة ممتلكات مسروقة، أو وثائق حكومية سرية... فهذا الواجب يلقى على عاتق سائق التكسي ورجال العدل وصحيفة نيويورك تايمز».

وبعد شهر من تلك الحادثة، في ٢٣ تموز، في الصباح قبل تحضير الافتتاح الرسمي لمحادثات سالت في هيلسنكي نشرت صحيفة نيويورك تايمز على صحيفتها الأولى قصة فصلت فيها، ما زعم بأنه موقفنا المتراجع.

وقد وقعت هذه الأحداث تماماً بينما كان كيسنجر يقوم برحلته السرية الأولى إلى بكين، وفي الوقت الذي كانت مباحثات سالت في طور البداية والحرب في فييتنام قد وصلت إلى مفصل حرج، وبحلول فصل الخريف أفادت تقارير وكالة الاستخبارات المركزية (سي. آي. ايه) بأننا قد أصبحنا في خضم فوضى التسرب الذي وصل إلى أعلى درجة يصل إليها خلال عشرين سنة تقريباً، منذ عام ١٩٥٣، فمحاولة إدارة العلاقات الدولية وسط مثل هذا الجو، ناهيك كثيراً عن الحديث عن وضع حجر الأساس لبنية السلام الدائم، كانت بمثابة كابوس يهدد باستحالة فعل ذلك.

وعندما قمت برحلتي الأولى للصين عام ١٩٧٢ أبدى الزعماء الصينيون اهتمامهم بشكل خاص حول إمكانية تسرب المعلومات، وفي شهر كانون الأول لعام ١٩٧١، إبان الحرب بين الهند والباكستان، كان المعلق الصحفي جاك أندرسون قد نشر حرفياً مقتطفات من محادثات جرت على مستوى رفيع فيما يتعلق بالسياسة إزاء تلك الحرب، ومشيراً إلى التسرب الذي وصل إلى أندرسون، علق رئيس الوزراء الصيني زهاو إينلاي قائلاً لي: «إن سجلات ثلاث من اجتماعاتكم قد نشرت علناً،

وذلك بسبب دعوة مختلف أنواع الناس إليها»، وقد أشار إلى الرئيس الصيني بشكل مؤدب مقترحاً بأنه لا يود أن يرى نصوص محادثاتنا. وهي تعاني من المصير ذاته، ولم يكن ذلك أمراً مستبعد الوقوع، ففي سياق تتبعنا وبحثنا في قضية تسرب المعلومات إلى أندرسون، تبين لنا بأن واحداً من محاضر جلسات المحادثات التي أجراها كيسنجر مع زهاو، خلال رحلته السرية الأولى إلى بكين، قد نسخ وأوصل لأناس آخرين، لكنهم ولحسن الحظ لم يقوموا بنشره أو الإعلان عنه، غير أن الخطر ظل قائماً، وقد احسست بوضوح بأنه ما لم يتأكد للصينين بأن محادثاتنا ستظل طي الكتمان، فإنهم سيلزمون جانب التردد حول الكشف عن مدى رغبتهم في المضي للوصول إلى تسوية معنا، وقد أكدت لزهاو بما أن مصير بلدينا . وربما مصير العالم . معني بالأمر، فسيكون بمقدورنا أن نتحدث بمنتهى الثقة الكاملة وعندئذ فقط استطعنا أن نحقق تقدماً في مفاوضاتنا.

وإذا ما نظرت إلى الأحداث الماضية، فإنني أجد نفسي متأكداً بأن أنفتاحنا على الصين عام ١٩٧٢، وتطور علاقتنا بها منذ ذلك الحين، ما كان له أن يتحقق ما لم تكن هناك سرية مطلقة، في كل من إعداد الرحلة إلى بكين وإجراء المحادثات هناك.

فالبلد غير القادر على حماية أسراره الذاتية الحيوية، لن يكون بكل تأكيد محط ثقة، كما أنه لم يؤمن على المعلومات الحساسة لبلد آخر، وكما أوضح كورد ماير عندما قال: «حتى أن أكثر الحلفاء صداقة يجب أن يتردد في التعاون مع الولايات المتحدة، إذا كان يخشى من عرض مصادرها»، وهكذا فإن التحالف الغربي يميل نحو الضعف، ولن يكون حيال ذلك خاسر أكثر من الولايات المتحدة ذاتها.

لقد أصبحت «حرية المعلومات» بقرة مقدّسة، أما السرية فأصبحت تعتبر عانساً وخطأ، ومع ذلك فإن الحس العام يجب أن يعلمنا بأن العلنية التي تؤدي إلى نتائج سيئة، ليست هي نفسها سيئة بالضرورة، اننا بحاجة إلى المزيد من العقوبات القانونية، لكي نحد من الافصاح المضر، وأهم من ذلك أيضاً يجب علينا أن نتوقف عن أن نجعل أبطالاً وطنيين من أولئك الذين يقومون بإفشاء غير قانوني لمعلومات سرية للغاية، إن رؤساءنا يريدون العلانية، لكنهم قبل كل شيء يريدون تحقيق النتائج، وعلينا أن نهلل لهم، بدلاً من أن نكيل إليهم التهم، عندما يقاومون المطالب الجشعة لأوساط الشعب، وذلك لكي يقوموا بتأدية المهمة التي انتخبوا من أجلها.

الفنون السوداء

يمكن لأنواع ونوعية معلومات الاستخبارات المتوفرة للرئيس أن تكون ذات دور حاسم في نجاح أو اخفاق دوره كزعيم للعالم، كذلك يمكن أن يكون توفر الوسائل بدون حرب من أجل عرض القوة الأمريكية، أو دفع المصالح الأمريكية إلى الأمام، في أوضاع متقلقلة، وتنذر بالخطر. وهذا يعني في الغالب استخدام الأعمال المستورة.

لقد كان هناك على الدوام التباس قوي في المواقف الأمريكية من الاستخبارات، فعندما لا يشعر الأمريكيون بأنهم مهدّدون يميلون لاعتبار مثل هذه النشاطات غير أخلاقية، وليست من شيم

الأمريكيين، أما عندما يشعرون بالتهديد فيسارعون للتساؤل حول عدم وجود أجهزة استخبارات أفضل لدينا، فخلال جميع الحروب كنا قد بنينا أجهزة استخبارات ممتازة، قدمت أجل الخدمات، وكنا نقوم بتعريتها وإزدرائها فور انتهاء الحرب، ويتحتم اليوم على زعمائنا أن يقوموا باتخاذ قرارات فورية تقريباً، وغالباً بشأن المسائل البالغة الخطورة، فإذا لم يكن لديهم تنبيه بالأخطار المحدقة، سيكون من غير المحتمل أن يتخذوا قرارات سليمة.

فالتجسس والعمليات المستورة قديمة قدم الجنس البشري، وكلاهما قد وجدا جنباً إلى جنب مع نظام القانون الدولي، طالما وجد هناك نظام للقانون الدولي، وجميع الدول، مع إمكانية استثناء بعض الدول الصغيرة في عصرنا الحديث، قد اهتمت بهما، وعنيت بهما، والولايات المتحدة وحدها التي تبنت المبدأ الفضولي القائل بتنفيذها بشكل علني، ففي بريطانيا العظمى، حيث رأت الديمقراطية الحديثة الحياة للمرة الأولى، حتى أن مجرد نشر اسم رئيس الاستخبارات يمكن أن يؤدي إلى زج المواطن في السجن، والإجراءات التي يلح الأمريكيون على حمايتها في ظل راية حرية الكلام يمكن أن تتسبب في بعض البلدان الديمقراطية كالسويد وسويسرا . وكلتاهما لا تتحملان مسؤوليات العالم التي تتحملها الولايات المتحدة . في السجن لمدة طويلة.

وتبدو في بلدنا وكأننا قد طورنا ديمقراطية غريبة، لدرجة أصبح معها من واجب الحكومة أن تحافظ على أسرارها، ومن الواجب المقدس على الصحافة أن تقوم بإفشائها، بالنسبة للمستقبل يتعين علينا أن نوجد تسوية بين حرية الصحافة، ومتطلبات البقاء القومي في عالم يكتنفه التهديد، ويعمه الاضطراب . بطريقة تسرع في الحفاظ على بقائها.

وقد ينطوي إخفاق الاستخبارات على كوارث، ففي الستينات، وأوائل السبعينات على مدى أحد عشرة سنة متعاقبة، كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد قدرت عدد الصواريخ التي قد يضعها الروس قيد الاستخدام بأقل مما هو عليه في حقيقة الأمر، وقللت أيضاً «السي. آي. ايه» من إجمالي المساعي السوفييتية فيما يتعلق بالبرنامج الاستراتيجي وأهدافه، وفي عام ١٩٧٦ جاءت تقديرات الوكالة المذكورة (سي. آي. ايه) للنفقات العسكرية السوفييتية للمدة بين ١٩٧٠. ١٩٧٥ لتتضاعف بين عشية وضحاها، بسبب اكتشاف أخطاء، والعمل على تصحيحها، وخلال المرحلة الحرجة لمنتصف الستينات، عندما قرر مكنمارا تقليص البرامج النووية من جانب الولايات المتحدة وحدها، تحرّك الروس تحركاً شاملاً بغية مجاراتنا، وفي بداية السبعينات عندما كانت الخطوات الثابتة الأولى نحو الحد من التسلح قد اتخذت كان الرؤساء الأمريكيون يزودون من قبل «السي. آي. ايه» بأرقام عن النفقات العسكرية السوفييتية، بلغت فقط نصف ما كانت عليه تلك النفقات حسبما قررت الوكالة ذاتها فيما بعد، وهكذا فالفضل من ناحية يعود إلى تلك الاستخبارات العمياء إن كنا سنجد أنفسنا ننظر من أعلى إلى أسفل في البرميل النووي في منتصف الثمانينات.

والسؤال الحقيقي المطروح أمام الشعب الأمريكي هو الآتي: ترى هل سيكون باستطاعتنا أن نقف كعملاق أعمى أصم، خلال العشرين سنة الأخيرة من هذا القرن، حتى يأتي يوم نجد أنفسنا

فيه أمام الخيار بين الاستسلام، أو الدمار الشامل؟ فإذا كنا ننتقص للاستخبارات المناسبة، سنكون «كالأطرش في الزفة» على حد قول قائد البحرية السابق الجنرال دافيد م. شوب، أي سنكون صماً بكماً عمياناً لا نفقه شيئاً.

هناك في الحقيقة فرق شاسع بين كمية ونوعية المعلومات المتوفرة من المجتمع السوفييتي المغلق، ومن مجتمعنا المفتوح، فالميزانية العسكرية السوفييتية تعلن برقم واحد وثمانية كلمات. والسوفييت لا يكشفون النقاب عن أي شيء يتعلق بمناقشة تلك الميزانية، فلو نشروا فقط ما يعادل تقرير وزارتنا المذكورة، سيكون بوسعنا معرفة الكثير والمزيد عما نعرفه عن البرامج العسكرية السوفييتية، وفضلاً عن ذلك فإن المناقشات التي تجري في الكونغرس تضاعف مراراً عديدة من كمية المعلومات المفيدة التي نقدمها للسوفييت مجاناً، فهي لا تعالج فقط مدى المعارضة لبعض البرامج المعينة للأسلحة، وإنما طبيعة التغلغلات في مركزنا الدفاعي، والمعروف أنه بوسع موظفي السفارة السوفييتية أن يجلسوا ويستمعوا لتلك المناقشات أما نحن، فلا تتوفر لنا هذه الامتيازات في موسكو.

وإنا نعتمد أيضاً على أجهزة استخباراتنا في العمليات السرية، أو المستورة، التي يقصد منها مساعدة الأصدقاء، أو جعل مهمة الأعداء أكثر صعوبة وتعقيداً، وهنا أيضاً يراود الأمريكيين شعور بالالتباس، ومنذ بداية التاريخ تقريباً كان كل بلد يسعى للتأثير في مجرى الأحداث في البلدان الأخرى بأفضل ما تخدم مصالحه، وهذا إجراء مقبول ومتعارف عليه، فالبلدان تتحمل الدعاية من الخارج عن طريق النشرات والإذاعات، وحتى على شاشات التلفزيون.

والغاية الأساسية لكل سفارة في العالم. هي أن تؤثر على الأحداث في البلد المضيف بالشكل الأفضل الذي يخدم مصالح البلد الذي تمثله تلك السفارة، فالاتحاد السوفييتي اليوم يقوم بمساعدة الأحزاب الشيوعية المحلية، والسيطرة عليها في سائر أنحاء العالم، وهذا ما يوفر لموسكو وسائل قوية لممارسة الضغط داخل بلدان أخرى.

أما الأمر الأخطر من ذلك فهو الأسلحة والتدريب، والامدادات التي يقدمها الاتحاد السوفييتي بكافة أنواعها بشكل منتظم، بإرسال الدعم لما يسمى حروب التحرير الشعبية وهي نغمة ترمي الى قيام سيطرة موالية للسوفييت على بلد من البلدان، وبالنسبة للسوفييت فإن التدخل في بلد آخر لتحقيق النصر لأصدقائهم يعتبر واجباً مقدساً، أما بالنسبة لنا فيتوجب علينا أن تكون لدينا الوسائل كي نساعد أصدقاءنا في بلدان أخرى حيث تكون حريتهم عرضة للهجوم وبقاءهم مهدد بالزوال.

فالقضية اذن هنا، مرة أخرى، ليست قضية أخلاقية بسيطة هي ليست: «أمن الحق أن نتدخل في الشؤون الداخلية لبلد آخر؟» فحسب، بل إنها قضية ما إذا كانت الولايات المتحدة قادرة على مساعدة أصدقائها في بلد آخر كي يقاوموا تهديداً مسلحاً لحريتهم، وذلك بوسائل دون التدخل بقواتنا المسلحة، وبدون مثل هذه الوسائل فلن يكون لنا خيار بين احتجاج ديبلوماسي، أو

الاستخدام المباشر لقواتنا المسلحة، ومن هنا يجب ألا نترك أصدقائنا يفترضون بأنه بصرف النظر عما قد يفعله أعداء الحرية، فإننا لن نقدم لهم أية مساعدة، فالقدرات المستورة المطورة يسكن أن تساعد أيضاً على مكافحة بعض أشكال الإرهاب، كما أنها يمكن أن توفر لنا خيارات اضافية في حال يتم فيها انتهاك حقوق الولايات المتحدة، أو حقوق رعاياها بشكل مفضوح، كما حدث بالنسبة لاحتجاز الرهائن في ايران.

معظم الأعمال المستورة أعمال غير مسلحة، وفي أحيان عديدة إنما تتألف من مساعدة صحيفة ديمقراطية، لانقاذها من اجراء اقتصادي يتخذ ضدها، وتقديم العون لها بشأن النشاطات الثقافية، أو دفع النفقات لشبان في بعض التجمعات العالمية، بحيث يستطيعون التحدث دفاعاً عن الحرية.

فالسوفييت لا يعانون من وخز الضمير، فيما يتعلق بأخلاقية اجراءاتهم ويستخدمون الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي كأداة للقمع، ويفصلون الحكومة من المسؤولية، مع أن الحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية شيء واحد، ولا فرق بين الاثنين، أما نحن فليست مثل هذه الفرصة لدينا، ولكن ما نستطيع فعله هو أن نقدم الدعم المستور للمنظمات السياسية المحلية، التي تؤيد موقفنا وتعارض استيلاء الشيوعية على السلطة.

إن مجال العمل المستور زمن السلم أكثر تحديداً، وأضيق مما هو عليه الأمر زمن الحرب، وليست الحاجة إليه في غاية اللاغموض، لكن الثمن قد يكلف غالياً، وما لم نستعد القدرات المستورة «للسي. آي. إيه» فإننا سنلقي الهزائم أمام السوفييت في بلد تلو الآخر. وقد تدنت نسبة مخصصات «السي. آي. ايه» من الميزانية التي تنفق على العمليات المستورة من أكثر من ٥٠% حتى أقل من ٥%، وفي السعي لإزالة الأخطاء . والأخطاء المزعومة . فقد اقتربنا من إلقاء الطفل في ماء الحمام، فقانون حرية المعلومات يسمح لأي كان ربما في ذلك عملاء مخابرات العدو . بالتنقيب في ملفات «السي. آي. ايه، والـ أف. بي. آي» (مكتب الاتحاد الفيدرالي» على حساب دافع الضريبة، وطبقاً لكلام مسؤولين في وكالة «السي. آي. ايه» إن الوكالة قد قضت، على تصنيف طلبات حرية المعلومات. من ساعات العمل، أكثر مما قضته على «أي واحد من مجالات عديدة للمصلحة الأساسية للاستخبارات»، واضافة لذلك فإن فتح هذه الملفات له تأثير كبير ومخيف على أولئك الذين يستعدون للمخاطرة بحياتهم وسمعتهم من أجل مساعدة الولايات المتحدة في مجالات العمليات الحساسة، وبقيام «السي. آي. ايه» بتقديم تقارير عن نشاطاتها المستورة إلى ثمانية لجان منفصلة يشكل أعضاؤها ثلث أعضاء الكونغرس، الى جانب الموظفين كذلك، يكون باستطاعتنا أن نقدم المعلومات الى خصومنا، وهذا المطلب يحد من قدرة «السي. آي. ايه»، وكما أشار السيناتور دانييل مونيهان عندما تحدث بشأن «القيام بالبحث الذي يمكن أن يجري أيضاً في مكتبة الكونغرس»، ولم تعد أجهزة الاستخبارات الأجنبية أو الأفراد ترغب في المخاطرة بكشف نفسها في

التعاون مع «الـ سي. آي. ايه» وهكذا قد تقلصت عملياتنا، وكما تبين صحيفة المساء الضعيف، أو في الظلمة التامة، حيث يمكنها أن تنمو، وتحافظ على حياتها».

لقد اعتاد الناس عبر التاريخ أن ينظروا إلى الاستخبارات على أنها أداة للحرب، أما الآن فقد أصبحت أداة هامة من أجل السلام، وكلما ازدادت معرفتنا عن السوفييت، كلما قل احتمال تقليلنا من قيمة التقدير أو الخطأ في حساب ما قد يفعلونه، وإن معرفتهم بأن لدينا أجهزة استخبارات فعالة تتمكن من تتبع كل ما يفعلونه، من شأنها أن تقلص، وتحد من السير وراء مغرياتهم.

لقد ضيقنا الخناق على «السي. آي. ايه» وأجهزة الاستخبارات الأخرى، وعلينا أن نعيد لها قدرتها، لكي تجعل الرئيس الأمريكي، وزعمائنا الآخرين على علم بما يجري، وأن يكونوا على استعداد وقدرة للرد على الخطر، وعلينا أيضاً أن نوفر لها سبل القيام بمهامها.

لقاءات القمة

لقد وجه هارولد نيكولسون في كتابه «الديبلوماسية» تحذيراً حول مخاطر اجتماعات القمة، حيث كتب يقول: «إن مثل هذه الزيارات تثير التوقعات وتؤدي إلى إساءة الفهم، وخلق الارتباك، فالوقت المتوفر لأولئك الزوار لا يكون دائماً كافياً ليسمح بالصبر والدراسة الهادئة، والتشريفات التي تقدم للوزير في عاصمة أجنبية قد تنهك قواه وتثير خيلاءه، وتضلل قدرته على المحاكمة».

واجتماعات القمة تؤدي الى نصب شراك أخرى أيضاً، فعندما يقوم الرئيس بإجراء المفاوضات بصفة شخصية، يجرد نفسه من ثلاث ممتلكات رئيسية:

انه يضيع شيئاً من السمعة الهائلة لمركزه كرئيس للدولة، ورئيس للحكومه بتحدثه على قدم المساواة مع رئيس حكومة في بلد آخر، وقد قدم فرانك آي. كوب حول هذه النقطة مذكرة للكولونيل هاوس في عام ١٩١٨م، يوم قال: «في اللحظة التي يجلس فيها الرئيس ويلسون على طاولة الاجتماع مع رؤساء الوزارات، ووزراء الخارجية، يكون قد فقد كل السلطة التي تأتي عن بعد وبشكل مفصل، فيصبح مجرد مفاوض يتعامل مع مفاوضين آخرين».

إنه يقلل من قيمة الغموض الذي يعتبر واحداً من أقوى أسلحة الديبلوماسية، فالرئيس يبدو أكثر قوة، وتقل قدرة الآخرين على التكهن بماهيته إذا كان بعيداً، عما إذا قابلتهم وجهاً لوجه.

ولعل أهل من ذلك كله، هو فقدانه للمرونة، فالسفير أو حتى وزير الخارجية يمكن أن يظهر مواقف يستطيع الرئيس فيما بعد تعديلها، أو حتى رفضها، فدالاس، على سبيل المثال، كان يستطيع، بموافقة ايزنهاور اتخاذ خط متصلب من شأنه أن يسمح لأيزنهاور بعدئذ أن يقوم بدور مرضٍ وكيسنجر، من جهة أخرى، يظهر، بموافقتي، بأنه يريد أن يكون أكثر تساهلاً، ويستخدم تصور موقفي الأكثر تصلباً كورقة مساومة، وكما قال أحد السفراء البريطانيين من الرعيل القديم: «قد تكون مهمة الديبلوماسي أحياناً الاخفاق في المفاوضات أو تحقيق تقدم طفيف، ولكن عندما يصل الأمر إلى رئيس الدولة، ويصبح نفسه معنياً، فإن حاجته للظهور بمظهر الرابح قد تلحق ضرراً كبيراً بعملية دقيقة».

ولقاء هذه التكاليف لابد من وضع فائدتين في الحساب يمكن جنيهما من اجتماع القمة:

بالنسبة للعلاقات الأمريكية . السوفييتية، يكمن لاجتماع القمة أن يسمح لكل رئيس أن يفهم الآخر، وبذلك تضعف امكانية ارتكاب الخطأ في الحساب في حال قيام مواجهة في المستقبل، فمحادثاتي الحامية الوطيس التي أجريتها مع بريجينيف بشأن الشرق الأوسط في سان كليمنت في شهر حزيران عام ١٩٧٣، مثلاً، ساهمت إلى حد كبير في وضع اعلان حالة التأهب الذي أمرت به بعد ذلك ببضعة أشهر خلال حرب يوم الغفران موضع الثقة، وأضفت عليه صفة الجدية.

ويمكن للقمة أيضاً أن توفر الفرصة للرئيس من أجل ممارسة سلطات الاقناع الشخصي، وفي المفاوضات التي أجراها الرئيس كارتر بشأن الشرق الأوسط، دليل ناصع الوضوح على هذه النقطة.

وعلى أية حال يتوجب على الرئيس أن يمضي الى القمة فقط إذا كانت الأخطار المحدقة تستحق القيام بالمغامرة، وإذا تم اعداد البرنامج الكامل لتلك القمة بشكل مسبق، ولا يتعين على أي رئيس أمريكي أن يمضي إلى اجتماع قمة مع الخصم، ما لم يكن على علم بما يوجد خلف الطرف الآخر للجبل.

وقد تبدو المبالغة الاعلامية حول اجتماع قمة رسمي كالميدان النهائي لمناقشة علاقة دولة بدولة على مستوى رفيع، لكن الحال غير ذلك، فكثير من الناس يحضرون الاجتماعات الرسمية، ويدأب رجال الصحافة على التحرك هنا وهناك بغية تلقف بعض التفاصيل، لكي تشكل عناوين رئيسية لصحفهم في اليوم التالي، وفي مثل هذه الظروف تدخل القاعدة التجريبية الديبلوماسية، حول عدم كشف المسائل الحساسة حيز التنفيذ للرأي العام، ففي الاجتماعات الرسمية، حيث يحضرها أناس كثيرون، تبين لي بأن الزعماء السوفييت يكونون أقل انفتاحاً مما يكونون عليه عندما نكون في اجتماع غير رسمي، أو منفردين بمجرد حضور المترجم، وكلما ازداد عدد المجتمعين كلما تمت المحادثات بحرية أقل، ولا سيما إذا كان المجتمعون من المسؤولين الشيوعيين ذوي المراكز العالية، وفي الجلسات الرسمية يتحدث كل واحد منهم إلى آلة التسجيل ويتكلم كآلة للتسجيل، ملتزماً أقصى درجات الحذر ومراعياً كل كلمة يقولها، وتحقيق التقدم الحقيقي أكثر احتمالاً في الجلسات غير الرسمية . ليست الجلسات التي تقدم على مستوى البروتوكول الاجتماعي، بل جلسات العمل الخاصة التي تسمح بدرجات أعلى من الصراحة والتركيز.

ومن الخطر بمكان أن يفصح للصحافة عن كل شيء أثناء اجتماعات القمة، فعندما يقوم أحد الزعماء بهذا الشيء انما يغري باتخاذ مواقف بطولية لا تؤدي إلى الاتفاق والتسوية الواقعية في نهاية المطاف، لأن التراجع عن مواقف المساومة المعلن عنها جهاراً يصبح أمراً في غاية الصعوبة، ويمكن التوصل إلى نتائج أفضل إذا ما تحدث الرؤساء بعضهم مع بعض بدلاً من الأدلاء بالأحاديث إلى الصحافة.

إن خلق الشعور بالرضى، والاستكانة اليه واحد من الأخطار التي تنجم عن اجتماعات القمة، فأثناء مدة إدارتي تولد إفراط في الحيور والطمأنينة بشأن اجتماعات القمة في بكين، وموسكو عام ١٩٧٢، ولا بد لي من أن أتحمل القسط الأكبر بل الرئيسي من المسؤولية بشأن ذلك، لقد كان ذلك العام عام انتخابات، وكنت أريد الثقة السياسية، لما اعتقدت بأنه يمثل تقدماً كبيراً نحو تحقيق السلام الثابت، زد على ذلك بأن بعض اتفاقيات القمة التي كنا قد توصلنا إليها لقيت معارضة شديدة في الكونغرس، ولكي نحصل على الموافقة عليها حاولنا تقديمها بأفضل شكل يمكن إظهاره . مؤكدين على الآمال الجسام التي قد نحققها إذا ما التزم الجانبان بتلك الاتفاقات نصاً وروحاً، ولقد بذلت فعلاً كل ما بوسعي من جهد للحيلولة دون أن تفلت تلك الآمال من أيدينا وتضيع: فقد قمت مثلاً بتوجيه تحذير في خطاب ألقيته وبث عبر شاشة التلفزيون أثناء جلسة مشتركة للكونغرس عند عودتي من موسكو وقلت يومها: «لم نحمل معنا من موسكو الوعد بتحقيق السلام الفوري، لكننا نحمل فعلاً بداية عملية من شأنها أن تؤدي إلى احقاق سلام دائم»، وحذرت كذلك بقولي إن: «الإيديولوجية السوفييتية ما زالت تحمل العداء إلى أكثر القيم الأمريكية أساساً، والزعماء السوفييت ما زالوا ملتزمين بتلك الإيديولوجية».

وكانت الأحداث بعينها في غاية الدراماتيكية إلى درجة أن آمالاً غير واقعية قد قامت، ورحب العديد من الناس بالفكرة الساذجة القائلة بأن السوفييت في العهد الجديد للانفراج سيتخلون عن مطامحهم، ونعيش جميعاً في جو من السعادة بعد ذلك، ولكن ما أن تواصلت النزعة السوفييتية المغامرة، حتى ارتد أولئك على الفور ليقولوا بأن الانفراج لا يعدو عن كونه اخفاقاً، ومما يجدر ذكره أيضاً هو أن الشعور بالغبطة قد زاد من صعوبة كسب التأييد للإجراءات الحاسمة، والقوات العسكرية القوية التي دعت إليها الحاجة لدفع الانفراج نحو تحقيق النجاح، فالشعور بالرضى إذن ينطوي على الخطر فيما يتعلق بالتعامل مع السوفييت. أو مع أي خصم، والشعور بالرضى، أو الحبور إذا جاز القول، خيال يمكن أن يولّد التضليل في النهاية كما أنه يدعو إلى التردد.

الربط

هناك قاعدة أساسية واحدة لإدارة العلاقات الدولية: لا تعطِ أي شيء لخصمك، ما لم تحصل على شيء بالمقابل، وفي القمة يجب ألا تكون هناك «مسارب حرة» لقيادة الكريملين، ويجب ألا نشارك أبداً في قمة لمجرد سبب القمة فقط، ومن أجل انسياب «روح» التعاون التي تخلقها عادة اجتماعات القمة، فقلما تحقق مثل هذه «الأرواح» المكاسب الضئيلة للولايات المتحدة، لكنها غالباً ما تحقق مكاسب كبيرة للسوفييت.

ولقد حدث خلال المرحلة الإنتقالية بين انتخابي عام ١٩٦٨ وتنصيبي للمرة الأولى عام ١٩٦٩ أن قمت أنا وكيسنجر بتطوير ما أصبح اليوم معروفاً على نطاق واسع بمفهوم الربط، فلقد كنا قد قررنا بأن الأمور التي يريدها الاتحاد السوفييتي . أي العلاقات العامة الطيبة التي توفرها اجتماعات القمة، والعمليات الاقتصادية، واتفاقيات الحد من الأسلحة الاستراتيجية . لن يحصل

عليها بدون مقايضة أي رأس برأس، وقد كان الثمن الرئيسي الذي كنا نطلبه مقايضته آنذاك، هو الحصول على المساعدة لتحقيق تسوية في فيتنام، مقابل الإعاقات القائمة في الشرق الأوسط وقرار يتعلق بمسائل برلين.

وفي محادثات سالت ركزوا فقط على الحصول على اتفاقية تحد من الأسلحة الدفاعية، وهو المجال الذي كنا سباقين فيه، وتتحرك على نحو أسرع منهم نحو الأمام، وأصرينا أيضاً على وجوب الحد من الأسلحة الهجومية حيث كانوا أسبق وأسرع تحركاً منا في هذا المجال، وعندما كانت موافقة الكونغرس على برنامج الصواريخ العابرة للقارات ABM أمر لا مناص منه، ففي الديبلوماسية كما في المجالات الأخرى للحياة باستطاعتك أن تحصل على شيء تريده فقط إذا استطعت أن تقدم لخصمك شيئاً يريده هو الآخر، لكن تنازلاتنا من جانبنا وحدنا فقط . لنثبت «حسن نيتنا» . ضرب من الحماقة واللعب بالنار، وكما يبين كيسنجر الوضع بقوله: «إن الاتحاد السوفييتي، كقاعدة عامة، لا يدفع ثمن الخدمات التي قدمت له حتى الآن».

وهكذا فقد «ربطنا» أهدافنا بأهدافهم، وبالرغم من أن الكريملين قد استغرق من الزمن عامين للقبول بهذه السياسة في محادثات سالت . ١ لكنه قبل بها في النهاية.

ويظل الربط استراتيجية ناجحة. فالروس لا يزالون يرغبون في تجديد الأسلحة والعمليات الاقتصادية، وعلى الولايات المتحدة أن تصر مرة أخرى على التوازن، ولدينا كل الحق في أن نبدي اهتمامنا بشأن الروح المغامرة التي يتبعها السوفييت في افريقيا، وسلوك حليفتهم فييتنام، ودعمهم لكاسترو واستخدامهم العدواني للجيش الأحمر خارج نطاق المعسكر السوفييتي. للسيطرة على الخليج العربي، وللتدخل في الشرق الأوسط، فجميع هذه الاهتمامات تعتبر مصالح شرعية للولايات المتحدة، ويجب علينا ألا نخجل، أو نكون انهزاميين بشأن الربط بين ما نريده في هذه المناطق، وما يريده السوفييت في مناطق أخرى، كما يجب علينا ألا نكون انهزاميين بشان الالحاح على وجوب حماية المصالح الأمريكية على أسس اتفاقيات الحد من التسلح ذاتها.

وليست هناك حدود ثابتة وسريعة تفصل بين شكل من أشكال الامبريالية السوفييتية، وشكلها الآخر، فهي مربوطة جميعاً بخيط مشترك يؤدي الى الكريملين، والسوفييت أنفسهم على علم بذلك، فإذا ما أجبروا من قبل قيادة الولايات المتحدة على القبول بالربط، سيفعلون ذلك، فلقد فعلوا ذلك فيما مضى، وسيفعلونه مرة أخرى.

وفي جميع الأحوال فهم لن يقبلوا بالربط بدافع غيري للحفاظ على السلام في العالم، وإذا لم نطالبهم بذلك فلن نحصل عليه، والسوفييت لا يريدون التصميم الأمريكي على رؤية احقاق العدالة، لكنهم سيحترمون ذلك التصميم، فالربط مفهوم عادل، فإذا ما مضى به بشدة ومن مركز قوة كافية، سيحقق نتائج حسنة.

إن الغاية الأساسية للحد من التسلح هي التخفيف من خطر الحرب، لكن الحد من التسلح بحد ذاته لا يمكن أن يحقق ذلك، فالخلافات السياسية، وليست الأسلحة هي الأسباب الأساسية

للحرب، وإلى أن يتم أيجاد حل لهذه الخلافات، ستظل هناك أسلحة كافية لشن أكثر الحروب تدميراً، بصرف النظر عن الاتفاقيات التي يتم التوصل إليها بشأن تحديد الأسلحة.

والتجارة بحد ذاتها لن تخفف من خطر الحرب، ففي الحربين العالميتين الأولى والثانية، كانت البلدان التي تربط فيما بينها بعلاقات تجارية قد مضت كل منها لمحاربة الأخرى، بسبب الخلافات السياسية.

لذا يجب الربط بين التجارة، واتفاقيات تحديد الأسلحة، وبين تسوية الخلافات السياسية، إذا كان يراد لخطر الحرب أن يخفّف، وإذا قمنا باستخدام الربط على هذا النحو فقط، سنكون قد قمنا بالقضاء على الأسباب الجذرية للحرب.

التعامل مع حلفائنا

خلال المئة وخمسين سنة الأولى من تاريخنا، غالباً ما كان يقال بأن الرئيس كان يرتدي أربعة قبعات . كرئيس للدولة، رئيس للحكومة، وكقائد أعلى للقوات المسلحة، وكزعيم لحزبه السياسي، ومنذ الحرب العالمية الثانية أخذ الرئيس يرتدي قبعة خامسة، أي قبعته كزعيم للعالم الحر.

فللاتحاد السوفييتي رعايا ودول دائرة في فلكه، وللولايات المتحدة حلفاء وأصدقاء، والاتحاد السوفييتي يملي على الدول الدائرة بفلكه، بينما لا تملي الولايات المتحدة على حلفائنا، لكن مسؤولية القيادة ملقاة على عاتقنا لكوننا أقوى وأغنى بلد في العالم الحر، ورئيس جمهورية الولايات المتحدة هو الوحيد الذي يتمتع بالسلطة، والامتياز لتسلم هذه القيادة، وإن دوره هذا غالباً ما يكون أصعب من أدواره الأربعة الأخرى، لأن هذا الدور يتطلب الجمع بين الفظاظة، والحذاقة، والقدرة على الحسم، والمهارة.

والديبلوماسية يمكن أن تستخدم إما كسيف، أو كإبرة . أي إما كسلاح أو كأداة للتوحيد، فالرئيس، بتعامله مع الحلفاء، يكون معيناً بصورة رئيسية برفو التمزقات، وتقوية لفقات الخياطة.

فأمريكا تظل قوية، ولكن ليس كل القوة، وحلفاؤنا بحاجة إلينا لكننا نحن الآخرين بحاجة إليهم، وإن هذه المصلحة المتبادلة هي التي تبرز التحالف إلى حيز الوجود، ومن المهام الرئيسية للرئيس الأمريكي رعاية هذا الحس بالمصلحة المشتركة، والمحافظة عليه.

وفي بعض الأحيان تكون العلاقات الشخصية الطيبة في التعامل على مستوى القمة مع الحلفاء، أكثر من التعامل مع الخصوم، فالمودة الشخصية مع الخصوم لن تؤدي إلى زوال تضارب المصالح الوطنية، بالرغم من أنها قد تحول دون تحوّل الانزعاج إلى الاندلاع، كما أنها يمكن أن تساعد أحياناً على البحث عن الحلول التي تجعل بالإمكان رأب الصدوع التي كانت قد ظهرت غير قابلة للرأب.

أما مع الحلفاء فالعلاقات يمكن أن تدار على مستوى مختلف كل الاختلاف، في جو من الثقة والأمانة، فالرئيسان اللذان يعرفان بعضهما، ويثقان ببعضهما، ويحترم كل منها تقويمات الآخر، ومن تجمع بينهما أهداف مشتركة، يستطيعان إقامة علاقات عملية تتجاوز الدبلوماسية العادية،

وتعود بالنفع الكبير على بلديهما، وفي المشاركة التي تمت بين روزفلت وتشرشل خلال الحرب العالمية الثانية، خير مثال على ذلك، كما كان لصداقتي الشخصية مع ديغول أكبر أثر، عندما تسلمت منصب الرئاسة للمرة الأولى، في سبيل تحسين العلاقات بين فرنسا والولايات المتحدة والتي كانت قد أصيبت بالفتور من قبل، وديغول الذي كان نظره يتركز بشكل دائم على المدى البعيد، قدم لي نصائح فيها من الحكمة ما فيها من أجل معالجة مسؤوليات أمريكا العالمية، سيما فيما يتعلق بالتعامل مع الاتحاد السوفييتي، والصين، وكان لمستشار ألمانيا الغربية كونراد اديناور تصور بعيد المدى أيضاً، وبالرغم من أنه فارق الحياة قبل أن أصبح رئيساً للجمهورية، فقد احتفظت بنصائحه، وحملتها معي، وغالباً ما كانت لي محادثات على قدر كبير من الفائدة مع الزعماء البريطانيين، فقد اجتمعت بها رولد ماكميلان قبل لقائي بخروتشوف عام ١٩٥٩، مثلاً، ومع هارولد ولسون، وإدوارد هيث قبل زيارتي إلى بكين وموسكو عام ١٩٧٢، اما الرئيسان الفرنسيان جورج بومبيدو وجيسكار ديتسان فيتمتعان بخبرة خاصة بالقضايا الاقتصادية الدولية، مما جعل من محادثاتي معهما، تثقيفية وبناءة.

ويمكن لنصائح الحلفاء الموثوقين أن تنطوي على فوائد خاصة في معالجة شؤون تلك الأجزاء من العالم التي يعرفونها أفضل مما نعرفها نحن، وقد زودتني محادثتي مع الزعماء اليابانيين، أمثال نوبوسك كيشي، وآيساكو ساتو، ومازايوشي أوهيرا برؤى وبعد نظر، فيما يتعلق بالقضايا الآسيوية، مما لم يكن بوسعي الحصول عليه من الأوروبيين، أو الأمريكيين.

ولا بد لي من الاعتراف بأن الفرنسيين أكثر منا معرفة بشؤون أفريقيا السوداء، أو ربما مما قد نعرفه عنها أبداً، وكذلك الأمر بالنسبة للبريطانيين والبلجيكيين وغيرهم، ونتيجة لأيامهم الامبراطورية، فان للبريطانيين مدّخر واسع من المعرفة والفهم بشؤون جنوب آسيا والخليج العربي وأماكن بعيدة لكنها استراتيجية في أنحاء العالم، وهناك بعض زعماء بعض البلدان الصغيرة ممن يألفون بشكل جيد مناطقهم، ولديهم حكمة فيما يخص العالم بأسره، فرئيس وزراء سنغافوره لي كوان يو في نظري من رجال الدولة الأوائل في العالم، ولو أن المرحلة التي قضاها كانت قصيرة لكي يتيح له فرصة ممارسة مواهبه ممارسة كاملة.

ويمكن تلخيص الفرق بين الاجتماعات بالأصدقاء، الاجتماع بالخصوم على النحو التالي: عندما تتحدث إلى خصومك فإنك تتعلم عنهم، وعندما تتحدث إلى أصدقائك فإنك تتعلم منهم.

فغالباً ما نميل إلى تجاوز الأهمية الحيوية للمحافظة على علاقاتنا وتقويتها مع بلدان، ليست قوى رئيسية، وبعضها، كاستراليا والبرازيل، مقدّر لها بحكم مصادرها الهائلة أن تصبح قوى عظمى في المستقبل، وإذا كان لنا أن ننصح شاباً إلى أين يذهب سعياً وراء الثورة في القرن الحادي والعشرين، فإنني أقترح عليه بالتوجه إلى البرازيل. أو استراليا، لقد حارب البرازيليون بشجاعة جنباً إلى جنب مع جيوش الولايات المتحدة في ايطاليا خلال الحرب العالمية الثانية، كما أنني شخصياً شهدت على الطبيعة البسالة والتضحية التي أظهرتها القوات الاسترالية والنيوزيلاندية

في جنوبي الباسفيك، لقد كانوا مثال عظمة الحلفاء وقت الحرب، لذا يتعين علينا أن نطلب نصيحتهم ومساعدتهم من أجل الحفاظ على السلام.

وكندا، حليفنا المخلص القوي في شمالنا، يجب ألا تؤخذ كذلك كأمر مسلّم به، لأنها تشاركنا أطول حدود غير محمية في العالم، فالكنديون يشكلون أفضل زبون لنا بشرائهم ٢٠٪ من صادراتنا، لكن العيش في جوار عملاق صناعي كالولايات المتحدة أمر صعب، لذلك يجب أن تلقي رغبتهم المفهومة، في التقليل من السيطرة الأمريكية على مشاريعهم التجارية، الاحترام والتشجيع.

والولايات المتحدة محظوظة بأن يكو لها حلفاء صادقين، وليسوا دولاً تسير في فلكها، ويجب أن نعامل أولئك الحلفاء جميعاً على أساس أن أهميتهم بالنسبة لنا، هي بقدر أهميتنا لهم، وإن تقويمهم للقضايا الكبرى، قد يكون في بعض الأحيان أفضل من تقويمنا.

وطالما أن الحاجة تدعوا لوجود حلفاء، فإن الحفاظ على قوة أولئك الحلفاء سيظل إحدى المسؤوليات الرئيسية للرئيس الأمريكي، ويعتمد النجاح أو الإخفاق أحياناً على مهارات الرئيس الشخصية، في العامل مع زعماء الحلفاء وتقويمهم الشخصي لمقياس القيادة.

منبر الواعظ المستأسد

لقد درجت العادة بالنسبة لرؤساء الجمهورية الأمريكيين، في هذا القرن بوجه خاص، على أن يستخدموا البيت البيضوي «كمنبر واعظ مستأسد»، على حد وصف تيودور روزفلت، فلسطة رئيس الجمهورية كزعيم معنوي للعالم الحر، سلطة واسعة الحدود، ولكن لكي تكون تلك السلطة فعالة ينبغي على الرئيس أن يستخدمها بمهارة فائقة، وأهم ما في الأمر هو أنه ينبغي عليه استخدامها فقط عندما تبلغ الأخطار حدتها، وتستدعي التزامه، إن مجال الحقوق الانسانية، مجال إذا ما استخدمت القوة فيه على نحو سليم، ستكون شديدة الفعالية، ويجب أن تستخدم بشكل مختار، مع الحرص على التمييز بين الفوارق القائمة في العالم الحقيقي.

إن مأساة ايران تشكل قضية تأريخ كما يحدث عندما تخفق الولايات المتحدة في أن تميز بين أنظمة الحكم المسؤولة، وأنظمة الحكم الديكتاتورية (التوتاليتارنية) وبين أولئك الذين يوفرون الحقوق الانسانية، وأولئك الذين ينكرونها، وبين من هم حلفاؤنا المخلصون، وأولئك الذين يشكلون أعداءنا الألداء.

لقد سبق لي أن قابلت الشاه للمرة الأولى في طهران قبل سبعة وعشرين سنة، يوم كنت في الأربعين من عمري، وكان هو في الرابعة والثلاثين، وكان لتوه قد أعيد لعرشه، وعلى أية حال فقد كان في سدة الحكم، لكنه لم يكن يحكم، وكانت السلطة تمارس بشكل قوي من قبل الجنرال، زاهدي، والد آخر سفير للشاه لدى الولايات المتحدة، لقد وجدت بأن الشاه كان ذكياً، وذا كرامة، وهادئ المزاج، وغير شديد الثقة بنفسه، لكنه كان يصغي باهتمام لكل ما يقال له، وأبدى تفهماً عميقاً، ليس لمشاكل بلده فقط وإنما لمشاكل العالم من حوله ايضاً، وكان رئيس وزراء إيران المزاح، الدكتور مصدق، واليساري الميول المعادي للغرب قد خلف الاقتصاد الايراني في حالة من

الفوضى المغرقة، وكان ٨٥% من أبناء الشعب أميين، كما أنه لم تكن للنساء أية حقوق سياسية، مهما كان نوعها، وكانت ايران لا تزال وكأنها تعيش في القرن التاسع عشر.

منذ ذلك الحين قيض لي أن أجتمع بالشاه في عدد من المناسبات، وأصبحنا صديقين، لقد شهدته ينمو في كل من مجال السلطة والحكمة، وعندما كنت خارج مجال السلطة في الستينات قمت بزيارة طهران أربع مرات، كي أراه، وعندئذ كان قد أينع، وانتقل إلى مصاف القائد العالمي من الطراز الأول، وما كان أهم من ذلك، وأكثر مثاراً للدهشة، هو أنه كان قد قام بثورة في أيران، ونقل ذلك البلد إلى القرن العشرين في غضون أقل من عشرين سنة، فقبل مجيئه إلى كرسي السلطة، كانت هناك أقلية من السكان تقدر بأقل من ١% تمتلك أكثر من نصف أراضي ايران، فبادر الى تطبيق نظام اصلاح زراعي شامل تضمن تجريداً بالجملة للعرش من ملكية الأراضي، وكذلك ارغام الملاكين الكبار الأغنياء ورجال الدين الاسلامي على التخلي عن كثير من اراضيهم للفلاحين في ايران، وكان ذلك بمثابة أول فرصة لهم عرفوا فيها ملكية أرض تعود لهم، وبدأ كذلك بخطة خيالية بإعطاء حصة لعمال ايران في الاقتصاد، أولاً عن طريق إشراكهم في الارباح، ثم بتشجيعهم على شراء أسهم في المشاريع الاستثمارية التي كانوا يعملون فيها، كما حمل الحكومة كذلك على اقراضهم الأموال اللازمة لشرائها، ولكي يساعد أبناء الريف الذين كانوا منذ زمن طويل يرزحون تحت نير أشنع أنواع الفقر والمرض في العالم، قام بتنظيم الشبان الايرانيين في هيئات تعليمية وهيئات صحية، وهيئة انماء وتعمير . كبديل عن الخدمة العسكرية . وقام بارسالهم إلى الريف، وسرعان ما أقيمت المدارس والكليات، وشهقت ابنيتها تشق عنان السماء، واضمحلت الأمية وناف في نهاية الامر عدد من الشبان الايرانيين الذين أخذوا يتلقون تعليمهم في الخارج، بمساعدة الشاه وتشجيعه لهم على / ٤٠٫٠٠٠ / طالب، وقطعت اشواط بعيدة في مجال العناية الصحية، وبما بلغ درجة التحول الثوري في ايران المسلمة، اعطيت النساء الحقوق السياسية الكاملة، رغم المعارضة الشديدة من قبل الزعماء المسلمين التقليديين.

وحتى أنه قبل القفزة الهائلة في انتاج النفط عام ١٩٧٣، كان اقتصاد ايران يتعاظم بنسبة مدهشة بلغت ٩% سنوياً، وقضى على البطالة والاستخدام غير اللائق قضاء تاماً تقريباً، وقد قال لي الشاه بان رئيسا الوزراء البريطاني لحزب العمال هارولد ولسون قد علق قائلاً ذات مرة ، بان ايران في ظل قيادة الشاه قد فعلت المزيد نحو تحقيق أهداف الاشتراكية . وكثيراً من الازدهار الذي يتقاسمه الناس على قدم المساواة . أكثر مما فعلته بريطانيا العظمى، وطوّر الشاه أيضاً قدرة عسكرية أساسية، وكان يقوم بملء الفراغ الذي خلفه البريطانيون بانسحابهم من منطقة الخليج العربي.

صحيح أنه لم يحقق الكثير من التقدم في مجال الحقوق السياسية، بالشكل الذي يرغب به معظم الأمريكيين؛ ولم تعرف ايران من قبل تقاليد للديمقراطية، كما أن حكومته كانت تستخدم ما هو بالمقاييس الغربية اجراءات قاسية لكي تضع معارضيها السياسيين تحت المراقبة، لكن شعب

ايران كان قد حقق من التقدم في مجال الحقوق السياسية وحقوق الانسان أكثر من أي من جيرانه، باستثناء «إسرائيل»، وفي ظل حكم الشاه كانت ايران تحقق التقدم داخلياً، وكانت آمنة خارجياً، وفي احدى الدراسات الشاملة الأخيرة، التي أجريت حول ايران قبل قيام الاضطرابات فيها عام ١٩٧٩، تحت إشراف مؤسسة وفر في جامعة ساتنفورد قوّم حكم الشاه بحق، على أنه كان قد قام «بتحويل ايران بسرعة هائلة من الضعف إلى القوة، ومن التخلف إلى التقدم، ومن الفقر إلى الغنى».

وعندما قابلت الشاه في كيور نافاكا في المكسيك في تموز عام ١٩٧٩، تبين لي بأنه لم يفقد أي شيء من شعوره بالاباء والكرامة، أو من تماسك الشخصية أو الشجاعة التي كانت سماته البارزة عندما كان لا يزال على عرش السلطة، لكنه كان منهمكاً، ومصاباً بخيبة كبيرة، واغرورقت عيناه بالدموع بينما بدأ بالحديث عن المذابح الوحشية التي تعرض لها اصدقاؤه على ايدي رجال نظام الحكم الجديد، ولم يبد تأثره وأسفه على نفسه، بل أبدى ما يجيش في نفسه من أسى حول ما حل ببلده، لقد دارت عقارب الساعة مئة عام نحو الوراء بالنسبة للشعب الايراني. حيث فقدت النسوة حقوقهن، وغاص الاقتصاد في حكم الفوضى. وبلغ عدد العاطلين عن العمل أربعة ملايين نسمة، كما أن التضخم أخذ بتفشى بنسبة ٤٠٪، ولم تعد ايران تشكل الصديق المخلص للغرب الذي يصد القوات. في الداخل، والخارج، التي تهدد بقطع النفط عرق حياتنا.

وبدا الشاه قاسٍ بحق نفسه، واعترف بأنه ساهم بنصيبه في ارتكاب الأخطاء، لكنه كان قد بذل قصارى جهده يائساً من أجل القيام بما يستطيع، وبدا يومها بأنه لا يزال يكن العطف والمودة للولايات المتحدة، لكنه يجد صعوبة في فهم السياسة التي ابتعتها تجاهه الحكومة الأمريكية، ايام محنته العويصة.

وبرغم التقدم الاقتصادي الذي كان قد تحقق ايام حكمه، والحركة الأكيدة، لكن البطيئة، نحو احلال المزيد من الديمقراطية، فإن الولايات المتحدة كانت تقسو، في السر والعلانية، بمطالبته بالمزيد، وقد حاول أن يوفق بين مطاليبها، لكنه كما يقول، حاول أن يفعل الكثير، بأسرع مما كان يجب، على كل من الصعيدين الاقتصادي والسياسي، فلم يعرف الناس الشبع، وكلما حصل شعبه على المكتسبات، كما ازدادت مطاليبه، لقد كان قد أثار عداء رجال الدين الاسلامي ضده بإرغامهم على تسليم أراضيهم للفلاحين، كما فعل بأراضيه هو شخصياً. وكذلك بتحرير النساء ومنحهن حقوقهن، واضافة لذلك فقد زاد إلى حد كبير من توفير فرص التعليم العالي، وعندئذ قام آلاف الطلاب الايرانيين . وأولئك الذين ذهبوا إلى الولايات المتحدة على وجه الخصوص . بالانضمام إلى معارضيه. والاصرار على تنحيه عن سدة الحكم. بحيث تنعم ايران على الفور بالديمقراطية والحقوق الانسانية، على النمط الأمريكي، لكنهم بدلاً من الديمقراطية، والحقوق الانسانية ووجهوا بالديكتاتورية الاسلامية.

وكان عليه من الصعب أيضاً أن يفهم موقف الفرنسيين، فلقد كانت ايران صديقة لفرنسا، كما كانت قد وقعت معها عقوداً لشراء ما قيمته ١٠ بليون دولار من البضائع الفرنسية، ومع ذلك فقد

سمحت الحكومة الفرنسية لآية الله روح الله الخميني بأن يشكل ما كان من حيث الواقع حكومة في المنفى، في ظاهر باريس، ويستخدمها كميدان لمهاجمته من الخارج، وتوجيه وتحريك الجماهير في الشوارع داخل ايران.

والخطأ الكبير الذي ارتكبته الولايات المتحدة في نظر الشاه، لم يتجل في عدم تقديمها أو أخفاقها في تقديم الدعم له، باتخاذها موقفاً غير حاسم، فقد كان يوماً يتلقى الضمانات العلنية والسرية بالحصول على الدعم الشامل، وفي اليوم التالي تتسرب الأخبار عملياً عن قيام مبعوث أمريكي على مستوى ثان، قد قام بإجراء اتصال مع معارضيه، ثم يقوم البيت الأبيض في اليوم الثالث باصدار تصريح منوهاً إلى أن الولايات المتحدة، في حال الاطاحة بالشاه، ستقبل بأية حكومة يرغب بها الشعب، وليس باستطاعة الحكومة المتذبذبة في الولايات المتحدة، أن تظهر كقادرة على ما إذا كانت ستدعم الشاه على نحو غير متكافئ، واجباره على مصالحة أعدائه، أو تتركه حراً ليناور بدون دعم.

ولم يتذبذب السوفييت من جانبهم، ووجهوا إذاعات لاهبة إلى طهران، والمدن الايرانية الرئيسية الأخرى، وقدموا الدعم لفئات الحزب الشيوعي المعارض القليل العدد والحسن التنظيم، ولم يتوقعوا أن يضموا ايران فوراً للمعسكر السوفييتي، لكنهم كانوا يدركون بأن اضطرابات ايران تشكل حليفاً لهم، وإذا ما استطاعوا التحريض على تواصلها لمدة طويلة كافية، فإن طهران ستقطع روابطها بالغرب وتصبح محايدة في أقل الحسابات، وربما تتحرك نحو السوفييت، ولقد نجحت استراتيجيتهم، وفعلت فعلها.

وهكذا أصبح الشاه رجلاً لا بلد له، وهام على وجهه لاجئاً من بلد إلى آخر، ووقع الموظفون الديبلوسيون الأمريكيون رهائن بأيدي رجال نظام الحكم الجديد في ايران، كما فرض آية الله الخميني، زعيم ايران، نفسه على الأمم المتحدة، رغم أنفها، وعلى بقية العالم المتمدّن، وعندما قوبلت المطالب بإعادة الشاه إلى ايران قسراً بالرفض، عومل بطريقة مزرية يندى لها الجبين خجلاً، من قبل أصدقائه بعد أن سقط عن عرشه، مع أنه كان بالمقابل قد وقف إلى جانبهم في أوقات ضيقهم.

لقد خسرت الولايات المتحدة والغرب معها صديقاً وفياً في منطقة متفجرة من العالم، حيث نحن فيها بأمس الحاجة لأصدقاء يقومون بدور القوة التي تحافظ على الاستقرار، وبعض بلدان المنطقة، كالعربية السعودية، التي ترغب في أن تشغل دور المحافظة على الاستقرار ذاك، تنتقص للقدرة العسكرية، أما البعض الآخر، كالعراق، الذي يمتلك القدرة فقد لا يسعى لتحقيق الاستقرار من ذات النوع، والتهديد السوفييتي يتسع نطاقاً، لذا يتعين على الولايات المتحدة وحلفائنا الغربيين ملء الفراغ، أو رؤيته مملوءاً بطريقة غير مضرة بنا.

ولقد خسرت ايران زعيماً فذاً، كما أن العالم قد خسر واحداً من أولئك الزعماء الذين . وقولي بتجرد . يتمتعون بفهم أفضل للقوى العظمى التي تحرك العالم، مما يتمتع به معظم زعماء

الدول الكبرى، وعندما رأيت الشاه في المكسيك قدم لي، بناء على طلبي، تقويماً دام ساعة من الزمن، عن التطورات في الاتحاد السوفييتي والصين والهند، والشرق الأوسط، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، إن معرفته بمثابة موسوعة وحكمته ثاقبة.

إن هذا التطور المأساوي ينطوي على دروس يجب تعلمّها من أجل المستقبل، وخاصة عندما يتضمن الأمر بلداً رئيسياً كايران عندئذ يجب ألا يغيب عن ذهننا بتاتاً بأن خيارنا ليس بين الرجل الذي يتربع على عرش السلطة، والذي هو صديقنا، وبين انسان آخر، بل بينه وبين انسان أكثر منه سوءاً بكثير.

ومن هنا فمن غير المتوجب علينا أن نضع مقاييس عليا لسلوك أصدقائنا، أكثر مما نفعله بالنسبة لأعدائنا.

وهنا لا يسعني إلا القول، بأنه ينبغي علينا ألا نلح على فرض الديمقراطية على الطراز الأمريكي، على البلدان ذات الخلفيات المختلفة عن خلفيتنا، والتي لها مشاكلها المختلفة عن مشاكلنا، علينا أن نتركهم يتحركون بطريقتهم الخاصة، وبالخطى التي يريدون نحو الأهداف استغرقنا نحن في الغرب مئات السنين لتحقيقها.

وقبل هذا وذاك، لا بد لنا في المستقبل من أن نقف إلى جانب أصدقائنا، وإلا فقد نتطلع فجأة فلا نجد صديقاً لنا، فبعد أن رأينا ما حدث للشاه في ايران، وكيف عومل من قبل الولايات المتحدة بعد مغادرته لايران، لا بد للحكام الآخرين في بلدان ذات أهمية بالغة بالنسبة لنا، كالعربية السعودية مثلاً، من أن يتساءلوا فيما إذا كانوا سيعانون من المصير ذاته في حال تعرضهم للهجوم من قبل ثورات داخلية، مؤيدة بدعم خارجي.

وفي هذا الصدد تعلق صحيفة «وول ستريت جورنال» قائلة:

«إن الولايات المتحدة بحاجة لأصدقاء، وقد كان الشاه دائماً راغباً أكثر من معظم الحلفاء في مساعدتها في تزويد سفنها الحربية بالوقود، أثناء أوج حظر النفط العربي، على سبيل المثال، فإذا كانت المكافأة التي قدمت له لقاء ذلك هي الخزي، حتى في الولايات المتحدة، لا بد من التساؤل إذن: ترى كم من الحكام في المستقبل سيغامرون بالوقوف إلى جانبها؟ وبوسعنا أن نكون على يقين بأن الأمير فهد الذي يسيطر على صنابير النفط، والملك حسين الذي يجلس على كرسي العرش في جوار الضفة الغربية، والملك حسن الذي بجانب من مضيق جبل طارق يترقبون بحذر، وتساؤل المصير الذي لقيه الشاه، وإن ما وصلت إليه درجة معاملة الولايات المتحدة له من السوء، ستكون أكبر حافز لهم على عقد أفضل الصفقات التي يمكنهم صنعها مع المناوئين للأمريكيين».

لذا، والحالة هذه، يترتب علينا أن نميّز تمييزاً دقيقاً بين أنظمة الحكم «الاستبدادية» (التوتاليتارنية) التي تنكر جميع الحريات، وأنظمة الحكم «المسؤولة» التي يمكن أن تحد بشكل قاسٍ من الحقوق السياسية، لكنها تسمح بالحريات الشخصية . كحق حرية اختيار التعليم، أو الديانة، أو الوظيفة، أو الزواج، أو الأصدقاء، أو مكان العمل، أو حياة العائلة، وفي بعض الحالات

حماية نظام التشريع الذي عندما لا يكون متقدماً كنظام تشريعنا، قد يكون أكثر معنى من مجرد الشرعية المكتوبة على الورق فقط في الاتحاد السوفييتي، أو حماية القرآن في ايران هذه الأيام، كل ذلك على سبيل العد لا الحصر.

هناك العديد من بلدان العالم الثالث تخضع لأنظمة حكم دكتاتورية يرأسها غالباً عسكريون، فوالد الشاه كان عسكرياً استولى على السلطة وجعل من نفسه شاهاً جديداً، وفرانكو كان جنرالاً ساد في الحرب الأهلية الاسبانية، والضباط اليونانيون أداروا حكماً مسؤولاً، كذلك فعل رجال الفئة العسكرية الحاكمة في تشيلي، والمقصود بنظام الحكم المسؤول هنا، الحكم الصارم.

والشيء الذي يجب أن ندركه حول أنظمة الحكم هذه الأنظمة المماثلة، هي أنها لا تدار من قبل وطنيين متطرفين وعازمين على فرض إرادتهم الحديدية على كل جانب من جوانب الحياة الشخصية لمواطنيهم، وبالنسبة لهؤلاء الحكام فإن القمع وسيلة يتذرعون بها للتمسك بالسلطة والإبقاء على النظام، وبالمقارنة فقد كان حمام الدم في كمبوديا بمثابة مسعى وحشي لتحويل مجتمع والقضاء على كل من يقاوم التحويل، وبهذا فقد اختلف، من حيث الدرجة فقط، وليس من حيث النوع، عن أنظمة الحكم الشيوعية الأخرى.

والأمر الذي يترتب علينا أيضاً هو أن نميز حقاً بين تلك الأنظمة الحكومية التي تهدد جيرانها، وتلك التي لا تشكل أي تهديد لهم، وفي هذا الشأن علق أحد الكتاب البريطانيين يقول: «يطلب هنا أن نميز بين تلك الأنظمة المسؤولة المتشددة، التي ترغب في تصدير الاضطهاد، وتلك التي لا ترغب بذلك، فحتى المعتوه يفهم بأنه مهما كانت بغيضتين فلا تشيلي ولا جنوبي أفريقيا تمتلكان الغواصات النووية التي تجوب البحار حول حقول النفط في بحر الشمال»، وإنني أستميحه عذراً إذ أقول أنه كان بوسعه أن يضيف قائلاً بأن الدولتين المذكورتين خلافاً لكوبا، لا تقومان بتصدير القمع الشيوعي إلى جيرانهما في أمريكا اللاتينية، أو بإرسال جيوشهما للقيام بدور الخدمة كوكلاء سوفييت في حروب «التحرير» في أفريقيا.

إن ممارستنا لمزيد من الضغط على أنظمة الحكم الصديقة التي توفر بعض الحقوق، ولا تهدد جيرانها أكثر مما نمارسه على أنظمة الحكم العدائية التي لا توفر أية حقوق، وتشكل في المقابل تهديداً لجيرانها، ليست مراءاة فقط، وإنما ضرباً من الحماقة نرتكبه.

فالتحالفات إجراءات وترتيبات لإحلال التلاؤم، وليس مطلوباً من الحلفاء أن يعشق كل واحد منهم الآخر، أو حتى يعجب به، بل يكفي أن يكون كل منهم بحاجة لحليفة، وانضمامنا إلى حلف ما لا يلزمنا ولا يخولنا تقديم المحاضرات والعظات في مجال الأخلاقية السياسية، لشركائنا، إن «الأمبرياليين الأخلاقيين» الذين يلحون بالمطالبة بوجوب إعادة خلق البلدان الأخرى، وفق الشكل الذي نتصوره نحن كثمن لصداقتنا معهم، لا يقدمون أية خدمة للحرية.

ولست أطالب هنا بأن نتخلى عن التزامنا «بالحقوق الانسانية» في علاقاتنا مع أصدقائنا، ولكن لكي يكون موقفنا فعالاً فإننا بحاجة لتبني سياسة واقعية، ومن أجل أن نحقق ذلك لا بد لنا من

القيام بتفريق بسيط، لكن دقيق، وحاسم، في أذهاننا، بين النظرة البعيدة المدى وقصيرته، وبين الغاية المثلى وما تستدعي الحاجة القيام به بشكل فوري.

إن من واجبنا، على المدى البعيد، أن نرفع عالياً راية الثورة الأمريكية كمقياس أمثل يتطلع إليه الإنسان، أما على المدى القصير. أي العالم الحقيقي بوضعه القائم الذي يجب أن نتعامل معه. لا بد لنا من أن نعي ونعترف بأنه بالنسبة للجزء الأكبر من العالم ما زال تحقيق ذلك حلماً بعيد المنال، فلقد استغرقت أوروبا الغربية، مع وجود مدنيتها المتقدمة نسبياً، قروناً من الزمن حتى استطاعت تطوير أشكال الديمقراطية، ناهيك عن القول أن بعض بلدانها كانت في بعض الأوقات تعود للتقيد بأنظمة حكم مسؤولة متشددة، والديمقراطية على الطراز الأمريكي ليست مناسبة بكل بساطة للعديد من البلدان، وحتى إذا ما حاولت تطبيقها فلن تنجح، إن الديمقراطية كالخمر المسكر. البعض يستطيعون تحمله، والبعض لا يستطيعون، ولو مباشرة أو للمرة الأولى على الأقل.

وفي ميدان الصراع العالمي تعتبر فكرة الحرية أقوى سلاح في أيدي الغرب، ولقد أثبتت البلدان الشيوعية بأنها قادرة على التعادل معنا في الناحية العسكرية، وإنها ستواصل محاولتها لمجاراتنا واللحاق بنا في المجال الاقتصادي، أما في مجال التطلعات الانسانية، فليس ثمة مجال للحديث، لأن الغرب يفوز عليها قطعاً بدون مبارزة، إذا لم نقل بالتزكية.

فعلى الرئيس الأمريكي، كزعيم للعالم الحر، أن يستخدم هذا السلاح، أي فكرة الحرية، حتى آخر سهم، ولكن يستوجب عليه أن يستخدمه بدقة وفعالية ويا للمأساة إذا ما أسأنا استخدامه أي بطريقة خبط عشواء، نضرب به أصدقاءنا وأعداءنا على حد سواء فنلحق الأذى بأنفسنا في نهاية الأمر، إن «منبر الواعظ» موقع للقيادة الأخلاقية، وليس للامبريالية الأخلاقية.

الفصل الحادي عشر

لا بديل عن النصر

«إن الروس يخشون صداقتنا أكثر ما يخشون عداوتنا، والديكتاتورية السوفييتية لا تستطيع تحمل الاتصال الحر مع الغرب، لذا ينبغي علينا أن نجعل موسكو تخشى عداوتنا أكثر مما تخشى صداقتنا».

وينستون تشرشل

«إن الغاية في الحرب تتركز على تحقيق سلام أفضل... والنصر بالمعنى الحقيقي، يعني بأن حالة السلام، وحالة الشعب تكون أفضل بعد الحرب، مما كانت عليه قبلها».

ب.هـ. ليدل هارت

سمعت قبل حوالي ثلاثين سنة عندما كنت عضواً في مجلس الشيوخ، الجنرال دوغلاس ماك آرثر يتحدث في جلسة مشتركة للكونغرس، وقد قال يومها: «ليس في الحرب بديل عن النصر»، وقد أدت كلمته تلك بجميع الأعضاء للنهوض والوقوف على أقدامهم، وصفقوا تصفيقاً حاداً، وكان بينهم رجال كبار في السن، تعالت أصواتهم صراخاً تحمساً لما قاله، وكانت البلاد يومها في أوج خوضها للحرب الكورية، وكان الجنرال ماك آرثر، بطل الباسفيكي في الحرب العالمية الثانية، قد أقصي عن مقر القيادة في كوريا من قبل الرئيس ترومان، لأن ماك آرثر أراد أن يواصل الحرب ضد العدو، بينما كان ترومان يصر على احتواء الحرب، والتوصل إلى عقد هدنة عن طريق المفاوضات.

وسيتحاجج المؤرخون والمعنيون بالاستراتيجية حول أي الاثنين كان مصيباً في مثل تلك الظروف آنذاك، لكننا إذا ما نظرنا من منظار حساب هذا القرن وبعده، وإذا تأملنا في الأخطار المعنية، لا بد لنا أن نخلص إلى الاستنتاج بأنه ليس في الحرب العالمية الثالثة بديل عن النصر.

والنصر يتطلب معرفة متى وكيف، وأين تستخدم القوة، وعندما نقول القوة، لا نقصد بقولنا القوة العسكرية فحسب، بل مختلف أنواع القوة المتوفرة لدينا.

والتاريخ مليء بالدروس التي تعلمنا مراراً وتكراراً، بأن البلدان التي كانت أقوى عسكرياً، وأقوى اقتصادياً، وحتى البلدان التي كانت تتمتع بمنتهى الإرادة والشجاعة، قد منيت بالهزيمة، لأن أعداءها استطاعوا أن يستخدموا القوة بصورة أكثر فعالية مما فعلته البلدان إياها، فللسوفييت في الحرب العالمية الثالثة كل من الهدف والاستراتيجية من أجل بلوغ النصر، وهدفهم الكامل انتصارهم غير المشروط، وإذعان الغرب غير المشروط، أما استراتيجيتهم فتتضمن استخدام وتهيئة كافة السبل بأقصى ما يستطيعونه من الاحتراز نحو الوصول إلى غايتهم النهائية.

إن بلدان العالم ترغب أن تكون في الجانب المنتصر، ومعظمها كانت قد خسرت حروباً، ومعظمها . لا سيما اليابان وألمانيا . لا ترغب أن تقع في الجانب الخاسر، مرة أخرى، والشعب

الأمريكي يرغب في كسب النصر، ولهذا كان ماك آرثر قد رد بضربته العنيفة القاضية، ومن أشنع النتائج التي تمخضت عنها حرب فييتنام هي شعور الأمريكيين بأنهم يخسرون الحرب لأول مرة.

وفي الحرب العالمية الثالثة لن يكون البديل عن النصر، على المدى البعيد، هدنة غير سهلة، بل هزيمة في الحرب أو الاستسلام بدون حرب، وهذا أمر غير مقبول.

والأمريكيون غير معتادين على التفكير على أسس عالمية، ولا يشعرون بالراحة بممارسة القوة، ما لم يثاروا بشكل مباشر، كما كانت الحال بالنسبة لنا في بيرل هاربور، لذا يجب أن يكون من الواضح الآن بأن التحدي السوفييتي يشكل إثارة لنا على نطاق عالمي.

فإذا ما نظرنا بطريقة، مبالغ في تبسيطها إلى حد ما، ولكن مجدية، إلى تطور رد أمريكا على ذلك التحدي خلال الخمس وثلاثين سنة الماضية، من نهاية الحرب العالمية الثانية ومروراً بالسبعينات فإننا نجده قد سار على نحو من التقدم، من الارتباك إلى الاحتواء، فالانفراج، وفي ضوء التحرك السوفييتي في أفغانستان نجد أن الثمانينات قد بدأت باندفاع سريع لسجل الوفيات للانفراج، ولقد أساء معظم الناس فهم الانفراج على حقيقته، وكيف، ولماذا طبِّق عندما فعل ذلك، هذا وقد اعترضت قضية أفغانستان طريق الانفراج وقطعته، ولكن إذا ما نظرنا إلى المستقبل نجد بأننا بحاجة إلى سياسة ثابتة من شأنها أن تجعل مرة أخرى في صالح الاتحاد السوفييتي أن يتفاوض مع الولايات المتحدة، على أساس مقايضة واقعية.

ومن شأن الانفراج الناجح أن يجعل تحقيق النصر ممكناً بالنسبة للغرب، بدون حرب، بيد أنه علينا قبل ذلك أن ندرك بأن الاحتواء عنصر أساسي للانفراج، وهو في الحقيقة ما يجعل تحقيق الانفراج الناجح ممكناً.

الاحتواء

في أعقاب الحرب العالمية الثانية، قام الغرب لتوه، بعد أن أنهكته الحرب، أعزلاً من السلاح، وركز انتباهه على إعادة الاعمار، والنهوض من بين ركام الأنقاض التي خلفتها نيران الحرب والصدامات المسلحة، وقد كانت أوروبا ترزح تحت وزر التدمير، لا حول لها ولا قوة، فتحرك السوفييت إلى الفراغ الحاصل من أجل ملئه، وتشديد قبضتهم على أوروبا الشرقية، وبمساعدة السوفييت هب الشيوعيون للاستيلاء على السلطة في الصين وشددوا قبضتهم على كوريا الشمالية.

وقامت الولايات المتحدة من جانبها، رداً على التحركات السوفييتية في أعقاب الحرب العالمية الثانية بانتهاج ما عرف بسياسة الاحتواء، فعلى الجبهة الأوروبية كان مبدأ ترومان الذي أعلن عام ١٩٤٧، وقيام حلف ناتو عام ١٩٤٩ قد زادا من وضع التقدم السوفييتي تحت المراقبة، وبعدئذ، أي في عام ١٩٥٠ قامت كوريا الشمالية بغزو كوريا الجنوبية، بدعم كل من السوفييت والصينين وبفضل الرد بعمل عسكري سريع من قبل الأمم المتحدة، واتخاذ الولايات المتحدة دور القيادة فيه تم وضع العدوان الشيوعي تحت المراقبة هناك، وكانت سياسة الاحتواء الأمريكية قد اتخذت مجراها بشكل ظاهر.

وقد قام جورج ف. كينان، مدير إدارة تخطيط السياسة في وزارة الخارجية آنذاك، بإعلان أسس السياسة في مقال كتبه باسم مجهول بعنوان «السيدس» في مجلة «الشؤون الخارجية» عام ١٩٤٧، وجاء في مقاله قوله: «إنها سياسة احتواء ثابت صممت لمواجهة الروس بقوة مضادة غير قابلة للتغيير، في كل مجال يظهرون فيه دلائل الاعتداء على مصالح عالم سلمي مستقر».

ومضى كنيان في حجته إلى القول. «بإبقاء التناقضات داخل الشيوعية، مقتصرة على المعسكر الشيوعي، والحيلولة دون تسللها بواسطة التوسع وأن من شأن هذه السياسة أن «تخلق ميولاً تؤدي في نهاية الأمر إما إلى تبدّد القوة السوفييتية، أو تراخيها التدريجي»، فمن الناحية العملية كان كينان قد عبر عن رؤى مستشار كاترين الكبرى، قبل ما يقرب من قرنين من الزمن الذي كان قد قال: إن ما يتوقف عن النمو يبدأ بالتفسخ.

كان لدى كينان من الحكمة ما يكفيه، ليدرك بأن القدرة العسكرية وحدها لا تؤدي إلى إحلال الديمقراطية، لذلك قال بأنه من واجب الولايات المتحدة أن تولد «لدى شعوب العالم بصورة عامة انطباعاً عنها على أنها بلد يعرف ماذا يريد، ويتماشى بنجاح مع مشاكل حياته الداخلية، ومع مسؤوليات قوة عالمية، ويتمتع بالحيوية الروحية، كما أنه قادر على الوقوف بنفسه وسط التيارات الإيديولوجية الرئيسية للعصر».

وحذّر كينان بأنه بدلاً من الاحتواء الثابت والشديد، وموقف الثقة بالنفس وبالقوة، فإن الولايات المتحدة ستغرق في «الحيرة، ويؤول مصيرها للقدر والتفكك الداخلي» وهذا ما سيكون له «أكبر الأثر على شعور الحركة الشيوعية بالغبطة»، إن مثل هذه الميول ستسبب «حبوراً جديداً.. لموسكو في مسارها»، وستقوم مجموعات جديدة من المؤيدين الأجانب بالصعود إلى ما قد تنظر إليه «كعربة الجوقة للسياسة الدولية» وبدلاً من «تبدّد القوة السوفييتية وتراخيها، سيزداد الضغط السوفييتي على طول الخط في القضايا الدولية».

إن نظرة إلى الوراء عبر الثلاثين سنة الماضية، منذ زمن كتابة كلمات كينان، توضح لنا بأن تحليلاته كانت صحيحة التنبؤ، فقد أصبحت ثمانية بلدان في أوربا واثنتين في آسيا شيوعية بين عام ١٩٤٥ و ١٩٤٩، أما خلال الخمس وعشرين سنة ما بين ١٩٥٩ و ١٩٧٤، بعد تطبيق سياسة الاحتواء تطبيقاً كاملاً، لم تتحول سوى كوبا وفييتنام الشمالية إلى بلدين شيوعيين، كما أن بضعة سياسات خارجية قد اتبعت بشكل فعال.

وخلال هذه الفترة كان الإجراء الوحيد الذي قام به الجيش الأحمر، هو ضد حلفاء الاتحاد السوفييتي ذاته في أوروبا الشرقية: في ألمانيا الشرقية عام ١٩٥٣، وفي المجر عام ١٩٥٦، وفي تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، حيث كان قد قضى على أعمال التمرد، وأخمد التحرر، وتحول المعسكر الصيني السوفييتي إلى انقسام صيني ـ سوفييتي، وتزايدت هوّة الخلاف بينهما لدرجة وصول الحليفين إلى حافة الحرب عام ١٩٦٩.

لقد كان الاحتواء خير ما ناسب الوقائع التي أعد من أجل مواجهتها، واستفاد من قدراتنا الاقتصادية والعسكرية الهائلة، كما أنه استفاد من الضعف الداخلي الذي عانى منه العدو، ولكن مع تسلم ادراتي لزمام السلطة عام ١٩٦٩، لم يكن الاحتواء وحده كافياً، لأن الظروف كانت قد تبدلت، جاء سبب التبدّل، من ناحية، نتيجة للاحتواء ذاته، وكانت هناك فرص جديدة، وأخطار جديدة أيضاً، فقوة السوفييت العسكرية كانت قد تعاظمت، لكنهم كانوا يعانون من صعوبات اقتصادية جدية، وتزايد قلقهم بسبب التخمر الوطني والديمقراطي لدى أتباعهم الأوروبيين الشرقيين، فضلاً عن أنهم كانوا يواجهون قوة عظمى مناوئة لهم بمرارة على جبهتهم الشرقية.

وتبين لنا بأن بلدان أوروبا الشرقية كانت تندفع بهدوء وثبات مستمرين، نحو توسيع نطاق حريتها، في العمل، وأخذت الصين تنظر إلى الاتحاد السوفييتي، بدلاً من نظرتها إلى الولايات المتحدة كعدوها الرئيسي، وكانت سياسة الاحتواء قد وضعت للتصدي لعالم شيوعي موحّد، أما الآن، وقد وقعت انقسامات عميقة بين صفوف ذلك العالم، فقد رأينا أنه بوسعنا استغلال تلك الانقسامات لصالحنا، لذلك دعت الحاجة إلى وجود بعدٍ إضافي لسياستنا.

من الناحية العسكرية بينما كنا قد انتقلنا من الاحتكار النووي، فالتفوق فالتعادل، لم يعد التأثير الرادع لميزتنا النووية عاملاً حاسماً، وفي الوقت ذاته أخذت أخطار الخطأ في الحساب تتزايد، حتى بلغت أقصى درجاتها، كما أن القوة الهائلة التدمير للأسلحة الجديدة قد خلقت مخاطر كبيرة وواضحة، أمام كل من القوتين العظيمتين، ناهيك عن أن التسابق المتواصل إلى المركز، والتحركات المضادة غير المنقطعة للحرب الباردة أصبحت تنذر بالخطر، وكان هناك خطر حقيقي قائم بشكل مستمر، بأن الحرب النووية يمكن أن تندلع بفعل تصعيد غير مقصود أو غير مرغوب به.

وقد فتح النظام الثنائي الأقطاب لعالم ما بعد الحرب الطريق، في مختلف أنحاء العالم، لوجود بنية دولية أكثر تعقيداً وأكثر تقلباً، وبلغ عدد البلدان التي انضمت إلى الأمم المتحدة إحدى وخمسون دولة عندما تأسست عام ١٩٤٥، في حين وصل عددها بعد خمس وعشرين سنة إلى ١٢٧ دولة عضو، وحافظ عددها على الزيادة بشكل مستمر، وإن معظم البلدان الآن تصنف نفسها كأعضاء منتسبة لتلك المنظمة الدولية.

وأخيراً، أصبحت الأعباء التي كانت تتحملها أمريكا من أجل بقية العالم خلال خمس وعشرين سنة أعباء ثقيلة، وقبل عام ١٩٥٠ كنا نتحمل مسؤولية دولة عظمى من أجل الحفاظ على السلام في وسط وجنوبي أمريكا، وذلك بموجب مبدأ مونرو، وعندما قامت اليابان بمهاجمة الصين وانهار ميزان القوى في شمال شرق آسيا في الثلاثينات، كانت الولايات المتحدة هي التي عملت على إعادته في الأربعينات، وتعهدت بالمحافظة عليه وبصورة خاصة بعد الغزو الكوري عام ١٩٥٠، وفي عام ١٩٤٧ تسلمنا المهمة التي كان يقوم بها البريطانيون في اليونان وتركيا، وفي عام ١٩٤٨ ألزمنا أنفسنا في كل من الدفاع عن أوروبا وإعادة بنائها، وبعد أزمة السويس عام ١٩٥٦ تبخرت الثقة

ببريطانيا وفرنسا كحاميتين للسلام في الشرق الأوسط، لذلك تحملنا تلك المسؤولية أيضاً، التي أعلن عنها في مبدأ أيزنهاور عام ١٩٥٧، ومع تقلص قوة وقدرات القوى الاستعمارية السابقة للحفاظ على السلام، اندفعت الولايات المتحدة قدماً لملء الثغرة بحلولها مكان بريطانيا وفرنسا واليابان وألمانيا، والقوى الأخرى في أوروبا، وشمال شرقي آسيا، والشرق الأوسط، وحتى بالنسبة لنا فقد كان ذلك عبئاً أثقل علينا من اللازم.

وتماماً عندما بدأ ميزان القوى بالتحول لصالحنا، ألزمنا أنفسنا بالتعهد العسكري على أوسع نطاق وأغلاه ثمناً في عصر الاحتواء . وهو الحرب في فييتنام، وفي ذلك الوقت بالذات كانت إدارة الرئيس جونسون قد شنت حملة واسعة، أي «حرباً ضد الفقر» داخل البلاد، ووقع العبء الكبير المزدوج على كاهل البنية الاجتماعية والاقتصادية لمجتمعنا، في وقت كانت فيه الثقة بالنفس في أوجها، ولكن في الوقت ذاته كانت ميزة القوة التي تقوم عليها تلك الثقة بالنفس آخذة بالتآكل، لذا فإن تضاعف الحد الأعظمي لالتزامنا حمّل نظامنا أكثر من طاقته، وقصر مجال دارتنا.

وعندما تسلمت السلطة كان الوقت قد حان لتعزيز قوانا وحشدها في كل من الداخل والخارج، كما أن الظروف كانت تتطلب وجود استراتيجية جديدة، ليس لمعالجة المشاكل القديمة فقط، بل من أجل التعامل أيضاً مع التحديات الجديدة، والفرص التي كانت قد انبثقت، وتضمنت تلك الاستراتيجية مبدأ نكسون الذي تعهدنا بموجبه بتقديم الأسلحة والأموال إلى البلدان التي تتعرض للعدوان المباشر، وغير المباشر، شريطة أن تقدم تلك البلدان الكوادر البشرية، وتضمن المبدأ أيضاً انفتاحنا على الصين وانتفاحات جديدة أخرى على بلدان أوروبا الشرقية التي أرادت التوصل إلى الغرب، ومن جملة ما تضمنته كذلك تحركاً محسوباً من مواجهة الاتحاد السوفييتي نحو التفاوض معه سعياً لتوجيه ما أمكن من مناقشتنا بطرق سلمية، وتحديد الأسلحة النووية، وخلق شبكة من الاعتماد المتداخل، من شأنها أن ترفع من تكاليف النزعة السوفييتية للقيام بالاعتداءات في المستقبل، وتقلل بالتالي من خطر الحرب النووية.

الانفراج: الخرافة والحقيقة

إن الجزء الأكبر من معارضة الإنفراج ينشأ من سوء فهم ما هو الانفراج، وما ليس هو، فالانفراج ليس اتفاقاً، لأن الاتفاق تحالف بين بلدان ذات مصالح مشتركة، أما الانفراج فتفاهم بين دول ذات مصالح مختلفة، وتلك هي الحالة القائمة بين الولايات المتحدة وروسيا، إذ أننا نختلف بطرق أساسية كبيرة عن الاتحاد السوفييتي، ومصالحنا تتعارض بمعظمها أساسياً مع مصالحة وستظل كذلك في المستقبل.

كتب تيودور دبير عن الانفراج يقول بأنه قد أصبح: «وسيلة شديدة الغموض لغاية شديدة التناقض»، وهو على حق فيما يقول، لقد كان معنى الانفراج كما تصورته إدارتي بأنه قد أصبح مشوهاً من قبل كل من السلوك السوفييتي، وسوء فهم الولايات المتحدة له، لدرجة أن عبارة الانفراج ذاتها، قد فقدت جدواها، كوصف للعلاقات الأمريكية السوفييتية، وعندما يقال عن الانفراج بأنه «بديل عن الحرب الباردة» فإنما يصبح عقبة في طريق التفكير الواضح.

وما عنيته بالانفراج لم يكن «البديل عن الحرب الباردة»، حيث أن كلاً من الانفراج والحرب الباردة بديلان عن الحرب الساخنة، والحرب النووية على وجه التحديد بين القوتين العظيمتين، إن الغاية الحقيقية للانفراج هي تفادي الحرب النووية، لكن الانفراج وحده لن يؤدي إلى تفادي تلك الحرب، فالقوة الكافية لدى الولايات المتحدة من أجل الحفاظ على التوازن النووي واظهار مقدرة الولايات المتحدة وتصميمها على ردع العدوان السوفييتي، أمران لا مناص منهما لتحقيق هذا الغرض.

إن المنافسة عنصر حتمي في العلاقات السوفييتية الأمريكية، ومع ذلك تظل إمكانية وجود بعض التعاون قائمة، لا بل أمراً جوهرياً في الحقيقة، وقد جاء الانفراج كمحاولة لتوسيع العنصر التعاوني، ولوضع حدود معينة للمنافسة ولم يدع بإرخاء الحذر من جانب الولايات المتحدة، أو تقليل معارضتها محاولات الاتحاد السوفييتي من أجل التقدم بمصالحه على حساب مصالحنا، وجاء الانفراج ليفسح المجال أمام الأمل، ولا يخلق الأساس للحبور.

فلم نكن نتوقع بأن السوفييت سيتخلون عن أهدافهم الأساسية، بل بأنهم سيكونون أكثر ميلاً للتعاون في مجال القيام بالترتيبات التي تسمح بتحسين العلاقات المتبادلة بيننا وبينهم، وكنا ندرك بأن لا نية لهم في إيقاف صراعهم ضد الغرب، فلم يظهر بريجينيف، خلال محادثاته معي في ثلاثة اجتماعات للقمة، وحتى في اللحظات التي كان فيها أكثر مودة، بأنه قد تراجع عن المقدمة القائلة بأن الاتحاد السوفييتي سيواصل دعمه «لحروب التحرير» والشيء ذاته كان ينطبق تماماً على الزعماء الصينين، أثناء المحادثات التي أجريتها معهم، ولقد كنت أنا من جانبي متمسكاً بثبات في التلميح إلى أن الولايات المتحدة ستواصل مقاومتها لمثل تلك المساعي، كما فعلنا في فييتنام، وطالب الزعماء السوفييت بتعزيز «النضال الايديولوجي»، وكما علق وولتر لاكيور يقول بأنه ذلك بالنسبة لهم: «لا يعني المناقشة الفلسفية بشأن حسنات الأنظمة الاجتماعية المعنية، بل يعني الصراع السياسي الحقيقي الذي قد يشتمل على عمليات عسكرية محدودة، وهو لا يعني بكل الأهداف السياسية العملية توسيع دائرة النفوذ السوفييتي»، ولم يتطلب الانفراج منا أن نتجاهل تلك الحقيقة، ولم يكن يعني بأننا سنحقق في معارضة المحاولات السوفييتية من أجل توسيع نطاق سيطرتهم، ولكي نحصل على التعاون وجب علينا، في الحقيقة، أن نبدي للقادة السوفييت بأننا قادرون على إظهار المعارضة الفعالة إذا ما أجبرنا على ذلك، ومن أجل ذلك جاء قراري بلغم ميناء هايفونغ، وزيادة قصف فييتنام الشمالية رداً على هجومها الذي شنته ضد فييتنام الجنوبية بدعم من الاتحاد السوفييتي، قبل اجتماع القمة في موسكو في عام ١٩٧٢، على قدر بالغ من الأهمية، ولا يمكن أن يكون هناك انفراج بدون احتواء، لأنه لا بد لنا من أن نتوقع من السوفييت بأن يستفيدوا من أي انفتاح نقدمه لهم، وهذا ما حاول الكثيرون تناسيه ومما أدى إلى تشويه عبارة الانفراج.

وفي حال النظر في استراتيجيات من أجل التعامل مع السوفييت في المستقبل، يتعين علينا أن نفكر في الانفراج، كإكرام للاحتواء، بدلاً من أن يكون بديلاً عنه، فالاحتواء، أي مقاومة التوسع الروسي، يجب أن يظل الشرط الأساسي للسياسة الخارجية للولايات المتحدة، لأننا إذا لم نقابل السوفييت بعقوبات على سلوكهم العدواني فليس ثمة سبب يردعهم عن ممارسة ذلك السلوك، أما الانفراج، كمحاولة لتحاشي الأخطاء القتالة في الحساب، والتقليل من الخلافات حيث أمكن ذلك عن طريق التفاوض، وتهيئة الحوافز الإيجابية للروس والصينيين للتعاون معنا من أجل المحافظة على نظام عالمي مستقر، فلا معنى له إلا في العصر النووي.

والاحتواء بدون الانفراج ينطوي على كل من الخطر، بسبب الترسانات النووية المرعبة، للقوى العظمى، وعلى الجنون لأنه يمنعنا من الاستفادة من الخلاف بين الاتحاد السوفييتي والصين، أما الانفراج بدون الاحتواء فوهم كبير، فلن يكون لدى الروس أي دافع لتخفيف سلوكهم العدواني، إذا كانوا يجدون بأن الاعتداء يحقق الفائدة، وإذا ما قدمت التشجيعات الإيجابية بدون تهديد العقوبات السلبية للاحتواء، فسيبلغ الانفراج، من الناحية العملية، أنئذ مرحلة خداع النفس والأغواء.

وإذا ما اعتقد الروس بأنهم يستطيعون المضي في استخدام الانفراج كتغطية لاعتدائهم، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فإنهم سيحاولون ذلك، وفي السنوات الأخيرة لم يحاولوا فقط، بل أنهم أفلحوا تماماً، كما أفلحوا في استخدام الاعتداء كغطاء لتحويل الميزان العسكري لصالحهم، بيد أن ذلك ليس اتهاماً ضد الانفراج ذاته، بل إنه يعكس حقيقة أن الولايات المتحدة لم تظهر التعميم المطلوب لجعل الانفراج يعمل لصالحنا، في حين أن السوفييت قد أظهروا بأنهم يستطيعون جعله يعمل لصالحهم، ولا زال ممكناً أن يوفر الانفراج أساساً لموقف ناجح للولايات المتحدة، ولكن فقط بالجمع بين سياسات القوة والشجاعة والإرادة التي تعتبر ضرورية له.

إن الاحتواء والانفراج سياستان مناسبتان للتعامل مع الدكتاتورية، وقد كان الاستراتيجي البريطاني ب. هـ. ليدل هارت قد أوضح بإيجاز لماذا سيفهمنا الروس عندما سنتحدث لغة القوة، حيث قال: «كلما قل اعتبار أمة للالتزامات الأخلاقية كلما زاد ميلها نحو القوة الفعلية» وقد حذر قائلاً:

«من الحماقة التصور بأن النماذج العدائية، أفراداً كانت أم دولاً، يمكن أن يُدفع ثمنها . أو تهدئتها» باللغة الحديثة . طالما أن دفع ثمن التأرجح يحرض على طلب المزيد من التأرجح، غير أنه يمكن كبح جماحها، إن اعتقادهم الحقيقي بالقوة يجعلهم أكثر عرضة للتأثير الرادع لقوة معارضة هائلة..

وبينما يكون من الصعب التوصل إلى سلام حقيقي مع النماذج الجارحة، يكون من الأسهل حملها على القبول بحالة هدنة، وأقل انهاكاً بكثير من محاولة القضاء عليها، حيث تكون، كجميع نماذج الجنس البشري، ملهمة بشجاعة اليأس».

فالروس يفهمون القوة ويستجيبون أكثر مما يفعلون بالنسبة لكافة النداءات بأصوات عالية للتعاون من أجل خير الانسانية جمعاء، أنهم في الحقيقة يثقون بنا أكثر عندما نتحدث بلغة القوة مما يفعلون عندما نلقي عليهم بتعاليم مثلنا بطريقة التبشير.

قال ونستون تشرشل ذات مرة: «ليس بإستطاعتي أن أتكهن لكم بفعل روسيا، إنه لغز ملفوف بغموض داخل أحجية، ولكن ربما بمفتاح، وذلك المفتاح هو المصلحة الوطنية الروسية»، والروس الآن، كما كانوا آنذاك، لن يتعاونوا معنا، ما لم يكن لمصلحتهم أن يفعلوا ذلك.

والانفراج لا يقضي بصورة سحرية على الخلافات في المواقف، والقيم، والمصالح المتأصلة في النظريات التي ترثها الأمم، والإيديولوجيات التي تعتنقها، والحقائق الاقتصادية، والعسكرية التي تواجهها، وبدلاً من ذلك فهو الطريقة التي تسعى بها الأمم لتعيش بخلافاتها عوضاً عن أن تموت من أجلها، إن ليس بالإمكان محو الخلافات، إن الخيارات في هذا الصدد محدودة بمحاولة الامساك بالتوترات والتحكم بها، أو السماح لها بصورة إجمالية أن تحدّد طبيعة العلاقات الدولية، ومن أفضل التفسيرات المنطقية للإنفراج، والتي سمعت بها في عمري، هو التفسير الذي عبر عنه الحاكم البريطاني العام لاستراليا، وليم سلم عندما قابلته في عام ١٩٥٣، كان يراوده شعور قوي «بوجوب قيامنا بإذابة الجليد، فإذا لم نذبه سنتجمّد به جميعاً، لدرجة من الأحكام، بحيث ستدعو الحاجة إلى قنبلة ذرية لإذابته».

هذا ما يدور الانفراج حوله من وجهة النظر الأمريكية . أي إذابة الجليد، حيث يمكن ذلك، ومحاولة حل خلافاتنا بصورة عقلانية.

وما اتفاقية برلين التي تم التفاوض عليها عام ١٩٧١، سوى مثل عما يمكن أن يحققه الانفراج، ففي كل من عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٨، وصلت التوترات بشأن برلين إلى درجة من التهديد أو شك معها كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على الوصول إلى حد التصعيد الذي لم يكن أي منهما يرغب به، وبعد ذلك ظلت برلين، التي قسمت بين الشرق والغرب، وتوضع الجزء الأكبر منها في ألمانيا الشرقية، تشكل نقطة حساسة لكلا الجانبين، ومصدراً دائماً لاحتمال قيام المجابهة بينهما، وفي عام ١٩٧١، بعد ستة عشر شهراً من المفاوضات المكثفة توصلنا إلى اتفاق مع الاتحاد السوفييتي بخصوص برلين، وبعض المسائل الأخرى المتعلقة، والبالغة الخطورة، وجاءت اتفاقيات برلين لتغطي قضايا قد تبدو بحد ذاتها جزئية نسبياً، لكنها كانت على جانب كبير من الأهمية لكل من الطرفين، كما أن ما أزالته من الأخطار كان يبلغ درجة كبيرة، وبتوصلنا لتلك الاتفاقات كنا قد حققنا نجاحاً في استبدال المواجهة بالتفاوض، وكانت اتفاقية برلين هي التي مهدت الطريق إلى أول قمة سوفييتية . أمريكية أثناء فترة إدارتي عام ١٩٧٢، وشعرنا بأننا إذا استطعنا أن نسوي خلافاتنا حول هذا الخلاف الشائك الذي طال كثيراً، فسيكون بمقدورنا أن نتوصل إلى اتفاق حول مسائل أخرى.

والذي يستطيع الانفراج فعله هو التقليل من امكانيات ارتكاب الخطأ في الحساب، الذي يمكن أن يؤدي إلى حرب نووية، وكذلك استئصال بعض ندبات المتاعب باستبدال المواجهة بالتفاوض.

وهناك أمور كثيرة لا يستطيع الانفراج فعلها، فهو لا يستطيع أن يحول الروس فجأة إلى «أناس خيرين»، كما أنه لا يستطيع أن يطمس حقيقة أننا في تنافس معهم في سائر أنحاء العالم، وأن بعض هذه التوترات لا محالة ستؤدي إلى مجابهات، وما يمكننا أن نأمل به هو أن الانفراج سيقلل من الأخطار في بعض المناطق الجزئية الأهمية، باستبدال المواجهة بالتفاوض، ويوفر السبل لحل المجابهات سلمياً في المناطق الرئيسية، وبما أن لدى القوى العظمى القدرة على تدمير بعضها بعضاً، فإن لكلينا مصلحة كبيرة في رؤية عدم السماح للمجابهات بأن تفلت من اليد.

ويعتقد البعض بصورة ظاهرية، بأننا إذا ما حاولنا فعلاً العمل على معرفة الروس، سيكون بوسعنا تسوية خلافاتنا، والتوصل إلى التفاهم، والاعتقاد بمثل هذا الأمر يعني تجاهل قرون من الخبرات الوطنية المختلفة برمتها، والتقليل من قيمة آثار الايديولوجيات التي تتعارض تعارضاً تناظرياً، وعدم رؤية التنافس السياسي العالمي، والعسكري الشديد الذي يسود علاقتنا بالاتحاد السوفييتي، «إن توصل انسان لمعرتك» لا يعني بالضرورة توصله إلى محبتك، وفي الحقيقة، في هذه الحالة، قد يعني إيجاد الطريق، لكي يحب كل منا الآخر حتى ولو أقل مما كنا نظن.

فحب انسان لانسان آخر شيء، وتعلم الانسان أن يعيش مع انسان شيء آخر، فإذا استطعنا أن نتحدث مع بعضنا، سنتمكن على الأقل من توفير الفرصة لإيجاد مجالات المصالح المشتركة، وتحاشي الخطأ في الحساب، والشك اللذان يحدثان عندما ينعزل الجانبان عن بعضهما، وإذا لم نتحدث لن نجد أي شيء نتعاون فيه ولن تزداد خلافاتنا إلا حدة، كما أن كراهيتنا ستزداد تصلباً وترسّخاً، وعندئذ تدعو الحاجة إلى قنبلة ذرية كي تكسر الجليد، وتخلصنا منه.

لقد كان تشرشل قد أشار قبل سنوات عديدة إلى أن «روسيا تخشى صداقتنا أكثر من عداوتنا، وأن الدكتاتورية السوفييتية لا تستطيع تحمل الاتصال مع الغرب»، وكان الحل الذي اقترحه يتجلى في قوله: «علينا أن نجعل موسكو تخشى عداوتنا أكثر مما تخشى صداقتنا»، وهذا المفهوم يعتبر أساسيا لنجاح الانفراج، فبوسعنا جعل السوفييت يخشون عداوتنا أكثر من خشيتهم لصداقتنا إذا ما أظهرنا لهم بأننا عدو خطير، بيد أن ما يساعد كثيراً هو ايضاحنا بأننا نستحق أن نكون صديقاً، فهم من الناحية الاقتصادية، بحاجة ماسة للتعاون معنا، وهذا أمر بوسعنا تقديمه لهم، اللهم إذا ما عدلوا من سلوكهم العدواني.

وليس الانفراج بحد ذاته مسألة تغيير نوايا الروس، بل إنه مسألة تغيير حساباتهم لتكاليف الربح، ومسألة جعل أعمالهم العدوانية أكثر كلفة وبذلك تخفف من إمكانية الإقدام على القيام بها، وكذلك جعل مبادراتهم السلمية أكثر منفعة من وجهة نظر مصالحهم الوطنية.

إن السعي الأكاديمي العادي للبراهين على السلوك السوفييتي ليس عديم الجدوى فحسب، بل إنه تناسٍ لنقطة أساسيية جداً، وهي أن ما يعتمدون عليه فعلاً نعتمد عليه نحن كذلك، فإذا ما

أوضحنا لهم رغبتنا بالتصدي لهم عند محاولتهم التغلب علينا، وبالجلوس معهم عندما يتصرفون بصورة معقولة، سيكونون أكثر رغبة للمشاركة، وإن أساس سلوك الروس يكمن بأيدينا بقدر ما يكمن في أيديهم، ولكي تتمكن من الجلوس مع الروس، عليك أن تكون أولاً قادراً على التصدي لهم.

ولقد درج المتفائلون على الاعتقاد بسذاجة، بأن بوسع الانفراج محو كافة مسائل ونزاعات المصلحة الوطنية بيننا وبين القوتين الشيوعيتين العظيمتين، ولا يقل خطأ منتقدي الانفراج أيضاً عن ذلك عندما يستنتجون بأنه بينما لا يستطيع الانفراج أن يفعل كل شيء، فلا يستطيع فعل أي شيء، والحقيقة هي أن السوفييت ملتزمون بتوسيع سلطتهم إلى أقصى درجة يستطيعون بها تحقيق ذلك، بأعلى درجات الأمان، وأكثرها، فائدة، فلن يتوقفوا عن الضغط علينا، واختبار نقاط ضعفنا، وسبر مجالات التوسع لذلك إذا أبدينا لهم بأن الفائدة الاقتصادية والديبلوماسية ستكون أفضل بالنسبة لهم في تعاونهم معنا بدلاً من مجابهتنا، عندها سيخلصون إلى استنتاج واضح، بيد أننا إذا أبدينا إفراطاً في معارضتنا، وشحاً في صداقتنا سيخلصون مرة أخرى إلى استنتاج واضح، وهكذا فالخيار خيارنا بعدة طرق.

الانفراج: المعادلة الشخصية

إن وضع المبادئ العاملة لانفراج واقعي شيء، وتطبيق تلك المبادئ شيء آخر، وليس ثمة متسع للسياسة الخارجية مزروع بحقول الألغام أمام الرئيس الأمريكي، أكثر من هذا المتسع، لأن أية خطوة خاطئة فيه ـ سواء بالمبالغة في الليونة، أو المبالغة في القساوة ـ يمكن أن تؤدي إلى كارثة، فمن الأهمية بمكان تفادي التأرجح بين الحبور، وعدم التوهّم الكامل.

ومن المسائل الرئيسية التي يواجهها الرئيس في تنفيذ سياسة الانفراج، هي أن يسوغ اتباع ما يبدو للكثيرين، مفهومين متناقضين تناقضاً كلياً، وكنت طوال مدة عملي في ميدان الخدمة العامة قد اكتسبت سمعة بسبب معارضتي الشديدة للشيوعية وما تمثّله، وقد جاءت زيارتي لكل من الصين والاتحاد السوفييتي عام ١٩٧٢ محيرة ومخيبة آمال، بل ومثيرة غضب عديدين من مؤيدي، لقد تساءلوا قائلين: كيف أستطيع احتساء أقداح الشاي مع ماوتسي تونغ وزهاو إنلاين، وأتبادل كؤوس الفودكا مع بريجينيف؟ كيف أستطيع تسويغ تقديم الحفلات، وتبادل الهدايا والابتسامات، ومد يد المصافحة لزعماء أنظمة الحكم الملحدة والمضطهدة واللاأخلاقية والعدوانيةن والذين يعارضون كل شيء نمثله؟ ترى هل كان ماقمت به يعني بأنني قد غيرت نظرتي فيما يتعلق بالتهديد الذي كانت تشكله الأنظمة الاستبدادية للغرب؟ فإن لم يكن ذلك ما هو الهدف الخيّر الذي يمكن أن يخدم «بالتآخي» مع أولئك الذين نذروا أنفسهم لغاية فرض نظامهم علينا، وعلى البلدان الحرة قاطبة؟.

عندما ذهبت إلى موسكو في عام ١٩٧٢، لم يكن أي وهم يجول في خاطري حول الطبيعة العدوانية للنوايا السوفييتية، لأنني كنت أدرك تماماً ما تنطوي عليه نواياهم، وخلال السنوات الثلاثة الأولى من وجودي في السلطة كان السوفييت قد حاولوا جس نبضنا في دعم كوبا والشرق

الأوسط، وفي جنوبي أفريقيا، كما قاموا بجس نبضنا مرة أخرى في فييتنام قبل أسبوعين فقط من لقاء القمة، وان الحقيقة وقوفنا موقفاً ثابتاً، في كل من الحالتين، بل حتى زيارتنا لبكين واجتماعنا هناك بالأعداء الألداء لموسكو قبل الذهاب إليها لم تقد إلى نسف لقاء القمة كما توقع البعض، بل على العكس، ذلك أنني متأكد بأن ثباتنا قد ساعد على إقناع السوفييت بأنه لا خيار لهم سوى التفاوض معنا.

ولم أكن أنتظر أن تؤدي اللقاءات الشخصية مع الزعماء السوفييت إلى تبدّل وجهات نظرهم، كنت أدرك بأن بريجينيف وزملاءه كانوا جميعاً شيوعيين متمسكين ومكرسين أنفسهم للشيوعية، وعلى أية حال، كنت أعتقد يومها، وما زلت أعتقد حتى الآن، بأنه في حين أن مثل هذه اللقاءات لن تمحو الخلافات الرئيسية في الفلسفة الأساسية، لكنها قد تكون مجدية من أجل تضييق مجالات الصراع الكبير، وخلق إمكانيات التعاون من أجل المنفعة المتبادلة، وبمعنى أشمل، طالما أن الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة هما وحدهما القوتان النوويتان العظيمتان في العالم، لذلك فلكل منا التزامات تجاه نفسه، وتجاه الآخر، وتجاه بقية العالم بإيجاد كل طريق ممكن، من أجل رؤية قوتنا المرعبة غير مستخدمة بطريقة من شأنها أن تجلب الدمار الشامل لأنفسنا، وللمدنية كما نعرفها.

فمن الضروري إذن أن نبقي في ذهننا حدود ما يمكن أن يحققه الانفراج، وما لا يقل ضرورة وأهمية عن ذلك هو أن نعرف خصومنا، وكيف نتعامل معهم إذا كان لنا أن نحقق هذه الأهداف المحددة، فالزعماء السوفييت الذين أتيح لي أن أقابلهم منذ عام ١٩٥٩ عندما قمت بأول زيارة لي إلى موسكو كنائب لرئيس الجمهورية، يختلفون اختلافاً كبيراً عن الزعماء البلاشفة القدامى رماة القنابل في العشرينات، والقمعين الرخيصين في الثلاثينات والأربعينات، فهم كأفراد وكروس وكشيوعيين أكثر تعقيداً، وأقل خطراً، لكنهم خطيرون جداً.

أنهم كروس مضيفون يستقبلون ضيوفهم بحسن الوفادة، وكرماء، وأقوياء وشجعان، وفوق كل شيء تجدهم شديدي الاعتزاز بخلفيتهم الروسية، كما أن حساسيتهم فوق عادية إزاء الاذلال والإهانة الشخصية.

وكشيوعيين سوفييت تجدهم يكذبون، يخدعون، وينتهزون، ويتبجحون، ويناورون باستمرار، محاولين دائماً أن يكسبوا بأية وسيلة ضرورية لتحقيق غايتهم.

وكأفراد تجد أن هناك فرقاً شاسعاً بينهم من حيث الخلفية والسمات الشخصية، فقد كان خروتشوف فظاً غليظاً، حاضر البديهة وذا روح مرحة شديدة التأثير، أما بريجينيف فقد أظهر بأنه ودود، ساخن الروح، وجلف قوي البدن لدرجة أنه عندما مسكني من ذراعي ذكرني بليندون جونسون، وبينما كانت بديهيته أقل حضوراً من خروتشوف، إلا أنه كان أكثر منه ثباتاً وأقل اندفاعاً، وبالنسبة لكوسيغين فقد كان بارداً ارستقراطياً وتكنوقراطياً هادئاً، ولو أنه كان قد ولد في شيكاغو بدلاً من لينغراد، لربما انتهى به الأمر لأن يصبح رئيساً تنفيذياً لإحدى شركات الولايات المتحدة المتعددة

الجنسيات، أما غروميكو فقد بدا صارماً خشناً ومثابراً بجنون وبعناد على دفع خط السياسة الخارجية لحكومته، ودوبرينين يتمتع بقدرة هائلة ودماثة وثقافة واسعة، وإذا ما نظرنا إلى المسؤوليات التي أنيطت به فلا شك بأنه أفضل سفير في واشنطن، كما أحمل في ذاكرتي. وسوسلوف المعني المتصلب بالنظرية الماركسية، كان يتحدث ويتصرف بكرامة وثقة بالنفس كأستاذ جامعة أمريكي يتحدث عن الملكية، وخلاصة القول أنهم ظهروا جميعاً كرجال عائلة أقوياء ملتزمين، باستثناء خروتشوف، ولديهم عادات جيدة، ومنيعي الجانب.

لذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار هذه المزايا، تتولد عدة قواعد للسلوك، في التفاوض مع الزعماء السوفييت، فكأفراد يجب أن يعاملوا، بالطبع، بمجاملة وتهذيب، وكروس يظهرون حساسية بالغة إذا ما عوملوا على أنهم أقل شأناً، وكما قال لي رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان ذات يوم، بأنهم يريدون إلى أبعد الحدود أن يرحّب بهم على قدم المساواة كأعضاء في النادي الدولي لرجال الدولة الأوائل في العالم، فلدى البلدان، كما هي الحال بالنسبة للأفراد غالباً ما تولد قلة الأمن النزعة العدوانية، والولع بالقتال، لا سيما عندما يعتقد الطرف المتحسس بأنه قد أهين وأحِط من قدره، إن الإهانات المكشوفة تثير غضب الروس، وتجعلهم أكثر ميلاً للنزعة القتالية، لذا يتوجب علينا أن نلتزم جانب الرقة والحساسية فيما يخص هذه الأمور.

ولست هنا في صدد الاقتراح بأن العلاقات الشخصية الحسنة أو السيئة، ستكون ذات أثر كبير على علاقات الدولة، غير أنه لا يمكن بأية حال من الأحوال الفصل بين الاثنتين، لأن كليهما يؤثر على الآخر، ولا ينبغي أن نفترض بأن العلاقات الشخصية الأفضل ستؤدي بصورة أوتوماتيكية إلى تحسين العلاقات السيئة للدولة، لكن الحقيقة التي تظل قائمة هي أن ضعف العلاقات الشخصية سيجعل من الأصعب تحسين العلاقات السيئة للدولة، حتى أنه يمكن أن يقوّضها.

ويطيب لي أن أقترح القواعد التالية على الذين يتفاوضون مع الزعماء السوفييت:

١ . أي رئيس يعتقد بأنه يستطيع حمل رجال الكريملين على تغيير سياساتهم «باحترامهم»، أو ببساطة عن طريق الاقناع الشخصي فإنما بحاجة إلى ايقاظ بقساوة، فلقد حاول فرانكلين د. روزفلت في طهران ويالطا، ومثني بالاخفاق. فالانكشاف الذي بدّد بسرعة مشاعر الغبطة التي تمخضت عن اجتماعات جنيف عام ١٩٥٥، وكمب ديفيد عام ١٩٥٩، وفيينا عام ١٩٦١، وغلاسبور عام ١٩٦٧ شهادة واضحة على أن ترديد أقوال الاحترام والاسترضاء بكل فصاحة غير ذي تأثير دائم على الزعماء السوفييت الجلفين البراغماتيين (الذرائعيين).

٢ . إن السلوك من جانب الرئيس الذي يبدي حساً بالضعف أو التردد، قد يؤدي إلى خطأ في الحساب من قبل الزعماء السوفييت، وإلى اختبار الإرادة الأمريكية كما حدث لخروتشوف وأتبع قمة فيينا عام ١٩٦١ بوضع الصواريخ في كوبا عام ١٩٦٢.

٣ . في حين يجب عليه تحاشي النزعة العاطفية اللينة، فإن الرئيس لن يحقق أي شيء بالصراخ والإدعاء والنزعة العسكرية، فالروس سادة التبجّح، وبإمكانهم عادة استقصاء ذلك التكتيك في حال

استخدامه ضدهم، فالادعاء والعادات السيئة قد يرهبان الضعيف، أما القوي فأبداً، فالحديث بهدوء، ولكن بثبات مع حمل عصا كبيرة، هو أكثر الطرق فعالية للتعامل مع السوفييت.

٤ . إن الزعماء السوفييت يلقنون الدروس منذ ولادتهم لكي يكونوا متآمرين، ومن هنا تأتي أهمية عدم كشف جميع أوراقك لهم على الطاولة، وقبل كل شيء لا تقل لهم أبداً ما لن تقوم به، فقد يظنون بأنك قد تفعل أكثر مما تستطيع، أو ترغب فعله.

٥ . ينبغي علينا ألا نرتكب الخطأ الشائع كأن ننسب تيمناً للسوفييت. مثلاً:

(آ) يتأثر الغرب بالرأي العام العالمي، أما السوفييت فيتأثرون بمصالحهم فقط، وقرارات الأمم المتحدة التي تدين أعمالهم لا تخفق في ايقاف السوفييت عند حدهم فحسب، بل إنهم، يلقونها بالترحاب والسرور.

(ب) إن كبح جماح القوة يعتبر من قبيل الفضيلة في الغرب، أما السوفييت والمعتدون الكبار الآخرون فيعتبرون دلالة على الضغط، فاستبعاد الأمريكيين للقوة يحرّض على استخدامها ضدنا.

(جـ) «الإخلاص» مفهوم مثالي غربي، لا يعني شيئاً بالنسبة للسوفييت، وقد قال لي سفيرنا السابق في روسيا، تشالزي بوهلن. في إحدى المرات: «إن محاولة تحديد ما إذا كان الزعماء السوفييت مخلصين في أي شيء، عمل عديم الجدوى». واستطرد السفير، مشيراً إلى طاولة يقول «إنهم ماديون، وليس بوسعك أن تنعتهم بالإخلاص أكثر من استطاعتك وصف هذه الطاولة بهذه الصفة».

(د) إن موقفي الغرب والشيوعيين من السلام قطبان متنافران، وقد سألت جون فوستر دالاس قبل قيامي بزيارة موسكو عام ١٩٥٩، عن رأيه بنظرة بعض خبراء السياسة الخارجية إلى أن هدفي الرئيسي يجب أن يتركز على اقناع خروتشوف، أن الولايات المتحدة تنشد السلام، وتقف إلى جانبه، فأجابني يومها «أنني أخالفك في الرأي مخالفة كلية، فهو يعرف بأننا ننشد السلام، وعليك أن تحاول إقناعه بأنه لن يستطيع كسب حرب».

٦ . يتوجب علينا بألا نتفاوض أبداً من مركز الضعف، فمثلاً يجب علينا ألا نجري أية مباحثات بشأن الحد من الأسلحة، قبل أن يصبح لدى الولايات المتحدة برنامج موثوق لاستعادة التوازن العسكري في وجه السوفييت على الساحة، وبغير ذلك فإن السوفييت سيضعون أعناقنا تحت حد السكين، وعلى طاولة المباحثات يمكننا التفاوض معهم فقط على أساس ما سيكون لدينا ولديهم على وجه التحديد في الترسانة.

٧ . الجمع بين التماسك والثبات أمر لا مناص منه أبداً، وكما أوضح مراسل وكالة اليونايتد بريس في موسكو جوزيف غالوي، عندما كتب مؤخراً يقول:

«لقد تبين لي من تعاملي مع الروس، كما حدث للكثيرين من قبلي، بأن من الأفضل أن تعلن عن غرضك وأهدافك، وخط سيرك اعلاناً واضحاً وثابتاً منذ البداية، ثم تشق طريقك ذاك بكل ذرة عزيمة وإصرار تمتلكها.

فإذا تنازلت حتى عن أصغر مبادئك، ستقنع الجانب الآخر بأن هناك على الأقل فرصة للتنازل عن مبادئك الأكبر، وإن الإمكانية كافية لإبقاء الروس مؤثرين عليك إلى الأبد.

إن سلوك الديبلوماسية الأمريكية مع السوفييت خلال العامين الماضيين والنصف قد قضى على قواعد السلوك البسيطة هذه مراراً وتكراراً.

كانت القرارات تتخذ من جانب واحد دون سعينا للحصول على أي تنازل سوفييتي بالمقابل، وكنا نظهر تلهفنا غير المتقن للتوصل إلى اتفاق في مستهل المفاوضات الصعبة، كانت القضايا العرضية تطرح فيلتزم النفوذ الأمريكي بتأييدها فقط، ليتاح لها أن تضمحل وتفنى، وبدلاً من أن يسمع الروس صوتاً واحداً محدداً، كانوا يسمعون ضجيجاً من اختلاط أصوات أصحاب التصلب والليونة، من واشنطن الرسمية».

وكثير من صانعي الرأي في الولايات المتحدة يعتبرون الزعماء السوفييت أقل قدرة مما وجدتهم شخصياً فآرثر شليسينغر على سبيل المثال يحاجج قائلاً: «إن المتصلبين عندما يميلون إلى الاعتقاد بأن الاتحاد السوفييتي دولة ديناميكية هادفة، تتبع سياسة قائمة على التماسك وبعد النظر والترابط، بيد أن الاتحاد السوفييتي بلد متعَب، كئيب يتزعمه رجال مرضى قدماء، أنهكته المسائل الصعبة التي لا تذلل في الداخل والخارج، ويعيش أزمة بعد أخرى...».

يتراءى لي بأنه على حق فيما يقول، ولكن إذا ما نظرنا إلى سجل الاتحاد السوفييتي الذي لم تنقطع نجاحاته في تحقيق الاحتلالات عبر السنوات الخمس الماضية، فإنني أخشى أن يكون على خطأ، وما يجب أن نبقيه في أذهاننا بشكل دائم هو أن الجيل الجديد من الزعماء السوفييت سيكون على الأقل بخشونة الجيل القديم، وربما أكثر خشونة، بما أن غروميكو وكوسيغين ومعظم الأعضاء الحاليين، الآخرين في المكتب السياسي، على عكس بريجينيف، لن يؤخذوا بذكريات شخصية واضحة عن أهوال الحرب العالمية الثانية، والشيء الوحيد الذي يمكننا أن نتأكد منه هو أنهم: مثل هؤلاء الذين كانوا من قبلهم سيلتزمون باستراتيجية النصر، والتمسك باستراتيجية ثابتة للنصر من جانبنا وحده سيجنبنا الهزيمة، فعلى الغرب أن يقابلهم بزعماء يعادلونهم بالقوة والذكاء، وإن كان ثمة شيء آخر مطلوب منهم، فمزيد من التصميم على الدفاع عما هو حق، بدلاً من المضي بما هو خطأ.

النصر

يمكننا أن نخسر الحرب العالمية الثالثة أو يمكننا أن نكسبها؟

يمكننا أن نخسرها بالانهزامية: أي بالتصور بأن الصراع لا يمكن كسبه ولا يستحق الكسب، يمكن أن نخسرها باستيقاظنا متأخرين وتنبهنا لأهمية النزاع، أي بإذعاننا الطويل وقبولنا بالمكاسب الزائدة التي يمكن للجانب السوفييتي تجميعها لتحقيق انتصار سوفييتي كبير وحتى حاسم، ويمكن أن نخسر باستخفافنا بحلفائنا غير الكاملين، أو الصراعات التي تشكل إهانة لأحاسيسنا، ويمكن أن نخسر بالركون إلى التسامح الذاتي، وبالقول لأنفسنا بأن التضحية تنتظرنا

حتى الغد، وبتأجيل القرارات الصعبة حتى تصبح الحاجة واضحة، لدرجة أن تلك القرارات تأتي متأخرة، ويمكن أن نخسر بواسطة نوع من «الشلل بالتحليل»، بتجميع النظرات المنطقية المبالغ في عقلانيتها لكل تقدم سوفييتي واستخدامها كعذر لعدم قيامنا بالعمل.

أو يمكننا كسبها . إذا قررنا ذلك.

إن الضرورة الأولى هي أن ندرك بأننا نستطيع كسبها، بل إن كسبها واجب علنا.

والضرورة الثانية هي أن نصر على وجوب كسبها، ونتخذ ونتقيد بالقرار السياسي الأساسي القاضي بقيامنا بكل ما هو ضروري من أجل ضمان النصر، قد يبدو ذلك أمراً بسيطاً، لكنه في الواقع ليس كذلك، إنه يتطلب عودة واعية إلى مفهوم السلام عن طريق القوة، ويتطلب طرح الكثير من جعب المثقفين البالية بعيداً والتخلي عن الكثير من الشعارات الرائجة، كما يتطلب تجاوز الأصوات المتعالية لكثير من أصحاب المصالح المنفصلة الذين يلحون جميعاً على المطالبة بقيام غيرهم بالتضحية بدلاً من أن يقوموا بها هم أنفسهم، وإنه يتطلب القبول بالمخاطر.

إن أميركا والغرب بحاجة لرجة بشعور من الالحاح، فلم يعد لدينا الآن حقل احتياطي لاستيعاب الأخطاء الذي كان متوفراً لدينا قبل سنوات غير طويلة، ولقد اختفى ذلك الحقل مع فقدان ميزتنا في مجال الأسلحة الاستراتيجية.

فعندما كانت الولايات المتحدة تتمتع بميزة حاسمة في مجال الأسلحة الاستراتيجية، كانت التحولات الطفيفة نسبياً في التوازن السياسي العالمي تتمخض عن نتائج ضئيل نسبياً، ولكن مع فقدان تلك الميزة، أصحبت تلك التحولات، عندما تحدث ضد مصلحتنا، أكثر انذاراً بالخطر، تماماً كما تهم الخطوة في غير موضعها الراقص على الحبل، أكثر مما تهم المتسكع على قارعة الطريق، ومع تعرض وداج الغرب النفطي . أي الخليج العربي للخطر مباشرة اليوم، فإننا نفقد خط أماننا مع خط الخطأ.

وقد كان المرحوم دين آشيسون قد كتب قبل أكثر من عقدين من الزمن يقول:

«إن القرارات الهائلة، التي ستحدّد ما إذا كان بلدنا سيصبح ما يجب أن يكون، ويفعل ما يجب أن يفعله أم لا، إذا كان للعالم غير الشيوعي أن يجتمع ويقف وقفة واحدة، ويقاد قوياً وحراً عن طريق المنافسة، السلمية، أو «الحرب الباردة»، أو الحرب الفاترة، أو الحرب الساخنة، أو ربما جميعها، منفردة أو مجتمعة، قرارات كثيرة ومتراكمة، وستجر هذه القرارات الينا بالبساطة الدراماتيكية التي فصل بها دوي القنابل القضية في بيرل هاربور، وهكذا فإنه بوسع الديمقراطية أن تختم مصيرها بتدريجية وحتمية ظاهرة قد تبدو لتعمي زعماءها عن طبيعة الطريق أمامهم، كما أعميوا خلال سنوات ما قبل الحرب الأهلية».

وقد أصبحت ملاحظة آشيسون أكثر صحة اليوم.

فبوسعنا أن نسير في طريق تلك التدريجية نزولاً، أو بوسعنا أن ننهض بأنفسنا، ونقرر تغيير الطريق.

أن بمقدورنا أن نزيد زيادة هائلة من مساعينا الدفاعية، إذا ما قررنا ذلك، وباستطاعتنا تأجيل الأهداف الاجتماعية المرغبة، لكي نضمن بقاءنا، إذا ما قررنا ذلك، وبإمكاننا نقل حرب الشفق إلى العدو إذا ما قررنا ذلك، كل ما يتوجب علينا أن نفعله إذن هو اتخاذ القرار.

فبعد اتخاذنا للقرار بأننا سنقوم بما تقتضيه الضرورة القيام به، يجب علينا عندئذ أن نواصل مهمتنا وفق استراتيجية دقيقة التنسيق، تشتمل على كل من المدى القصير، والمدى البعيد معاً في آن واحد.

لقد تبين بأن كلاً من الاحتواء والانفراج يشكلان بصورة أساسية استراتيجيتين دفاعيتين مصممتين، لمنع السوفييت من التقدم، ومنع تصعيد الحرب العالمية الثالثة، والآن بعد أن ألقى الغرب سلاحه تداعت جدران الاحتواء، وقام السوفييت بتحركات نحو التصعيد، تنذر بالخطر، لذا فقد أصبحنا على المدى القصير بحاجة لاستراتيجية دفاعية لمواجهة اندفاعات السوفييت، وإننا بحاجة إلى استراتيجية أمامية على المدى البعيد، فالاستراتيجية السوفييتية ليست دفاعية، بل إنها معدّة لضمان النصر، والرد الوحيد لاستراتيجية النصر من جانب السوفييت هو استراتيجية النصر من جانب الغرب.

إن الغاية السوفييتية تظل على ما كانت عليه: وهي الكسب بدون حرب إن أمكن ذلك، وبالحرب إذا لزم الأمر، والنصر بالنسبة للغرب لا يعني بالضرورة الانتصار في الحرب، لكن النصر بدون حرب يتطلب منا أن نكون من القوة بما فيه الكفاية للحيلولة دون فوز السوفييت، سواء بالحرب أو بدونها.

لا بد لنا إذن من استعادة قوتنا العسكرية، بحيث يصبح لدينا بدون أي شك كلاً من القدرة للدفاع عن مصالحنا، والمقدرة على عرض تلك القدرة في مناطق الاضطراب في أنحاء العالم، وسيستغرق ذلك زمناً، والزمن في هروب، فإذا ما بدأنا على نحو من السرعة وبشدة سيكون باستطاعتنا تقصير مدة الخطر الحاد التي سيستطيع خلالها السوفييت تحقيق التفوّق العسكري علينا، وزيادة ٥% في الميزانية العسكرية غير كافية برمتها لرد المد، لأن ذلك سيترك السوفييت أسبق منا بشوط بعيد في مجال الاتفاق المعني، وبذلك يوسعون مدى التفوق علينا خلال السنوات الخطيرة لمطلع ومنتصف الثمانينات، فكل ما تفعله زيادة ٥% هي تخفيض معدّل القوة السوفييتية بالنسبة لمعدل قوة الولايات المتحدة، وليست هذه علامة حل بل علامة تكيّف مع الظروف.

إن أصدقاءنا وخصومنا على حدٍ سواء، يدركون تماماً بأن قوة الضمانة والتحذير من قبل الولايات المتحدة بقوة القوات التي تدعمها، وأكثر من ذلك فإن قوتهما تقاس فقط بالإرادة المبينة من قبل الرئيس، لاستخدام تلك القوات، إذا اقتضت الضرورة ذلك، فعندما يجعل الرئيس بشكل متكرر قضية سياسية من ادعائه بأن أمريكا واحداً لم يقتل في الحرب خلال مدة إدارته، قد يحقق

كسباً داخل البلاد، لكنه يخسر صفقة في الخارج، لأن الزعماء الآخرين لا بد أن يتساءلوا إلى أي مدى يسمح لنفسه بأن يّدفع، قبل أن يغامر بهذا السجل.

واستراتيجية النصر تتطلب منا أن نتحرك على الفور لاسترداد كل من الاستخبارات والأسلحة المستورة «للسي. آي. ايه» (وكالة الاستخبارات المركزية) بحيث تتوفر لنا معلومات أفضل، ووسائل أكثر لمعالجة الأخطار التي تهدّدنا وتتهدد الآخرين، وبحيث نستطيع أيضاً أن نخوض حرب الشفق على العديد من الجبهات المخفية المعني فيها خصمنا، وعلينا أن نقوم بذلك الآن بدون معارضة فعالة.

إن من واجبنا استرداد الشرف، لأولئك الذين يخوضون حروب الأمة، سواء بارتداء البذات العسكرية في صفوف القوات المسلحة، أو غالباً في دوائر «السي. آي. ايه» الأكثر خطراً.

وأكثر البلدان المعنية مباشرة في طريق الأطماع السوفييتية، بلدان ضعيفة وغير مستقرة، والعدوان في الحرب العالمية الثالثة غالباً ما يقع خلف الحدود أكثر مما يقع عليها، بشكل انقلابات، أو أعمآل عصيان يدعمها السوفييت، إن الولايات المتحدة آخذة بتلقي الضربات في جميع أنحاء العالم، لأن الكيل قد طفح: فالبلدان المحايدة، أو البلدان الموجهة من قبل الغرب، قد أضحت ميادين صيد مفتوحة أمام السوفييت وعملائهم الوكلاء، في حين أن البلدان الموجهة من قبل الشيوعية أصبحت أماكن مقدسة ذات امتيازات ولقد دأب الروس على تقديم الأسلحة لعملائهم، في حين دأبنا نحن على القاء المحاضرات على أصدقائنا، بشأن الحقوق الانسانية.

وعلى هذين الصعيدين يجب على الولايات المتحدة أن تضع ملاحظة عامة واضحة، بأن سياساتها ستتغير قريباً، لقد أصبح العالم الثالث أرض معركة تدور رحى الجزء الأكبر من المرحلة الحالية للحرب العالمية الثالثة فوقها، وأنه لمن مصلحة شعوب العالم الثالث وبلدانه، كما ومن مصلحتنا بأن يسود جانبنا، فإذا ما كسبنا الحرب العالمية الثالثة، يمكن لجميع الشعوب أن تحافظ على بقائها، وتمضي في الطريق الذي تريده مع اتاحة الفرصة أمامها، للتقدم نحو الحرية والازدهار، وإذا ما كسبها الروس، فسيصبح الجميع عبيداً وأتباعاً.

إن البلدان التي تواجه التهديدات التي يدعمها السوفييت، بحاجة للسلاح كي تدافع عن نفسها، ويتضمن ذلك الأكثرية من أنظمة الحكم غير الديمقراطية، والأقلية التي يمكن أن يطلق عليها اسم الديمقراطية، ومن هنا وجب علينا ألا نتلاشى بالارتباك، عندما نتهم بأننا «تجار أسلحة»، ففي الحرب العالمية الثانية كنا قد أعلنا عن أنفسنا بأننا «ترسانة الديمقراطية». وليس أمر أقل حيوية في الحرب العالمية الثالثة، لأن أصدقاءنا بحاجة للسلاح، كي يدافعوا عن أنفسهم، ومن هنا وجب علينا أيضاً أن نكون أقل تصلباً، وأكثر أقداماً على تقديم السلاح، حيث تدعو الحاجة إليه من أجل وقف التقدم السوفييتي، ويجب علينا أن نتوقف عن إدانة حكومة صديقة، ورفض تقديم المساعدة لها، عندما يكون وجودها مهدّداً، لمجرد أن الانتخابات قد جرت فيها بأمانة أقل مما جرت الانتخابات في بعض الأمكنة عندنا أحياناً كبوسطن أو شيكاغو، حتى إذا كان نظام الحكم

اضطهادياً أو صارماً، فمن المحتمل أن يكون البديل الشيوعي ليس أسوأ بالنسبة للغرب فحسب، بل أسوأ بالنسبة لشعب البلد ذاته.

والخطوة الأساسية التي يجب أن نتخذها هي التغلب على دلائل «اللاتعسف» التي تحيط بالامبراطورية السوفييتية، والتي جعلت الحرب مقتصرة على الحدود من جهتنا، ويجب علينا أن نعلن منذ الآن بأننا سنعتبر أنفسنا أحراراً في البحث عن الكلأ على الجانب السوفييتي، كما كانوا وما زالوا هم يبحثون عنه على جانبنا.

ولا يعني ذلك أن ندعم بصورة اوتوماتيكية، أي، أو كل حركات التحرر داخل الفلك السوفييتي، فنوع الموانع العملية ذاتها التي أبقت الغرب بعيداً عن التدخل في تقديم المساعدة للمجريين عام ١٩٥٦، وللتشيك عام ١٩٦٨، على سبيل المثال، يجب أن يظل ساري المفعول، وقد يكون من سوء الخدمة بمكان أن تتمسك بالآمال الكاذبة بتقديم المساعدة إلى أولئك الذين لن يتسلموها، غير أنه يتعين علينا أن نعتبر أنفسنا أحراراً في دعم أولئك الذين نتصور بأن من مصلحتنا أن نقدم الدعم لهم، إما سراً، أو جهاراً، وعلينا أن نفعل ذلك دون اعتذار، فقائد ثورة شعبية موالية للغرب مثل جوناس سافيمبي في أنغولا، التي تحكمها الشيوعية يجب ألا يرد على أعقابه خاسراً، عندما يقدم إلى الولايات المتحدة طالباً الدعم.

إن الاستراتيجية الرامية لتحقيق النصر، على المدى الطويل، تستدعي أن نقوم بمراقبة القدرات السوفييتية، وأن نستغل نقاط ضعف السوفييت، فالقدرة السوفييتية الأساسية عسكرية والاستراتيجية السوفييتية قائمة على القوة، أما من الناحية الاقتصادية فإننا نفوقهم انتاجاً، وبالنسبة لتقديم ما يريده أبناء الشعب، وتلبية رغبات النفس الانسانية، فلا مجال للمقارنة بين النظامين لأن الغرب يكسب بالتزكية مسبول اليدين، والسوفييت يستطيعون الاحتلال، لكنهم لا يستطيعون الأقناع أبداً، ولقد حققت موسكو نجاحات باهرة في توسيع نطاق سيطرتها على البلدان الأخرى، لكنها لم تنجح البتة في كسب تأييد بيد شعوب تلك البلدان.

وقبل أكثر من ألفي عام كان الاستراتيجي الصيني القديم سون تسو قد وضع المبدأ التالي: انخرط «بالشينغ» ـ أي القوة المباشرة العادية ـ، ولكن اكسب «بالتشي» ـ أي القوة غير المباشرة فوق العادية، وقد رأى بحكمته بأن الاثنتين تعززان بعضهما بشكل متبادل، وأن الطريق إلى النصر باستخدامهما في آن واحد معاً.

ففي عصرنا الحالي لا خيار لنا سوى الانخراط «بالشينغ» ـ أي أن نزج بقوتنا العسكرية في وجه قوة الاتحاد السوفييتي، ونجمع حلفاءنا صفاً واحداً، ونزيد من القوة المجتمعة للغرب، تلك هي الطريق لتحاشي الهزيمة، وهذه هي الطريق لاحتواء التقدم السوفييتي، إنها خطوة أساسية أولى، تماماً كما ينبغي على المد أن يتوقف عن الدخول قبل خروجه، والخطوة الثانية ـ أي المضي نحو النصر والربح «بالتشي» ـ في الوقت الحاضر أكثر تعقيداً، وأكثر حذاقة، وألح مطلباً، ومع ذلك فللغرب هنا أكبر الميزات، اللهم فقط إذا استطعنا تجميعها واستخدامها.

وهذا يتطلب الصبر والمواظبة، لقد تجلى نمط التقدم السوفييتي بالتحرك خطوتين نحو الامام، وخطوة نحو الخلف أحياناً، لذلك فإن النمط الناجح لعكس ذلك التقدم، سيكون بالتحرك خطوة نحو الخلف، وخطوتين نحو الأمام.

فالهزيمة، إذا ما وقعت، يحتمل أن تكون كبيرة، وستحل بنا بتلك «التدريجية والحتمية الظاهرة» التي كان آشيسون قد حذر منها. وبالنموذج ذاته فالنصر، إذا ما تم، سيأتي خطوة فخطوة دقيقة، كما أن تحقيقه سيتم بتحاشي السير بخطوات خاطئة، علينا إذن أن نتعلم لندرك بأن المكاسب الكبيرة، هي مكاسب حقيقية، وإن اتجاه التحول، أي عزم التاريخ، كما يتصوره بعض زعماء البلدان الأخرى سيكون بمثابة عنصر أساسي في نجاحنا أو اخفاقنا، وسيتوجب علينا أن نعمل من أجل الانتصارات الضئيلة التي يمكن أن تتراكم وتعكس العزم الخلفي، وتعطي الإشارة لأولئك القادة الذين يتطلعون إلى عربة الجوقة، بأن الغرب يسير إلى الأمام، فعندما يفيض نهر يقوم أولئك الذين يسكنون على ضفافه غير المحمية يحزم أمتعتهم، والهروب إلى بر السلامة، أما أولئك الذين يقيمون على الضفاف المحمية فيشعرون بالأمان ضد الفيضان.

إن الجمع بين قوة الغرب العسكرية والإعلان عن الإرادة لاستخدامها، يشكل من الناحية العملية الحاجز أو السد الذي سيحتوي نهر التوسع السوفييتي الذي يتزايد مستواه ارتفاعاً، وطالما يظل ذلك السد عالياً بما فيه الكفاية، ويبدو عالياً، فإن البلدان التي تعيش على ضافه ستمتلك الشجاعة للتربّص بدلاً من الهروب، وكلما ازداد عدد المتربصين بنجاح، كلما ازداد عدد المتشجعين للانضمام إليهم في التربص.

والغاية السوفييتية تتجلى بتحقيق النصر الكامل، وكل شيء يقومون به معّد لتحقيق تلك الغاية، فتكتيكهم المفضل هو تحديد نقطة الضعف الكبيرة لدى الغرب، أو العالم الثالث، ثم تركيز قوة هائلة على تلك النقطة المعينة، ولقد تبين في أوقات مختلفة بأن تلك النقطة غالباً ما كانت حكومة غير مستقرة، كما هي الحال في ايطاليا، أو حكومة غير محبوبة، كما في نيكارغواي أو إرادة بلد، كمحاولاتهم كسب حرب فييتنام على الجبهة الأمريكية الداخلية، أو الجريمة كقيامهم ببذل المساعي لجعل الغرب يتخذ موقفاً دفاعياً عن كل شيء يلصق به الشيوعيون عبارة «امبريالية» ولقد حققوا بعض النجاحات الهامة جداً باتباع أنواع مثل هذا التكتيك، لكن لديهم أيضاً نقاط ضعف يمكن النيل منهم فيها إلى أبعد حد، لأنها تجعلهم في غاية الهشاشة.

ومن بين نقاط ضعفهم أنهم يتصرفون باستمرار بأساليب تجعلهم مكروهين جداً، فتخمتهم العدوانية تولد استجابات غاضبة لدى الآخرين، والتحالفات بالنسبة للسوفييت ليست سوى توقفات قصيرة على طريق التبعية، وهناك بلدان أخرى تشكل أهدافاً للاعتداء؛ وهي الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية الكبيرة، وعندما علقّ لينين قائلاً: «سندعم كيرينسكي كما دعم الحبل للرجل المشنوق» إنما كان يعرِّف بكل دقة طبيعة الصداقة السوفييتية، ولم يضع ذلك على أولئك الذين يسعى السوفييت إلى زرع صداقتهم.

وعندما يضع السوفييت قدمهم على الباب، يتصرفون بفظاعة وقسوة لدرجة أن مضيفيهم يدفعونهم خارج الباب، فلقد طرد الخبراء السوفييت من مصر في عام ١٩٧٢، ومن الصومال في عام ١٩٧٧، وأطيح كذلك بالحكومات الموالية للسوفييت في تشيلي عام ١٩٧٣، وفي البيرو عام ١٩٧٦، وفي غانا عام ١٩٦٦، كما أنهم لا يتمكنون دائماً من توطيد أقدامهم عندما يحاولون، فلقد قضي على الثورات الشيوعية أو المدعومة من قبل الشيوعية في بلدان عديدة بما فيها اليونان ١٩٤٩، والفيليبين عام ١٩٥٣، والملايو عام ١٩٦٠، والكونغو عام ١٩٦٢ وعُمان عام ١٩٧٥، وقد تم بنجاح احباط محاولات الانقلابات الشيوعية في جمهورية الدومينيكان، وفي اندونيسيا عام ١٩٦٥، وفي السودان عام ١٩٧١، وفي البرتغال عام ١٩٧٥، كما وفي أماكن أخرى عديدة.

كان الصينيون في السابق يشيرون إلى السوفييت على أنهم «أشقاؤهم الكبار» أما الآن فقد أصحبت الصين الد أعداء الاتحاد السوفييتي، وهي عملاق يتقاسم مع جمهوريات الاتحاد السوفييتي الحدود على طول ٤٠٠ ميل، ويدّعي الصينيون ملكية جزء من أراضيها.

ولقد دار الكثير من الأحاديث عن «لعبة الورقة الصينية»، لكن مثل هذا الحديث يهين الصينين، الذين لا يرغبون في أن يكونوا «ورقة يلعب بها»، ويمضي البعض إلى القول بأننا سعينا خلال مدة ادارتي إلى إيجاد علاقات أوثق مع بكين، بحيث نتمكن من استخدام الصينيين ضد موسكو، وعندئذ أرغمت موسكو على السعي من أجل جعل علاقاتها معنا أفضل، إن ذلك تقويم مشروع، لا يعدو عن كونه نصف حقيقة، فحتى لو لم تكن هناك خلافات بين روسيا والصين، يظل من مصلحتنا، تحسين العلاقات مع الصين، وأكثر من ذلك، كما أوضح هنري كيسنجر بأن فكرة «استخدامنا للصين لإزعاج السوفييت كعقاب عن سلوكهم»، هي فكرة تنطوي على الخطر لسببين اثنين: لأن «الصين مؤلمة جداً للاتحاد السوفييتي، وتثير عصبيته، الأمر الذي يجعله لا يرد بصورة منطقية»، وكذلك لأنه «قد يكون لها أثر سيء على بكين، فإذا قمنا بتمتين الروابط مع بكين، لكي نعاقب الاتحاد السوفييتي، أو إذا قام الاتحاد السوفييتي ببعض التنازلات لنا، فقد نخفض مستوى نشاطاتنا مع بكين، لذا يتوّجب علينا أن تكون لدينا سياسة متوّضعة بعيدة المدى».

وأنه لمن مصلحتنا أن تكون هناك صين قوية، لأن وجود صين ضعيفة يشجع على العدوان، ويزيد من خطر نشوب الحرب، ومن هنا كان علينا أن نقوم نحن وحلفاؤنا الأوروبيون بكل ما هو ضروري، لكي نرى الصين تمتلك القدرة العسكرية اللازمة لنوفر لها الدفاع عن نفسها، والصينيون، من جانبهم، يرغبون في رؤية الولايات المتحدة قوية مصممة، فإذا ما رأونا نتراجع أمام السوفييت، قد يقرروا بأن مصالحهم تكمن في التقارب من الاتحاد السوفييتي. ليس لأنهم سيتفقون فجأة مع السوفييت، أو يتوقفون عن كرههم لهم، وخشيتهم منهم، بل لأن الجمع بين القوة السوفييتية والضعف الأمريكي سيحملهم على القيام بإعادة تقويم أين تكمن مصالحهم.

وتصعيد التنافس الصيني السوفييتي بحد ذاته لا يمكن أن يشكل سياسة الولايات المتحدة، لكن التنافس قائم، وهو يوفر الفرصة والبيئة التي يمكن إعداد السياسة فيها، فالسياسة المثلثية يمكن

أن تعمل لصالحنا، أو لغير صالحنا، وطالما أن التنافس مستمر لا يطوي جزءاً كبيراً من القوى السوفييتية عسكرياً فحسب، ويؤثر على الميزان الكامل للقوى، بل أنه يقوّض جدياً المركز السوفييتي في العالم الثالث، ففي التحدث إلى العديد من زعماء العالم الثالث لدى الصين ما تعتمد عليه، مما لا تستطيع الولايات المتحدة مجاراتها فيه، فهم سيسمعون إلى التحذيرات الصينية، في حين لن يقيموا أي اعتبار لتحذيراتنا.

ولدى السوفييت الحق في أن يشعروا بعدم الأمان، فهناك نظام تكمن المحافظة عليه فقط بالقوة، وحيثما تضعف مقدرتهم على ممارسة القوة يصبح حكمهم مهدداً.

فشعوب أوروبا الشرقية تكره سادتها الروس، وعلى المدى القصير تظل فرصة قيام أي من تلك البلدان بفصل نفسها عن نطاق الاستحواذ السوفييتي فرصة ضئيلة، ولقد أظهر السوفييت بأن لديهم الإرادة في استخدام أية قوة مطلوبة لسحق أي تمرّد في أوروبا الشرقية، وهم يعرفون كم هي مهزوزة سلطتهم على أوروبا الشرقية، ومدى هشاشة المنطقة بأسرها أمام «تأثير الدومينو»، إذا ما استطاع بلد واحد أن يفلت ويصبح حراً.

فإلى أن يفعلوا ذلك سيكون استعجالهم في الاندفاع نحو الحرية بمثابة استنضاب للموارد السوفييتية، وعندما يفعلون سيجد السوفييت أنفسهم بأنهم لا يستطيعون ابقاء علامة «الحجر» على حدودهم لمنع سريان عدوى الحرية.

ومن بين أقوى الحلفاء لدينا في الصراع ضد زعامة الكريملين هو شعب الاتحاد السوفييتي، وكواحد من أعلى الأصوات وأقواها بين أبناء الشعب السوفييتي كان الكسندر سولجينيتسين قد أوضح يقول: «جميع الشعوب المضطهدة تقف إلى جانب الغرب: الروس والجنسيات المختلفة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، والصينيون والكوبيون، وباعتمادها على هذا التحالف فقط يمكن لاستراتيجية الغرب أن تحقق النجاح، ومع المضطهدين جنباً إلى جنب فقط سيشكل الغرب القوة الحاسمة على وجه المعمورة، وهذه الشعوب هي نقطة الضعف أو المقتل للشيوعية، وبإمكانهم أن يكونوا السلاح السري للحرية إذا ما أدركنا أهميتهم الاستراتيجية الكبيرة».

والتاريخ يبيّن بأن تراص الصفوف بين البلدان يتبدل، ففي الحرب العالمية الثانية حاربنا مع السوفييت جنباً إلى جنب ضد ألمانيا واليابان في الحرب العالمية الثانية، وقد أصبحت اليابان وألمانيا الغربية حليفتنا ضد الاتحاد السوفييتي الآن، وكانت الصين حليفتنا في الحرب العالمية الثانية أيضاً، ثم عدوتنا في كوريا وفييتنام، أما الآن فالصين ليست حليفتنا، لكنها صديقتنا، وعدوة الاتحاد السوفييتي.

وعندما ننظر إلى القوى الجبارة للجانب الغربي يمكننا أن نعدّ بينها ليس حلفاؤنا فقط، وأنما تلك البلدان التي تقف بعلاقة غير سهلة مع الاتحاد السوفييتي، أي نصفها داخل حوزة الاتحاد السوفييتي، والنصف الآخر خارجها، إذا لم تنتقل تلك البلدان إلى الوقوف معنا، فإننا نكسب بابتعادها عن جانب السوفييت.

أما البلدان المشاركة مع الغرب بمحض حريتها، فيمكنها استخدام جميع القوى من أجل رد العدوان، ويتعين على الاتحاد السوفييتي أن يستخدم جزءاً من قواته لابقاء «حلفائه» تحت السيطرة، أما التحالف الغربي فيزداد قوة برغبة الانسان الفطرية لأن يكون حراً، والاتحاد السوفييتي هش القوام، في وجه مقاومة الانسان الفطرية للعبودية.

وقوة الاتحاد السوفييتي على حلبة هذا الصراع قوة عسكرية، فهم يسعون لتحقيق النصر عن طريق العدوان، وإدخال الرعب للقلوب، ولكي يحققوا هذه الغاية، يسعون للتفوق العسكري، أنهم يحكمون بالقوة ويسعون إلى توسيع نطاق حكمهم بالقوة.

فعلينا إذن أن نضع هذا المطمح تحت المراقبة، وعلينا أن نمتلك القدرة والإرادة للحيلولة دون كسبهم بالقوة، ولكن علينا بعدئذ أن ننقل الصراع إلى تلك المناطق التي هم ضعفاء فيها، بينما نحن أقوياء فيها، وبالرغم من قدرتهم العسكرية، فإنهم يخفقون حتماً في تقديم ما يريده الناس.

إن الناس يريدون السلام، ويريدون التقدم المادي، كما أنهم يريدون أن يكونوا أحراراً من السيطرة الأجنبية، أنهم يريدون «القيم العليا» . أي حرية الكلام، وحرية السفر، والعبادة والاختيار، والحرية بمختلف جوانبها.

إن السوفييت يعدون بالسلام، فيأتون بالحرب، ويعدون بالتقدم الاقتصادي، فيأتون بالفقر، ويعدون «بالتحرر» فيأتون بإمبريالية جديدة، ويعدون بالحرية، فيأتون بالعبودية، وفي هذه المجالات جميعاً يظل سجلهم الذاتي أفضل رد على أقوالهم، وحيثما يتقابل السوفييت والغرب في المنافسة، لا يبقى هناك، بكل بساطة، أي تبارز.

لذلك يجب علينا أن نتمسّك بخط التصدي للعدوان بشقيه المباشر وغير المباشر، بحيث لا تدعو الحاجة أولئك الذين يختارون الوقوف مع الغرب إلى خشيتهم من أنهم يقفون مع الجانب الخاسر، ويجب علينا أن نقف إلى جانب أصدقائنا، بحيث أن الذين يرغبون بصداقتنا لن يخشوا من أن يصبحوا أصدقاءنا، ومن المتوجب علينا أيضاً هو أن نستخدم قدرتنا الاقتصادية الهائلة، لدفع عجلة تقدم أصدقائنا إلى الأمام، والضغط على أعدائنا الأقوياء.

وهكذا يمكننا على المدى القريب، إذا ما استعدنا قوة دفاعاتنا، أن نوقف، ثم نرد التقدم السوفييتي، بتركيز جهودنا على مناطق الأهداف المباشرة، وأن نظهر العزيمة الثابتة على القيام بكل ما هو ضروري، من أجل الحيلولة دون نجاح العدوان، وكلما تعاظمت قوة الغرب، وأظهر تحكّمه بإرادته، كأن يظهر بأنه لن يكرر الأخطاء التي ارتكبت في ميونيخ، هناك أمران سيحدثان: اولهما، إن زعماء العالم الثالث الذين يسيرون في ركاب الطرف الرابح ستكون نظرتهم أكثر احتراماً للغرب، حاسبين ما تعود به علاقات الصداقة معنا عليهم من فوائد، وثانيهما أن الزعماء السوفييت سيعيدون تقويم تكاليف إقدامهم على المغامرة مدركين بأنه بينما تزداد قوة الغرب وتماسكه وإرادته حسابياً، فإن تكاليف العدوان سترتفع هندسياً.

أما على المدى الأبعد، فبوسعنا أن نشجع التحرك السلمي داخل الاتحاد السوفييتي ذاته، لكن هذه المهمة في جميع الأحوال ليست مسألة عقود من الزمن، بل أجيال منه، فإذا ما ألحينا على الإسراع بها قد تؤدي إلى قمع وحشي، أما إذا طبقت بشكل تدريجي بحيث تكون أقل تهديداً بصورة مباشرة لأولئك المتربعين على عرش السلطة في أي وقت كان، فإنها قد تحقق نتائجها المرجوة تدريجياً، تماماً كما فعلت في ظل حكم القياصرة في القرن التاسع عشر.

والمهمة التي تواجهنا ليست مهمة ملقاة على عاتق الولايات المتحدة وحدها، طالما أن التهديد الحالي للخليج العربي يجعل من الواضح بأن للغرب بأسره مصلحة مباشرة في الصراع، وكذلك للدول المهددّة ذاتها، فلا معنى لقيام الولايات المتحدة بتقديم السلاح والمال والرجال لمواجهة كل أزمة، وهناك أكثر من ثلاثة بلايين نسمة ممّن هم خارج المعسكر السوفييتي، ومن هؤلاء ٢٠٠ مليون أميركي فقط، وكما بيّن الفرنسيون في أفريقيا، فإن حلفاءنا يمكن أن يردوا بفعالية أكثر مما نستطيع نحن رده، لا سيما في المناطق التي ألفوها مدة طويلة، وبلدان الخليج العربي الإسلامية الغنية بالنفط تتقاسم مصلحة مشتركة في الدفاع عن استقلالها، وعن الإسلام ضد أي توسع سوفييتي في أفغانستان، غير أن الغرب يتطلع فعلاً إلى الولايات المتحدة من أجل القيادة، كما أن السوفييت يتطلعون فعلاً إلى الولايات المتحدة في حسابهم لما يستطيعون سحبه.

وإذا ما نظر السوفييت غرباً، ووجدوا قيادة أمريكية ترقب تحركاتهم بطريقة محسوبة، ترفض الرضوخ بكل وضوح، ومصممة على القيام بكل ما يستوجب القيام به من أجل ضمان بقاء وأمن الغرب، عندئذ لن يجدوا ما يغريهم للمغامرة والمخاطرة بإلقاء حبة الزهر من علٍ، وسيقومون أيضاً بتحليلهم لمعدل الكلفة والربح، ويؤجلون أو يتخلون عن مطامحهم التي لم تعد تبدو لتساوي وحدة القياس، وعندها سنرى كيف يساعد الاستعداد للحرب على تفادي وقوعها، وكيف يحررنا امتلاك القوة من ضرورة استخدامها.

وغالباً ما كنت أستشهد بمعادلة السير روبرت تومبسون التي تنص على أن: القوة الوطنية تساوي جداء الموارد الطبيعية المستخدمة، بالإضافة إلى القوة البشرية مضروبتين بالإرادة، فالإرادة في استخدام القوة تزيد من فعاليتها، وعندما تدرك تلك الإرادة جيداً من قبل الخصوم، قد يصبح استخدامها الفعلي غير ضروري.

والقوة بحد ذاتها محايدة، إذ يمكن استخدامها للخير أو الشر، ونتائجها لا تقاس بالنوايا، وإذا ما استخدمت القوة بنوايا طيبة، ولكن بحماقة، فقد تصبح هدامة كاستخدامها بنوايا سيئة، ومهما يكن من أمر، فأكبر المآسي تحدث عندما يخفق في استخدام القوة أولئك الذين يملكونها، وبسبب ذلك الاخفاق تزهق الأرواح، حتى أن الحرية ذاتها تضيع.

ولقد كانت الروح الانسانية قد صدّت مراراً وتكراراً معظم الهجمات الشنيعة التي شنّت عليها وسقطت المدنيات أمام البرابرة، لكن البربرية في نهاية الأمر كانت تخضع للمدنية، غير أن انتصار الروح هذه، كان يحدث على مدى طويل جداً، والتحدي الذي يواجهنا الآن هو أن نبدي أن مدنية معينة ـ مدنيتنا ـ يمكن أن تنتصر على بربرية معينة ـ الشيوعية السوفييتية ـ، وهكذا يمكننا أن نحافظ على الحرية لأبنائنا وأحفادنا.

الفصل الثاني عشر

السيف والروح

«هناك قوتان في العالم فقط، وهما السيف والروح، وعلى المدى الطويل سيظل السيف دائماً مغلوباً من قبل الروح».

نابليون

قام مؤخراً رئيس وزراء بريطانيا السابق هارولد مكميلان، الذي ما زال يتمتع بالتألق رغم أنه يناهز الخامسة والثمانين من العمر، بمقارنة الوضع الحالي في العالم بوضع أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية، فقد صرح قائلاً «أقولها للأمانة بأننا اليوم في عام ١٩٣٥ أو ١٩٣٦» واستطرد قوله محذراً: «يمكننا أن ننقذ أنفسنا فقط بنظرتنا إلى الحقائق وبتنظيمنا للمقاومة التي يجب أن نخلقها، إذا لم نكن لنخسر ما كسبناه في حربين عالميتين في الحرب الثالثة».

في أواخر الثلاثينات كان لدى البلدان الواقعة في طريق هتلر، الوقت لايقاف الحرب العالمية الثانية قبل ابتدائها، لكنها تجاهلت التحذيرات وتفتتت يومئذ.

وكان وينستون تشرشل في خطاب «الستار الحديدي» الذي ألقاه في فولتون بميسوري عام ١٩٤٦ قد أعاد للأذهان قائلاً:

«آخر مرة شهدتها قادمة، فصرخت بأعلى صوتي مخاطباً أبناء بلدي، والعالم، لكن أحداً لم يعر انتباهاً، فحتى عام ١٩٣٣، أو حتى عام ١٩٣٥ كان بوسع ألمانيا أن تنجو من المصير المرعب الذي حل بها، وكان بوسعنا أن نتجنب جميعاً المآسي التي أوقعها هتلر بالجنس البشري.

فليست هناك في التاريخ حرب، كانت أسهل للحيلولة دون وقوعها بالعمل الموقوت من تلك التي ألحقت الخراب بمثل هذه المناطق الكبيرة من الكون، لقد كان حقاً بالإمكان تفادي وقوعها، باعتقادي. دون إطلاق طلقة واحدة، ولكان بوسع ألمانيا اليوم أن تكون قوية ومزدهرة مشرّقة، لكن أحداً لم يسمع، وسحبنا الدوار جميعاً واحداً تلو الآخر».

ولدى البلدان الواقعة في طريق موسكو اليوم الوقت لتحاشي الوصول إلى نفس المصدر، الذي وصلت إليه تلك البلدان التي كان واقعة في طريق هتلر في الثلاثينات، ولكن مجرّدة فقط.

ستعتمد نتيجة «الصراع الطويل الأمد» بين الشرق والغرب على ترساناتنا العسكرية، ورؤيتنا الاستراتيجية، وسيطرتنا على تلك الموارد، التي تدعو الحاجة إليها، من أجل بناء أسلحة الحرب، وقوى السلام، لكنها ستعتمد أيضاً على كيفية استخدامنا لمورد آخر، وهو أثمنها جميعاً، والذي يعتبر لأي، أو كل واحد منا. محدوداً: ألا وهو الزمن. فإذا ما خسر الغرب هذا الصراع سيصبح تحذير ماك آرثر عندما قال: «إن تاريخ الإخفاق في الحرب يمكن أن يلخص بكلمتي: فوات الأوان» شاهدة على قبره.

وتاريخ الحرية بمجمله هو حكاية النضال ليكون حراً، ويظل حراً، فليست الحرية رخيصة، والحفاظ عليها ليس سهلاً، وبغض النظر عمن ننسبها اليه: القدر كان، أم التاريخ، أم الله، أم الحظ، فإننا نتحمل مسؤولية فريدة من نوعها في زماننا ومكاننا، فليس ثمة شيء يمكن أن يتركه جيل اليوم إلى إرادة الغد يعني أكثر من أرث الحرية، وإن ذلك الإرث اليوم يخضع لتهديد فاسٍ، أكثر من أي وقت مضى.

ولسوء الحظ فإن «حدود اليوم الجديدة» هي التوسعية السوفييتية: أي حدود التقدم السوفييتي في: أفريقيا، والشرق الأوسط، وآسيا الوسطى، وحدود المزيد من سيطرة النفوذ السوفييتي عن طريق الأحزاب الشيوعية المحلية، في: أوروبا الغربية، وعن طريق حركات «التحرّر»، وعن طريق إعادة كتابة التاريخ المحسوبة، وعن طريق الهزات والدعاية، والهجمات على تلك المؤسسات، والحكومات التي تقف في طريق المطامح السوفييتية.

والحقيقة المكشوفة القاسية، هي أن الغرب يمنى بالقهقرة على جميع هذه الجبهات، بينما يحرز الاتحاد السوفييتي التقدم، وهكذا فإن الحرية تتقهقر، بينما يتابع الاستبداد (التوتاليتارنية) المسير.

إن لدى الاتحاد السوفييتي ٦% من سكان العالم، كما أنه يمتلك ١٠% من إنتاجه، ومع ذلك فهو يستأسد على جيرانه، ويهدّد العالم، أما الـ ٩٤% المتبقية من شعوب العالم بـ ٩٠% من إنتاجه، فتبدو بشكل متزايد لا حول لها ولا قوة، في وجه المطامح السوفييتية.

فلم هذا يا ترى؟

إن الجواب على هذا السؤال هو أنه يجب ألا يكون الأمر كذلك، ولا حاجة لصيرورته.

وما لم تقم القوى الكبرى بالعمل كما يجدر بها، فإنها ستترك فراغ قوة تقوم بملئه قوة كبرى أخرى، لقد بدت الولايات المتحدة متخبطة قلقة، ومترددة، فاندفع الاتحاد السوفييتي لملء الفراغ الذي حدث من عدم تحركنا، والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي يشكلان طرفي معادلة القوة الأساسية التي ستسيطر على العقود الأخيرة من القرن العشرين، واتجاه تاريخ العالم في المستقبل سيتحدد بالاتجاه الذي يبدو فيه تحول التوازن بين البلدين أياهما.

فالزعماء السوفييت قد يبدون فلاسفة أفظاظاً، غير أنهم محترفون بارعون في ممارسة القوة، وبانتقاصهم لوخزات الضمير التي يتمتع بها الغرب، يمكنهم أن يكونوا في غاية اللاشفقة وانتهازيون لأبعد الحدود في استخدامهم للقوة، وهذا ما يجعلهم في زمن تعادل القوة خصم كبير، وإذا ما طور الغرب فقط حساً بالغاية مساوياً لحسهم. رغم اختلافه عن حسهم. يمكننا أن نأمل بتحويل الميزان لصالحنا.

كان هناك فرنسي مشهور وهو عمانويل جوزيف سيئيس، استطاع أن يعيش خلال السنوات العشرة القاتمة بين عام ١٧٨٩ و١٧٩٩، وعندما وجه إليه السؤال في المحكمة في فرساي بعد ذلك بكثير: «ماذا فعلت طوال سنوات الثورة؟» أجاب «بقيت حياً».

هذه هي المهمة الملحة والمباشرة التي يواجهها المدافعون عن الحرية في السنوات القائمة القادمة: أن يحافظوا على بقائهم وببقائهم يبقون الحرية ذاتها على قيد الحياة، وما لم يحافظ الغرب على بقائه خلال العقود القليلة القادمة فإن المدنية الغربية كما نعرفها، بكل مثلها وحضارتها وتطلعاتها الكبيرة ستنسحق في غبار التاريخ.

وبإبقاء هذه الأفضلية واضحة في الذهن يستطيع الغرب أن يحافظ على بقائه، أما بدونها فقد يشكل فجر القرن الحادي والعشرين الفصل الأول لعصر جديد للبربرية على نطاق عالمي، لأن البقاء لم يعد أمراً أوتوماتيكياً، لقد دخلنا بداية فترة ينبغي علينا فيها العمل من أجل ضمانه، وينبغي علينا أن نضحّي بالأولويات الأخرى باسم تلك الأولوية العليا، ويتوجب علينا أن نتنازل عن بعض مثلنا المحبّبة وننفق من ثروتنا أكثر مما نرغب على الأسلحة وأشكال الدفاع الأخرى.

وقولنا بأنه يتعين علينا اعتراض مسيرة الاستعباد الجديد بكل جهد مطلوب، لا يعني إعلان الجهاد المقدّس، ولا يعني إعلان الحرب أبداً، إن ذلك يعني، في أية حال، التسلح الكافي لمنع الطرف الآخر من شن الحرب، ويعني في الحقيقة تدخلنا الفعلي حيث تدعو الضرورة، لإيقاف التوسع السوفييتي، ودفعه نحو الوراء في تلك المراكز التي تقوم موسكو فيها باختبار نهايات حدودها الجديدة.

فقد يكون من المريح الاعتماد على مقولة نابليون: «هناك قوتان في العالم فقط، وهما: السيف والروح، وعلى المدى الطويل سيظل السيف دائماً مغلوباً من قبل الروح»، لكن هذه المقولة تعني بالنسبة لتواضع نابليون كجندي أكثر مما تعنيه بالنسبة لدقته كمؤرخ.

وقد تسود الروح على المدى الطويل إذا ما قسنا ذلك المدى بعصور ألفية، ولكن على المدى الأقصر للعقود والأجيال، وحتى القرون كانت الروح مراراً وتكراراً قد هزمت بالسيف، وبالنسبة للجيل الذي دمِّرت مدنه، وقتل أبناؤه، وسحقت حرياته من قبل جيش محتل، فإن الأمل بأنه بعد ألف سنة، سيكون قيام للروح مرة أخرى، مجرد راحة باردة، وفي ذلك المدى القصير الذي نعيش فيه جميعاً، يعتبر السيف الدرع الأساسي للروح.

وعلى أية حال فإن إحدى القوى المتوفرة لدينا في هذا الصراع، هي أن الروح نفسها يمكن أن تكون سلاحاً . وبينما يمتلك السوفييت السيف فإن جانبنا يمتلك كلاً من السيف والروح.

في عام ١٨٣٩ قامت مركيزة (امبراطورة) كوستين بزيارة روسيا، وأدلت بالملاحظة التالية: «إن كلمة واحدة عن الحقيقة إذا ما ألقيت في روسيا، ستكون بمثابة شعلة تلقى في برميل بارود». وحقيقة أن النظام السوفييتي يعيش اليوم على الكذب، تجعله ضعيفاً جداً في وجه الحقيقة، مما يمكنها النيل منه في غاية السهولة، والحقيقة تستطيع خرق الحدود وتسير بقوتها الذاتية حيثما تلتقي شعوب، وأفكار الشرق والغرب، فلدى روسيا رقابة مشدّدة لكن شعبها يتوق للحقيقة، وهكذا فإن إرسال رسالة الغرب عبر كل حاجز استبدادي (توتاليتارني) . سواء عن طريق تبادل الزوار، أو عن طريق الكتب أو الإذاعات . سيبعث الأمل في نفوس الملايين من الناس الموجودين خلف تلك

الحواجز، فتبدأ أسس النظام السوفييتي بالتآكل تماماً، كما يتآكل أساس السجن بتأثير المياه المترشحة.

يجب علينا ألا تقشعر أبداننا من دعاية الحرب، سواء داخل الاتحاد السوفييتي، أم في بقية أنحاء العالم، ويجب علينا أن نحيي إذاعة حرية أوروبا، وإذاعة الحرية، ونجعل منها نظيراً ينافس بصورة مباشرة الدعاية السوفييتية في مناطق العالم الثالث، التي يجعل السوفييت منها أهدافاً للعدوان.

وغالباً ما كان خروتشوف يتحدى الغرب لمنافسته للشيوعية، وفي عام ١٩٥٨ ألححت، في خطاب وجهته إلى اتحاد الكومونولث لمتحدثي اللغة الانكليزية في غايلد هول في لندن، على أن الغرب يقبل بالتحدي ويوسع نطاقه، وقلت يومئذ:

«إننا نقول: وسّعوا نطاق هذه المنافسة، واجعلوه يتضمن القيم الروحية والحضارية، التي تميزت بها مدنيتنا...

فالإنسان بحاجة إلى درجات أسمى، أي الحرية لكي يعرف، والحرية لكي يناقش بحرية، ولكي يدون ويعبر عن آرائه.

إنه بحاجة للحرية التي يضمنها القانون والعدالة لكل فرد... أنه يريد الحرية كي يسافر، ويتعلم من الشعوب والحضارات الأخرى، إنه يريد حرية العبادة.

وبالنسبة لنا تعتبر هذه الأمور، أسمى وأثمن أوجه المدنية، وكم يسعدنا قيام الآخرين بالتنافس في هذا المجال، ومحاولتهم تجاوز منجزاتنا فيه.

وسواء اختار السوفييت التنافس في هذه المجالات أم لا، يطلب منا أن نقوم بمنافستهم بكل ما أوتينا من قوة، فلندع فكرة الحرية تدق أبواب المتاريس، وتصل عبر قضبان السجون، وتمسك الطغيان من العنق وتهزه بعنف، إن السوفييت بحاجة للاتصال مع الغرب، كما أنهم بحاجة لتقنيتنا وتجارتنا، وليس باستطاعتهم اسكات إذاعتنا وليس باستطاعتهم أن ينغلقوا بأنفسهم عن العالم، وعندما يفتحون شق الباب ليصلوا إلى ما يبغونه، علينا أن ندفع عبر ذلك الشق من الحقيقة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، وفي تلك المناطق من العالم التي لا تصل إليها قواتهم البوليسية. أي في مناطق الأهداف التي تدور فيها المعارك الحالية للحرب العالمية الثالثة. أن نشهر الحقيقة، ونستخدمها كالسيف في وجههم».

وكان ماركس قد قال عن الدين بأنه «أفيون الشعوب» لكن زعماء الكريملين اليوم يجدونه بمثابة صخرة صلبة لا يمكن كسرها، فعودة البابا يوحنا بولس الثاني المنتصرة إلى بولونيا، أجبرت السوفييت على الاجترار بقساوة بكلمات ستالين التي أدلى بها في الثلاثينات عندما سأل بازدراء: ما هو عدد الفرق لدى البابا؟ فليس لدى البابا فرق مدرعة لكنه لا يمكن للدبابات السوفييتية أن تسحق ما لديه من قوات، إن العواطف التي بثها تصل إلى صلب الروح الإنسانية، فالإيمان الديني قوة غالباً ما تقوّم بأقل من قدرها من قبل أولئك الذين لا يفهمونها.

وبالتحليل النهائي فإن النصر سيسير إلى جانب من يبني القوة ويجمعها، ويستخدمها على أفضل وجه وأمضاه فعالية ـ ليس قوته العسكرية فقط، وإنما كافة قواه مجتمعة.

إن الطريق للنصر متعرج ومليء بالصعوبات، كالطريق الجبلي، يتضاعف أحياناً مرتين نحو الخلف قبل التقدم نحو الأمام، وكالطريق الجبلي أيضاً يتطلب الصبر، والمواظبة لعبوره، فمن يضنيه التعب ويسقط على قارعته لا يحقق النصر.

والقوة هي المقدرة على جعل الأمور تأخذ مجراها، والتأثير على الأحداث لرسم مسار التاريخ، فبعض أنواع القوة يمكن أن تطبق بفاعلية على المدى القصير، وبعضها الآخر يحتاج لأجيال من الزمن كي يفعل ذلك.

فالصينيون، بصورة تقليدية، يفكرون على أساس عصور ألفية، والروس على أساس، قرون، والأوروبيون على أساس أجيال من الزمن، أما نحن الأمريكيين فعلى أساس عقود منه، لذا يترتب علينا أن نتعلم بأن تكون نظرتنا أبعد، وعندها يصبح الاحتمال أكبر في أن تتخذ، على المدى القصير، بالإجراءات اللازمة لتحقيق النتائج التي نبتغيها على المدى الطويل، وعندها ستدرك أيضاً بأن النصر، إذا ما تحقق، سيكون كبيراً، ولذلك فإن كل جبهة من جبهات الحرب العالمية الثالثة لها أهميتها، وإن لكل معركة من معاركها أهميتها، وإنها كلها مجتمعة إما أن تحقق لنا النصر، أو تجلب لنا الهزيمة.

لقد تحدّث وودروويلسون عن جعل العالم آمنا من أجل الديمقراطية، ومهمتنا اليوم هي أن نجعل العالم آمناً من أجل الحرية.

فالديمقراطية سياسية، وهي نظام من ابتكار المنطق الإنساني، أما الحرية فشخصية، إنها كفاح الروح الإنسانية، الديمقراطية شكل معيّن للحكومة طورته الأعراف البرلمانية في أوروبا الغربية، وقد أتى بها إلى أمريكا الشمالية المستوطنون الأوروبيون، ثم تطوّر مع نمو بلدنا، أما الحرية فشرط إنساني.

الحرية يمكن أن تعيش حتى وتترعرع في ظل أنظمة أخرى إلى جانب الأنظمة الديمقراطية، والفضل في هذا البلد هو لقرون من التطور السياسي وتبدّله، لأننا محظوظون كثيراً، لتنعمنا بالحرية والديمقراطية معاً، ويجب علينا ألا نرتكب الخطأ بمحاولتنا فرض الديمقراطية الفورية على بلدان غير مستعدة لها، وبذلك إنما نعبد الطريق للقضاء على مثل الحريات التي تتمتع بها.

وجعل العالم آمناً من أجل الحرية، عندئذ، لا يعني إقامة الديمقراطية في كل مكان على وجه الأرض، إنه يعني، في الحقيقة، جعل الحرية آمنة حيثما وجدت: آمنة ضد العدوان المكشوف، وضد القمع المدعوم من الخارج أيضاً، فإذا ما جعلنا الحرية آمنة حيثما وجدت، عندئذ ستصبح الحرية بقوة مثلها موجة المستقبل.

وبقدر ما تسود الولايات المتحدة، بقدر ما يصبح العالم آمناً بالنسبة للبلدان الحرة، وبقدر ما يسود الاتحاد السوفييتي بقدر ما يصبح العالم غير آمن بالنسبة للبلدان الحرة، فالطغيان على

النمط السوفييتي يعيش بالتوسع، أما الحرية فتتسع بعيشها، ولكن لكي تتسع يجب أن تبقى على قيد الحياة أولاً.

لقد قال ديغول عن فرنسا ذات يوم، بأن الدولة العظمى لا تكون أبداً هي ذاتها، ما لم تنخرط في روح مبادهة كبيرة، فضمان البقاء والانتصار النهائي للحرية البشرية، هو أعظم مبادهة يمكن لأمة أن تتشجع على الأقدام للانخراط بها.

والنصر بغير حرب يتطلب منا أن نصمم دون تردد على استخدام قوتنا بطرق غير طرق الحرب، وهناك اليوم مجال رمادي واسع بين السلم والحرب وسيقرّر الصراع إلى حد كبير في ذلك المجال، وإذا كنا نأمل بالنصر بدون الحرب، أو حتى بألا نخسر بدونها فعلينا أن نشغل الخصم في المجال المذكور. حتى ولو عنى ذلك بأننا نتصرف بأساليب وطرق غير تلك التي نختارها في عالم مثالي.

ولا يمكن الفصل بين طرق استخدام القوة، وبين أغراض القوة. والجدل القديم حول ما إذا كانت «الغاية تسوغ الواسطة» لا معنى له من الناحية المجردة، ويصبح له معنى فقط على أسس ثابتة فيما إذا كانت غاية معينة تسوغ واسطة معينة، والاختبار الحقيقي للمثالية يأتي بنتائجه، وهناك بعض الغايات ذات القيمة الأخلاقية السامية تسوغ فعلاً بعض الوسائل التي لا تسوغ في ظروف أخرى.

إن الحفاظ على الحرية هدف أخلاقي، والقضاء على العدوان هدف أخلاقي، وتفادي الحرب هدف أخلاقي، وإيجاد الظروف التي من شأنها أن تحافظ على السلام مع الحرية إلى جيل أبنائنا هدف أخلاقي كذلك، فالتقصير في اتخاذ أية وسيلة تدعو الحاجة إليها من أجل أبقاء الحرية على قيد الحياة، سيكون ضرباً من التخلي عن الأخلاق.

والنصر لا يعني أن نكون «شرطي العالم»، بل يعني إظهارنا بوضوح كامل، الحقيقة أننا نعتبر حدود التوسع السوفييتي كحدودنا الدفاعية، وأن ردنا عليه سيكون وفقاً لذلك، وهذا يتطلب فعلاً إيماناً قوياً، وكما أوضح هذه النقطة لنكولن عندما قال بأننا في جانب الله، وأن قضيتنا قضية حق، وأننا نعمل لصالح الإنسانية جمعاء.

وقد يبدو أمراً «ميلودراماتيكيا» أن يعامل القطبان التوأم للخبرة الإنسانية الممثلة بالولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي كمعادل لفكرة الخير والشر، أو النور والظلام أو الله والشيطان، ومع ذلك فإذا ما سمحنا لأنفسنا أن نفكر بهما على هذا النحو، حتى ولو فرضياً، سيساعد ذلك على توضيح منظورنا على حلبة الصراع العالمي، وكما قال الكاتب البريطاني مالكولم موغجيريدج: «إن الله والشيطان... يشكلان الفكرة الرئيسية لمسرحية وجودنا المميت، وبهذا الصدد يمكن مقارنتهما بالقطبين الموجب والسالب، اللذين يولدان تياراً كهربائياً، فإذا ما بدل وضع القطبين، ينقطع التيار، وتنطفئ الأنوار، فيحل الظلام، ويصبح كل شيء فوضى بفوضى».

إن الولايات المتحدة تمثل الأمل والحرية، والأمن والسلام، أما الاتحاد السوفييتي فيمثل الخوف والاستعباد والعدوان والحرب، فإذا لم يمثل هذان الإثنان قطبي الخير والشر في القضايا

الإنسانية، لن يكون عندئذ لمفهومي الله والشيطان أي معنى، فأولئك الذين لا يستطيعون تمييز الفرق بين الاثنين، لا يحق لهم أن يحاضروا فينا حول مسألة الضمير، والأمر كذلك لأن كثيرين قد «بدّلوا وضع الأقطاب» لدرجة أن نور المنطق قد خفت فانتشرت فوضى خطيرة، وإنهاء تلك الفوضى يشكل الخطوة الأولى نحو رؤية طريق النصر.

لقد احتفلت أميركا مؤخراً بالذكرى العاشرة لهبوط الإنسان، ومشيه على سطح القمر للمرة الأولى، ولقد كانت تلك المغامرة قد استحوذت على التصور الإنساني كما فعلت أحداث قلة في التاريخ، لكن المغامرة التي تشير إلى أنها قادمة في طريقها ستكون مغامرة أكبر، فبسفرة إلى القمر يكون الانسان قد خطى إلى السماء، وبمواجهتنا لهذا التحدي الكبير هنا على سطح الأرض يمكننا جعل العالم آمناً للحرية. وبذلك نكون قد حققنا ما وصفه الفلاسفة لقرون من الزمن كهدف للبشرية.

وقد تملّك الفضاء خيال الإنسان بغموضه أكثر مما تملكه بسحر تقنيته، ومع ذلك لم يكن الغموض هو الذي أوصلنا إليه، بل العبقرية والرؤية والشجاعة والمواظبة، والعمل بإصرار من قبل آلاف الناس الذين جمعتهم المبادهة المشتركة.

والعقبات التي تواجهنا في مبادهتنا الحالية ليست أقل هولاً، لكنها كمغامرتنا في الفضاء، أمر يمكن تحقيقه أيضاً.

إن هذا الصراع صراع جبابرة، وصراع لم ير الإنسان مثيلاً له في عمره، ولن يكون بمقدورنا أن نسود بالمنفعة القصيرة الأجل بإعلان حالة الطوارئ بصورة مفاجئة، وخلق الوهم بأن التحدي يمكن أن يعالج بسرعة ثم نضعه وراء ظهرينا، والتحدي الذي نواجهه لن ينتهي خلال عام أو عقد زمني، ولكي نتصدى له علينا أن نعدِّ أنفسنا لمستوى معزز من الإرادة والقدرة، والنصر في هذا الصراع سيأتي عن طريق المواظبة، وعدم التوقف، وبالعودة مراراً وتكراراً عندما تبدو الأمور صعبة، كما أنه سيأتي عن طريق القيادة التي، في أزمة تلو الأخرى، ترفع أنظار الشعب الأمريكي من الحضيض إلى الذروة والسمو، ومن الغور إلى الصبر.

فإذا ما عزمنا على الفوز، وإذا ما قررنا أن نقبل بأن لا بديل عن النصر، عندئذ يصبح النصر ممكناً، وعندها تفسح الروح المجال للسيف، فيحافظ السيف عليها، وتسود الحرية.

❖ ❖ ❖

مصادر تمت العودة إليها

الفصل الأول:

١ . وليام مانشستر. قيصر أمريكا . بوسطن: ١٩٧٨ . ص ١٨٢ .

٢ . ولتر ليمان. فلسفة الشعب . بوسطن: ١٩٥٥ . ص ٤ .

الفصل الثاني:

١ . مقابلة مع تنج ساونج في ٥ شباط ١٩٧٩ . ص ٣٤.

٢ . برين كرزير. استراتيجية البقاء . نيوراشيل: ١٩٧٨ . ص ٩.

٣ . هذه حرب ليست كما حدث في الماضي... «أنظر ميخائيل. ب . بتروفتش . ترجمة» «محادثات مع ستالين» من قبل ميلوفان جيلاس نيويورك: ١٩٦٢ . ص ١١٤ .

٤ . إمكانية الرقابة... «أنظر تشارلز م. كوبرمان» «وجهة نظر العالم السوفييتي» بولسي رفيو . شتاء ١٩٧٩ . ص ٤٥ .

٥ . فرانيس اكس مائير «مجلة جوناس سافيمبي» المشاهد الأمريكي. كانون الثاني ١٩٨٠ . ص ٨.

٦ . التدلي من الشجرة... «أنظر ملاحظات سيمون . نيتو لحفلة صحفية» أي.م. ربورت كانون الثاني ١٩٧٩ . ص٢ .

٧ . ب.هـ.. ليدل هارت . الاستراتيجية . ط. ثانية. نيويورك: ١٩٦٧ . ص ١٦٤ .

٨ . اقتباس من لاجئ . لوس أنجلوس تايمز . ١١ تموز ١٩٧٩ القسم الأول: ص ١٣ .

٩ . ايرفنغ كرستول . السياسة الخارجية . نهاية حقبة. وول ستريت جرنال ١٨ كانون الثاني ١٩٧٩ .

الفصل الثالث:

١ . الديمقراطية في أمريكا . تأليف ألكس. دو توقوفيل . ترجمة هنري ريف، تحقيق هنري ستيل كوماجر . الكتاب الأول. الفصل ١٩ . لندن . مطبوعات جامعة اكسفورد.

٢ . التقاليد الروسية (اقتباس عن كاتب من القرن التاسع عشر من قبل تيبور صامويلي) لندن: ١٩٧٤ . ص ٢٥ .

٣ . وصف قتال نوفوغورد تم أخذه من صامويلي. التقاليد الروسية. ص ٣٣.

٤ . «فعلاً مستعمرة سوفييتية» أنظر سوارتز ترجمه «سفراء (للصين) ومبعوثين روس» فيلادلفيا ونيويورك: ١٩٦٤ . ص آ ١١ .

٥ . روسيا البكماء: أنظر برترام. د. وولف «ثلاثة صنعوا ثورة» ط. رابعة . نيويورك ١٩٧٨ . ص ١٧ . ٢٤.

٦ . روبرت كونكوست . النفقات الإنسانية للشيوعية السوفييتية» واشنطن . مطابع حكومة الولايات المتحدة . وثائق ٩٢ . ٣٦ . ١٦ تموز ١٩٧١ . ص ٢٣ .

٧ . التقارير عن الموت في معسكرات العمل الإجباري وأثناء المجاعة مأخوذة من كتاب «انذار إلى الغرب» تأليف الكسندر سولزنتسن ترجمه هاوس. ل. كولتر وناتالي مارتن. نيويورك: ١٩٧٦ . ص ١٩ .

٨ . الاقتباس عن مولوتوف مأخوذ من فكتور كرافشنكو «خيار الحرية» نيويورك: ١٩٤٦ ص : ٨٧.

٩ . ونستون تشرشل . الحرب غير المعروفة . نيويورك ١٩٣١ . ص ١ ـ ٢ .

١٠ . الطموح المضطرب . أنظر رحلة لأيامنا تأليف ماركيز دوكوستاين ترجمه فللين بن كوهلة . شيكاغو ١٩٥١ . ص ٣٦٣.

١١ . الشعب الروسي سوف... أنظر صامويلي . التقاليد الروسية. ص ١٣٣ .

١٢ . زبجنيو بريجنسكي. الإيدلوجية والقوة في السياسة السوفييتية. نيويورك: ١٩٦٧ . ص ١٣٢ .

١٣ . لم تكن الولايات المتحدة فقط... انظر السياسة الخارجية الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية. تأليف جون سبينر. نيويورك ١٩٧٣ . ص ٨.

١٤ . هاجو هولبورن . سقوط أوروبا السياسي. نيويورك ١٩٦٠ . ص ٩ ـ ١٠ .

١٥ . شارلز . إي . بوهلن . تحول السياسة الخارجية الأمريكية. نيويورك ١٩٦٩ . ص ١٤ ـ ١٥ .

الفصل الرابع:

١ . اقتبس ولسون من مقال ديل . ر تاهتنين «التحديات الأمنية الوطنية في العربية السعودية» . واشنطون: ١٩٧٨ . ص ١ .

٢ . اقتبس مولوتوف من كتاب فوى كوهلر «فهم الروس» نيويورك: ١٩٨٠ . ص ٣٩٨.

٣ . أندري ساخاروف «بلادي والعالم» ترجمه غوى. ف دانييل. نيويورك: ١٩٧٦ . ص ٨١.

٤ . هاري . س. ترومان «عجز ترومان عن العمل بالنسبة لسورية» نيويورك تايمز . ٢٥ آب ١٩٥٧ . ص ٢٣ .

٥ . كبير الأهمية استراتيجياً وسياسياً... أنظر أنتوني سامبسون «الأخوات السبع» نيويورك ١٩٧٥ . ص ١٢٨ .

٦ . أدوار كوتواك «كوبيون في شبه جزيرة العرب» كوماتنري . كانون أول ١٩٧٩ . ص ٦٥.

٧ . حاييم هرتزوق «لماذا لم يكن الغرب مستعداً» وول ستريت جورنال ٢٤ كانون أول ١٩٧٩ .

الفصل الخامس:

١ . ب. هـ . ليدل هارت . الاستراتيجية. ص ١٧ .

٢ . سير روبرت تومبسون حرب ثورية في استراتيجية العالم ١٩٤٥ ـ ١٩٧٠ . نيويورك ١٩٧٠. ص ١١٧ .

٣ . اقتبس جورج مال اكوفرن في سجلان الكونغرس ٢٢ حزيران ١٩٧٠ ص ٢٠٧٣٧.

٤ . فقط الصحافة الأمريكية... أنظر تومبسون السلام ليس بمتناول اليد. لندن ١٩٧٤ . ص ٣٢.

٥ . اقتبس سيهانوك في كتاب كيسنجر «سنوات البيت الأبيض» بوسطن ١٩٧٩ ص ٢٥٠، ٢٥١، ٤٥٩ .

٦ . ل. شلتون كلارك . نيويورك تايمز . رسائل إلى المحرر . ٤ تشرين أول ١٩٧٩ ص ٣٠.

٧ . اقتبس كيسنجر في الايكونومست ١٨ ايلول ١٩٧٩ ص ٧.

٨ . اقتبس دنج في كتاب «أمريكا في فيتنام» تأليف كونثري ليوي . نيويورك ١٩٧٨ ص ٢٠٨.

٩ . الاقتباسات حول المذابح الكمبودية مأخوذة من كتاب «قتل في الأرض الطيبة» تأليف جون بارون وأنتوني بول نيويورك ١٩٧٧ . ص ١٣٤، ١٣٦، ٢٠٦. وتقرير رفع إلى فرع حقوق الإنسان في الأمم المتحدة، واللجنة الفرعية للجنة حقوق الإنسان لمنع التمييز العنصري ولحماية الأقليات . جنيف . ١٩٧٨ .

١٠ . وليام . إي كولبي وبيتر فورباز «رجال شرفاء» . حياتي في السي . آي ايه. نيويورك ١٩٧٨ ص ٢٨٦ .

الفصل السادس:

١ . أو . أدموند كلب . صين القرن العشرين . نيويورك ١٩٦٥ . ص ٤.

الفصل السابع:

١ . الخطابات الكاملة لونستون تشرشل [١٨٩٧ . ١٩٦٣] تحقيق روبرت رودس جيمس المجلد السابع. نيويورك ولندن ١٩٧٤ . ص ٧٢٨٧.

٢ . فكتور أوتجوف «ملاحظات في مؤتمر الأمن القومي» ١٠ شباط ١٩٧٨ .

٣ . بول فتز «هل سالت ٢ صفقة عادلة للولايات المتحدة؟» «واشنطن لجنة من الكونغرس حول المخاطر الحالية» ١٦ أيار ١٩٧٩ ص: ٨ . ٩.

٤ . رتشارد بايب «لماذا يعتقد الاتحاد السوفييتي أنه إذا دخل حرباً نووية سيربحها» كوماتنري تموز ١٩٧٧ ص ٢١ . ٣٤.

٥ . الأكونمست . ٣٠ كانون أول ١٩٧٨ . ص ٨.

٦ . تومبسون «السلام ليس بمتناول اليد». ص ١٧٥ .

٧ . هلموت سكمدت . ملاحظات في جامعة هارفرد. بداية حزيران ١٩٧٩ .

٨ . وزير الدفاع جيمس شلسنجر «مخاطر تمركز القوى النووية في أوربا» «تقرير إلى الكونغرس» ١ نيسان ١٩٧٥ . ص ١٠ .

٩ . اقتبس هولوي وجورشكوف في كتاب «تفهم تطور القوة البحرية السوفييتية» ط. ثالثة . واشنطن ١٩٧٨ . ص ٣، ٦١.

الفصل الثامن:

١ . اقتبس جورج مارشال من كتاب «مشروع مارشال ١٩٤٧ . ١٩٥١». جمعية السياسة الخارجية. رقم التسلسل ٢٣٦. حزيران ١٩٧٧ .

٢ . أن تبني قلعة . حياتي كمتمرد تأليف فلاديمير بوسكوفسكي . ترجمة ميخائيل سكامل. نيويورك ١٩٧٩ . ص ١٤١ .

٣ . «اعتماد السوفييت الاقتصادي على الغرب» أنظر كارل جيرشمان «بيعهم الحبل» كومانتري. نيسان ١٩٧٩ .

٤ . رتشارد. ت ماك كوماك «غسق الحرب» الجيش . كانون الثاني ١٩٧٩ . ص ١٣، ١٨ .

٥ . ارفنغ كرستول «الأسوأ سيأتي» وول ستريت جنرال ٢٦ تشرين الثاني ١٩٧٩ .

٦ . وليام أي سيمون. زمان للصدف. نيويورك ١٩٧٨ . ص ٦٧.

٧ . ملتون فردمان «الرأسمالية والحرية» شيكاغو ١٩٦٢ ص ٩.

٨ . اقتبس هرمان كاهن في لوس انجلوس هيرالد اكسامنر . ٢٩ أيار ١٩٧٩ .

٩ . روبرت نسبب «جني ثمار التقدم» الرأي العام. حزيران . تموز ١٩٧٩ ص ٤ .

الفصل التاسع:

٣ . ايدس هاملتون «صدى بلاد اليونان» نيويورك ١٩٥٧ ص ١٦ . ١٧ .

٤ . أندريه أمالرك «هل سيعيش الاتحاد السوفييتي حتى سنة ١٩٨٤؟ نيويورك ١٩٧٠ ص ٣٣ . ٣٤.

٥ . فوي كوهلر «فهمنا للروس» نيويورك ١٩٧٠ ص ١١٧ .

٦ . اقتبس موسيليني من كتاب «ايديولوجية في السلطة» تأليف برترام د. وولف نيويورك ١٩٦٩ ص ١٦٢ .

٧ . «رينهولد نيبوهر في السياسة» تحقيق هاري ر. ديفس وروبرت س جود. نيويورك ١٩٦٠ ص ٣٤.

٨ . عقلانية روسيا . تحقيق هاري م. جيرولد . بلومنغلتون ١٩٦٤ ص ٣٠ . ٣١.

٩ . مالكولم موجردج «وول ستريت جنرال» ٣١ كانون الأول ١٩٧٩ .

١٠ . وليام بفاف «حول زوال الرؤية الكبيرة» لوس أنجلوس تايمز . ٢٥ آذار ١٩٧٩ .

١١ . ارك هوفر «قبل السبت» نيويورك ١٩٧٩ ص ٣ . ٤ .

١٢ . نورمان بوذورتز من مقابلة مع أدموند فللر . وول ستريت جورنال. ٣١ تشرين أول ١٩٧٩ .

١٣ . الكسندر سولجنتسن «العالم ينشطر إلى أجزاء» ملاحظات في جامعة هارفرد بداية حزيران ١٩٧٨ .

الفصل العاشر:

١ . جيمس ماك غويغور بيرنز «القيادة» نيويورك ١٩٧٨ .

٢ . هيو سايدي «نحن نتجادل حول الشجاعة ثانية» التايمز، ٥ آذار ١٩٧٩ ص ١٣ .

٣ . سير هارولد نلسون «الدبلوماسية» نيويورك ١٩٦٤ ص ٤٣.

٤ . دوايت إيزنهاور «سنوات البيت الأبيض» المجلد الثاني «التحريض على السلم» جاردن ستي ١٩٦٥ ص ٩٧.

٥ . ايران تحت البهوليين . ستانفورد ١٩٧٨ ص ١٥ .

الفصل الحادي عشر:

١ . اقتبس ونستون تشرشل من كتاب «سبع قارات وأربعين سنة» تأليف س.ل. سولز بيرجر. نيويورك ١٩٧٧ ص ١٢٥ .

٢ . جورج ف كنّان «مصادر التوجيه السوفييتية» . «الدبلوماسية الأمريكية» ١٩٠٠ . ١٩٥٠ . شيكاغو ١٩٥١ ص ١٢٦ . ١٢٧ .

٣ . والتر لوكيور «سيكولوجية التهدئة . كوماتنري . تشرين أول ١٩٧٨ ص ٤٩ .

٤ . جوزف كالووي . ملاحظات إلى اليو . بي . آي . سان داكيو . ٢٦ كانون أول ١٩٧٩ .

٥ . آرثر شلنجر «هل هذه الرحلة ضرورية؟» وول ستريت جنرال، ١٨ كانون الثاني ١٩٨٠ .

٦ . دين أشسون «القوة والدبلوماسية» كمبردج ١٩٥٩ ص ٢٦ . ٢٧ .

٧ . مقابلة مع هنري كيسنجر في وول ستريت جنرال ٢١ كانون الثاني ١٩٨٠ .

الفصل الثاني عشر:

١ . مالكولم موكوردج «موكوردج يرى الخلاص رغم خوف الغرب» لوس أنجلوس تايمز ١٧ حزيران ١٩٦٩ .

ملاحظة المؤلف

هذا الكتاب هو آخر ما أنتجته في سان كلمنت . كاليفورنيا، حيث ابتعت منزلاً وأسست البيت الأبيض في الغرب سنة ١٩٦٩، وحيث عشت لمدة خمس سنوات ونصف السنة بعد استقالتي من الرئاسة . من ٩ آب ١٩٧٤ حتى ٩ شباط ١٩٨٠، ولقد كتبت خلال هذه السنوات الخمس والنصف سنة مذكراتي وهذا المجلد، فالثلث قرن الذي قضيته في الحياة العامة كانت له أصداء كثيفة ودروس كبيرة، وأنا أحاول الآن تقديم هذه الدروس لتساعد الغرب على مواجهة تحديات السنوات المقبلة، وجاء كتاب المذكرات بمثابة نظرة نحو الماضي في حين جاء هذا الكتاب بمثابة تطلع نحو المستقبل.

وقد وجدت أثناء العمل، أنني، ولم أعد لا موظفاً رسمياً ولا مرشحاً لوظيفة، أن لذلك فوائد معينة، ليس أقلها أن يستطيع الإنسان التعبير بشكل مباشر وأكثر وضوحاً وحرية، ولقد سبق لهارولد مكميلان رئيس وزراء بريطانيا الأسبق، والذي سبق له أيضاً أن عمل وزيراً للخارجية، أن قال: «وازن دائماً بين السلبية والاندفاع» وحيث أنني خارج السلطة غير قادر على صنع الأحداث مباشرة، فهذا غالباً ما يعيق، خاصة بعدما كنت في وسط الوقائع، إنما قدرتك على التصرف بحكمة فيها تعويض مناسب، فلقد بينت آرائي بصراحة كبيرة وأودعتها في هذا الكتاب بشكل لم يعتد الناس عليه عندما كنت نائباً للرئيس أو رئيساً، وتعكس هذه الصراحة تلك الحرية.

ولقد كان أسهل بالنسبة لي تحديد بعض النقاط عندما انتهى العمل بهذا الكتاب، الأمر الذي كان صعباً عندما بدأت به، ولقد أنهيت كتابته في صيف ١٩٧٩، ثم تابعت مراجعته وتحرير بعض الامور فيه وجلبها إلى تاريخ الصدور،وقد تابعت هذا العمل وقد تابعت هذا العمل أثناء اخراج

الكتاب، وقد وصلت آخر صفحات التجارب الطباعية قبل أن أترك سان كلمنت، وأتحول إلى نيويورك، ولقد صححت هذه الصفحات في الطريق أثناء توقفي في فلوريدا قادماً من سان كلمنت، وأعدتهم إلى الناشر في نفس اليوم الذي وصلت فيه إلى نيويورك لأعيش هناك، أي في ١٤ شباط عام ١٩٨٠، وقد علق بعض الناس الذين قرأوا المسودة الأولى في ايلول عام ١٩٧٩ بأنه من الخطأ الحديث عن التحرك السوفييتي في أفغانستان عام ١٩٧٨ بهذه الضخامة في الفصل الأول، لكن بعدما تحرك الجيش الأحمر إلى أفغانستان في أوائل عام ١٩٨٠ لم يعودوا يعتبرون ذلك خطأ.

ومن بعض الجوانب، إن العمل في هذا الكتاب قد بدأ بعدما أكملت مذكراتي في نيسان ١٩٧٨، حيث التفت نحو كتابة هذا المجلد، جاعلاً إياه عملاً رئيسياً، ومن جوانب أخرى فإن جذور هذا الكتاب تعود إلى ثلاث عشرة سنة مضت إلى سنة ١٩٦٧ عندما بدأت بكتابة مؤلف حول السياسة الخارجية، وذلك قبل حملة انتخابات الرئاسة لعام ١٩٦٨، وحالما بدأت الحملة وضح أن العمل بالكتاب يتعارض مع متطلبات الحملة، لذلك وضعته على الرف، علماً بأن معظم ما كتبته وجد طريقه للنشر في خطاباتي وفي الأفكار التي قمت بتطويرها وتنفيذها سياسياً أثناء رئاستي.

ومن جانب أساسي، فإن أصول هذا الكتاب تعود إلى أكثر من ثلاثين سنة مضت، إلى أيامي الأولى عندما كنت عضواً في الكونغرس في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة، ففي تلك الآونة سافرت خلال أوربا المهدمة بفعل الحرب، بمثابة عضو في لجنة هرتر، حيث تقصينا حول الدور الذي يمكن لأمريكا أن تقوم به في مساعدتها على إعادة البناء، ومنذ ذلك الحين غدت السياسة الخارجية مركز اهتماماتي الرئيسية في عملي السياسي، ففي سنة ١٩٥٣، أي في السنة الأولى من تعييني نائباً للرئيس ايزنهاور قمت برحلة دامت سبعين يوماً زرت خلالها واحداً وعشرين بلداً، وهو أكبر برنامج قام به أي رئيس أمريكي أو نائب للرئيس، فأثناء تلك الرحلة زرت هانوي، عندما كانت ما تزال فرنسية، كما كانت أنا وزوجتي أول زوار رسميين لليابان منذ الحرب العالمية الثانية، وفي نطاق زياراتي تراوح عدد الرؤساء والحكام والملوك الذين لقيتهم فيما بين شاه ايران إلى سنغمان ري في جنوبي كوريا، وكانت جميع النصائح والرؤى التي التقطتها منهم ومن خلال الرحلة قد لازمتني منذ ذلك الحين ولم تفارقني، ولقد تابعت تنفيذ برامج رحلات مكثفة أثناء الثمان سنوات التي قضيتها بمثابة نائب لرئيس الجمهورية ثم في السنوات الثمان التالية التي كنت فيها مواطناً عادياً، بحيث أنني عندما أصبحت رئيساً للجمهورية كنت قد زرت ثلاثة وسبعين بلداً.

وصحيح أن الكتاب يتحدث بلسان مؤلفه لكنه إنتاج عدد كبير من الأيدي، وهكذا فإن الآراء التي قدمتها، في هذا الكتاب هي آرائي وليست بالضرورة آراء الذين شاركوني في إعداد مخطوطته، ومع ذلك فإن ذلك كله قد ساعدني، والتعرض لذكره اعتراف بالمشاركة.

وفيما يتعلق بإعداد مخطوطة هذا الكتاب ومتابعة العمل معي أتوجه بالشكر إلى روزماري وودز التي رافقتني طويلاً، وشكري أيضاً إلى لوي كونت وأيضاً إلى بافليك وكاثي برايس.

ولقد قدم لي عدد من المعاونين والأصدقاء بعض المعلومات والمشورة، وكان لمساعدة أربعة منهم مكانة خاصة لضخامتها وهم روبرت إللسورث السفير السابق في ناتو واللواء فيرنون ج. والترز النائب السابق لمدير إدارة «السي . آي ايه» ودكتور فان كليف مدير برنامج الدراسات الاستراتيجية والدفاعية في جامعة جنوب كاليفورنيا، وجون لهمان، عضو سابق بارز في مجلس الدفاع القومي، ولقد عمل معي اثنان من كلية الخريجين في هارفرد ومدرسة الأعمال في هارفرد وهما: هيوهويت وتود لفنثال، عملا لمدة أشهر في سبيل إخراج مشروع الكتاب وزوداني بما لا يحصى من الأبحاث المفيدة وساعداني على ضبط نص الكتاب، وقد ساعدني ريموند برايس الذي عمل رئيساً لمجموعة المشرفين على خطاباتي في البيت الأبيض، أثناء عملي في مشروع الكتاب، وكان بمثابة مساعد لي في ضبط نصه وتحريره، ولقد كان لتشجيعه ومشورته أثراً أساسياً في مساعدتي على إخراج نص الكتاب نهائياً.

ر.ن

❖ ❖ ❖